المسيرة الإسلامية

جيل الخلافة الراشدة

المجلد الأول

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

تأليف
د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

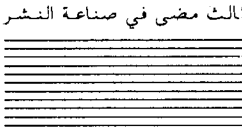
الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

الغضبان ، منير محمد .
المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤م .
مج ١ ؛ ٢٤ سم .
المحتويات ، أبو بكر الصديق .
٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٧ ٢٠٨ ٠
١ - الخلفاء الراشدون . ٢ - التاريخ الإسلامي .
٣ - أبو بكر الصديق ، عبد الله ابن أبي قحافة عثمان ابن عامر ، ٥٧٣ - ٦٣٤ .
أ - العنوان . ٩٥٣,٠٢٣

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية


ISBN: 978-977-717-208-0



للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

* إلى قادة دول المشرق العربي...

* إلى قادة الحركات الإسلامية...

* إلى قادة الحركات القومية...

* إلى دعاة الإصلاح الاجتماعي...

أُهدي هذا الكتاب ليقارنوا بين إنجاز مائة عام لأمتنا الآن، وإنجاز أمتنا في عامين في عهد الصديق رضي الله عنه.

* وإلى دعاة الإصلاح في العالم...

ليشهدوا أعظم المشاريع الإصلاحية الناجحة في العالم في أقصر زمن من التاريخ زمن الخلافة الراشدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه، وعلى آله وصحبه وسلم

بين يدي الكتاب

لقد عشنا مع سلسلة (المنهج التربوي للسيرة النبوية) وشهدنا فيها كيف تربت هذه الأمة ممثلة في السابقين الأولين من هذه الأمة.

والذي نود أن نشهده في هذه (السلسلة الجديدة) هو كيف تحرك هذا الجيل بهذا الدين إلى أقصى المعمورة. يغيِّر تركيب البشرية من الظلمات إلى النور، البشرية كلها بكل أقوامها وأجناسها، ويتمثل بها صورة حزب اللّه في الأرض، إننا نشهد هنا التطبيق العملي للتربية النبوية واقعًا يتحرك على الأرض، ونشهد ثمرة هذه التربية تُونعُ عدلًا وكرامة وحياة رغيدة في هذا الوجود.

نشهد قول ربعي بن عامر ﷺ يتمثل واقعًا حيًّا عند الأمم والشعوب:

« إن اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، وَمِنْ جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ».

ثلاثون عامًا من عمر البشرية هي عصر الخلافة الراشدة التي تمثِّل أفقًا وضيئًا ترنو البشرية له، وتحلم بالوصول إليه، مَثَّلَتْ قمة البشرية عدلًا ورحمة للعالمين.

لقد رسم رسول اللّه ﷺ خط هذا العهد العظيم حين قال: « **الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكًا** » (١).

وقال: « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ** » (٢).

وشهد تاريخ الأعداء ومؤرخو العالم بأن هذه المرحلة هي أهدى مراحل البشرية على الإطلاق، كما قال (ولز) في كتابه تاريخ الإنسانية: (فقد أصبحت بلاد العرب فجأة بستانًا من رجال ممتازين يبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء...).

---

(١) ابن حبان، ح (٦٩٤٣).　(٢) ابن ماجه، ح (٤٢).

(... وكانوا في كلِّ مكان يخيرون الناس بين أشياء ثلاثة: فإما أن تَدْفَعَ الجزية، وإما أن تُسْلِمَ للَّه بالحق وتنضم إلينا، وإما أن تُقَاتَلَ) (١).

ويقول (غوستاف لوبون):

(وكان الخلفاء الأولون وهم: أبو بكر (٦٣٢ - ٦٣٤م)، وَعُمَرُ (٦٣٤ - ٦٤٤م)، وعثمان (٦٤٤ - ٦٥٥م)، وعلي (٦٥٥ - ٦٦٠م) من صحابة محمد، وقد اقتدى هؤلاء الخلفاء بمحمد في زُهْدِهِ وبسيط عاداته، فلم يترك أبو بكر حين وفاته غير ثوبه الذي كان يلبسه وَبَعِيْرِه الذي كان يركبه، ومولاه الذي كان يخدمه، ولم يأخذ من بيت المال في حياته سوى خمسة دراهم مياومة ليعيش فيها، وكان عُمَرُ يلبس ثوبًا مرقعًا، وينام على درج المساكين مع اقتسامه هو وجنوده مغانم كثيرة. ولم ينتقل العرب من النظام الديمقراطي إلى النظام الملكي بالتدريج، وكانت المساواة تامة في عهد الخلفاء الراشدين، وكانت الشريعة للجميع على السواء، فَمَثل عليّ بين يدي القاضي لمقاضاة من اعتقد أنه سارق سلاحه..، وأتى ملك غسان وقومه الذين اعتنقوا الإسلام مكة للاجتماع بعمر، وَلَطَمَ عربيًّا وطئ إزاره، واشتكى العربي إلى عمر، ورأى عمر العمل بما تأمر به الشريعة من إقامة الحد، فقال الملك: كيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر: إن الإسلام جمعكما وَسَوَّى بين الملك والسوقة في الحد) (٢).

لقد كان المسلمون عقب وفاة رسول اللَّه ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها:

(لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال: لِيَتِمَّ بَعْثُ أسامة. وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، وَنَجَمَ النِّفَاقُ، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية؛ لفقد نبيهم ﷺ، وقلتهم، وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرِّق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول اللَّه ﷺ، ولو لم يَبْقَ في القرى غيري لأُنْفِذَنَّهُ).

---

(١) تاريخ الإنسانية، لولز (٣/٦٤٥).

(٢) حضارة العرب، للوبون (ص ١٣٧).

فإذن قد كان وضع العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ أَسْوَأَ بكثير مما كان وَضْعُ العرب عليه في مطلع القرن العشرين الميلادي، وذلك بعد ثورة الشريف حسين ضد الأتراك عام (١٩١٦م).

وها قد مر قرابة مائة عام، ولا يزال المشروع العربي الإصلاحي يتراوح في نقطة الصفر، من حيث وحدة كلمة الأمة، ومن حيث سيادة العدل والحرية والشريعة فيها، مائة عام مضت هباءً وعبثًا، أقصى ما حققناه فيها إخراج المحتل من أرضنا لنعيد استعباد أنفسنا بأسوأ مما كان العدو يستعبدنا.

مر علينا مائة عام ودول العرب التي كانت سبعة أصبحت أربعًا وعشرين دولة، وعجزنا أن نحقق الوحدة التي وضعناها أَمَلَنَا منذ بداية هذا القرن (العشرين).

عام واحد أو اثنان بين المشروع الصهيوني الذي ابتدأ بوعد لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين والمعروف بوعد بلفور عام (١٩١٤م) والذي تحقق عام (١٩٤٨م) دولة على أرض الواقع، وها هم بعد خمسين عامًا تعلن دول العرب كلها استعدادها للاعتراف بهذه الدولة، إذن يمكن القول أن المشروع الصهيوني قد تحقق بحذافيره خلال مائة عام، أما المشروع العربيُّ - إذا تركنا الحديث عن الوحدة العربية التي لم تَرَ النور للحديث عن مقاومة المشروع الصهيوني ورفضه - **فما هي نتائج هذا المشروع خلال مائة عام؟**

- أربعون عامًا هُزِمْنَا في نهايتها، وقامت دولة إسرائيل على أرض فلسطين عام (١٩٤٨م) واعترف بها العالم.

- ثم عشرون عامًا (١٩٤٨ - ١٩٦٧م) من الإصرار على رفض الاعتراف، والإصرار على رميها في البحر.

- ثم أربعون عامًا (١٩٦٧ - ٢٠٠٧م) نطالب بانسحاب إسرائيل من الأراضي الجديدة التي احتلتها بعد عام (١٩٦٧م).

وها هو المشروع العربي يعلن في مؤتمر القمة المنعقد في الرياض عام (٢٠٠٧م) استعداده للاعتراف الكامل مقابل الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة. إذن عدنا كذلك إلى نقطة الصفر.

نذكر حصيلة مائة عام من عمر الأمة، بينما نرى حصيلة عامين من تاريخ الزمن أنهت ردة العرب كلها، وحررت العراق والشام من الاحتلال البيزنطي والفارسي، وحررت الشرق العربي وأقامت فيه أعظم دولة تُسَاسُ بشرع اللَّه، وتساس بالعدل الذي لم يتكرر مثيله في التاريخ، وحررت الفلاحين من الظلم الذي لَحِقَهم منذ مئات القرون، وأعادت لهم ملكية الأرض التي يعملون بها، ووحدت العرب في دولة واحدة.

ونتساءل بدورنا: كيف تمت هذه المعجزة في تاريخ الأمم؟

أليسوا بشرًا مثلنا؟ بلى، لكنهم تربوا على يدي النبي ﷺ، وتكوَّن منهم جيل رائد لا مثيل له في تاريخ البشرية استطاع أن يحقق هذه الإنجازات في هذه الفترة القصيرة من الزمن.

ويمكن القول: إن هذه الإنجازات العظيمة الضخمة التي تمت إنما حققها جيل كامل، وليس مجرد أفراد أو قيادات فقط؛ ولهذا ليست هذه السلسلة تاريخًا للخلفاء الراشدين كما تمضي كل الكتب في عصر هذه الفترة، إنما هي تاريخ للجيل كله من الصحابة والتابعين، جيل الصحابة الذي تربى على يد النبوة، وتربى بكتاب اللَّه، وبدرجات متفاوتة، ثم قام هذا الجيل بتربية جيل التابعين على المنهج نفسه.

ما هي عناصر النجاح الفائق الرئيسة لهذا الجيل والتي علينا أن نبحث عنها لنحقق قريبًا من تلك الإنجازات؟

أولًا: الدين الذي أكرم اللَّه تعالى به هذه الأمة مُمَثَّلًا بكتاب اللَّه ﷻ، وسُنة رسول اللَّه ﷺ.

ثانيًا: الجيل الذي تربى على هذا الدين على يد إمام المربين في الوجود، وقام بدوره بتربية جيل التابعين.

ثالثًا: القيادات الكبرى المتنوعة الغنية، وهذا من طبيعة التربية النبوية، فهي لم تربِّ مجموعة أفراد فقط، إنما ربت أمة كاملة، وقيادات كثيرة منوَّعة، غنيّة في شتى مجالات الحياة.

رابعًا: العبقريات العربية التي استطاع هذا الدين أن يوظفها في مجالها الصحيح، فيفجر كل الطاقات، وينمي كل مجالات الإبداع عند المبدعين في الأمة.

خامسًا: البيئة القيادية التي توفَّرت لتنمية هذه الطاقات، ووضعها في مكانها المناسب.

ونستطيع أن نبرز ثلاثة نماذج شهدت بها قيادات العدو تظهر أثر هذه العناصر في تحقيق هذا النصر المؤزر في التاريخ:

- النموذج الأول:

(كان على الروم رجل منهم يقال له: القبقلار، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم... ولما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلًا عربيًّا... فقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم. فدخل في الناس (رجل عربي) لا يُنْكَرُ، فأقام فيهم يومًا وليلة، ثم أتاه، فقال له: ما وراءك؟ قال:

- بالليل رهبان، وبالنهار فرسان.

- ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِمَ؛ لإقامة الحق فيهم.

فقال له: لئن كنت صدقتني لَبَطْنُ الأرض خير لي من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظِّي من اللَّه أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم عَلَيَّ...) [(١)].

فإذن؛ هم جيل عابد مجاهد، يَسُوسُهُم حكامهم بالعدل.

وهذا هو سر نجاحهم وسبب انتصاراتهم.

- النموذج الثاني:

(... قالوا: لما اجتمع المسلمون بالفراض حميت الروم، واغتاظت، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا، واستمدوا تغلب وإياد والنمر، فأمدوهم، ثم ناهدوا خالدًا، حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم. قال خالد: بل اعبروا إلينا. قالوا: فَتَنَحُّوا حتى نعبر. فقال خالد: لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا. وذلك للنصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة، فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض:

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٧/٢).

- احتسبوا مُلْكَكُم.

- هذا رجل يقاتل عن دين.

- وله عقل.

- وعلم.

- ووالله، (ليُنصرن ولتُخذلن) [١].

فالعناصر الثلاثة للنصر هنا:

الدين: رجل يقاتل عن دين.

العبقرية القيادية: وله عقل.

الخبرة العميقة: وعلم.

- **النموذج الثالث:**

... وخرج جرجة (قائد جيش الروم) حتى كان بين الصفين، ونادى: ليخرج إليّ خالد. فخرج إليه خالد... فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دوابهما، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة:

يا خالد، أُصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تَسُلُّهُ على قوم إلا هزمتهم؟

قال: لا. قال: فَبِمَ سُمِّيْتِ سيف الله؟ قال:

- إن الله بعث فينا نبيه ﷺ، فدعانا، فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنتُ فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، فتابعناه، فقال: « **أنت سيف من سيوف الله على المشركين** ». ودعا لي بالنصر فَسُمِّيتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين...) [٢].

فخالد رضي الله عنه هنا يعيد النصر العظيم الذي تحقق على الأمم الثلاثة؛ العرب والفرس والروم إلى عنصر الدين، باعتباره أهم العناصر الخمسة السابقة.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٢٨/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣٣٧/٢).

وهنا لا بد أن نشير إلى أن المشروع العربي في القرن الماضي قد استبعد الدين، ورفضه، واعتبره من عناصر التفرقة الطائفية في الأمة، وذلك كما ذكر دعاة القومية العربية، والذين قادوا الصراع ضد الصهيونية، وخاضوا الحرب ضد إسرائيل، وتحكموا بمصير الأمة خلال القرن الفائت.

بعد هذه المقدمة أنسحب لأترك للقارئ الكريم أن يشهد أعظم إنجازات التاريخ في الحلقة الأولى من سلسلة (المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة) وهي تتمة السلسلة السابقة (المنهج التربوي للسيرة النبوية) فهي ثمرة تلك السلسلة، والتطبيق العملي لها، راجيًا اللَّه تعالى أن يجعلها نورًا يضيء للسالكين من أمتنا دروب الهدى وهو ولي ذلك والمعين عليه.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

د. مُنِير مُحَمَّد الغَضبَان

الفصل الأول

معالم المنهج

نحن في نقطة انعطاف تاريخية كاملة، هذا الانعطاف هو الانتقال من دولة النبوة إلى دولة الخلافة الراشدة، وقد شهدنا المَعْلَم الأول في هذا الانعطاف في تبنِّي الأمة المسلمة لاختيار الحاكم عن طريق الشورى، وتم الأمر بعد مداولات موسعة بين زعماء الأحزاب، وكانت البيعة الخاصة منهم، ثم كانت البيعة العامة من الأفراد لأميرهم الجديد كما هي الحال في الدولة التعاقدية:

السمع والطاعة على كتاب اللَّه وسنة رسوله.

فدستور الدولة هو الإسلام المتمثل بكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، وليست البيعة عامة للشخص القائد: بالروح بالدم نفديك يا صِدِّيق!! لم يكن الأمر كذلك، إنما كانت البيعة للإسلام، ومهمة الأمير أن يقوم بتنفيذ تعاليمه، ولا قدسية للشخص إلا بمقدار ما ينفذ الدستور الذي اختارته الأمة دينًا لها، وحين ينحرف عن التنفيذ، فلا طاعة له، فهي دولة دستورية، ودولة تعاقدية، ودولة شورية، ودولة إسلامية، نابعة من الاختيار النزيه الحر.

عمر رضي الله عنه يقدم أبا بكر:

قال ابن جرير: (وحدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن الزهري قال: حدثنا أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

أيها الناس إني كنت قلت لكم مقالة بالأمس ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب اللَّه، ولا كانت عهدًا عهده إليّ رسول اللَّه ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول اللَّه ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن اللَّه أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول اللَّه، فإن اعتصمتم به هداكم اللَّه لما كان هداه له، وإن اللَّه قد جمع أمركم على خيركم، صاحبِ رسول اللَّه، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا. فبايع

الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة) (١).

لقد كان موقف عمر قبل أقل من يوم يهدد من يزعم وفاة رسول الله ﷺ، ويرى أن هذه الإشاعة من فعل المنافقين، وقد خطب الناس فقال لهم:

(إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليَرجعنّ رسول الله فليَقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات) (٢).

وليس عمر رضي الله عنه بالشخص العادي، إنما هو الشخص الثاني في الدولة بعد أبي بكر، فقد كانا وزيري رسول الله ﷺ الأولين، وبلغ من مقامهما عنده ﷺ أن قال لهما: « **لو أنكما تتفقان على أمر واحد ما عصيتكما في مشورة أبدًا** » (٣).

ومع أن المسلمين أخذوا برأي أبي بكر رضي الله عنه، لكن الخلاف في الرأي لم يُحْسَمْ بعد.

(ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: على رَسْلِكَ يا عمر فأنصت. فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس: إنه كان من يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ... ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر الآية. قال: فوالله، لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ.

قال: وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: والله، ما أن سمعت أن أبا بكر يتلوها فقصرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله قد مات) (٤).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/٢٣٧)، والرواية موثقة تاريخيًا.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/٣٥٢)، وقال ابن حجر: بسند لا بأس به.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٢٢٣).

لكن الناس جميعًا لم يعرفوا تغيُّر رأي عمر، ورسول اللّه ﷺ مسجًّى في بيته لم يدفن بعد. واختلاف أبي بكر وعمر قد يقود إلى انشقاق في الصف الإسلامي للموقع القيادي لكل منهما، فهو ليس لخلاف عامة الناس.

كان بإمكان عمر رضي الله عنه أن يتجاهل الأمر في اليوم الثاني، ومن خلال تأييده لأبي بكر وخلافته يَفْقَهُ الناس تراجعه عن رأيه، فلا يمكن أن يُقَدِّمَ أبا بكر للخلافة ورسول اللّه ﷺ حي، لكن عظمة هذه النماذج، والتي سنشهد منذ هذه اللحظة عظمة التربية النبوية لها، وقد غادرها رسول اللّه ﷺ، تأبى إلا أن تعلن خطأها على الملأ، وتعتذر عنه، دون حرج أو مساسٍ من صعوبة التراجع، والاعتراف بالخطأ على الملأ - مِنْ أكبر القادة بعد الصديق رضي الله عنه.

كان أول ما قاله:

(أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم مقالة بالأمس ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب اللّه، ولا كانت عهدًا عهده إليّ رسول اللّه ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول اللّه سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا).

فهذا هو الذي دعاه لموقفه بالأمس، ويشرح هذا الموقف في مكان آخر، وفي حديث خاص بينه وبين ابن عباس:

(... قال: هل تدري ما حملَني على مقَالتي هذه التي قلْتُ حين تُوفِّى اللّه رسوله؟ قال ابن عباس: لا أدري يا أمير المؤمنين، أنت أعلم. قال: واللّه، إن حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] فواللّه، إني كنت لأظن أن رسول اللّه ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه لَلَّذي حملني على أن قلت ما قلت) [١].

وبعد إعلانه تراجعه عن رأيه أمس أمام المسلمين، واعترافه بوفاة رسول اللّه ﷺ، تابع قوله:

(وإن اللّه قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول اللّه، فإن اعتصمتم به هداكم اللّه لما كان هداه له).

---

(١) الطبري (٢/٢٣٨).

وبعد رسول اللَّه ﷺ ووفاته فلا قدسية لأحد، والدستور للمسلمين هو كتاب اللَّه، وهو الواجب للاتباع. وبعد تحديد دستور الأمة وانتفاء أي ذرة من ذرات الشرك والوثنية، والتي أجمع عليها الوزيران العظيمان أبو بكر وعمر، والمسلمون من ورائهما، أعلن عمر ﷺ عن بيعة الصديق الخاصة التي تمت في السقيفة، والمسلمون تبع لأولي رأيهم في بيعة خليفتهم. قال ﷺ: (وإن اللَّه قد جمع أمركم على خيركم... صاحب رسول اللَّه ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا. فبايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة) (١).

بيعة القيادات:

ومن مفاخر هذا التاريخ أن يكون المنافسُ الأول للصديق في الخلافة عُمَرُ بن الخطاب هو الذي يقود حملة البيعة لمنافسه أبي بكر وهو الذي يدعو الناس لمبايعته.

ولا بدّ لنا أن نُدركَ هذه المستويات العظيمة لهذه الأمة، وقد انتقل نبيها إلى الرفيق الأعلى، ونشهد عظمة التربية النبوية في كل خطوة من خطواتها، والتي لا نرى لها مثيلًا في أمم الأرض.

إنها الخلافة على عهد النبوة، كما حددها رسول اللَّه ﷺ، فهي امتداد للعهد النبوي: (**تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون ثم يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها**) (٢).

بيعة علي ﷺ:

قال ابن جرير: (حدثنا عبيد اللَّه بن سعد قال: أخبرني عمي يعقوب بن إبراهيم قال: أخبرني سيف عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت قال:

كان عَلِيٌّ في بيته إذ أتي قيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة. فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عَجِلًا كراهية أن يبْطِئ عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله ولزم مجلسه) (٣).

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٣٧).

(٢) أحمد، ح (١٨٢٠٩)، وإسناده حسن.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٣٦).

ويؤكد بيعة القيادات الإسلامية كلها لأبي بكر ﷺ حديث سعيد بن زيد ﷺ الذي رواه الطبري:

(حدثنا عبيد اللَّه بن سعيد الزهري قال: أخبرني عمي يعقوب بن إبراهيم، قال: أخبرني سيف بن عمر عن الوليد بن عبد اللَّه بن أبي ظبية البجلي قال: حدثنا الوليد بن جميع الزهري قال: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد:

أَشَهِدْتَ وفاة رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر؟ قال:

يوم مات رسول اللَّه ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة.

قال: فَخَالَفَ عليه أحد؟ قال: لا، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد لولا أن اللَّه ﷻ أنقذ من الأنصار [فجمعهم عليه]. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم) [1].

أما الرواية التي ساقها البخاري عن تخلف علي ﷺ عن البيعة سنة أو شهرًا، فهي رأي للزهري.

وقولُ سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة مقدَّمٌ على قوله، والمثبت حجة على النافي لوصول العلم له وعدم وصوله للنافي.

ولدينا رواية أخرى صحيحة تؤكد هذا المعنى: (... ثم انطلقوا، فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم يرَ عليًا فسأل عنه فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر: ابن عم رسول اللَّه ﷺ وَخَتَنُه أردتَ أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول اللَّه، فبايعه، ثم لم يرَ الزبير بن العوام فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمة رسول اللَّه ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول اللَّه. فَبَايَعَاه) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٣٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٧٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في السيرة (٤/٤٩٥): هذا إسناد صحيح محفوظ من حديث أبي نضرة المنذر ابن مالك عن أبي سعيد الخدري ومن طريقه أخرجه البيهقي وقال: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث فأثبته في رقعة وقرأته عليه فقال: هذا حديث يسوي بدنة فقلت: يسوي بدنة؟! بل يسوي بدرة. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، إبراهيم العلي (ص ٥٧٨).

ورغم أن المشهور في رواية أبي مخنف في الطبري أن سعد بن عبادة سيد الأنصار لم يبايع فينقضه رواية الطبري هذه:

(حدثنا زكريا بن يحيى الضرير، قال: حدثنا أبو عوانة، قال: حدثنا داود ابن عبد اللَّه الأودي عن حميد بن عبد الرحمن الحميري قال: توفي رسول اللَّه وأبو بكر في طائفة من المدينة... إذ جاء رجل يسعى فقال: هاتيك الأنصار قد اجتمعت في ظلة بني ساعدة يبايعون رجلًا منهم يقولون: منا أمير ومن قريش أمير. قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتقاودان حتى أتياهم، فأراد عمر أن يتكلم فنهاه أبو بكر فقال: لا أعصي خليفة النبي ﷺ في يوم مرتين.

قال: فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئًا نزل في الأنصار ولا ذكره رسول اللَّه ﷺ في شأنهم إلا ذكره، وقال: لقد علمتم أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكتُ وادي الأنصار** »، ولقد علمت يا سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال وأنت قاعد: « **قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرُّ الناس تَبَعٌ لِبَرِّهم، وفاجرهم تَبَعٌ لفاجرهم** ». قال: فقال سعد: صدقتَ فنحن الوزراء وأنتم الأمراء.

فقال عمر: ابسط يدك يا أبا بكر فلأبايعك. فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر فأنت أقوى لها مني. قال: وكان عمر أشد الرجلين، وكان كل واحد منهما يريد صاحبه يفتح يده يضرب عليها، ففتح عمر يد أبي بكر وقال: إن لك قُوَّتي مع قُوَّتِكَ...) [1].

فقد اعترف سعد - رضوان اللَّه عليه - وصدَّق مقالة أبي بكر، واقتنع بأن الأنصار هم الوزراء في دولة الإسلام وأن الإمرة للمهاجرين كما قال النبي عليه الصلاة والسلام.

خطبة الخلافة:

(ثم تكلم أبو بكر فحمد اللَّه وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال:

أما بعد، أيها الناس فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولسْتُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء اللَّه، والقوي منكم الضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء اللَّه، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل اللَّه، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم اللَّه

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٣٤)، وقد رواه أحمد.

بالذل، ولا تشِيعُ الفاحشة في قوم إلا عمَّهم اللَّه بالبلاء، أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله، فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللَّه) [١].

وسنتناول هذه الخطبة بصفتها دستور الدولة الجديدة.

أ - التمهيد:

حمد اللَّه وأثنى عليه بالذي هو أهله.

نعلم خطب اليوم ودساتير الأمم حين نتعرف بالدول في أول كلمة لها بإعلان هوية الدولة وإعلان سيادتها ونظام حكمها وحدودها وعلمها.

ودولة الإسلام هذه تنطلق من الإسلام هوية ومرجعيَّةً، تنطلق من حمد اللَّه والثناء عليه بما هو أهله.

ب - الولاية من الشعب:

فالأمة قد اختارته بكل فئاتها وأحزابها، وليس هناك أي جهة فرضت هذه الولاية إلا الاختيار الحر.

جـ - الولاية لا تعني الأفضلية:

(ولست بخيركم).

فالذي يَحُوز الثقة هو الذي يُسْنَدُ إليه الحكم، وليس شرطًا أن يكون خير الناس وأفضلهم، فهذا عند اللَّه، ولا يعرفه إلا رب العالمين، إنما الذي يحوز الثقة هو الذي يستلم الولاية.

د - تقديم العون للحاكم المحسن:

(إن أحسنت فأعينوني).

وكل طاقات الشعب يجب أن تعين الحاكم على تنفيذ مشاريع الخير، فالحاكم بمفرده لا يستطيع أن يفعل شيئًا مهما كان عبقريًّا، إنما يصنع ذلك بشعبه، وليس هو النبي المستغني عن آراء الناس بالوحي، إنه يستمد قوته من شعبه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٣٧)، وقد أخرجها عبد الرزاق في المصنف وسندها صحيح، وصححها ابن كثير في السيرة (٤/٤٩٢)، السيرة النبوية الصحيحة (ص ٥٧٧).

هـ - محاسبة الحاكم:

(وإن أسأت فقوموني).

فليس هناك حاكم فوق المحاسبة، وفوق النقد، وفوق التجريح، فبعد رسول الله ﷺ واصطفائه من الله ﷻ: تأتي بشرية الحاكم المسدد من الشعب لا من الله، بحيث يدعي أنه الملْهَم، وأنه العبقري، وأنه من روح الله وتعيين الله، أو دم الآلهة المقدسة، فلا قدسية بعد رسول الله ﷺ في هذه الأمة لأحد، ولا خصوصية لأحد، وإذا كانت المحاسبة في الدول الديمقراطية لمجلس الشعب، ففي دولة الإسلام تقوم المحاسبة، وحق المحاسبة للشعب كله.

و - الصدق أمانة، والكذب خيانة:

فلا تعني السياسة الكذب ولا يباح باسم السياسة، الصدق هو الأمانة المتبادلة بين الفريقين، وللصدق القيمة العليا في السياسة الإسلامية، حيث يَصْدُقُ الحاكم مع شعبه، ويصارحه بالحقيقة، ويدع المزايدات والدجل عن الإنجازات الوهمية، ويغش شعبه بها. كما يتعامل الشعب مع حاكمه بالصدق نفسه، والصراحة نفسها، فالصدق والكذب ضدان لا يجتمعان كما لا تجتمع الأمانة والخيانة، وإن أميرًا يكون أَهَمُّ ما يُرَبِّي عليه شعبه هو الصدق هو دليل على أننا لا نزال على منهاج النبوة، فالحاكم ليس قائدًا سياسيًّا فحسب، بل مربٍّ كبير يتابع مسؤولية الهداية المنبثقة من النبوة.

ز - العدل:

(والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله). فالقوة للحق، وليست للنسب أو المال أو الجاه أو العشيرة، والباطل هو الضعيف المحارب في دولة الإيمان، مهما كان وراءه من عصبية أو زعامة أو عشيرة أو عزة بالإثم.

وإذا كانت التربية الخلقية ليست مسؤولية الحاكم في الدولة المعاصرة، لكنها في دولة الإسلام هي المسؤولية المباشرة، لكن العدل هو الميزان الحساس عند كل دولة، جاهلية كانت أو مسلمة، فحيثما كان العدل فَثَمّ شرع الله ودينه، والظلم ظلمات يوم القيامة.

إنه المنهج النبوي الذي حدده المصطفى ﷺ بقوله: « **إنما أهلك الذين من قبلكم**

أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » [١].

حـ - الجهاد:

(لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل اللّٰه، فإنه لا يدعه القوم إلا ضربهم اللّٰه بالذل).

لقد انتهت الجاهلية بثاراتها وحروبها التي تقوم على العصبية العمية الجاهلية، وعلى الحمية، وأحل اللّٰه محلها لهذه الأمة الجهاد في سبيل اللّٰه في مصطلح جديد، ومنطلق جديد، تم بناؤه خلال العهد المدني من خلال كتاب اللّٰه تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وهو مهمة وواجب فردي على كل قادرٍ على حمل السلاح، وترك الجهاد يعني إحلال الذل بالأمة مكان العزة، هو مسؤولية فردية من جهة، ومسؤولية جماعية من جهة أخرى، تقوم الدولة بترتيبه وتنظيمه، وتعيين قادته، وحين تتخلى الدولة عن الجهاد في سبيل اللّٰه، فليس أمامها إلا الخسران المبين، والإفساد في الأرض ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢].

ط - حرب الفاحشة:

(ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم اللّٰه بالبلاء).

هذه الفاحشة التي تعتبر عند أمم الأرض من الحرية الشخصية التي إذا اتفق عليها الطرفان فلا دخل لأحد فيها وليس فيها عنصر الجريمة، وليس فيها اعتداء من طرف على طرف، هذه الحرية الشخصية هي في عرف الإسلام زنا، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]. إنه خرق للعلاقة الحق بين الطرفين وهي الزواج واعتداء على حرمة اللّٰه ورسوله، وانتشار الفاحشة يعني انتشار البلاء، والأمراض التي لم تكن معهودة في الأمم من قبلهم، ولا شيء أدل على هذا الوضع من وضع المجتمعات البائسة اليوم، والأمراض التي حلت بها حتى أنهكتها.

ي - السيادة للشرع:

وليست لحزب ولا لفئة ولا لأمة، والحاكمون مسؤولون عن تنفيذ شريعة اللّٰه في

---

(١) البخاري ح (٣٢٨٨).

الأرض، فالسمع والطاعة للَّه ورسوله ولأولي الأمر، وعند الاختلاف بين الشعب والحاكم فالمرجعية للَّه ولرسوله.

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ك - الخروج على الحاكم وعصيانه:

وذلك إذا عصى اللَّه ورسوله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أحد عشر مبدأً أعلنها الصديق في خطبة خلافته في دقائق قليلة، وانتهى وقت الكلام، وبدأ العمل.

تجهيز رسول اللَّه ﷺ ودفنه

اليوم الأول بعد البيعة:

أ - غُسْلُهُ ﷺ:

من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: واللَّه ما ندري أنجرّد رسول اللَّه ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا؟ أم نُغَسِّلُهُ وعليه ثيابه. فلما اختلفوا ألقى اللَّه عز وجل عليهم النوم حتى ما فيهم من رجل إلا وذقنه إلى صدره، ثم كلمهم مُكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول اللَّه ﷺ فغسّلوه وعليه قميصه، يصبُّون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه) (١).

ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (غسلت رسول اللَّه ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أرَ شيئًا. وكان طيبًا ﷺ حيًا وميتًا، وَلِيَ دفنه وإجنانه دون الناس أربعة: علي والعباس والفضل وصالح مولى رسول اللَّه ﷺ، ولُـحِّدَ رسول اللَّه ﷺ

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما واللفظ لأبي داود، ح (٣١٤١) في الجنائز، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي وابن حبان. صحيح السيرة النبوية، الألباني (ص ٥٧٨، ٥٧٩).

لحدًا، ونُصِبَ عليه اللبِنُ نصبًا) (١).

ونشهد تفصيل ذلك في رواية ابن إسحاق والطبري عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما .

قال ابن إسحاق:

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء، فحدثني عبد اللّه بن أبي بكر وحسين بن عبد اللّه وغيرهما من أصحابنا:

(أن علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة ابن زيد وشقران مولى رسول اللّه ﷺ هم الذين وُلُّوا غسله، وأن أوس بن خولي أحد بني عوف بن الخزرج قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك اللّه يا علي وحظنا من رسول اللّه ﷺ؟ - وكان أوس من أصحاب رسول اللّه ﷺ وأهل بدر - قال: ادخل. فدخل، فجلس. وحضر غسل رسول اللّه ﷺ...) (٢).

ولعلنا نشهد هذا الغسل كما رواه ابن عباس رضي الله عنهما :

(... فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله، قد أسنده إلى صدره، وعليه قميص يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول اللّه ﷺ وعلي يقول:

بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيًّا وميتًا!

ولم يرَ من رسول اللّه ﷺ شيء مما يرى من الميت) (٣).

ب - تكفينه ﷺ:

قال ابن إسحاق:

(فلما فُرِغَ من غسل رسول اللّه ﷺ كفن في ثلاثة أثواب، ثوبين صحاريين (٤) وبرد حبرة، أُدرج (٥) فيه إدراجًا، كما حدثني جعفر بن محمد بن علي بن الحسين

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٦٢)، والبيهقي (٤/٥٣)، وإسناده صحيح، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي. صحيح السيرة النبوية، الألباني (ص ٥٨٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٤٢).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢/٢٣٢).

(٤) صحاريين: نسبة إلى صحار وهي مدينة في اليمن كما في لسان العرب.

(٥) أدرج: أدخل.

عن أبيه عن جده علي بن الحسين والزهري عن علي بن الحسين) [(١)].

ومن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كُفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية [(٢)] من كرسف [(٣)] ليس فيها قميص ولا عمامة، أما الحلة فإنما شُبِّهَ على الناس فيها أنها اشتريت له ليكفن فيها فتركت الحلة [(٤)]... فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أُكَفِّن فيها نفسي. ثم قال: لو رضيها الله ﷻ لنبيه لكفنه فيها. فباعها وتتصدق بثمنها) [(٥)].

جـ - قبر رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال:

(لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يَضرَح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة، فكان يلحد، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح. وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة، اللَّهمَّ خِرْ لرسول الله ﷺ. فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحد لرسول الله ﷺ) [(٦)].

د - الخلاف على دفنه:

(فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وُضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه فقال قائل: ندفنه في مسجده. وقال قائل: ندفنه مع أصحابه. فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض** »، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحفر له تحته...) [(٧)].

هـ - الصلاة على رسول الله ﷺ:

(ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلُّون عليه أَرْسالًا [(٨)]، دخل الرجال حتى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٣/٢/٢).

(٢) سحولية: ثياب بيض نقية لا تكون إلا من القطن.

(٣) الكرسف: القطن. (٤) الحلة: الثوب الجيد الجديد.

(٥) البخاري في الجنائز ومسلم وغيرهما، ح (١٢٦٤).

(٦ ، ٧) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٣/٤).

(٨) أرسالًا: جماعة بعد جماعة.

إذا فرغوا أُدخِل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخِل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول اللّه ﷺ أحد) (١).

و – دفنه ﷺ:

(ثم دفن رسول اللّه ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد اللّه بن أبي بكر عن امرأته فاطمة بنت عمارة عن... عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما علمنا بدفن رسول اللّه ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ليلة الأربعاء) (٢).

وكان الذين نزلوا قبر رسول اللّه ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم ابن عباس، وشقران مولى رسول اللّه ﷺ، وقد قال أوس بن خولي لعلي بن أبي طالب: يا علي، أنشدك اللّه وحظنا من رسول اللّه ﷺ. قال: انزل. فنزل مع القوم) (٣).

ويصف حسان رضي الله عنه المسلمين وقد غاب عنهم رسول اللّه ﷺ بقوله:

(لقد غيّبوا حلمًا وعلمًا ورحمة … عشيّة عَلَّوه الثرى لا يُوسَّدُ
وراحوا بحُزن ليس فيهم نبيُّهم … وقد وهَنَتْ منهم ظُهور وأعضُدُ
يبكون من تبكي السمواتُ يومه … وَمَنْ قد بكَـتْه الأرضُ فالناس أكمدُ
وهَلْ عدلَتْ يومًا رزِّيةُ هَالك … رزيـةُ يَـوَمَ مَـات فِيه مـحـمَّـدُ
تقطع فِيه منْزلُ الوحي عنهم … وقد كان ذا نُور يغورُ وينجدُ
أقولَ ولا يُلفَى لقولي عائب … من الناس إلا عازبُ القول مبعد
وليس هواي نازعًا عن ثنائه … لعلِّي به فِي جِنة الخلد أخلدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جِوَارَه … وفي نيْلِ ذاك اليومِ أَسعَى وأجهدُ) (٤)

اليوم الثالث: دعوة وخطبة:

روى الطبري عن عاصم بن عدي قال:

نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول اللّه ﷺ:

ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى العسكر

(١ – ٣) السيرة لابن هشام (٤/ ٢٣٤).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٦ – ٢٣٨).

بالجرف. وقام في الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال:

(يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول اللَّه ﷺ يطيق، إن اللَّه اصطفى محمدًا على العالمين وعصمه من الآفات وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زُغت فقوِّموني، وإن رسول اللَّه ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها.

ألا وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم...).

وسندع الحديث عن بعث أسامة للفقرة التالية، ونقف عند المعاني الكبرى التي أراد أبو بكر رضي الله عنه في عقده السياسي أن يوضحها للناس.

أ - هو خليفة ليس بنبي:

(إنما أنا مثلكم).

وانتهت كل قدسية للحاكم بهذه الكلمة، فهو منبثق من الأمة.

ولهذا لا يدعي العصمة، ولا يدعي الإلهام، ولا يدعي أن قوله الحق الذي لا يراجع، ولا يختصر الأمة بشخصه، ولأنه كذلك فلا يجوز حسبانه أنه نبي، وقياسه بالمصطفى ﷺ الذي يأتيه الوحي من السماء.

(إني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول اللَّه ﷺ يطيق).

إنه الحاكم الذي يشرط على الأمة كما تشرط عليه، بأن لا يطالب بما تطالب به الأنبياء؛ لأن النبي ﷺ قد مضى إلى ربه، والاصطفاء انتهى بوفاته عليه الصلاة والسلام.

(إن اللَّه اصطفى محمدًا على العالمين، وعصمه من الآفات).

إنه رضي الله عنه يخطُّ خطًّا جديدًا في الأمة، يحارب فيه الاستبداد ويجتثه من جذوره، فالمستبدون والطغاة في الأرض يؤلهون أنفسهم عند شعوبهم، وهم الملهمون، وهم المعصومون، ولا يمكن أن يذكروا إلا بالتمجيد والثناء، ويمثلون الفرعونية في الأرض: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] وكما قال الشاعر العظيم عن تعامل الشعوب مع طغاتها:

يُسَاقُ للسجْن إن سُبَّ المليكُ ... وإن سُبَّ الإلهُ فكلُّ الناس أحْرَار

إن الصديق يدرك رضي الله عنه أنه على رأس الأمة بعد رسولها المصطفى، وهو الذي ألغى

ابتداء ألوهية النبي وعبادته بقوله: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللّٰه فإن اللّٰه حي لا يموت). وها هو يلغي نبوة الخليفة، وبالتالي يلغي اصطفاءه وعصمته، فيقول: (إن اللّٰه اصطفى محمدًا على العالمين، وعصمه من الآفات، إنما أنا متبع ولست بمبتدع).

ويقوم على أساس هذا التقرير مبدأ المراقبة والمحاسبة للحاكم الأول ولخليفة رسول اللّٰه ﷺ.

(فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني).

فالأمة هي المسؤولة عن تقويم الحاكم ومحاسبته، والمسؤولية يقابلها مراقبة ومحاسبة، ووجوب الطاعة عند الاستقامة، ووجوب التقويم عند الزيغ.

ومع أن رسول اللّٰه ﷺ هو المصطفى المعصوم، فلم يمت حتى دعا الناس لأخذ مظالمهم منه إن كان لهم مظالم ولو كانت ذرات.. كلمة شتم أثناء غضب.. أو ضربة سوط بغير حق.. أو درهم أخذ من مسلم بغير حق:

(وإن رسول اللّٰه ﷺ قُبِض، وليس أحد من الناس يطلبه بمظلمة، ضربة سوطٍ فما دونها).

ب – الاعتراف بالخطأ والإقرار فيه على الملأ:

وها هو يعطي الأمة أعظم درس بعد درس إلغاء عصمة الحاكم، وهي خطوة ثانية متقدمة، درس الاعتراف بالحق، وإبراز النقيصة إن كانت موجودة، وذلك على الملأ من الأمة، وعلى المنبر النبوي.

يقول ﷺ: (ألا وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم).

فهو يطلب منهم عند حِدَّتِهِ وغضبه أن يتحيَّنوا فرصة زوال الغضب، حتى لا يقع في حرام، من كلمة حادة أو ضربة سوط غاضبة، وَيُعَلِّمُ الأمة بذلك أن لا تتعامل مع حاكمها بموقف التحدي والتصغير والإذلال له بمقدار ما تتعامل معه بإصلاح الاعوجاج، والرد عن الزيغ، فللسلطان حرمته، وإذلاله تجرئة للسفهاء والغوغاء على انتهاك هذه الحرمة، وزوال هيبة السلطان التي يزع بها الباطل.

إن اللَّه ليزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن.

إنه الدرس الثاني الأعظم في العلوم السياسية.

جـ - الحاكم مسؤول عن تربية الأمة:

سواءً بشخصه أم بمن ينوب عنه، وها هو يقوم بهذه التربية، فلا يعني وفاة رسول اللَّه ﷺ الحاكم من جهة، والهادي إلى الحق من جهة أخرى، أن وظيفة الهداية مضت مع وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، إنما بقيت المهمتان قائمتين: الحكم بالعدل، والتربية بالإسلام، وها هو يَعِظُ الأمة بقوله: (وأنتم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا باللَّه، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجد الجد، والوحا الوحا [1]، والنجاء النجاء فإن وراءكم طالبًا حثيثًا، أجَلًا مَرُّه سريع، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطوا به الأموات) [2].

* * *

الخطبة الثانية:

وكان له في اليوم الثالث خطبة أخرى وموعظة ثانية:

أ - الإخلاص:

وقام أيضًا فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

(إن اللَّه ﷻ لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وَجْهُهُ، فأريدوا اللَّه بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم للَّه من أعمالكم، فطاعة أتيتموها، وحظٌّ ظفرتم به، وضرائب أديتموها، وسَلَفٌ قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم).

ب - الاعتبار:

اعتبروا عباد اللَّه بمن مات منكم وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس؟ وأين

---

(١) الوحا: العجلة والإسراع.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٤٤، ٢٤٥)، عن السري عن شعيب عن سيف، وهو السند المأمون للطبري.

هم اليوم؟ أين الجبارون؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا رميمًا، قد تركت عليهم القالات؛ ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦].

جـ - أين؟ أين؟

وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونُسي ذكرهم، صاروا كلا شيء، ألا إن الله ألقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا غيرهم، وبقينا خَلَفًا بعدهم.

د - كيف الطريق والنهاية؟

فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم.

- أين الوُضَّاء الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟! صاروا ترابًا، وصاروا ما فرطوا فيه حسرة عليهم.

- أين الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزًا؟؟؟

- أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا فحلُّوا عليه، وأقاموا للشقاوة والسعادة فيما بعد الموت.

هـ - ألا إن الله لا شريك له:

ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سببٌ يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره.

و - واعلموا أنكم عبيد:

واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يُدْرَك إلا بطاعته.

أما إنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشرٍّ بعده الجنة) [(١)].

إنه أب الأمة بعد رسول الله ﷺ، ومربيها، وقائدها، فهو أقدم المسلمين صلة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٤٥).

بالحبيب المصطفى، ولم تطلع الشمس ولم تغرب بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر (١).

ز – الدعوة إلى الالتحاق بمعسكر أسامة:

سبق أن تحدثنا تفصيلًا عن بَعْث أسامة الذي قرره رسول اللَّه ﷺ قبل وفاته، وحدَّد زمانه ومكانه، وكاد أن يمضي إلى الشام لولا حضور أجل رسول اللَّه ﷺ.

ولهذا بعد أن انتهت مراسيم البيعة، وتم تجهيز رسول اللَّه ﷺ ودفنه، لا بد أن تعود الحياة إلى مجاريها، ولن تتوقف عامًا هو عام الحزن على وفاة رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام، لن تتوقف الحياة والحركة ساعة واحدة، حتى ولا ثلاثة أيام كما هي العادة في البروتوكولات الحديثة.

(توفي رسول اللَّه ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف المدينة، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقودًا حتى أُتي به باب رسول اللَّه ﷺ، فغرزه عنده.

فلما بويع لأبي بكر ﷺ أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة وأن لا يحُلَّهُ أبدًا حتى يغزوَهم أسامة.

قال بريدة: فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة، ثم خرجتُ به إلى الشام معقودًا مع أسامة ثم رجعت إلى بيت أسامة، فما زال في بيت أسامة حتى توفي أسامة) (٢).

ح – طوارئ جديدة تستدعي توقف الغزوة:

(فلما بلغ العرب وفاة رسول اللَّه ﷺ وارتد من ارتد عن الإسلام قال أبو بكر ﷺ لأسامة ﷺ: انفذ في وجهك الذي وجهك فيه رسول اللَّه. وأخذ الناس بالخروج وعسكروا في موقعهم الأول، وخرج بريدة باللواء حتى انتهى إلى معسكرهم الأول.

ط – اعتراضات على الخروج:

فشق ذلك على كبار المهاجرين الأولين، ودخل على أبي بكر عمر وعثمان وسعد

(١) نص حديث نبوي: « ما طلعت الشمس... »، فضائل الصحابة للإمام أحمد، ح (١٣٥٤).
(٢) مغازي الواقدي (٣/١١٢٠، ١١٢١).

ابن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، فقالوا: يا خليفة رسول اللّه، إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئًا، اجعلهم عدة لأهل الردة ترمي بهم في نحورهم، وأخرى، لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها وفيها الذراري والنساء، فلو استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه، وتعود الردة إلى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة حينئذ، فنحن نأمن الروم أن يزحفوا إلينا.

ي - إصرار أبي بكر ﷺ على بعث أسامة:

فلما استوعب أبو بكر ﷺ منهم كلامهم قال: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئًا؟

قالوا: لا، قد سمعت مقالتنا.

قال: والذي نفسي بيده، لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدأت بأول منه، ورسول اللّه ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفذوا جيش أسامة) [١].

ك - المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة:

وفي رواية الطبري: السري عن شعيب عن سيف عن هشام بن عروة بن الزبير عن عائشة رضوان اللّه عليها قالت:

(لما بويع أبو بكر ﷺ وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال: ليتم بعث أسامة. وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، وَنَجَمَ النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة السائبة لفقد نبيهم ﷺ، وقلتهم، وكثرة عدوهم، فقال له الناس:

إن هؤلاء جُلُّ المسلمين والعرب كما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرِّق جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول اللّه ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته) [٢].

---

(١) مغازي الواقدي (٣/١١٢٠، ١١٢١).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٤٤).

ل – مؤتمر المعارضة:

وفي رواية الطبري – بالسند السابق – عن الحسن البصري قال: ضرب رسول اللَّه ﷺ قبل وفاته بعثًا على أهل المدينة وَمَنْ حولهم، وفيهم عمر بن الخطاب، وأمَّرَ عليهم أسامة ابن زيد، فلم يجاوز آخرُهم الخندق حتى قُبِضَ رسول اللَّه ﷺ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر:

ارجِعْ إلى خليفة رسول اللَّه ﷺ فاسْتَأْذِنْهُ يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس وحَدَّهم، ولا آمن على خليفة رسول اللَّه ﷺ وثقل رسول اللَّه وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقالت الأنصار: فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولِّي رجلًا أقدم سنًّا من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر:

لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أَرُدَّ قضاءً قضاه رسول اللَّه ﷺ.

قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلًا أقدم سنًّا من أسامة.

فوثب أبو بكر وكان جالسًا، فأخذ بلحية عمر، فقال له:

ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول اللَّه ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟!! فخرج عمر إلى الناس، فقالوا له : ما صنعت؟

فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سببكم من خليفة رسول اللَّه) [1].

م – الجيش يمضي والخليفة يشيعه:

(ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيَّعهم، وهو ماشٍ وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر. فقال له أسامة: يا خليفة رسول اللَّه، واللَّه لتركبنّ أو لأنزلنّ. فقال:

واللَّه لا تنزل، وواللَّه لا أركب، وما عليَّ أن أغبِّر قدميَّ في سبيل اللَّه ساعة!! فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة... حتى إذا انتهى قال:

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٤٦).

إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل. فأذن له.

ثم قال: قفوا أيها الناس، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء، فاذكروا اسم اللَّه عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا رؤوسهم، وتركوا عليها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقًا.

اندفعوا باسم اللَّه، أفناكم اللَّه بالطعن والطاعون) (١).

ن - الوصية الخاصة للأمير:

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال:

(خرج أبو بكر إلى الجرف فاستقرى جيش أسامة وبعثه، وسأله عمر فأذن له، وقال له:

(اصنع ما أمرك به نبي اللَّه ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة، ثم إيت آبل، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول اللَّه ﷺ، ولا تعجلن لما خلَّفت من عهده.

فمضى أسامة مغذًّا على ذي المروة والوادي) (٢).

* * *

١ - لقد كان رأي القيادات العليا كلها أن يتوقف جيش أسامة عن الخروج للشام، فقد شهدنا رأي خمسة من مجلس الشورى الإسلامي وهم عمر وعثمان وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضوان اللَّه عليهم، وهم من الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ ومن العشرة المشهود لهم بالجنة، ورأي أسامة قائد الجيش مع هذا الرأي.

وكان رأي قيادات الأنصار مع هذا الرأي، بل يمكن القول: أن رأي أكثرية الأمة - وليس فقط أكثرية القيادات -، لا يرى تحرك جيش أسامة، وإخلاء المدينة من أعظم

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢٤٦/٢).

مقاتليها أمام احتمال العدوان السافر عليها.

فالروايتان عن عروة بن الزبير ﵄ تؤكدان أن المسلمين جميعًا كانوا مع هذا الرأي.

(... فقال له الناس: إن هؤلاء جلُّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين).

وفي الثانية: (... فاجتمع إليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقالوا: يا أبا بكر، رد هؤلاء لتوجه هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة).

٢ - وواجه الصديق ﵁ هذا التيار العام والتيار الخاص بموقف مختلفٍ تمامًا عن موقفهم، مما حدا بكثير ممن يكتبون التاريخ أن يسموه بالاستبداد ورفض آراء الأمة كلها والأخذ برأيه.

وهذا يعود حقيقة إلى قلة فقه الباحثين في هذا المجال؛ لأن النصوص الصحيحة تؤكد أن حوارًا تم بين أبي بكر ﵁ وبين قادة الأمة انتهى باقتناعهم برأيه.

والملاحظة الثانية: هي أن الصديق ﵁ انطلق في هذا الموقف ليس من باب الصواب والخطأ، إنما انطلق من أمر شرعي واجب التنفيذ وهو وصية رسول اللَّه ﷺ بإنفاذ جيش أسامة، حيث لا اجتهاد في مورد النص، وهذا واضح من جوابه للمسلمين كما في رواية أبي هريرة ﵁ حيث قال مقسمًا باللَّه:

(والذي لا إله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين ما رددت جيشًا وجهه رسول اللَّه، ولا حللت لواءً عقده رسول اللَّه).

وفي رواية عروة:

(والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول اللَّه ﷺ، ولو لم يَبْقَ في القرى غيري لأنفذته).

٣ - لقد تم التقيُّد بالأمر النبوي حتى في ناحية الشكل والمظهر، فاللواء الذي عقد بيد رسول اللَّه ﷺ انتهت المعركة ولم يُحَلَّ، وبقي في بيت أسامة ﵁ كما هو، كما يقول بريدة ﵁:

(فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة، ثم خرجت به إلى الشام

معقودًا مع أسامة، ثم رجعت به إلى بيت أسامة، فما زال في بيت أسامة حتى توفي أسامة).

٤ - والمنطلق نفسه في الائتمار بأمر رسول اللَّه ﷺ حين رفض تغيير أسامة القائد بقائد آخر، ورأينا مدى عنفه في جوابه لعمر مبعوث الأنصار في طلب التفسير.

فوثب أبو بكر وكان جالسًا وأخذ بلحية عمر فقال له:

(ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول اللَّه ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟!!).

فإذا كان لا يحل عقدة اللواء التي عقدها رسول اللَّه ﷺ بيده، فهل يعزل قائدًا ولاه رسول اللَّه ﷺ على جيشه؟!

٥ - وإنها واللَّه لصورة من صور العظمة لهذه الأمة أن يمضي جيش من المدينة إلى الشام من القيادات العليا فيها، فكل قيادات الأنصار والمهاجرين مشاركة فيه، أن يمضي هذا الجيش، وعلى رأسه هذا الغلام القصير الأسود المولى أسامة بن زيد، ولا يسجل تاريخ هذه الغزوة كلها مخالفة واحدة بحق هذا القائد، ولو كان الأمر في عصرنا الحاضر لوجد الغلام قتيلًا عند الصباح لإنهاء قيادته، واستلام القيادة مكانه، وفي أحسن الأحوال لألغيت المعركة، أو تغيرت القيادة. هذه الأمة التي كانت الحرب فيها تستمر عشر سنين لسباق بين جواد وفرس حملت الحرب اسميهما: داحس والغبراء، أفنت القبيلة كلها لأن قائد القبيلة نقصت كرامته في هزيمة فرسه، هذه الأمة الجديدة التي انبثقت على عين اللَّه يمضي أعظم قوادها ومفكريها خيرة أهل الأرض يمضون جنودًا تحت قيادة الفتى أسامة.

٦ - وحتى يُتِمَّ أبو بكر رضي الله عنه مهمته التربوية للجيش كله، قام بشخصه بعد أن صار خليفة يشيِّع الجيش، ويمشي معه، والقائد الفتى راكب، فهو أمير المؤمنين، ويقسم عليه فتانا أن ينزل هو ويركب الخليفة، فقال: (واللَّه لا تمشي، وواللَّه لا أركب، وما عليَّ أن أغبِّر قدمي ساعة في سبيل اللَّه؟).

٧ - ولا يكتفي بذلك أمام الجيش كله، بل يتقدم من قائد الجيش، طالبًا منه السماح ببقاء عمر بجواره في صورة تعلم الجيش كله طريقة التعامل مع قائده الفتى:

(ولكن خصلة أكلّم أسامة في عمر نُخَلِّفُه يُقيم عندنا، فإنه لا غناء لنا عنه، واللَّه ما أدري أيفعل أسامة أم لا، واللَّه إن رأى لا أُكْرِهُه. فعرف القوم أن أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعث أسامة، ومشى أبو بكر ﷺ إلى أسامة في بيته، وكلمه أن يترك عمر ففعل، فجعل يقول له: فعلتَ ونفسُك طيبة؟ فقال أسامة: نعم. وجعل يقول له: أذنت ونفسك طيبة؟ فقال أسامة: نعم) (١).

٨ - ولم يكتف بذلك، فقد رفض قبول اعتذار أي مسلم على الالتحاق بالجيش تحت أي ذريعة:

(وأمر مناديه ينادي: عزمة مني ألا يتخلف عن أسامة مِنْ بَعثه من كان انتدب معه في حياة رسول اللَّه ﷺ، فإني لن أوتى بأحد أبطأ عن الخروج معه إلا أَلْحَقْتُهُ به ماشيًا. وأرسل إلى النفر المهاجرين الذين كانوا تكلموا في إمرة أسامة، فغلَّظ عليهم وأخذهم بالخروج، فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد) (٢).

٩ - فنحن أمام تنفيذ عملي للخطبة التي ألقاها على شعبه قبل يومٍ واحد: « وإنما مُتَّبِعٌ أنا ولست بمبتدع »، فهو الحريص على تنفيذ كتاب اللَّه وسنّة رسوله حذو القذَّة بالقذَّة، وكانت بيعته على ذلك، وحسابه على ذلك؛ ولذلك حين أظهر المسلمون قناعتهم بتأخير البعث أو تغيير قائده، واجههم بالنص، مما دفعهم جميعًا إلى الصمت ولم يرد عليه أحد، فيبقى الكتاب والسنّة حكمًا على الجميع راعيًا ورعيةً.

١٠ - وكانت التوصية العظيمة التي قدمها لجيشه بمثابة دستور للحرب الإسلامية في كل العصور، وهي مستقاة ومنبثقة من التوصية النبوية للجيش المسلم المتجه إلى مؤتة قبل بضع سنين:

((... اغزوا باسم اللَّه في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم... فإن هم أبوا فَسَلْهُمُ الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم)) (٣).

(١ ، ٢) المغازي للواقدي (١١٢٢/٣).

(٣) رواه مسلم، ح (١٧٣٠).

١١ - لقد كان تحرك الجيش بعد أقل من عشرين يومًا من وفاة رسول الله ﷺ في مستهل شهر ربيع الآخر:

(وكان مخرجه من الجرف لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة، فغاب خمسًا وثلاثين يومًا؛ عشرون في بدأته، وخمسة عشر في رجعته)[(١)].

١٢ - واختلفت الرواية في ذكر عدد الجيش، فهو عند الواقدي ثلاثة آلاف، (وهم ثلاثة آلاف وفيهم ألف فرس) بينما في حديث أبي هريرة كما هو عند البيهقي: (إن رسول الله ﷺ وَجَّهَ أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام). والأرجح أن العدد ثلاثة آلاف، فقد كان جيش مؤتة بهذا العدد، وقد لقوا ما لاقوا من مواجهة الروم والعرب، فهل يغامر بسبعمائة إلى تخوم الروم لمواجهة دولة الروم وإمبراطوريتها إن فرض عليهم الأمر؟

س - أسامة يمضي ويثأر ويعود:

ويحسن أن نمضي مع أسامة رضي الله عنه إلى الشام لنشهد آثار هذه الغزوة ونطوي الحديث عنها فيما بعد، مكتفين بنقل تفصيلاتها الوافية من المغازي للواقدي، وهي التي كانت آخر كتاب المغازي عنده رحمه الله.

وخرج أبو بكر رضي الله عنه يشيع أسامة والمسلمين، فلما ركب أسامة من الجرف في أصحابه وهم ثلاثة آلاف رجل وفيهم ألف فارس، فسار أبو بكر رضي الله عنه إلى جنب أسامة ساعة ثم قال: (أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، إني سمعت رسول الله ﷺ يوصيك، فانفذ لأمر رسول الله ﷺ، فإني لست آمرك ولا أنهاك).

ع - الخروج والمضي للهدف:

فخرج سريعًا فوطئ بلادًا هادئة لم يرجعوا عن الإسلام، جهينة وغيرها وقضاعة، فلما نزل وادي القرى قدَّم عينًا له من بني عذرة يقال له: حُريث. فخرج على صدر راحلته أمامه مغذا السير [(٢)] حتى انتهى إلى أبنى، فنظر إلى ما هناك وارتاد الطريق، ثم خرج حتى لقي أسامة على مسيرة ليلتين من أبنى، فأخبره أن الناس غارون [(٣)]

---

(١) المغازي للواقدي (١١٢٥/٣).

(٢) مغذا السير: مسرعًا كثيرًا.

(٣) الناس غارون: غائبون.

ولا جموع لهم، وأمره أن يسرع السير قبل أن تجتمع الجموع، وأن يشنها غارة.

قال: فحدثني هشام بن عاصم عن المنذر بن جهم، قال بريدة لأسامة: يا أبا محمد، إني شهدت رسول اللَّه ﷺ يوصي أباك أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أطاعوه خيَّرهم...

قال أسامة: (هكذا وصية رسول اللَّه ﷺ لأبي ولكن رسول اللَّه ﷺ أمرني وهو آخر عهده إليّ أن أسرع المسير، وأسبق الأجناد، وأن أشن الغارة عليهم بغير دعاء، فأحرق وأضرب. فقال بريدة: سمعًا وطاعة لأمر رسول اللَّه ﷺ)[1].

فلما انتهى إلى أبنى، فنظر إليها منظر العين، عَبَّأَ أصحابه وقال: (اجعلوها غارة ولا تُمعنوا في الطلب ولا تفترقوا واجتمعوا واخفتوا الصوت، واذكروا اللَّه في أنفسكم، وجرّدوا سيوفكم، وضعوها فيمن أشرف عليكم).

ف - الإغارة على أبنى:

ثم دفع إليهم الغارة، فما نبح كلب، ولا تحرك أحد، وما شعروا إلا بالقوم قد شنّوا عليهم الغارة ينادونهم بشعارهم: يا منصور، أمت. فقتل من باشر قتاله، وسبى من قدر عليه، وحرَّق في طوائفهم بالنار، وحرَّق منازلهم وحرثهم ونخلهم، فصارت الأعاصير بهم، وأجال الخيل في عرصاتهم، ولم يمعنوا في الطلب، أصابوا ما قرب منهم، وأقاموا يومهم ذاك في تعبئة ما أصابوا من غنائم، وكان أسامة خرج على فرس أبيه التي قتل عليها يوم مؤتة، كانت تدعى: سبحة، وقتل قاتل أبيه في الغارة، خبَّره به بعض من سبى، وأسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا، وأخذ لنفسه مثل ذلك.

ص - العودة من الغزو:

فلما أمسوا أمر الناس بالرحيل، ومضى الدليل أمامه: حريث العذري، فأخذوا الطريق التي جاء منها ودنوا ليلتهم حتى انتهوا بأرض بعيدة، ثم طوى البلاد حتى انتهى إلى وادي القرى في تسع ليال، ثم قصد يغذ السير إلى المدينة، فبلغ ذلك هرقل وهو بحمص، فدعا بطارقته فقال:

---

(١) وسبب اختلاف الأمر هو أن المعركة قائمة بين أهل أبنى وبين المسلمين منذ معركة مؤتة واستشهاد زيد ﷺ. إنما تكون الدعوة عند أول لقاء بين المسلمين والمشركين.

(هذا الذي خوَّفتكم فأبيتم أن تقبلوه مني، قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر تُغِير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكلَمْ. قال أخوه: سأقوم فأبعث رابطة تكون بالبلقاء. فبعث رابطة واستعمل عليهم رجلًا من أصحابه، فلم يزل مقيمًا حتى قدمت البعوث إلى الشام.

واعترض لأسامة في منصرفه قوم من أهل كثكث - قرية هناك - كانوا قد اعترضوا لأبيه في بدأته فأصابوا من أطرافه، فناهضهم أسامة بمن معه، وظفر بهم، وحرَّق عليهم وساق نعمًا من نعمهم، وأسر منهم أسيرين فأوثقهما، وهرب من بقي، فقدم بهما المدينة فضرب أعناقهما.

قال: فحدثني أبو بكر بن يحيى بن النضر عن أبيه، أن أسامة بن زيد بعث بشيره من وادي القرى بسلامة المسلمين، وأنهم قد أغاروا على العدو فأصابوهم، فلما سمع المسلمون بقدومهم، خرج أبو بكر ﷺ في المهاجرين، وخرج أهل المدينة حتى العواتق سرورًا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين، ودخل يومئذ على فرسه سبحة كأنما خرجت من ذي خُشُب، عليه الدرع، واللواء أمامه يحمله بريدة حتى انتهى به إلى المسجد، فدخل فصلى ركعتين وانصرف إلى بيته معه اللواء، وكان مخرجه من الجرف لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة، فغاب خمسة وثلاثين يومًا: عشرون في بدأته، وخمسة عشر في رجعته) [١].

يقول ابن كثير رحمه الله:

(فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرُّون بحيٍّ من أحياء العرب إلا أُرعِبُوا منهم وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة. فقاموا أربعين ليلة، ثم أتوا سالمين غانمين، ثم رجعوا فجهزهم مع الأحياء الذين أخرجهم لقتال المرتدة ومانعي الزكاة) [٢].

ق - أول المواجهة:

كان نوفل بن معاوية الديلي بعثه رسول الله ﷺ، فلقيه خارجة بن حصن بالشرية [٣]،

---

(١) المغازي للواقدي (٣/١١٢٣ - ١١٢٥).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣).

(٣) الشرية: اسم موضع.

فأخذ ما في يديه، فردَّه على بني فزارة، فرجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة قبل قدوم أسامة على أبي بكر، فأول حرب كانت في الردة حرب العنسي وقد كانت حرب العنسي باليمن، ثم حرب خارجة بن حصن ومنظور بن زبان بن سبار في غطفان [١].

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٢).

الفصل الثاني

الردة وابتداء الحرب

عن أبي هريرة ﷺ عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **والذي نفس محمد بيده، لَغفار وأسلم ومزينة ومن كان من جهينة** - أو قال: **جهينة - خير عند اللّٰه يوم القيامة من أسد وطيئ وغطفان** » (١).

لقد كان رسول اللّٰه ﷺ يتكلم بنور اللّٰه وهو يحدث هذا الحديث الذي بدأت معالمه تظهر مباشرة بعد وفاته، فلقد كان هذا التجمع الثلاثي من هذه القبائل الكبرى أقرب ما يكون إلى المدينة، وهو الذي ابتدأ خط الردة والمواجهة للإسلام بعد شهرٍ واحد فقط من وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، أما تلك القبائل الصغرى من غِفار وأسلم ومزينة وجهينة فقد ثبتت على دينها، وكانت هي نواة الجيش الإسلامي البديل الذي مضى إلى الشام مع أسامة.

قال ابن جرير: ... السري عن شعيب عن سيف عن عطية... وعن الضحاك عن ابن عباس (قال: ثم اجتمع من حول المدينة من القبائل التي غابت في عام الحديبية، وخرجوا وخرج أهل المدينة في جند أسامة، فحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح (٢) حول قبائلهم وهم قليل) (٣).

لقد كانت هذه القبائل أسلم وغفار وجهينة ومزينة هي القواعد الخلفية الرديفة للعاصمة الإسلامية المدينة، ويمكن القول: إن الحرب ابتدأت من البادية العربية؛ حيث لم يكن الإسلام قد تمكن في قلوب أهلها أو على مستويات متفاوتة بينهم.

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وماذا عن أسد وغطفان وطيئ؟

السري عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال:

(١) رواه مسلم، ح (٢٥٢١).
(٢) مسالح: ثغور.
(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٤٥).

(مات رسول الله ﷺ، واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة [١]، إلا ما كان من خواصِّ أقوام في القبائل الثلاث، فاجتمعت أسد بسميراء [٢]، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة [٣] وطيئ على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق [٤] من الربذة، وتأشب [٥] إليهم ناس من كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالأبرِق، وسارت الأخرى إلى ذي القصة، وأمدهم طليحة بحبال، فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد وَمَنْ تَأَشَّب من ليث والديل ومدلج، وكان على مرة بالأبرِق عوف بن فلان بن سنان، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان) [٦].

لا بد أن نذكر أن عبسًا وذبيان ومرة وفزارة وأشجع هم فروع من غطفان، وهذا يعني: أن المواجهة ابتدأت مع هذه القبيلة التي تأتي بعد قريش في المواجهة، وكان على رأسها عيينة بن حصن، ومع أن عيينة أعلن إسلامه بعد أن أنهكته الحروب، لكنه عاد فتحلبت أشداقه للزعامة ومواجهة المسلمين، فكان الصدام الأول بين المسلمين وبين أخيه خارجة بن حصن، وهو الذي اعتدى على نوفل الديلي، وأخذ الغنائم التي معه، لكن طليحة الأسدي أحد زعماء أسد كان قد ادعى النبوة، وتحالفت غطفان مع أسد، وقد كانا في الجاهلية يسميان: (الحليفان). إنما الجديد هو انضمام قسم من طيئ معهم، واتبعوا أسلوب المراوغة ابتداءً في محاولة لجس نبض المسلمين في التخلي عن العقيدة مقابل المصلحة، كما كانت عقليتهم الأعرابية تُوهمهم بذلك.

(وقد بعثوا وفودًا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عباسًا، فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن لا يؤتوا الزكاة، فعزم اللَّه لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه - وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة - فردّهم، فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم،

---

(١) طليحة بن خويلد الأسدي ثالث من ادعى النبوة من العرب بعد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب في اليمامة.

(٢) سميراء: قرية في حايل وأكثر سكانها من بني تميم.

(٣) طيبة: اسم يطلق على بقعاء في ناحية حايل.

(٤) أبرق: من قرى عنزة بمنطقة العلا.

(٥) تأشب: تجمع.

(٦) تاريخ الطبري (٢/٢٥٤، ٢٥٥).

فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة، وأطمعوهم فيها) (١).

قتال مانعي الزكاة:

لم يكن قتال مانعي الزكاة بالأمر السهل، فإذا لم يكن هناك خلاف بين قيادات الأمة حول قتال المرتدين عن الدين وقتال المتنبئين، لكن الخلاف كان على أَشُدِّه فيما يتعلق بمانعي الزكاة، وذلك من جانبين مهمين:

الجانب الشرعي: وهل يجوز قتال مانعي الزكاة فقط والمقرين بكلمة التوحيد وإقامة الصلاة؟

الجانب السياسي: هل من المصلحة حرب المرتدين ومانعي الزكاة في وقت واحد لو افترضنا وجوب الحرب على الفريقين؟

(فعن أبي هريرة ﷺ قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر ﷺ وكفر من كفر من العرب فقال عمر ﷺ: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله** »؟

فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا (٢) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر ﷺ: فوالله، ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق) (٣).

فعمر ﷺ يناقش الصِّدِّيق في النص الذي لا مجال للاجتهاد فيه؛ لأن القتال واجب حتى يقول الناس: لا إله إلا الله. وأبو بكر ﷺ يناقش عمر حول فهم النص وفقهه، حول كلمة: « **إلا بحقه** »، ويوضح ابن حجر ﷺ هذا المعنى بقوله: (حديث أبي هريرة في قصة أبي بكر في قتال مانعي الزكاة واحتجاجه في ذلك بقوله ﷺ إن عصمة النفس والمال تتوقف على أداء الحق، وحق المال الزكاة) (٤).

فلا يحاسب على أنه مرتد، إنما يحاسب على أنه مسلم رفض تطبيق فرائض هذا الدين، فمن حق هذا الدين الصلاة كما أن من حقه الزكاة، والذي يُخِلُّ بأي منهما

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٤، ٢٥٥). (٢) العناق: الخروف الصغير.

(٣) البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم، ح (٢٠).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٦٣).

إنما يخرج على أمر اللَّه، فلا بد أن يقاتَل حتى ينفِّذه، لكن عظمة موقف عمر ﷺ هو من خلال ثقته بفقه الصديق لدين اللَّه، واكتفى بالقناعة في هذا الأمر أنه حق. لأن اللَّه تعالى شرح صدر أبي بكر لهذا الفهم، فعرف أنه الحق، وكذلك لو أصر على المعصية والإفطار في رمضان، فلا بد أن يُقَاتَلَ حتى يصوم.

يقول النووي رحمه الله بصدد تعليقه على هذا الحديث:

(واعلم أن هذا الحديث بطرقه مشتمل على أنواعٍ من العلوم وَجُمَلٍ من القواعد، وأنا أشير إلى أطراف منها مختصرة:

ففيه أدل دليل على شجاعة أبي بكر ﷺ، وتقدمه في الشجاعة والعلم على غيره، فإنه ثبت للقتال في هذا الموطن العظيم الذي هو أكبر نعمة أنعم اللَّه تعالى بها على المسلمين بعد رسول اللَّه ﷺ، واستنبط ﷺ من العلم بدقيق نظره ورصانة فكره من لم يشارك في الابتداء به غيره، فهذا وغيره مما أكرمه اللَّه تعالى به جمع أهل الحق على أنه أفضل أمة رسول اللَّه ﷺ.

وفيه: جواز مراجعة الأئمة والأكابر ومناظرتهم لإظهار الحق.

وفيه: أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما واعتقاد جميع ما أتى به رسول اللَّه ﷺ.

وقد جمع ذلك ﷺ بقوله: « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه. ويؤمنوا بي وبما جئت به** » (١).

وفيه: وجوب الجهاد.

وفيه: صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه ولو كان عند السيف.

وفيه: أن الأحكام تجري على الظاهر واللَّه تعالى يتولى السرائر.

وفيه: جواز القياس والعمل به.

وفيه: وجوب قتال مانعي الزكاة أو الصلاة أو غيرهما من واجبات الإسلام قليلًا كان أو كثيرًا؛ لقوله ﷺ: (لو منعوني عقالًا أو عناقًا).

وفيه: جواز التمسك بالعموم؛ لقوله: « فإن الزكاة حق المال ».

وفيه: وجوب قتال أهل البغي.

---

(١) مسلم، ح (٢١).

وفيه: وجوب الزكاة في السخال تبعًا لأمهاتها.

وفيه: اجتهاد الأئمة في النوازل وردها إلى الأصول، ومناظرة أهل العلم فيها، ورجوع من ظهر له الحق إلى صاحبه.

وفيه: ترك تخطئة المجتهدين المختلفين في الفروع بعضهم بعضًا.

وفيه: أن الإجماع لا ينعقد إذا خالف من أهل الحل والعقد واحد، وهذا هو الصحيح المشهور، وخالف فيه بعض أصحاب الأصول.

وفيه: قبول توبة الزنديق، وقد قَدَّمْتُ الخلاف فيه واضحًا.

واللَّه ﷻ أعلم بالصواب وله الحمد والنعمة والفضل والمنَّة وبه التوفيق والعصمة [١].

الهجوم على المدينة:

غادر وفد القبائل المدينة، وفشلت المفاوضات في قبول مانعي الزكاة، وأعلن الصدِّيق أنه ليس أمامه إلا خيار الحرب ضدهم، ولاحظ الوفد قلة أهل المدينة؛ إذ لا يزال جيش أسامة بآلافه الثلاثة في الشام، ووجدوها فرصة سانحة للانقضاض على المدينة قبل وصول الجيش الإسلامي إليها.

(فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة، وأطمعوهم فيها) [٢].

وأدرك الصديق ﷺ بِحِسِّهِ القيادي أن هذا الوفد سيستغل فرصة غياب جيش أسامة، فوضع حول المدينة حراسًا عظامًا يحمونها من أي هجومٍ محتمل، فقد كان القادة الكبار هم الحرس، (جَعَلَ أبو بكر على أنقاب المدينة نفرًا بعدما أخرج الوفد، عليًّا والزبير وطلحة وعبد اللَّه بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد وقال لهم:

إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلًا تُؤْتَوْنَ أو نهارًا، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعِدُّوا وأعِدوا) [٣].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢١١ - ٢١٣).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٥). (٣) المصدر نفسه (٢/٢٥٥).

فقد دعا أهل المدينة شيبها وشبابها إلى الاستعداد للمواجهة، ومركز تجمع الجيش هو المسجد النبوي، والاستنفار فيه، إضافة إلى حرس الحدود.

(فما لبثوا إلا ثلاثًا حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حُسى؛ ليكونوا لهم ردءًا، فوافق الغِوار ليلًا الأنقاب، وعليها المقاتلة، ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا. وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفشَّ العدو، فاتبعوهم على إبلهم حتى بلغوا ذا حسى، فخرج عليهم الردء بأنحاء (١) قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها (٢) بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهده كل نحي في طوله، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها - ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء - فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة، فلم يُصْرَعْ مسلم ولم يُصَبْ).

لقد وضع العدو خطة لم يحسبها المسلمون، ولم يحسبوا حساب الردء في ذي حسى، فخسروا المعركة، وعادت إبلهم إلى المدينة، والذي ينظر إلى بدء الطريق بين الإسلام والشرك بعد وفاة رسول الله ﷺ، ويرى المدينة خالية من الرجال والأبطال، يرى أن الإسلام على وشك الانتهاء، وبالطبيعة الأعرابية التي مثلتها غطفان وأسد، وأمام هذا النصر الهزيل، راح شعراؤهم يطلقون الأشعار، ويزغردون بالنصر، ويرون أن الأوان قد آن للإجهاز على الإسلام.

نعم، هذا يمكن لو أن المدينة بلا قائد ولا خليفة، وبلا أبي بكر الصديق الذي عزم عزمَته على حرب العدو، وعزم عزمته على نصر هذا الدين، ولو لاستعادة عقال الجمل الذي كان يُؤَدَّى لرسول الله ﷺ، ورفض المشركون تأديته. نحن أمام جبل من جبال هذا الدين، وَقَبَسٍ من مشكاة النبوة ومن خُلُقِ رسول الله ﷺ ما يقارب نصف قرن.

وراح الخطيل بن أوس أخو الحطيئة يفخر بهذا النصر قائلًا:

فِدًى لبني ذبيان رحلي وناقتي ... عشيّةَ يُحذى بالرماح أبو بكر
ولكن يدهدى بالرجال فهبنه ... إلى قدر ما إن يزيد ولا يجري

(١) الأنحاء: جمع نحي، وهو وعاء السمن الكبير.

(٢) دهدهوها: رموها.

ولـلّـه أجـنـاد تـذاق مـذاقـه لتحسب فيما عد من عجب الدهر

وتناغم معه عبد اللَّه الليثي من بني عبد مناة المرتدة:

أطعنا رسول اللَّه مذ كان بيننا فيا لعباد اللَّه ما لأبي بكر

أيورثها بكرًا إذا مات بعده وتلك لعمر اللَّه قاصمة الظهر

فـهـلا رددتم وفـدنـا بـزمـانـه وهلا خشيتم حس راغية البَكر

وإن الـتـي سـألـوكـمُ فـمـنـعـتُـمُ لكالتمر أو أحلى إليَّ من التمر) (١)

لقد مضى رسول اللَّه الذي يطاع، فكيف نطيع بشرًا عاديًّا بعده يورث الخلافة بعد لابنه بكر. وَمَنْ بنو تيم فرع قريش حتى تسكت بنو ذبيان لهم وتسلس لهم قيادها؟ لقد جاء الوفد لاقتسام السلطة ورفض الزكاة، فأبى أبو بكر، أَوَ مَا خشي الحرب التي تشن عليه؟ لقد أقر عيني رفضه فكان هذا أشهى من التمر عندي كي تقوم الحرب ويُقضى على أبي بكر ومن معه. وظن القوم بالمسلمين الوهن، وراحوا يدبجون الشعر في هذا النصر الكبير، وظنوا أن هذه الأنحاء سوف تدخل التاريخ وتحميهم إلى الأبد.

معركة الثأر:

(وظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل القصة بالخبر، فقدموا عليهم اعتمادًا في الذين أخبروهم وهم لا يشعرون لأمر اللَّه الذي أراده، وَأَحَبَّ أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر ليلة يتهيأ فعبى الناس).

فقد استهانت ذبيان بالصديق، وصاروا يسخرون منه فيسمونه: أبا الفصيل. كناية عن الجمل الصغير في سنته الأولى، واستدعوا بقية جيشهم من ذي القصة عقب هذا الانتصار؛ لعلهم يحملون الحملة الثانية خلال عدة أيام ويحتلون المدينة، وتعود لبني عبس وذبيان أمجادهم، ويعود عنترة من جديد بطل العرب الوحيد.

وجاءت مزينة التي أسلمت للَّه ورسوله فانضمت إلى شيوخ المسلمين في المدينة، وجعل أبو بكر ﵁ أركان حربه منها.

(ثم خرج على تعبية بقية من أعجاز ليلته يمشي) (٢)، لم يفكر ﵁ أن يرتاح ليلة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٥).

واحدة، فلا بد من المباشرة، فإذا كان المساء قد شهد التراجع، فالسَّحَرُ قد شهد الكرَّة الجديدة.

(وعلى ميمنته النعمان بن مقرن المُزني، وعلى ميسرته عبد اللّه بن مقرن أخوه، وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فَمَا سمعوا للمسلمين حسًّا ولا همسًا حتى وضعوا فيهم السيوف، واقتتلوا أعجاز الليل، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال قائد جيشهم، وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وكان أول الفتح، ووضع النعمان بن مقرن في عدد، ورجع إلى المدينة، فذلَّ بها المشركون) (١).

لقد فر المشركون وفقدوا موقعهم المتقدم في - ذي القصة - وفقدوا قائدهم حبال، وكان النعمان بن مقرن قائد الميمنة هو أمير الموقع المتقدم الذي احتلوه، وتراجع المشركون إلى مواقع قبائلهم، وانطلق الشعر الإسلامي ليتناقله الركبان بهذا النصر الحاسم، وجيش أسامة لم يصل بعد:

أقمنا لهم عُرض الشمال فكبكبوا ككبكبة الغُزى أناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها صبيحة يسمو بالرجال أبو بكر
طرقنا بني عبس بأدنى نباجها وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

فلن يتمكن الشعر السابق بنصر عبس وذبيان إلا مع هذا الشعر بهزيمتهم، فبضع ساعات فقط بين الوقعتين، ومضى اسم أبي بكر يسمو بالرجال، وقد هاجم عبس وذبيان في أوكارها فعادوا بقاصمة الظهر، ولا بد أن يمضي كذلك مقتل سيدهم حبال بين الركبان:

غداة سعى أبو بكر إليهم كما يسعى لموتته جُلال
أراح على نواهقها عليًا ومج لهن مهجته حبال

واسم علي بن أبي طالب وحده كاف لبث الرعب عند العرب بعد أن قتل أبطال خيبر من اليهود، وقتل عمرو بن وُدٍّ العامري بطل مكة في الخندق، وحبال قد لقي مصرعه، ومج مهجته في هذه المعركة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٦).

حين ينهزم الجبان يجد فرصته في قتل الآمنين، وحين هزمت عبس وذبيان لم يجدوا حلًّا لري حقدهم وغيظهم إلا الانكباب على المسلمين بين أيديهم يقتلونهم، ويثأرون منهم بما لحق بهم من عار الهزيمة.

(فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم كل قتلة، وفَعَلَ مَنْ وراءهم فعلهم، وعز المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة) (١).

ولعل أشعار المسلمين سبقت أشعار المشركين، فأعادت القبائل المجاورة لغطفان النظر في موقفها وأرسلت صدقاتها؛ تجنبًا للحرب والمواجهة مع الصديق رضي الله عنه.

(ثم لم يصنع إلا ذلك، حتى ازداد المسلمون ثباتًا على دينهم من كل قبيلة، وازداد لها المشركون انتكاسًا من أمرهم في كل قبيلة، وطرقت المدينة صدقات نفر: صفوان، الزبرقان، عدي، صفوان في أول الليل والثاني في وسطه والثالث في آخره، وكان الذي بشر بصفوان سعد بن أبي وقاص، والذي بشر بالزبرقان عبد الرحمن ابن عوف، والذي بشر بعدي عبد اللَّه بن مسعود) (٢).

فمن هم هؤلاء القادة العظام؟

أما الزبرقان بن بدر: فهو أحد زعماء بني تميم.

وأما عدي بن حاتم: فهو سيد طيئ.

وأما صفوان: فهو صفوان بن صفوان عامل رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم على بني عمرو من تميم.

وكان الخبر الآخر الذي أبهج قلوب المسلمين وصول رسول أسامة بأخبار انتصاراته، فقد (بعث بشيره من وادي القرى بسلامة المسلمين وأنهم قد أغاروا على العدو فأصابوهم) (٣).

وحين رأى المسلمون قادمًا من بعيد والعجاج يخفيه اختلفوا فيه وقالوا: نذير؛ وذلك لشدة خوفهم من المفاجآت من القبائل. أما أبو بكر رضي الله عنه فلم يكن الأمر كذلك عنده، ففي فراسته وثقته بربه عز وجل أنَّ القادمَ بَشِيرٌ بخير:

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٦).

(٣) المغازي للواقدي (٣/١١٢٤).

(وقال الناس كلهم حين طلع: نذير. وقال أبو بكر: هذا بشير، هذا حامٍ وليس بوانٍ. فإذا نادى بالخير. قالوا: طالما بشرت بالخير. وذلك لتمام ستين يومًا من مخرج أسامة، وقدم أسامة بعد ذلك بأيام لشهرين وأيام) [١].

والذي حدا بالصديق - رضوان الله عليه - أن يرجح البشارة هو سرعة القادم، والنذير ليس حريصًا كثيرًا على إزعاج المسلمين، فيأتي وانيًا ضعيفًا غير مسرع؛ ولهذا قال الصديق: (هذا حامٍ وليس بوانٍ). ونقل لهم أخبار الجيش الإسلامي المظفر، واستعدت المدينة لعرس جديد بعودة جيشها المظفر لها، وعودة الآلاف الثلاثة من خيرة صحب النبي ﷺ ومن خيرة المقاتلة ليكونوا تحت تصرف قائدهم الجديد.

لقد سبق البشير الجيش بأيام، واستعدت المدينة لهذا الاستقبال.

(وخرج أهل المدينة حتى العواتق سرورًا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين لاستقباله، دخل يومئذ على فرسه سبحة كأنما خرجت من ذي خشب، عليه الدرع واللواء أمامه يحمله بريدة حتى انتهى به إلى المسجد، فدخل فصلى ركعتين وانصرف إلى بيته معه اللواء) [٢].

والصديق لا يعيش لحظته الحاضرة، إنما يعيش اللحظة القادمة، فلا يزال يحسب الحسابات الكبرى للقبائل القادمة من بعيد، وهؤلاء الذين فروا لن يستسلموا، فطبيعة العرب الكر والفر، وقد أبلغته استخباراته أنهم قد تجمعوا في الأبيرق، ووضع خطته أن يكون على رأس الجيش المتجه إليهم، بينما يبقى أسامة على إمرة المدينة مع جيشه المكدود الذي قطع أكثر من ألف كيلومتر في هذه الصحراء، وكان لا بد أن يستجم وجيشه ثم يستأنف جهاده.

(وقدم أسامة بعد ذلك بأيام لشهرين وأيام فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال لجنده: أريحوا وأريحوا ظهوركم) [٣].

ثم خرج بالذين معه إلى ذي القصة.

وذي القصة أرض إسلامية اليوم، أميرها النعمان بن مقرن المزني، ويريد الصديق أن تكون (ذي القصة) مركز الانطلاق نحو الأبرق.

---

(١) وعند الواقدي خمسة وثلاثون يومًا فقط.
(٢) المغازي للواقدي (٣/١١٢٥).
(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٥٦).

المعركة الحاسمة بالأبرق:

(ثم خرج بالذين خرجوا إلى ذي القصة، والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر فقال له المسلمون: ننشدك اللّٰه يا خليفة رسول اللّٰه أن تعرض نفسك، فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلًا، فإن أصيب أمرت بآخر). هذه البدهيات في الحرب لم تكن لتغيب عن الصديق خليفة رسول اللّٰه ﷺ، لكن الأمر الأعمق هو أن يكون جزءًا من الجيش لتتمثل القدوة الكاملة فيه من هذه القيادات، فهو يقوم بينهم بدورة تدريبية مادية ومعنوية، وكان جوابه ﷺ:

(فقال: لا واللّٰه لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي. فخرج في تعبئته إلى ذي حسى وذي القصة والنعمان وعبد اللّٰه وسويد على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق (١) فاقتتلوا، فهزم اللّٰه الحارث وعوفًا، وأخذ الحطيئة أسيرًا، فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أيامًا، وقد غلب بني ذبيان على البلاد وقال: حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنّمناها اللّٰه...) ولما قضت عبس وذبيان أرزوا إلى طليحة، وقد نزل طليحة على بزاخة (٢) وارتحل عن سميراء (٣) إليها، فأقام عليها. وقال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

ويَوم بالأبَارق قد شَهِدنا ... علَى ذُبيان يلتَهِب التهَابا
أتيناهم بداهِيةٍ نَسُوفٍ ... معَ الصِّديق إذ تَرك العِتَابا

وفي رواية السري: لما قدم أسامة بن زيد خرج أبو بكر واستخلفه على المدينة، ومضى حتى انتهى إلى الربذة، يلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة، فلقيهم بالأبرق، فقاتلهم، فهزمهم اللّٰه وفلّهم، ثم رجع إلى المدينة، فلما جَمَّ جند أسامة وثاب من حول المدينة خرج إلى ذي القصة فنزل بهم وهو على بريد من

---

(١) من ذي القصة إلى الأبرق عشرون ميلًا، ومن ذي القصة إلى المدينة ثلاثون ميلًا، فالمسافة قرابة مائة كيل عن المدينة.

(٢) بزاخة: أرض ذات تلال وماء تبعد عن حائل حوالي خمسين كيلًا، وقد حرر الجاسر أنها ماء لطيئ وليست لأسد. المعجم الجغرافي للجاسر (ص ٢٠٥).

(٣) سميراء: سلسلة من الجبال منفصلة عن أجأ، تقع شرقه، وتقع مدينة حائل بينهما. المعجم الجغرافي للجاسر شمال المملكة (ص ٦٩٠).

المدينة تلقاء نجد، فقطع فيهم الجند، وعقد الألوية) (١).

لقد كانت قبيلة غطفان بقبائلها الأربع عبس وذبيان وفزارة ومرة تقلق المسلمين بالمدينة في عهد رسول اللّه ﷺ، ونزلت بأربعة آلاف مع قريش في غزوة الأحزاب، وهَمَّ رسول اللّه ﷺ بإعطائهم ثلث ثمار المدينة مقابل انكشافهم عن قريش وانسحابهم من الحرب، وكان رؤساؤهم عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري، ورفض السعدان قائدا الأوس والخزرج هذه المفاوضة بأمر رسول اللّه ﷺ، وقالا: لا واللّه، لا نعطيهم إلا السيف. وبقي عيينة يقود الحرب حتى يئس واستسلم قبيل فتح مكة.

وهو سيد غطفان الكبير والذي سماه رسول اللّه ﷺ بـ: « **الأحمق المطاع** ». وكان قادرًا على تعبئة جيش مقداره عشرة آلاف لمواجهة أعدائه، وكانت ذي القصة والأبرق والربذة هي بلاد فزارة وأرضه، وبقي على إسلامه منذ فتح مكة، حيث دخل رسول اللّه ﷺ مكة بينه وبين الأقرع بن حابس، وبرز كيده للإسلام في حصار الطائف، وتألف رسول اللّه ﷺ قلبه بمائة من الإبل، وكان يمثل غدر الأعراب وطمعهم وجشعهم، فما أن توفي رسول اللّه ﷺ حتى أعلن ردته عن الإسلام، وتحالف مع طليحة بن خويلد الأسدي، أما نده الثاني الحارث بن عوف فقد كان أشرف منه، وتمثلت به شهامة الأعراب، وهو الذي أوقف زهير بن أبي سلمى ثناءه عليه وعلى هرم بن سنان اللذين أوقفا حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان.

سعَى سَاعيَا غَيْظِ بن مرة بعدما تَبَزَّلَ مَا بين العشيرة بِالدَّم

والجميع ينتهون إلى غطفان، وبسقوط الأبيرق والربذة سقطت غطفان كأكبر عدو مجاور للمدينة، (فلما غُلبت أهل الردة، ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه، وسامح الناس، جاءت بنو ثعلبة من مرة وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنعوا منها، فأتوه في المدينة فقالوا: علام نُمْنَعُ من نزول بلادنا؟ فقال: كذبتم، ليست لكم ببلاد، ولكنها موهبي ونقذي (٢). ولم يعتبهم (٣)، وحمى الأبرق (٤) لخيول المسلمين، وأرعى سائر

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٧).

(٢) موهبي ونقذي: أرض إسلامية يهبها لمن يشاء وفي مصلحة الدولة.

(٣) لم يعتبهم: لم يقبل اعتذارهم ولم يُلَبِّ طلبهم.

(٤) حمى الأبرق والربذة: جعلها مشاعًا لترعاها خيول المسلمين وإبل وشياه الصدقات المعدة للتوزيع.

بلاد الربذة الناس على ثعلبة، ثم حماها كلها لصدقات المسلمين لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات، فمنع ذلك بعضهم من بعض) [١].

وعود إلى بدء إلى الحارث بن عوف سيد بني مرة، والذي جاء بعد تبوك بوفد قومه بني مرة مسلمًا كما في الإصابة (قالوا: قدم وفد بني مرة ثلاثة عشر رجلًا رأسهم الحارث بن عوف. وذلك منصرف رسول اللّه ﷺ من تبوك، فنزلوا في دار بني الحارث، ثم جاؤوا إلى رسول اللّه ﷺ وهو في المسجد، فقال الحارث:

يا رسول اللّه، إنا قومك وعشيرتك، إنا من لؤي بن غالب) [٢].

(فأسلم الحارث، وبعث معه النبي ﷺ رجلًا من الأنصار في جواره يدعو قومه إلى الإسلام، فقتله رجل من بني ثعلبة، فبلغ رسول اللّه ﷺ الخبر فقال لحسان: « قل فيه »: فقال:

يا حار منْ يغدِرْ بذمةِ جاره ... مِنكم فإنَّ محمدًا لا يَغْدِر
وأمانة المريّ ما استرعيتَه ... مثل الزجَاجَة صدعُها لَا يجبر
إن تغدُروا فالغدْر مِنكم عَادةٌ ... والغدر ينبتُ في أصُول السَّخْبر [٣]

فبعث الحارث يعتذر، وبعث بدية الرجل سبعين بعيرًا، فقبلها رسول اللّه ﷺ، ودفعها إلى ورثته، ويقال: إن الرجل من غير الأنصار. وفيه يقول الفزاري:

يا حارِ عجلت عليك منية ... فالحمد زادك قد فعلت لتحمدا
ولقد تركت رجال صدق سادة ... ولأنت بعد اللّه كنت السيدا
الحارث الوهاب أمسى قبره ... قبرًا بمسهكة الرياح مشيدًا) [٤]

والظاهر أنه توفي قبل الردة، فلم يذكر له اسم فيها، وبرز بعده زعيم آخر هو عوف ابن فلان قتل في حروب الردة.

لقد فقدت غطفان أرضها، وقتل من قتل منها، وانضم من انضم منها إلى طليحة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٦).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (١/٢٨٧).

(٣) السخبر: شجر يشبه الأذخر.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري (١٣/١٠٠، ١٠١)، والمسهكة: ممر الرياح العاصفة.

ابن خويلد الأسدي الذي جعل بزاخة مركز تجمعه، كما انضمت طيئ إليها، وهؤلاء من القبائل الكبرى عند العرب، وابتدأت المرحلة الثانية من الحرب بعد أن أصبحت حدود المدينة منيعة من الغارات، وصار كل من حولها أرضًا إسلامية، وكان على هذا الجيل أن لا يتحول إلى نموذج مكرور من حروب القبائل وأيام العرب السابقات، إنما عليه أن تبقى الدعوة إلى اللَّه نصب عينيه، وأن يفيء المرتدون ومانعو الزكاة إلى الإسلام.

* * *
* *
*

الفصل الثالث

الدعوة إلى اللَّه في الجيل الفريد

نحن حول المدينة أمام معسكرين كبيرين، معسكر المدينة، وقد جعل (ذا القصة) مركز تجمعه، وليس المدينة، بعيدًا أكثر من خمسين كيلًا عنها، وإلا يتهددها الخطر في كل لحظة.

ومعسكر مرتد مشرك تجمع في بزاخة من أرض أسد أو طيئ، وعلى رأسه أكبر زعيمين هما: طليحة بن خويلد سيد بني أسد، وعيينة بن حصن سيد غطفان، وليس على رأس طيئ قائد مذكور، ومضى أبو بكر ﷺ بقضية الجهاد النفسي المعنوي قبل الجهاد المادي، فهو يريد قاعدة صُلبة يتحرك بها من المؤمنين.

أولاً: الخطبة في المؤمنين:

روى الحافظ ابن عساكر من طريقين عن شبابة بن سوار، حدثنا عيسى بن يزيد المديني، حدثني صالح بن كيسان، قال: لما كانت الردة قام أبو بكر في الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

(الحمد للَّه الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن اللَّه بعث محمدًا ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رثَّ حبله، وخلق عهده، وضل أهله منه، ومقت اللَّه أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًّا لشرٍّ عندهم، قد غيروا ألقابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من اللَّه لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًا وأضلهم دينًا في ظلف من الأرض مع قلة السحاب...).

هذا هو العالم كله قبل محمد ﷺ، ثم ماذا بعد ذلك؟

(... مع قلة السحاب، فجمعهم اللَّه بمحمد، وجعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض اللَّه نبيه ﷺ...).

وهذه هي الأمة والبشرية بهذا الدين، ثم ماذا بعد ذلك؟

(... فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم،

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]).

ثانيًا: تعبئة الإيمان:

(... إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما تقدم من بركة نبيكم ﷺ. وقد وكلكم إلى المولى الكافي الذي وجده ضالًّا فهداه وعائلًا فأغناه، ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ ... ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣].

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، ويُقتل من قتل منا شهيدًا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خُلف له، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ الآية [النور: ٥٥]، ثم نزل) (١).

فسوف يأتي الله بقوم:

ومواصفات هؤلاء القوم في كتاب الله وأول هذه المواصفات أنهم يبرزون حين يرتدُّ الناس (وقال الحسن وقتادة وغيرهم في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ... ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية.

قالوا: المراد بذلك أبو بكر وأصحابه في قتالهم المرتدين ومانعي الزكاة...) (٢).

ونعرض هذه المواصفات من كتاب الله تعالى كما وردت في الآية المذكورة لهؤلاء القوم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ:

- يُحِبُّهُمْ.
- وَيُحِبُّونَهُۥٓ.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣١٦). (٢) المصدر نفسه (٣/٦/٣١٦).

- أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ.
- أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ.
- يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ.
- وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ.
- ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾.
- إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ:
- ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ.
- وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ.
- وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾.

وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

وبهذه المواصفات العشر ينطبق عليهم مسمى - حزب الله - وعندئذ هم الغالبون.

ثالثًا: خارطة الساحة العربية:

وبعد أن رأينا حزب الله ومعسكر الإيمان الذي يستعد للمواجهة نعرض معسكرات الشرك التي ملأت الساحة العربية:

(وقال محمد بن إسحاق: ارتدت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين مكة والمدينة.

- وارتدت أسد وغطفان، وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن.
- وارتدت كندة ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي.
- وارتدت مذحج ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن.
- وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر.
- وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب.
- وارتدت سُليم مع الفجأة واسمه: أنس بن عبد ياليل.
- وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة) [1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣١٦).

عَلِيٌّ ومن معه يوقفون انطلاقة الصديق على رأس الجيش:

(ركب الصديق في الجيوش الإسلامية شاهرًا سيفه مسلولًا من المدينة إلى ذي القصة، وهي من المدينة على مرحلة [١]، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصديق ﵁ ... وقد روى الدارقطني من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر قال:

لما برز أبو بكر إلى القصة واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول اللَّه؟ أقول لك ما قال رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد: « **شم سيفك** [٢] **ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة** ». فواللَّه، لئن فُجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا.

وروى الزهري عن عائشة قالت: خرج أبي شاهرًا سيفه، راكبًا على راحلته، فجاء علي بن أبي طالب، فأخذ بزمام راحلته وقال:

إلى أين يا خليفة رسول اللَّه؟ أقول لك ما قال لك رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد: « **شم سيفك، ولا تفجعنا نفسك** ». فواللَّه، لئن أُصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا. فرجع وأمضى الجيش) [٣].

فلقد أدرك علي ﵁ ومن معه من الإسلام أن أبا بكر هو الذي يقوم به نظام الإسلام بعد رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه.

رابعًا: القيادات العظمى وعقد الألوية:

قال الطبري: (وحدثنا السري قال: حدثنا شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد، قال:

لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجمُّوا، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً:

- لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبُطاح إن أقام له.

---

(١) المرحلة: يقطعها السائر على قدميه في نحو يوم.

(٢) شم سيفك: ارفع سيفك أو امنعه.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣١٦).

- ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة.

- وللمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت.

- ولخالد بن سعيد بن العاص، وكان قدم على تفيئة ذلك من اليمن وقطع عمله، وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام.

- ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث.

- ولحذيفة بن محصن الغلفاني، وأمره بأهل دبا.

- ولعرفجة بن هرثمة، وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا، وكل واحد منهما في عمله على صاحبه.

- وبعث شرحبيل ابن حسنة في إثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فُرغ من اليمامة فالحق بقضاعة، وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة:

- ولطريفة بن حاجز، وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن.

- ولسويد بن مقرن، وأمره بتهامة اليمن.

- وللعلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين.

ففصلت الأمراء من ذي القصة، ونزلوا على قصدهم، ولحق بكل أمير جنده، وقد عهد إليهم عهده، وكتب إلى من بعث إليهم من جميع المرتدة) (١).

نحن أمام جمع من القادة العظام، وأهداف ضخمة موزعة في الأرض العربية تريد هذه الجيوش أن تنطلق لتحرر الإنسان والأرض من كل عبودية لغير الله.

فمن هؤلاء القادة؟ وما هي تلك الأهداف؟

كان أكبر هؤلاء القادة هو خالد بن الوليد، وأبوه الوليد بن المغيرة، من نزل القرآن بآيات عدة في هجائه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ

---

(١) تاريخ الطبري (٢٥٧/٢).

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٦].

وقيل: إن الوليد سمي بالوحيد لأن قريشًا كانت تكسو الكعبة عامًا، والوليد يكسوها عامًا.

وولده خالد بقي عدوًّا للإسلام حتى قرابة فتح مكة، فهو ليس نكرة عند العرب أبدًا، وقد غيَّر تاريخ العرب منذ إسلامه حين أخذ لقب - سيف اللَّه - من رسول اللَّه ﷺ بحيث لم يَغْزُ بهذا اللقب أحد غيره، وذلك بعد أن حول هزيمة مؤتة المحققة إلى نصر مؤزر.

« **ثم أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه سلَّه اللَّه على المشركين، خالد بن الوليد، ففتح اللَّه عليه** » (١).

١ - وكان على خالدٍ أن يواجه العدوين اللدودين عيينة بن حصن، سيد غطفان، وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة سيد بني أسد، ومعهم أسد وغطفان وطيئ.

ونعيد إلى الذهن حديث رسول اللَّه ﷺ الذي رواه مسلم: (أن الأقرع بن حابس سيد بني تميم جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: إنما بايعك سراق الحجج من أسلم وغفار ومزينة. (وأحسب) جهينة. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيرًا من بني تميم وبني عامر بن صعصعة وأسد وغطفان أخابوا وخسروا؟** » فقال: نعم. قال: « **فوالذي نفسي بيده، إنهم لأخير منهم...** » (٢).

فأسد وغطفان من القبائل الكبرى الخطيرة، وها هي تتجمع لتواجه الإسلام في بزاخة، والمكلف بمواجهتها خالد بن الوليد سيف اللَّه، وكانت المهمة الثانية لخالد هي المسير إلى البُطاح لمواجهة مالك بن نويرة، سيد من سادات بني تميم في البطاح. والبطاح في القصيم أول نجد.

٢ - وكان القائد الثاني، وساحة عمله هو عكرمة بن أبي جهل، وعليه مواجهة مسيلمة الكذاب في قلب نجد، وعكرمة كذلك أشهر من أن يعرف، وأبوه فرعون هذه الأمة، وقد انضم إلى الإسلام بعد فتح مكة، وكان هو وخالد من تحملا عبء المواجهة ضد رسول اللَّه ﷺ، ثم تواجها معًا في فتح مكة، وهما بنو عم، فعكرمة بن أبي جهل

(١) مسند أحمد، ح (١٧٥٠).

(٢) مسلم، ح (٢٥٢٢).

ابن هشام بن المغيرة المخزومي، وخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وانتهت مواجهتهما بهزيمة عكرمة من خالد كما قال الشاعر الهارب لزوجته:

إنك لو شهدت يوم الخنِدمة إذ فر صفوان وفر عِكرمة
وقطعتنا بالسيوف المسلمة

٣ - وكان شرحبيل بن حسنة مددًا لِعكرمة، فمواجهة بني حنيفة في عقر دارهم ليست بالسهلة ومسيلمة هو المتنبئ الأول قبل طليحة بن خويلد، والذي طالب بمناصَفة الملك مع رسول الله ﷺ.

وشرحبيل هذا من كبار المهاجرين الأولين وإن كان أصله من كندة على الأغلب، لكنه كان حليفًا لبني جمح، وهاجر إلى الحبشة، وحسنة أمه، فهو من قريش ولاءً وليس من صميمها.

٤ - طريفة بن حاجز السلمي. وقد كانت مهمته سليم وهوازن، وهو من سُليم. وكان هؤلاء الأربعة لقلب الجزيرة.

أما شمال الجزيرة فقد أوكل لقائدين اثنين كذلك وهما:

٥ - خالد بن سعيد بن العاص: وأبوه سعيد بن العاص الذي كان يقول: لئن أقامني الله من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة في الأرض. فقال خالد هذا: اللَّهمَّ لا تقمه من مرضه. وكانت مهمته الحمقتين من مشارف الشام.

٦ - عمرو بن العاص: أبوه العاص بن وائل أحد المستهزئين الذين قصمهم الله تعالى، وقد انضم عمرو إلى الإسلام مع خالد بن الوليد، وأثبت كفاءة عالية في معركة ذات السلاسل شمال الجزيرة، ولأن أم عمرو بن العاص من بلى، وبلى من قضاعة، ولعبقريته العسكرية. كانت مهمته كذلك شمال الجزيرة (وفي قضاعة ووديعة والحارث).

وكان هناك ثلاثة قادة عظام لشرق الجزيرة بعد قلبها وشمالها وهم:

٧ - حذيفة بن محصن الغلفاني. ولم أستطع أن أجد له ترجمة وافية. إذ كانت مهمته أهل دبا، ودبا في المنطقة الشرقية اليوم، وفيها كان حصار المشركين للمسلمين. (ودبا هي المصر والسوق العظمى).

٨ - عرفجة بن هرثمة البارقي. ولم يبرز اسمه إلا في الفتوح، وكما ذكر ابن حجر

في الإصابة (وروي عن سهيل بن يوسف عن القاسم بن محمد أن أبا بكر الصديق أَمَّرَهُ في حروب الردة... وقد تقدم أنهم كانوا لا يُؤَمِّرُونَ إلا صحابيًا) وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا، وكل واحد منهما في عمله على أصحابه (هو وحذيفة). ومهرة هي حدود عمان مع اليمن، وكلاهما من المنطقة نفسها.

٩ - العلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين. (وهي منطقة الإحساء والدمام اليوم).

والعلاء من السابقين الأولين من المهاجرين، وكان رسول اللَّه ﷺ قد بعثه إلى المنذر ابن ساوى أمير البحرين، وإن كان أصله من اليمن، فقد كان حليفًا لقريش في مكة. وكان هناك قائدان عظيمان مهمتهما جنوب الجزيرة في أصقاع اليمن المتباعدة، وهما:

١٠ - المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة، هو أخو أم سلمة أم المؤمنين، من بني مخزوم، ومن مسلمة الفتح، بعث أميرًا على اليمن، وتخلف، ثم مضى وعاد بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ، فأرسله أبو بكر ﷺ إلى اليمن ثانية ردءًا للمسلمين وعونًا على قيس ابن مكشوح الذي قام بعد الأسود العنسي ضد الوجود الإسلامي هناك، ثم يتجه بعدها إلى كندة بحضرموت.

١١ - سويد بن مقرن المزني، وهو من عائلة الإيمان المزني ومن القادة الذين شاركوا تحت راية الصديق في حرب المرتدين مع أخويه النعمان بن مقرن، ونعيم بن مقرن، وكانت مهمته تهامة باليمن، لقد كانت الجزيرة وخارطتها صفحة واضحة وضيئة في ذهن الخليفة الصديق، وكانت عبقريته في اختيار القادة الأكْفَاء هي التي أثمرت هذه الثمار العظيمة في انضواء جزيرة العرب تحت راية الإسلام من جديد.

خامسًا: الدعوة قبل الحرب: الرسالتان العظيمتان:

أ - الرسالة العامة:

فقد كانت الرسالة الأولى من أمير الأمة إلى كل فرد فيها بلا استثناء.

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني

أحمد إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، نُقِرُّ بما جاء، وَنُكَفِّر مَنْ أَبَى ونجاهده...).

فإذا كانت الرسالة لجميع المواطنين، من أقام على إسلامه أو رجع عنه، لكنها تقرر ابتداءً أن السلام والأمن على من اتبع الهدى، وأما من رجع عن الإسلام وكفر فله الجهاد والحرب والمواجهة.

(... أما بعد:

فإن اللَّه تعالى أرسل محمدًا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا، لينذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين، فهدى اللَّه بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول اللَّه ﷺ بإذنه من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعًا وكرهًا، ثم توفى اللَّه رسوله ﷺ، وقد نفَّذَ لأمر اللَّه، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيَّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فمن كان إنما يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان إنما يعبد اللَّه وحده لا شريك له فإن اللَّه له بالمرصاد، حيٌّ قيوم لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظٌ لأمره، منتقم من عدوه).

فإذا كان الجيل الأول الرائد قد أصابه الذهول، وكاد ينقلب على عقبيه عندما بلغه وفاة رسول اللَّه ﷺ، فكيف بأولئك الأعراب المترامين في الصحراء لا يصيبهم هذا الارتداد؟ فكان لا بد في هذه الرسالة من إيضاح مفهوم الألوهية والتوحيد، ومفهوم الرسالة المنفصلة عن الوحدانية، وبذلك جلَّى ﷺ في هذا المقطع من الرسالة هذه المفاهيم، وأظهر أن موت محمد ﷺ ليس فجأة بالدعوة بمقدار ما هو جزء من هذا الدين، محدد بآي من القرآن الكريم يعرفه المؤمنون به.

وإذا كانت الزلزلة قد جاءت من هذا الجانب، والردة حصلت للوفاة النبوية؛ فمن حق الأمة على خليفتها الراشد أن يوضح لها هذا اللبس، ويعلمها الأساسيات الكبرى من دينها.

(... وإني أوصيكم بتقوى اللّه وحظكم ونصيبكم من اللّه، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين اللّه، فإن كل من لم يَهْدِهِ اللّه ضال، وكل من لم يعافه مبتلي، وكل من لم يعنه اللّه مخذول، فمن هداه اللّه كان مهتديًا، ومن أضله كان ضالًا، قال اللّه تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، ولم يُقبَلْ منه في الدنيا عمل حتى يُقرِّبه، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل...).

وكان من الطبيعي أن تأتي هذه الفقرة بعد الفقرة السابقة تدعو إلى الهدى وتحض عليه، وتخوف من الضلالة وتنفر منها، وأن الاعتصام باللّه هو اللجوء إلى ركن ركين لا قوة أعظم منه، والذي يحارب اللّه تعالى مُحَارَبٌ، والذي يتخذ سبيل الضلالة فلا حامي له، ولا مرشد له إلا إلى النار (... وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارًا باللّه وجهالةً بأمره وإجابةً للشيطان، قال اللّه تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]. وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وَأَمَرْتُهُ أن لا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية اللّه، فمن استجاب له وأقر وكفَّ وعمل صالحًا قُبِلَ منه وأعانه عليه، ومن أبى أَمَرْتُ أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي الذراري والنساء، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يُعْجِزَ اللّه، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإن أَذَّن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا اقبلوا منهم، واحملوهم على ما ينبغي لهم.

فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود) (١).

وواضح من خلال هذه الرسالة المبادئ التالية:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٨)، وقد رواه عن السري عن شعيب عن سيف عن عبد اللّه بن سعيد، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك.

١ - القتال للمرتدين عن الدين: وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به. ونظام الإسلام يجعل القتال مشروعًا لمن يرتد عن الدين، ويخرج على الإمام والطاعة.

٢ - وقتال هؤلاء المرتدين مُتَعَيِّنٌ في قلب جزيرة العرب، حيث القاعدة العظمى للدين في الأرض، فالأصل أن تكون قاعدة الانطلاق للدين من أناس يؤمنون بهذا الدين ويجاهدون في سبيله.

٣ - وحتى لا تضيع الدعوة في قلب الحرب كانت مهمة الرسل أن يسبقوا الجند ويعلنوا لكل فصيل مرتد دعوته للاستسلام والإسلام، فإن فعل ذلك فلا شيء عليه ولا عقوبة على ردته.

٤ - وبعد الإصرار على الخروج والمواجهة والارتداد فلا سبيل إلا القتال والقتل حتى يحكم اللّه بين الفريقين.

٥ - ودليل أن الأمر ليس شخصيًّا تتبع كل مرتد إنما هو مُوَجَّهٌ للفصائل المرتدة، وقبول الأذان علامة على الإسلام، فهذا يعني: أن هذا الجيش قد دخل في دين اللّه، وليس متابعة لكل فرد يقف في مواجهة الإسلام ويعلن عداوته وحربه له.

هذا ما خوطب به المرتدون، أما تقليد القيادة والعهد للأمراء وتحديد مهماتهم هو:

ب - تعليمات للقائد المقاتل:

(وخرجت الأمراء، ومعهم العهود.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام.

- وعهد إليه أن يتقي اللّه ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته.
- وأمره بالجد في أمر اللّه.
- ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان.
- بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام.
- فإن أجابوه أمسك عنهم.

- وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم.

- فيأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم.

- لا يُنظِرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم.

- فمن أجاب إلى أمر اللَّه ﷻ، وأقر له، قَبِل ذلك منه، وأعانه عليه بالمعروف.

- وإنما يقاتل من كفر باللَّه على الإقرار بما جاء من عند اللَّه.

- فإن أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان اللَّه حسيبه بعد فيما استتر به.

- ومن لم يجب داعية اللَّه قتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلَّمَهُ، ومن أبى قاتله.

- فإن أظهره اللَّه عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران.

- ثم قسم ما أفاء اللَّه عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه.

- وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد.

- وأن لا يدخل فيهم حشوًا حتى يعرفهم ويعلم ما هم، لا يكونوا عيونًا!!

- ولئلا يؤتى المسلمون من قِبَلهم.

- وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم.

- ولا يعجل بعضهم عن بعض.

- ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول) (١).

ويقف الإنسان مليًا أمام هذه الرسالة الربانية، وهدفها الرئيسي هو الإنسان قبل كل شيء، وما أعتقد أن تاريخ الحروب في البشرية حمل مثل هذه الرسالة، فالأمير يمضي إلى الحرب وفي عنقه عشرون محظورًا يجب أن يحافظ عليها في تحركه الحربي، هؤلاء هم حزب اللَّه في الأرض حين يمضون لتحقيق موعوده مع خلقه، مؤمنهم وكافرهم ومعاهدهم.

إنها حماية دين اللَّه لهذا الإنسان من الطغيان البشري، والبغي الإنساني، قبل أن

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٨).

يكون هدفها تحقيق انتصار في معركة، أو فوز في حرب.

بيان عملي من عشرين فقرة تحدد كل خطوة في السير، وكل منطلق نحو الهدف، بحيث لا تكون لذة الحرب التي يفخر بها العربي في جاهليته هي الهدف، إنما بناء العقيدة في كل نفس، وتحرك هذا الدين في كل قلب. لقد بلغ من حيطة الصديق لهذا الأمر أن يكرر أربع مرات في الرسالة نفسها: من أجاب ومن لم يُجِبْ فلكل فريق حكمه:

- فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم.

- فمن أجاب إلى أمر اللّه ﷻ وأقر له قُبِلَ منه، وإنما يقاتل من كفر باللّه على الإقرار بما عند اللّه.

- فإن أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل... ومن لم يجب داعية اللّه قتل وقوتل حيث كان.

- فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله.

ولا يكفي هذا الاحتياط في التبليغ قبل القتال بهذا التكرار الذي بلغ أربع مرات، إنما أخذت احتياطات خمس أخرى إضافة إلى ذلك:

- عمد إليه أن يتقي اللّه ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته.

- بعد أن يعذر عليهم فيدعوهم بداعية الإسلام.

- فإن أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان اللّه حسيبه فيما استتر به.

- وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد.

- ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم.

فقرابة نصف التعليمات ونصف الرسالة كوابح تحول دون تحول هدف الدعوة إلى هدف الحرب نفسها، بينما ينصب القسم الآخر **على جانبين:**

الجانب الأول: الجد في القتال لا تأخذ المؤمن رأفة في دين اللّه:

- وأمره بالجد في أمر اللّه.

- ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان.

- وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له.
- لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم.
- فإن أظهره اللَّه عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران.

الجانب الثاني: في حقوق المقاتلين على أميرهم:

- ثم قسم ما أفاء اللَّه عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه.
- وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم.
- ولا يعجل بعضهم عن بعض.
- ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول.

وبما أن هذه الأوامر والنواهي في النهاية كلها توجيهات حازمة للقائد، فكان لا بد أن يشير إلى الحذر من تسلل العدو إلى صف المسلمين.

- وأن لا يدخل فيهم حشوًا حتى يعرفهم، ويعلم ما هم.
- لا يكونوا عيونًا.
- ولئلا يؤتى المسلمون من قِبَلهم.

بهذه التعليمات الربانية والتوجيهات النبوية تحرك أحد عشر أميرًا نحو الجزيرة من كل جهاتها شرقها وشمالها وجنوبها، ولنتحرك مع هؤلاء الأحد عشر أميرًا نحو أهدافهم، ونشهد مدى التطبيق العملي للتوجيهات النظرية.

سادسًا: مع خالد، والتطبيقات العملية للأوامر الربانية:

انضمام طيئ كلها إلى الصف الإسلامي من قلب صفوف العدو:

قال الطبري: حدثنا عبيد اللَّه بن سعد قال: حدثني عمي، قال: أخبرنا سيف، وحدثني السري قال: حدثنا شعيب، قال: حدثنا سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، وبدر بن الخليل، وهشام بن عروة قالوا:

(ولما أرزت عبس وذبيان ولفها إلى البزاخة أرسل طليحة إلى جديلة والغوث أن ينضموا إليه، فتعجل إليه ناس من الحيين، وأمروا قومهم باللحاق بهم، فقدموا على طليحة، وبعث أبو بكر عديًا قبل توجيه خالد من ذي القصة إلى قومه، وقال: أدركهم

لا يؤكلوا. فخرج إليهم فقتلهم في الذروة والغارب، وخرج خالد في أثره، وأمره أبو بكر أن يبدأ بطيئ على الأكناف، ثم يكون وجهه إلى البزاخة، ثم يثلث بالبطاح، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه ويأمره بذلك، وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف - أكناف سلمى - فخرج خالد فازوار عن البزاخة، وجنح إلى أجأ، وأظهر أنه خارج إلى خيبر ثم مُنْصَبٌّ عليهم، فقعَّد ذلك طيئًا وبطأهم عن طليحة، وقدم عليهم عَدِيٌّ فدعاهم فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبدًا. فقال: لقد أتاكم قوم ليبيحن حرمكم، ولتكننه بالفحل الأكبر، فشأنكم به. فقالوا: فاسْتَقْبِلِ الجيش فَنَهْنِهْ عَنَّا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا. فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالدًا وهو في السنح، فقال: يا خالد، أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم. ففعل، فعاد عدي إليهم، وقد راسلوا إخوانهم، فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم، ولولا ذلك لم يتركوا، فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جَديلة. فقال له عدي: إن طيئًا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيئ، فأجلني أيامًا لعل اللَّه أن ينقذ جديلة كما انتقذ الغوث. ففعل، فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان خير مولود ولد في أرض طيئ، وأعظمه عليهم بركة) [1].

لقد كان هناك قادة ثلاثة، لكن شتان بينهم، فعيينة بن حصن سيد غطفان، أمضى عمره في حرب الإسلام، وعندما يئس من النصر على رسول اللَّه ﷺ ورأى محمدًا قد اتجه لفتح مكة، جاء فانضم إلى رسول اللَّه ﷺ، طمعًا في الغنائم، وقد برزت شخصيته في أكثر من موقع وفضحت نفسيته، خاصة في ثقيف عندما أمر رسول اللَّه ﷺ بالرحيل (فلما استقل الناس نادى سعد بن عبيد... الثقفي: ألا إن الحي مقيم. قال: يقول عيينة بن حصن: أجل واللَّه مجدةً كرامًا. فقال له رجل من المسلمين: قاتلك اللَّه يا عيينة، أتمدح قومًا من المشركين بالامتناع من رسول اللَّه ﷺ، وقد جئت تنصره.

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٠).

قال: إني والله ما جئت معكم لأقاتل ثقيفًا، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف، فأصيبُ من ثقيف جاريةً أتّطِئها لعلها أن تلد لي رجلًا، فإن ثقيفًا قوم مناكير) [١].

ولا عجب، فقد سماه رسول الله ﷺ: « **الأحمق المطاع** »، فليس عنده من القدرة على الدهاء والخداع شيء، فهو أحمق وأهوج؛ ولذا كان يريد الحصول على جارية ثقفية من أدهى خلق الله، ليأتي له ولد داهية.

ولقد رأينا هذا النموذج الذي لا يحمل شيئًا من القيم بجوار نموذج طليحة بن خويلد الأسدي الذي يملك كل مقومات الزعامة العربية، ورأى أنه لم يتمكن من حكم العرب وجمعهم جميعًا إلا نبيّ، فليكن هو ذلك النبيّ، أما عدي فهو يملك مقومات الزعامة كاملة، وأشرق نور الإسلام في قلبه، فهذا هو الزعيم المسلم، لنشهد كيف تصرف لينقذ قومه من الهلاك.

لقد بعثه ابتداء أبو بكر لقومه الذين سارعوا وانضموا أو انضم أكثرهم إلى معسكر الشرك تحت راية طليحة وعيينة، وكانت مهمته بصفته الزعيم الداعية عسيرة في جو أصبح يعصف كله بحرب المسلمين، فقد واجهوه قائلين: لا نبايع أبا الفصيل أبدًا.

وانتشر اسم أبي الفصيل عن أبي بكر ؓ في صفوف الشرك وأهله؛ لأن البَكْرَ في اللغة هو الجمل الصغير، أو الفتى من الإبل، وكان هذا مكان استخفاف عند العرب، فأجابهم عدي:

والله، لقد أتاكم قوم ليبيحن حرمكم، ولتكننه بالفحل الأكبر والعرب تكني بطل القوم بالفحل الأكبر، وليس الفصيل الصغير، وعَديٌّ عند قومه ليس متهمًا، فهو ولد حاتم الطائي، ويعلمون أنه ناصح لهم، أما الخطة التي رسمها الصديق لخالد فهي أن يبدأ بطيئ وهي على الأكناف والجوانب قبل أن يدخل إلى العمق ويصل إلى أرض أسد، وكانت أسد وطيئ حليفين دائمين فكانا يسميان بـ (الحليفان).

إنه عدي الذي يفتل قومه بالذروة والغارب، ويعالجهم الحجة بالحجة، وبلغه وصول خالد إلى أرض طيئ، فمضى إليه قائلًا: (أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار). وبين الزعيمين خالد وعدي تشابه، فكلاهما كان زعيم قومه في الشرك، ثم صار زعيم

---

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ١٧٣).

قومه بالإسلام، وكان خالد قد تدرب على يدي رسول الله ﷺ في الصبر على الناس، وتحمل لأواء الدعوة، وتباطؤ الناس عن الإجابة، وكانت دورته في اليمن حين مكث ستة أشهرٍ يدعو الناس إلى الإسلام وهم بنو الحارث بن كعب فلا يستجيبون له، فهو ليس خريج دورات الأركان في الحرب، إنما هو كذلك خريج دورات الأركان في الدعوة، فلن يضيره انتظار ثلاثة أيام على عدي وهو يعالج قومه على الإسلام، لكننا نجد في الوقت ذاته العبقرية الحربية والعبقرية الدعوية يسيران جنبًا إلى جنب في كيان خالدٍ سيف الله، فقد تظاهر أنه ماضٍ إلى خيبر ليلاقي أبا بكر هناك، وانصرف عن البزاخة حيث قيادة معسكر الشرك، وهدأ بذلك خروج طيئ وانضمامها لتمد أسدًا وغطفان بعد أن تبين أن خالدًا لا يريد غزو بزاخة. وكانت الخطة الثانية أن انقض على أرض طيئ. فجبل أجأ وسلمى هما أرض طيئ، وها هو ينزل بجيشه في جبل أجأ وطيئ بين الجبلين، فاستطاع عدي أن يوقف زحف خالد نحو طيئ ثلاثة أيام، وأوضح لقومه أنه أوقف زحف المسلمين عليهم على أمل أن يسلموا، وكانت القبيلتان الرئيستان في طيئ هما الغوث وجديلة، وكانت محاولات عدي مع الغوث، ثم كانت الخطة الحربية الثانية هي في استنقاذ من انضم إلى طليحة من طيئ، فلو علم طليحة بإسلام طيئ لذبح كل من عنده من طيئ ثأرًا وانتقامًا، وكان عدي وزعماء قومه من الغوث يبحثون في هذه المعضلة الجديدة، كيف يجمعون بين استنقاذ من عند طليحة من قومهم من طيئ وإعلان إسلامهم؟

(قالوا: فاستقبل الجيش فنهنه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم). فكانت تلك المهادنة الثلاثية التي ذكرنا، وبعثت طيئ تطلب عودة الطِّيئيِّين الذين عند طليحة؛ ليقوموا بالدفاع عن قومهم، فخالد يغزوهم الآن ولا يغزو طليحة. ونجحت الخطة نجاحًا تامًا، إذ أسرع رجال طيئ عند طليحة لينجدوا قومهم المهددين بغزو خالد، فأفسح طليحة لهم المجال لإنقاذ قومهم، وعندما وصلوا أسلمت الغوث من طيئ كلها، وجاء عدي بن حاتم على رأس خمسمائة مقاتل انضموا إلى الجيش الإسلامي الذي يقوده خالد بن الوليد.

وهذا ما سنراه أمامنا الآن، كفاءة قتالية ضخمة، وتخطيط هائل في الكيد للعدو والعمل على دعوة الناس للدخول في هذا الدين قبل أن تحصدهم السيوف.

ثم ماذا عن جديلة؟

(ارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة، فقال له عدي:

إن طيئًا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيئ، فَأَجِّلْني أيامًا لعل اللَّه أن ينقذ جديلة كما انتقذ الغوث. ففعل، فأتاهم عدي، فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاءه بإسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب).

لم يكن الجيش الإسلامي الذي تحرك بقيادة خالد يتجاوز الألف، وها هو ينضم إليه ألف وخمسمائة من طيئ كان يمكن أن يكونوا طعمة السباع والطير في الدنيا، وطعمة النار في الآخرة.

لكن النصر مع الصبر، والانتصار الأعظم في انضمام طيئ كلها إلى الإسلام ودخولها في دين اللَّه، وجيش اللَّه أعظم بكثير من الانتصار في معركة يسقط فيها الأبطال صرعى من الفريقين.

إنه انتصار العقيدة قبل انتصار السيف.

(فكان خير مولود ولد في أرض طيئ وأعظمه عليهم بركةً).

إنه لا بأس عندنا من أن تقف مع هذا المولود عدي بن حاتم، عندما جاء ليسلم في المدينة وهو ابن الصحراء العربية الذي فر إلى الشام عندما جاءه جيش النبي ﷺ، وندع له الحديث دون تعليق:

(وأما عدي بن حاتم فكان يقول فيما بلغني:

ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول اللَّه ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرءًا شريفًا في قومي، وكنت نصرانيًا، وكنت أسير في قومي بالمرباع [١]، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكًا في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول اللَّه ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي، وكان راعيًا لإبلي: لا أبا لك اعدد لي من إبلي أجمالًا [٢] ذللًا [٣] سمانًا فاحتبسها قريبًا مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني [٤]. ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت

(١) أسير بالمرباع أي: آخذ الربع من الغنائم لأني سيدهم.
(٢) أجمالًا: جمع جمل.
(٣) ذللًا: جمع ذلول: وهو الجمل السهل الذي رُوِّضَ.
(٤) آذني: أعلمني وأخبرني.

عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلت: فقرِّب لي أجمالي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل بالشام. فسلكت الجوشية، وخلَّفت بنتًا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها... قال: فخرجت حتى أقدم على رسول اللَّه ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: « **من الرجل؟** » فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول اللَّه ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فواللَّه إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: واللَّه ما هذا بملك. قال: ثم مضى بي رسول اللَّه ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إليَّ فقال لي: « **اجلس على هذه** ». قلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: « **بل أنت** ». فجلست عليها، وجلس رسول اللَّه ﷺ بالأرض، قال: فقلت في نفسي: واللَّه ما هذا بأمر ملك. ثم قال: « **إيه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسيًّا؟** » قال: قلت: بلى.

- قال: « **أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟** ».

- قلت: بلى.

- قال: « **فإن ذلك لم يكن ليحل في دينك** ».

- قلت: أجل واللَّه. وَعَرَفْتُ أنه نبي مرسل، فعلم ما يُجهل.

- ثم قال: « **لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فواللَّه ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.**

- **ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فواللَّه، ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.**

- **ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم اللَّه، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم** ».

قال: فأسلمت.

- وكان عدي يقول:

قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، واللَّه لتكونن.

- قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت.

– وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت.

– وايم اللَّه، لتكونن الثالثة، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه) (١).

أما رواية البخاري: (... فقال: « **يا عدي، هل رأيت الحيرة؟** » قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها.

قال: « **فإن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا اللَّه** ».

– قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين زعار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟ « **ولئن طالت بك حياة لتُفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز** ». قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: « **كسرى ابن هرمز** ». « **ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرُجُ ملءَ كفه من ذهب أو فضة ويطلب مَنْ يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه** »...) (٢).

* * *
* *
*

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٧٢/٤، ١٧٣). وقد رواها أحمد في المسند (٣٧٧/٤، ٣٧٨)، وإسناده حسن، والترمذي، وابن سعد.

(٢) البخاري، ح (٣٥٩٥)، (ص ٦٨٧).

الفصل الرابع

خالد مع أسد وغطفان وعامر

طليحة يرتد في حياة النبي ﷺ:

(قال أبو جعفر: وكان سبب ارتداد عيينة وغطفان ومن ارتد من طيئ ما حَدَّثَنا عبيد اللَّه بن سعد قال: أخبرني عمي، قال: أخبرني سيف، وحدثني السري قال: حدثنا شعيب عن سيف عن طلحة بن الأعلم، عن حبيب بن ربيعة الأسدي عن عمارة بن فلان الأسدي قال:

ارتد طليحة في حياة النبي ﷺ فادَّعى النبوة، فوجه النبيُّ ﷺ ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد في ذلك، وأمرهم بالقيام في ذلك على كل من ارتد، فأشجوا طليحة وأخافوه، ونزل المسلمون بواردات، ونزل المشركون بسميراء).

جهاد أسد في عهد النبوة:

(... فما زال المسلمون في نماءٍ والمشركون في نقصان حتى هَمّ ضرار بالمسير إلى طليحة، فلم يبق أحد إلا أخذه سلمًا، إلا ضربَةً كان ضربها بالجزار فنبا عنه، فشاعت في الناس، فأتي المسلمون وهم على ذلك بخبر موت نبيهم ﷺ، وقال ناس من الناس لتلك الضربة: إن السلاح لا يحيك [1] في طليحة. فما أمسى المسلمون في ذلك اليوم حتى عرفوا النقصان، وارفض الناس إلى طليحة واستطار أمره...).

ولما مات رسول اللَّه ﷺ قام عيينة بن حصن في غطفان، فقال: ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة، واللَّه، لأن نتبع نبيًّا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيًّا من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة، فطابقوه على رأيه ففعل، ففعلوا، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار وقضاعي وسنان ومن كان قام بشيء من أمر رسول اللَّه ﷺ في بني أسد إلى أبي بكر، وارفض من كان معهم، فأخبروا أبا بكر بالخبر، وأمروه بالحذر) [2].

---

(١) لا يحيك: لا يعمل ولا يؤثر.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦٢).

لقد كانت الخطة النبوية في مواجهة المرتدين هي أن يصادم من كفر وارتد بمن آمن وأسلم، ومن أجل ذلك عندما بلغ رسول اللّٰه ﷺ عن ردة طليحة بعث إلى الزعماء المسلمين في أسد أن يقوموا بمواجهة طليحة من خلال حرب عصابات ضده، لا من خلال حرب مواجهة مكشوفة؛ لأن أكثرية أسد كانت معه.

وعندما نريد أن نتعرف على القيادات المسلمة في أسد لا بد من العودة إلى وفد أسد الذي وفد إلى المدينة، وأعلن إسلامه بين يدي رسول اللّٰه ﷺ.

فقد روى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال: (قدم عشرة رهط من بني أسد بن خزيمة على رسول اللّٰه ﷺ في أول سنة تسع فيهم حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد... وطليحة بن خويلد، ونُقادة بن عبد اللّٰه، ورسول اللّٰه ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول اللّٰه، إنا شهدنا ألّا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله. وقال حضرمي بن عامر: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثًا. فنزلت فيهم: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]. وفي رواية قالوا: يا رسول اللّٰه، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب... فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ [١]، فنحن مع قوم ترافقهم نخوة الجاهلية وعزتها، وهم يتقدمون إلى الدخول في دين اللّٰه، حتى ليذمهم القرآن لهذا الموقف، وكانت شخصية ضرار بن الأزور أصدق شخصية فيهم. (فقد روى البغوي وابن شاهين عن ضرار بن الأزور، قال: أتيت النبي ﷺ فأنشدته:

خلعْتُ القِداح وضربَ القيا ... نِ والخمْرَ أشربُها والثّمَالا
وكَرِّي المحبَّر في غمْرة ... وجَهدي على المشرِكين القتالا
وقالت جميلةُ: بدَّدْتنا ... وطرَّحت أهلكَ شتَّى شمالا
فيا ربُّ لا أغبنن صفقة ... فقد بعت أهلي مالي بِدالا

فقال النبي ﷺ: « **ربح البيع** ».

ورواه الطبراني عن طريق سلام بن عبد المنذر.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤٠٤/٦).

ويقال: كان له ألف بعيرٍ برعاتها، فترك جميع ذلك)[١].

ولهذا اختاره رسول اللَّه ﷺ ليكون القائد الفذ الذي يواجه طليحة.

ثم نتساءل: لماذا سارع طليحة إلى التنبؤ في عهد رسول اللَّه ﷺ؟ ويأتينا الجواب من ملفات وفد أسد، إذ كانت هذه القبيلة تعج بالعيافة والكهانة، وضرب الحصى، وكانوا يتصورون النبوة قريبًا من ذلك.

(فقد روى النسائي والبزار وابن مردويه... وغيرهم.

ومما سألوا عنه رسول اللَّه ﷺ يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم رسول اللَّه ﷺ عن ذلك كله)[٢].

ومما يؤكد ضعف إسلامهم، وأنه أقرب إلى الاستسلام منه إلى الإسلام ما رواه ابن سعد قال: (وكان معهم قوم من بني الزنية... فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « **أنتم بنو الرشدة** »، فقالوا: لا نكون مثل بني محولة. يعنون: بني عبد اللَّه بن غطفان)[٣].

فقد رفضوا تغيير اسمهم من (بني الزنية) إلى (بني الرشدة).

فكان ضرار ومن معه من المؤمنين هو المكلف بالمناوشات مع طليحة دون المواجهة، طليحة الذي تنبأ حيث أسد هم قبيلة الكهانة والعيافة والخط في الرمل، وفي كل يوم نصر للمسلمين، حتى رأى ضرار أن بالإمكان المسير إلى طليحة ومواجهته العلنية، وانتشر الرعب في قلوب المشركين من بني أسد، إلى أن وقع الفشل حين ضرب ضربة بسيفه الجزار (القاطع) فنبا ولم يقطع، فانتشرت الحادثة، وتحولت إلى إشاعة: إن السلاح لا يحيك في طليحة. (أي: لا يؤثر). ورافق ذلك نبأ وفاة رسول اللَّه ﷺ، فانقلبت الآية، وتجرأ الأسديون على المسلمين فيهم وعلى رأسهم ضرار، واشتد أزر طليحة بنبأ وفاة رسول اللَّه ﷺ.

(فما أمسى المسلمون في ذلك اليوم حتى عرفوا النقصان)، وانضمت غطفان إلى طليحة، وبعض طيئ كذلك، فأصبح المسلمون أقلية ضئيلة جدًّا اضطروا بعدها إلى الهرب والانسحاب إلى المدينة، حيث الخليفة الصديق.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ت (٤٣٣٣)، (ص ٦٢٤).

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤٠٤/٦).

إن الجانب المعنوي له مدلولاته الكبرى في حرب الصحراء خاصة التي تقوم على الكر والفر، وأمام هذه العوامل الثلاثة ارتفعت القوة المعنوية لطليحة؛ نبوّ سيف ضرار، ونبأ وفاة رسول اللَّه ﷺ، وانضمام غطفان وبعض طيئ، مِمَّا أنهى الوجود الإسلامي في هذا التجمع، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة؛ هرب ضرار وقضاعي وسنان، ومن قام بشيء من أمر النبي ﷺ في بني أسد إلى أبي بكر.

تَحَرُّكُ طليعة المسلمين ومقتلهم:

نعود إلى الخطة المشتركة بين الصديق وخالد التي أوهمت العرب أن أبا بكر بشخصه وبجيش معه سيلتقي مع جيش خالد للزحف نحو بزاخة:

(وأمره أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن، وهما على بزاخة، ماء من مياه بني أسد، وأظهر أني ألاقيك ممن معي من نحو خيبر مكيدة، وقد أوعب مع خالد الناس، ولكنه أراد أن يبلغ ذلك عدوه فيرعبهم، ثم رجع إلى المدينة). واختار خالد رضي الله عنه بطلين عظيمين سارا بمقدمة الجيش وسبقاه للتعرف على أخبار العدو، (وسار خالد ابن الوليد حتى إذا دنا من القوم بعث عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم - أحد بني العجلان حليفٌ للأنصار - طليعةً...).

ونقف مليًّا عند هذين البطلين:

أما ثابت بن أقرم: فهو البطل الذي أخذ راية المسلمين في مؤتة بعد مقتل عبد اللَّه ابن رواحة.

ولو لم يفعل لقضى المسلمون جميعًا تحت سنابك خيل الروم والعرب، إذ غدا المسلمون بلا راية ولا قائد، ولثابت هذا ماضٍ ناصعٌ مع خالد بن الوليد، فهو حين رأى خالدًا بجواره، وهو جندي عادي في الجيش الإسلامي، وذلك بعد إسلامه بشهرين تقريبًا، أدرك ثابت بثاقب نظره أن خالدًا أجدر منه بالقيادة، وإدارة دفة المعركة - أوليس هو أكبر قادة المشركين وهو الذي أدار دفة أُحد وحوَّل انتصار المسلمين فيها إلى محنة - فدفع الراية إليه دون تردد.

وما أحس خالد إلا وراية المسلمين بين يديه، وهو حديث الإسلام، وابنه الجديد يستحي أن يتقدم على أصحاب رسول اللَّه ﷺ وأنصاره قائلًا لثابت: أنت أفضل

مني. وحزم الأمر ثابت بقوله لخالد: أنت أقوى مني، والمكان هنا مكان قوة وعبقرية لا مكان فضل. فحمل الراية وجعل اللَّه النصر على يديه.

(ففي حديث أبي عامر ﷺ عند ابن سعد: أن عبد اللَّه بن رواحة ﷺ لما قتل انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين معًا، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال: إليَّ أيها الناس. فاجتمع إليه الناس حتى كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد، فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به. فقال الأنصاري: واللَّه ما أخذتُهُ إلا لك) [(١)].

(وقال ابن إسحاق: ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد) [(٢)].

(وروى الطبراني عن أبي اليسر ﷺ قال: أنا دفعت الراية إلى ثابت بن أقرم لما أصيب عبد اللَّه بن رواحة، فدفعها إلى خالد، وقال له ثابت بن أقرم: أنت أعلم بالقتال مني) [(٣)]. وفي تلك المعركة حاز خالد بن الوليد أرفع وسام حربي في التاريخ قلَّده إياه رسول اللَّه ﷺ وهو وسام (سيف اللَّه).

ولم يجز بلدة إلا سمعت بها   اللَّه أكبر تدوي في نواحيها

وها هي الأقدار تسوق ثابتًا جنديًّا بين يدي خالد، فيدفعه الطليعة الفدائي الأول إلى بني أسد.

أما البطل الثاني، فهو عكاشة بن محصن: الفارس الأعلم عند رسول اللَّه ﷺ. وعكاشة ينتمي إلى بني أسد، فهو عكاشة بن محصن الأسدي، وهو أحد السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وعندما قام صحابي آخر يطلب دعاء رسول اللَّه ﷺ أن يكون منهم قال له عليه الصلاة والسلام: « **سبقك بها عكاشة** » [(٤)]. ومضت مثلًا، فقد جمع عكاشة ﷺ المواهب الثلاثة، الخبرة فهو أسدي وهو أدرى بقومه وقتالهم، وهو الفارس المجرب الذي لم يكن يساميه إلا أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري، وهو الذي يمشي على الأرض وهم يعرفونه أنه من أهل الجنة، وأنه واحد من سبعين ألفًا في الأرض اختارهم اللَّه تعالى من بين الخلائق كافة يدخلون الجنة بغير حساب ولا عتاب.

(١ - ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢٣٧/٦).

(٤) البخاري، ح (٥٣٧٨).

ثم ماذا كانت نتيجة هذه الطليعة المكوَّنة من هذين البطلين العظيمين؟

(... حتى إذا دنوا من القوم خرج طليحة وأخوه سلمة ينظران ويسألان، فأما سلمة فلم يمهل ثابتًا أن قتله، ونادى طليحة أخاه حين رأى أنه قد فرغ من صاحبه أن أَعِنِّي على الرجل فإنه آكلُنِي [١]. فاعتَوِنَا [٢] عليه فقتلاه ثم رجعا، وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلًا فلم يفطنوا له، حتى وطئته المطي بأخفافها، فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعًا، فجزع لذلك المسلمون وقالوا:

قتل سيدان من سادات المسلمين، وفارسان من فرسانهم) [٣].

لقد كانت بدايةً حربية مؤلمة أن يفقد المسلمون أعز فرسانهم قبل الالتحام، كما أضعف الروح المعنوية في الجيش الإسلامي، وساد الجزع في صفوفه.

إعادة الروح المعنوية للجيش:

فكيف يرفع البطل العظيم معنويات جيشه؟ فهو لو مضى بهم إلى أسد وغطفان فسيمضي بهم والخوف والفزع والطيرة منبثة بين صفوفهم.

(فلما رأى ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت وعكاشة قال لهم:

هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حي من أحياء العرب، كثير عددهم، شديدة شوكتهم، لم يرتد منهم عن الإسلام أحد؟ فقال له الناس: ومن هذا الحي الذي تعني فَنِعْمَ واللَّه الحي هو؟ قال لهم: طيئ. فقالوا: وفقك اللَّه، نعم الرأي رأيت.

فانصرف بهم حتى نزل الجيش في طيئ) [٤].

لقد رأوا أنفسهم في معقل إسلامي عظيم وعدد ضخم قد يفوق عددهم فانتشوا، وكأنما أطلقوا من عقال، واستجمُّوا في طيئ، واستعدوا بروح معنوية عالية للمواجهة.

وكما كان عدي بن حاتم أول من رد الروح المعنوية للمسلمين بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ حين كانت صدقاته، وإعلان استسلامه أول صدقات وصلت المدينة، وها هو هنا يرد الروح المعنوية إلى المسلمين، ويستضيف الجيش الإسلامي كله في قبيلة طيئ التي جمعها على الإسلام.

---

(١) أي: قاتلي ومنتصر علي.
(٢) اعتونا: تعاونا.
(٣، ٤) تاريخ الطبري (٢/٢٦١).

الانطلاق من جبل طيئ أجأ إلى بزاخة:

لقد تحرك عدي بن حاتم مع ألف وخمسمائة من قومه طيئ مع الجيش الإسلامي الذي يقوده خالد ﷺ، والهدف هو هذان العدوان اللدودان أسد وغطفان، وكانت قبائل بني عامر على الحياد تنتظر عم تسفر هذه الحرب، وهم مع المنتصر، ولم ينضموا إلى أحد.

(ثم سار حتى التقيا على بزاخة، وبنو عامر على سادتهم وقادتهم قريبًا يستمعون ويتربصون على من تكون الدَّبْرة [١]) [٢].

وبرزت ظاهرة لدى قبيلة طيئ شكلت لغطًا كبيرًا وخلافًا حادًّا بين عدي وقومه.

إن جهاد الفريقين جميعًا جهاد:

فما هي هذه الظاهرة التي حدثنا عنها سعد بن مجاهد عن أشياخ من قومه؟ يقولون:

(سألنا خالدًا أن نكفيه قيسًا، فإن بني أسد حلفاؤنا فقال:

واللَّه، ما قيس بأوهن الشوكتين، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتم...).

لقد وجدت طيئ حرجًا من مواجهة بني أسد وحربهم رغم ادعاء زعيمهم النبوة؛ لأن حياتهم كلها كانت معهم في حلف، حيث (إن الناس لما اقتتلوا قاتل عيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالًا شديدًا، وطليحة متلفف في كساءٍ له بفناء بيتٍ له من شعر يتنبأ لهم، والناس يقتتلون، فلما هزت عيينة الحرب، وضرس القتال، كرَّ على طليحة فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا. قال: فرجع فقاتل، حتى إذا ضرس القتال وهزته الحرب كرَّ عليه فقال:

لا أبا لك أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا واللَّه. قال: يقول عيينة حلفًا: حتى متى قد واللَّه بلغ منا. قال: ثم رجع فقاتل. حتى إذا بلغ كرَّ عليه. فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحًا كرحاه، وحديثًا لا تنساه. قال: يقول عيينة: أظن أن قد علم اللَّه أنه سيكون حديث لا تنساه!!

يا بني فزارة هكذا فانصرفوا، فهذا واللَّه كذاب. فانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعد فرسه عنده وهيأ بعيرًا لامرأته النوار، فلما أن غشوه

---

(١) الدبرة: الهزيمة في القتال.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦١).

يقولون: ماذا تأمرنا؟ قام فوثب على فرسه، وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلتُ وينجو بأهله فليفعل. ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام، وارفض جمعه، وقتل اللَّه من قتل منهم، وبنو عامر قريبًا منهم على قادتهم وسادتهم، وتلك القبائل من سليم وهوازن على تلك الحال.

فلما أوقع اللَّه بطليحة وفزارة ما أوقع أقبل أولئك يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن باللَّه ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا) [1].

ولا تحتاج هذه النهاية إلى تعليق، فعيينة ابتداءً يعرف أن طليحة كذاب، ولكنه قال: كذاب أسد أحب إلينا من صادق مضر، طالما أن أسد حلفاؤه. لكنه لا يعلن ذلك على الملأ، فلما اشتدت الحرب واشتد الهول راح يستنجد بالنبيّ الكذاب، وماذا سيأمره به جبريل؟ وصبر مرة ومرتين وثلاثًا، ولما لم يجد جدوى أعلن على الملأ كذب طليحة، وفر بمن معه من الموت.

ولم يَطُلْ صبر طليحة أكثر، ولم يُجْدِ هذا العبثُ السَّمِجُ شيئًا على عيينة، وعلى طليحة: إن لك رحًا كرحاه وحديثًا لا تنساه. إنما أركب طليحة امرأته على جملها وهو على فرسه، وسأله الجنود عن أوامره، وكان الجواب فعلًا لا قولًا، هكذا: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل.

لكن خالدًا ﷺ لن يكتفي من المعركة بهذه النتيجة، فالذين فروا قد يعودون ويتجمعون ثانية، ولا بد أن تعرف الساحة أن الأمر جد، وأن الحرب ليست كحروب العرب السابقة يفرون يومًا وَيَنْقَضُّون يومًا، فهم ما بين كرٍّ وفرٍّ، فلا بد من القبض على القيادات التي تحرك نار الحرب وتشعل وَقُودَها، وبقي يتابع ويلاحق حتى استطاع القبض على عيينة، أما طليحة فقد فر بعيدًا إلى الشام إلى ديار كلب، وبقي هناك يتربص الدوائر.

وماذا فعل ﷺ حتى يقبل توبة المرتدين الذين أعلنوا دخولهم بالإسلام من جديد؟ إنه أعفاهم من القتل مقابل أن يَدُلُّوه على كل من غدر وحادَّ اللَّه ورسوله، وذبح وحرق وَقَتَّلَ من المسلمين (ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سليم ولا طيئ إلا أن يأتوه بالذين حرَّقوا ومثَّلوا وعَدَوْا على أهل الإسلام في حال

(١) تاريخ الطبري (٢٦٢/٢).

ردتهم، فأتوه بهم... ومثَّل بالذين عدوا على الإسلام فأحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار، وخزق بالنبال. وكتب إلى أبي بكر: إن بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربص، وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئًا حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتلة...) [(١)].

لا بد أن يرى هؤلاء الأعراب من القيادة الإسلامية شدة وغلظة تتناسب مع طبعهم الغليظ القاسي، ويتعلموا أنهم ليسوا في نزهة حين يفعلون بالمسلمين من قتل وحرق وخزق ما يريدون، ثم ينجون من ذلك بلا عقوبة، ويفلتون بلا عقاب.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

(... فأقام على البزاخة شهرًا يصعِّد بها ويصوِّب، ويرجع إليها في طلب أولئك، فمنهم من أحرق ومنهم من قمطه ورضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال) [(٢)].

وجُنَّ جنون غطفان وأسد، فهي أمام قائد لم تسمع بمثله قط، ولم تشهد بعنفه قط، فقررت اللحاق بخليفة المسلمين؛ عله ينقذهم من هذا الجو الرهيب المرعب الذي أدخلهم فيه خالد.

(أخرج البخاري عن طارق بن شهاب عن أبي بكر ﷺ) [(٣)]... (وساقها الحميدي في الجمع بين الصحيحين، ولفظه الحديث الحادي عشر من أفراد البخاري عن طارق بن شهاب قال:

جاء وفد بزاخة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح، فخيَّرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزية، فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟

قال: ننزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا منكم، وتردون علينا ما أصبتم منا، وتدون لنا قتلانا، ويكون قتلاكم في النار، وتتركون أقوامًا يتبعون أذناب الإبل حتى يُري اللَّه خليفة رسوله والمهاجرين أمرًا يعذرونكم به.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٥). (٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦٥).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١٣/٢١٩).

فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر فقال: قد رأيت رأيًا وسنشير عليك، أما ما ذكرت - فذكر الحكمين الأولين - فنعم ما ذكرت، وأما تدون قتلانا ويكون قتلاكم في النار، فإن قتلانا قاتلت على أمر اللّه، وأجورها على اللّه ليست لها ديات.

قال: فتتابع القوم على ما قال عمر) [(١)].

ردة بني عامر:

لقد كانت بنو عامر تتربص نهاية الحرب بين خالد ﷺ وبين أسد وغطفان، فهي مع المنتصر، وكان لها قائدان كبيران بعد موت عامر بن الطفيل، وهما قرة بن هبيرة، وعلقمة بن علاثة.

أولهما: علقمة بن علاثة:

ونعرض أهم معالم شخصيته منتقاةً مما ورد في الإصابة عنه:

١ - (روى ابن عساكر بإسناد له إلى الشافعي، حدثني غير واحد أن عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة تنافرا، فقال علقمة: لا أنافرك على الفروسية، أنت أشد بأسًا مني. فقال عامر: لا أنافرك على الكرم، أنت رجل سخي. فقال علقمة:

لكني موفٍّ وأنت غادر، وعفيف وأنت عاهر، ووالد وأنت عاقر... فذكر قصة طويلة [(٢)]).

٢ - أما القصة الطويلة فهي قصة تنافرهما إلى زعماء العرب أيهم أَسْوَدُ [(٣)] من الآخر، كما رواها ابن حجر (وكان علقمة بن علاثة تنافر مع عامر بن الطفيل، فخرج مع عامر لبيد والأعشى، وخرج مع علقمة الحطيئة، فَحَكَّمَا أبا سفيان بن حرب (سيد قريش) فأبى أن يحكم بينهما، فأتيا عيينة بن حصن (سيد غطفان) فأبى، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفي (سيد ثقيف) فأبى أن يحكم بينهما فردهما إلى حرملة ابن الأشعري المري، فردهما إلى هرم بن قطبة الفزاري (سيد بني فزارة) فلما نزلا به قال: لأقضين بينكما ولكن في العام المقبل، فانصرفا.

---

(١) فتح الباري شرح البخاري لابن حجر (١٣/٢٢٣).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٤١٣)، (ص ٩٣٤).

(٣) أسود: أعلى بالسيادة من الآخر.

ثم قدما فبعثا إلى عامر سرًّا فقال: أتفاخر رجلًا لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه؟ فكيف تكون أنت خيرًا منه؟ فقال: أنشدك اللَّه أن تفضله علي، وهذه ناصيتي فجزها، واحكم في مالي ما شئت أو فسوٌّ بيني وبينه.

ثم بعث إلى علقمة سرًّا فقال له: كيف تفاخر رجلًا هو ابن عمك وأبوه أبوك وهو أعظم منك غناءً (أي: قوة وبأسًا)؟ فقال له كما قال له عامر.

فأرسل هرم إلى بيته: إني قائل مقالة، فإذا فرغت منها فلينحر أحدكم عن علقمة عشرًا (من الإبل) ولينحر آخر عن عامر عشرًا، وفرقوا بين الناس.

فلما أصبح قال لهما جهارًا:

لقد تحاكمتما إليَّ وأنتما كَرُكْبَتَيْ بعير يقعان معًا، وكلاكما سيد كريم. ولم يُفَضِّلْ (أحدًا عن الآخر فانصرفا على ذلك) [١].

٣ - هذا هو العالم الذي كانت العرب تعيش به، عالم المفاخرة والمنافسة. (وكان يوم خروجهما يومًا مشهودًا من أيام الجاهلية، حيث خرج عامر وعلقمة في موكبين عظيمين) [٢] (خرج علقمة ببني الأحوص فلم يتخلف منهم أحد معهم القباب والجزر والقدور ينحرون في كل منزل ويطعمون، وجمع عامر بني مالك فقال: إنما تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه) [٣].

٤ - وحين جاء الإسلام أراد عامر بن الطفيل أن يقتسم المجد مع رسول اللَّه ﷺ كما روى البيهقي عن مؤمل بن جميل قال: أتى عامر بن الطفيل النبي ﷺ فقال له: « **يا عامر، أسلم** »، قال: أسلم على أن الوبر لي ولك المدر. قال: « **لا** ». ثم قال: « **يا عامر، أسلم** »، فقال: أسلم على أن الوبر لي ولك المدر. قال: « **لا** ». فَوَلَّى وهو يقول: واللَّه يا محمد لأملأنها عليك خيلًا جُردًا ورجالًا مردًا، أو لأربطن بكل نخلة فرسًا...) [٤].

٥ - وكان مصرعه بهذا التهديد (... فقال النبي ﷺ: « **اللهم اكفني عامرًا واهد قومه** ». فخرج حتى كان في ظاهر المدينة صادف امرأة يقال لها: سلولية. فنزل

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٤١٣)، (ص ٩٣٤).

(٢) منافرة عامر وعلقمة د. حمد الزايدي (ص ٣٠).

(٣) الأغاني للأصفهاني (١٥/٥٥).

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٢١).

عن فرسه، ونام في بيتها فأخذته غُدةٌ في حلقه، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه وأقبل يجول وهو يقول: غدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية. فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتًا. والله أعلم)[١].

وفي رواية البخاري: (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، خيِّر بين ثلاث خصال فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف. فطُعن عامر في بيت أم فلان. فقال: غدة كغدة البكر، في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي. فمات على ظهر فرسه)[٢].

٦ - وبموت عامر، خلا الجو لعلقمة، وأراد أن يجرب حظه عند قيصر، فمضى إلى الشام مع كنانة بن عبد ياليل، وأبي عامر الراهب، ووفد ثلاثتهم على قيصر، وأقاموا هناك. (وذكر البلاذري أن سبب قدوم علقمة على قيصر أنه بلغه موت أبي عامر الراهب فقدم هو وكنانة في طلب ميراثه فأعطاه لكنانة؛ لكونه من أهل المدر (المدن) ولم يعطه لعلقمة)[٣].

٧ - وكانت فرصة سانحة لقيصر أن يسأله عن محمد رسول الله ﷺ، كما جرى حين سأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ، وبلغ رسول الله ﷺ أن علقمة ذكر محمدًا بخير وأن أبا سفيان ذكره بشر.

(فقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر، وأبو عوانة في صحيحه من طريق ابن أبي حدرد الأسلمي قال: قال محمد بن مسلمة: كنا يومًا عند رسول الله ﷺ، فقال: « **يا حسان، أنشدني من شعر الجاهلية** ». فأنشده قصيدة الأعشى التي هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل، فقال: « **يا حسان، لا تعد تنشدني هذه القصيدة** ». فقال: يا رسول الله، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟ فقال: « **إن قيصر سأل أبا سفيان عني فتناول مني، وسأل علقمة فأحسن القول، فإن أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى** ».

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٢١). (٢) البخاري، ح (٤٠٩١).
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٤١٣)، (ص ٩٣٤).

ورأيت نحو ذلك مرويًّا عن ابن عباس بنحو هذا السياق) [١].

٨ - وأقبل صلح الحديبية، وأقبل الناس على الإسلام، وشرح صدر علقمة لهذا الدين، أو رأى أن الزعماء العرب قد أقبلوا للانضمام عليه، فلم يَفُتْهُ ذلك الانضمام، وفرح رسول اللَّه ﷺ بإسلامه، وبعث بكتابه مبشرًا لسيد خزاعة التي حالفت النبي ﷺ يذكر لهم ذلك، ولعله قد بلغه ثناء رسول اللَّه ﷺ.

(وقدم على رسول اللَّه ﷺ علقمة بن علاثة... وهوذة بن خالد بن ربيعة وابنه، وكان عمر جالسًا إلى جنب رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه: « **أوسع لعلقمة** »، فأوسع له، فجلس إلى جنبه، فقص عليه رسول اللَّه ﷺ شرائع الإسلام وقرأ عليه قرآنًا فقال: يا محمد، إن ربك لكريم، وقد آمنت بك، وبايعت على عكرمة بن خصفة ابن قيس، وأسلم هوذة وابنه وابن أخيه، وبايع هوذة على عكرمة أيضًا) [٢].

(وكتب رسول اللَّه ﷺ إلى بديل وسروات بني عمرو (من خزاعة):

« **... أما بعد، فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة، وابنا هوذة وهاجرا، وبايعا على من تبعهم من عكرمة، وأن بعضنا من بعض في الحلال والحرام، وأني واللَّه ما كذبتكم وليحبنكم ربكم** » [٣].

فقد غَيَّرَ علقمة اتجاه السفينة، سفينة بني عامر، من التوجه إلى حرب الإسلام كما كان يريد عامر بن الطفيل خصمه اللدود، إلى التوجه إلى الإسلام.

٩ - ولم يكتف علقمة بإعلان إسلامه، فحين استنفر لفتح مكة بعد عامين تقريبًا كان من المشاركين في الفتح، ولموقعه عند العرب، دخل رسول اللَّه ﷺ مكة ومعه هذه القيادات العربية:

الأقرع بن حابس سيد بني تميم.

وعيينة بن حصن سيد بني غطفان.

وعلقمة بن علاثة سيد بني عامر.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٤١٣)، (ص ٩٣٤).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١١/١). ط دار الفكر.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٧٢/١).

وحضر علقمة غزوة حنين وحصار الطائف مع رسول اللَّه ﷺ، وكان من أوائل المؤلفة قلوبهم، فقد ذكر ابن هشام من أعطي مائة من الإبل من أفناء القبائل فقال:

(ومن بني قيس ثم من بني عامر بن صعصعة، ثم من بني كلاب بن ربيعة علقمة ابن علاثة... ولبيد بن ربيعة... ومن بني عمرو بن ربيعة خالد بن هوذة بن ربيعة... وحرملة بن هوذة بن ربيعة...) (١) وهذه القيادات كلها من بني عامر بن صعصعة.

وبقي يتردد مع زعماء القبائل على رسول اللَّه ﷺ، حيث خصهم بذهب في تبره وصل إليه من اليمن من علي بن أبي طالب ﷺ، وكان ذلك قبيل حجة الوداع.

(فقد روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن عليًا - كرم اللَّه وجهه - بعث إلى رسول اللَّه ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، فقسمها رسول اللَّه ﷺ بين أربعة نفر؛ بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، وعلقمة بن علاثة) (٢).

١٠ - (وقد كان علقمة أسلم ثم ارتد في أزمان النبي ﷺ بعد فتح الطائف (٣) حتى لحق بالشام، فلما توفي النبي ﷺ أقبل مسرعًا حتى عسكر في بني كعب، مقدمًا رجلًا ومؤخرًا أخرى، وبلغ ذلك أبا بكر، فبعث إليه سرية، وأقر عليها القعقاع ابن عمرو، وقال: يا قعقاع، سر تُغير على علقمة بن علاثة، لعلك أن تأخذه لي أو تقتله، واعلم أن شفاء الشَّقّ الحوص (٤)، فاصنع ما عندك. فخرج في تلك السرية حتى أغار على الماء الذي فيه علقمة، وكان لا يبرح أن يكون على رِجْلٍ (٥)، فسابقهم على فرسه، فسبقهم مراكضة، وأسلم أهله وولده فانتسف (٦) امرأته وبناته ونساءه، ومن أقام من الرجال، فاتقوه بالإسلام، فقدم بهم على أبي بكر، فجحد ولده وزوجته أن يكونوا مالأوا علقمة، وكانوا مقيمين في الدار، فلم يبلغه إلا ذلك وقالوا:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٠٩). (٢) البخاري، ح (٣٣٤٤).

(٣) ليس الكلام دقيقًا لتناقضه مع رواية الصحيحين في الفقرة السابقة وبقائه على الإسلام حتى قبيل حجة الوداع، والظاهر ردته بعد وفاة النبي ﷺ.

(٤) أي أن علاج الشق هو الخياطة ويضرب هذا المثل في عدم ترك الأمر اليسير فيتفاقم ويصبح كبيرًا.

(٥) لا يبرح أن يكون على رِجْلٍ أي: متهيئ للرحيل والفرار إذا حوصر.

(٦) انتسف أي: « قبض على » والمقصود: وقبض عكرمة على ولد ونساء علقمة.

ما ذنبنا فيما صنع علقمة من ذلك. فأرسلهم، ثم أسلم [١] فقبل ذلك منه) [٢].

لقد قاد علقمة قومه إلى الإسلام، لكنه لم يستطع أن يقودهم إلى الكفر، وقبل أبو بكر ﷺ دعواهم بإسلامهم، ثم قبل إسلام علقمة بعد ردته.

١١ - علقمة واليًا على حوران:

(وقال هشام بن الكلبي، حدثني جعفر بن كلاب: أن عمر بن الخطاب ولى علقمة حوران فنزلها إلى أن مات، وخرج إليه الحطيئة فوجده قد مات، وأوصى له بجائزة فرثاه بقصيدة منها:

فما كان بيني لو لقيتُك سالمًا وبين الغِنَى إلَّا لَيالٍ قلَائِل

لعمري لَنِعْمَ المرءُ من آل جَعْفَر بحورَان أمسَى أدركَتْه الحبَائل

ورواه المدائني عن أبي بكر الهذلي، وزاد فيه:

فقال له ابنه: كم ظننت أن أبي يعطيك؟

قال: مائة ناقة.

قال: فلك مائة ناقة يتبعها أولادها) [٣].

لقد كانت سياسة النبوة في التعامل مع القيادات العربية ماثلة في ذهن الصديق، فلم يترك علقمة زعيم بني عامر عدوًّا للإسلام متخفيًّا أو لاجئًا وهو الذي طبقت شهرته وشرفه الآفاق العربية فيما رأينا من منافرته مع عامر بن الطفيل.

فقبل الصديق أبو بكر ﷺ إسلامه.

وحين كسرت شوكة الردة جاء الفاروق ﷺ ليوجه هذه الطاقات القيادية الضخمة لصالح الإسلام، وليغسل من أذهان الناس ردة علقمة، فجعله واليًا له على حوران.

وانتقل علقمة ﷺ من سيدٍ لبني عامر، ومن عدوٍّ لدود للإسلام، إلى مسلم له شرفه وحسبه، وله طاقاته ومواهبه، فأصبح في ظل الإسلام واليًا على حوران إلى أن مات، وحافظ على زعامته وشرفه وكرم أرومته حين قصده الحطيئة، والحطيئة ليس نكرة عند علقمة، فقد كان من الشعراء الذين وقفوا بجواره يوم منافرته مع عامر

---

(١) أسلم، أي: علقمة. (٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦٤).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٤١٣)، (ص ٦٣٤)، مجلد واحد.

ابن الطفيل، بينما كان لبيد والأعشى ضده. وخلد الحطيئة علقمة بقوله عند المنافرة:

جاريت قرمًا أجاد الأحوصان به — جزل المواهب في عرنينه شمم
لا يصعب الأمر إلا ريث يركبه — ولا يبيت على مالٍ له قسم
مصباح ساري ظلام يستضاء به — في إثر موسوقة تهدي بها النعمُ
ومثله في كلاب في أرومته — يُعطى المقاليد أو يُلقى له السلم

وحتى يحافظ ولد علقمة على سمعة والده في الكرم أعطى الحطيئة مائة ناقة معها أولادها، فإذا كان رسول اللَّه ﷺ قد أعطى علقمة بن علاثة مائة ناقة من غنائم حنين، فلا غرو أن يحافظ الصديق والفاروق على علقمة زعيمًا في ظل الإسلام كما كان زعيمًا في عهد الجاهلية.

السيد الثاني لبني عامر، قرة بن هبيرة:

لقد كان علقمة بن علاثة سيد بني كلاب بن ربيعة بن عامر، وكان قرة بن هبيرة سيد بني قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر.

١ - إسلامه:

(روى ابن أبي عاصم... عن رجل من بني قشير يقال له قرة بن هبيرة أنه أتى النبي ﷺ فقال له:

إنه كان لنا أرباب وربات نعبدهن من دون اللَّه، فبعثك اللَّه، فدعوناهن فلم يُجِبْنَ، وسألناهن فلم يعطين، وجئناك فهدانا اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أفلح من رَزِقَ لُبًّا** ».

فقال: يا رسول اللَّه، اكسني ثوبين قد لبستهما. فكساه)[١].

٢ - قرة أمير قومه على الصدقات:

(روى ابن سعد عن علي بن محمد القرشي ورجل من بني عقيل قالا:

وفد على رسول اللَّه ﷺ نفر من بني قشير فيهم ثور بن عزرة...

وذلك قبل حجة الوداع وبعد حنين، ومنهم: قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٧٣٤٨)، (ص ١٠٧٤).

فأسلم فأعطاه رسول الله ﷺ وكساه بردًا، وأمره أن يتصدق على قومه - أي: يلي الصدقة - فقال قرة حين رجع:

حَباها [١] رَسُولُ اللَّه إذْ نزلَت به وأمكَنها مِن نَائل [٢] غَيْر مفند [٣]
فأضْحت بَروْضي الخضْر وَهي حَثِيثَةٌ وقَد أنجَحت [٤] حاجَاتَها مِن مُحمَّد
عليها فتًى لا يُردف الذمَّ رحْله تَروكٌ لأمرِ العَاجِزِ المتردِّد) [٥]

٣ - قرة في أعظم مديح لرسول اللَّه ﷺ:

والذي تركه علماء السِّيَرِ من القصيدة المذكورة لقرة بن هبيرة ﷺ هو أهم بكثير مما ذكروه، فالأبيات الثلاثة التي وردت هي فخر قرة بنفسه ومدح رسول اللَّه ﷺ بإكرامه له من خلال الثناء على إكرام ناقته، لقد استحيا أن يذكر عطاء رسول اللَّه ﷺ، فاعتبره إعطاءً للناقة وإكرامًا لها وتحقيقًا لطموحاتها.

لقد ترك علماء السير أعظم ما في القصيدة، وقد يكون من أعظم ما مدح به الرسول ﷺ في عهده، وتعهدت كتب الأدب لنا بذكرها.

فقد ذكر ابن سلّام في كتابه « جمهرة أشعار العرب » ما يلي:

(عن ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن الطفيل عن أبيه عن جده:

أن قرة بن هبيرة وفد على رسول اللَّه ﷺ فبايعه وأسلم، فحباه وكساه بُرْدَيْن، وحمله على فرس، واستعمله على قومه، فقال قرة يذكر ذلك، ويذكر ناقته في قصيدة له طويلة:

حَباها رسُولُ اللَّه إذ نزلَت به وأمكَنها من نَائِل غَيرِ مُفند
فما حَملت من نَاقةٍ فَوق رَحْلها أبرَّ وأوفَى ذمَّة مِنْ محمد
وأكسَى لبُرد الحال قبل ابِتذَاله وأعْطَى لرأسِ السابح المتجرد) [٦]

فالأبيات هنا تلقي إضاءة على الإعجاب العظيم والامتنان العميق من قرة لرسول اللَّه ﷺ؛ لما حباه به من فضل ولما رفعه به من جاه، فسلمه قيادة قومه وجباية

---

(١) حباها: أكرمها.
(٢) نائل: عطاء.
(٣) غير مفند: غير منتهٍ.
(٤) أنجحت: النجاح وتحقيق الغاية.
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٠٣/١).
(٦) جمهرة أشعار العرب (ص ٩).

صدقاتهم، فلم يتمالك أن يتحدث عن عظمة رسول اللَّه ﷺ برًّا ووفاءً. ومعنى هذا البيت في التاريخ خارج حدود الزمان والمكان إلى قيام الساعة:

فما حمَلتْ من ناقة فوقَ رَحلها أبرَّ وأوفى ذمةً من محمد

ويتحدث عن الكرم والجود لسيد ولد آدم:

وأكسى لبرد الحال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابح المتجرد

فكسوة البرد إشارة إلى البردين الجديدين للذين كساهما له رسول اللَّه ﷺ؛ ورأس السابح المتجرد إشارة إلى الفرس السبوح التي وهبها له رسول اللَّه ﷺ.

٤ - قرة في قلب رسول اللَّه ﷺ:

(فعن سعيد بن نشيط: أن قرة بن هبيرة العامري قدم على رسول اللَّه ﷺ، فلما كان في حجة الوداع نظر إليه رسول اللَّه ﷺ وهو على ناقة قصيرة، فقال: « **يا قرة** » (١)، فأتى رسولَ اللَّه ﷺ. فقال: « **كيف قلت حين أتيتني؟** »، قال: قلت يا رسول اللَّه، كانت لنا أرباب وربات من دون اللَّه تعالى ندعوهم فلم يجيبونا، ونسألهم فلم يعطونا، فلما بعثك اللَّه بالحق أتيناك وتركناهم وأجبناك.

فلما أدبر قال رسول ﷺ قال: « **أفلح من رُزِقَ لُبًّا** ») (٢).

٥ - قرة بعد رسول اللَّه ﷺ:

لا شك أن كيانه قد اهتز لوفاة رسول اللَّه ﷺ، وراعه ما رأى مَنْ ردة من حوله من الزعماء، وبقي في قلب هذا البحر من الشرك حوله لا يجاهر بإسلامه، ولا يتابع المرتدين، وقد مر به عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو على هذه الحالة كما روى لنا الطبري

---

(١) أهم ما في هذه الحادثة هو عظمة رسول اللَّه ﷺ وهو يتذكر قرة من بين المائة ألف الذين كانوا معه في حجة الوداع، ويتذكره من بين الآلاف الذين وفدوا عليه، والأعظم من ذلك أن هذا الأمر تم يوم عرفة، ويوم عرفة حين يلبس الناس جميعًا ثياب الإحرام، فيتشابه الناس كثيرًا بحيث لا يعرف الرجل أقرب الناس إليه لتشابه لباسهم، فكأنهم نسخة واحدة فيناديه باسمه: « يا قرة » ويتذكر ما قاله يوم وفد عليه من الألوف المؤلفة التي وفدت عليه، ويستعيده ثانية ذلك الكلام المحكم الذي لخص به، كيف خلع ربقة الجاهلية من عنقه، واعتناقه لدين اللَّه، وذلك التعقيب النبوي الذي جاء تعقيبًا على حادثة، ومضى حكمة إلى أبد الدهر ترددها الأجيال بعد الأجيال، ولكل المسلمين في الأرض ليتعرفوا على دور العقل في حياتهم فيؤدوه: « أفلح من رزق لبًّا »، وكم كان وَقْع هذا الكلام والتعقيب عظيمًا على نفسية قرة حين سمعه من فم رسول رب العالمين.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير الجزري (٤/٥٠٤).

(حدثني السري قال: حدثنا شعيب عن سيف عن الحجاج عن عمرو بن شعيب قال:

كان رسول اللَّه ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر (ملك عمان) منصرفه من حجة الوداع، فمات رسول اللَّه ﷺ وعمرو بعمان، فأقبل حتى انتهى إلى البحرين ووجد المنذر بن ساوى في الموت، فقال له المنذر: أَشِرْ عليَّ في مالي بأمر لي ولا علي. قال: صدِّق (أي: تَصَدَّق) بعقار صدقة تجري من بعدك. ففعل.

ثم خرج من عنده، فسار في بني تميم، ثم خرج منها إلى بلاد بني عامر، فنزل على قرة بن هبيرة، وقرة يقدم رِجلًا ويؤخر رِجلًا، وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خواصًا. ثم سار حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى حيث انتهيت إليكم، فتفرقوا، وتحلقوا حلقًا) (١).

٦ - قرة يستعمل دهاءه حتى لا يكفر قومه:

(والرواية الثانية للطبري تلقي الإضاءة على موقفه، قال:

حدثنا السري، قال: حدثنا شعيب عن سيف، عن هشام بن عروة عن أبيه قال:

نزل عمرو بن العاص منصرفه من عمان بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ بقرّة بن هبيرة ابن سلمة بن قشير وحوله عسكر من بني عامر من أفنائهم، فذبح له، وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قرة، فقال: يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم.

فقال عمرو: أكفرت يا قرة؟ وحوله بنو عامر، فكره أن يبوح بمتابعتهم (أي: المسلمين) فيكفروا (أي: بني عامر) بمتابعته، فينفر في شر. فقال: لنردنكم إلى فيئتكم - وكان من أمره الإسلام - اجعلوا بيننا وبينكم موعدًا.

فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بهم، موعدك حفشُ أمك! فواللَّه لأوطئن عليك الخيل. وقدم على المسلمين فأخبرهم) (٢).

فهو لم يتحدث بإيمان ولا كفر، إنما تحدث بولاء للدولة أو خروج عنها، وموقفه الذي هو فيه قد رضي به قومه، فالموجة العاتية من الكفر لا تمكنهم من المواجهة، ولم يبلغ الإيمان بهم هذه الدرجة، ولم يوجد بينهم من ارتفع به إيمانه إلى هذا

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦٣).

المستوى، ولو وجد فليس قادرًا أن يجمع عليه أحد.

٧ - قرة يأسره خالد ويبعث به إلى أبي بكر:

(حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: لما فرغ خالد من أمر بني عامر وبيعتهم على ما بايعهم عليه، أوثق عيينة بن حصن، وقرة بن هبيرة، فبعث بهما إلى أبي بكر، فلما قدما عليه قال له قرة: يا خليفة رسول اللّه، إني قد كنت مسلمًا، ولي من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة، قد مرَّ بي فأكرمته، وقرَّبته ومنعته. فدعا أبو بكر عمرو بن العاص فقال: ما تعلم من أمر هذا؟ فقص عليه الخبر حتى انتهى إلى ما قال له من أمر الصدقة، قال له قرة: حسبك رحمك اللّه. قال: لا واللّه حتى أبلغه كل ما قلت. فبلَّغ له، فتجاوز عنه أبو بكر، وحقن دمه) [١].

٨ - قرة في الصف الإسلامي بعد انهيار الردة:

عمرو بن العاص ﷺ له رواية تلقي آخر الإضاءات على الموقف السياسي.

(قال عمرو: فمررت بمسيلمة فأعطاني الأمان ثم قال: إن محمدًا أرسل في جسيم الأمر، وأرسلت في المحقرات. فقلت: اعرض علي ما تقول. فذكر كلامه، فقال عمرو: واللّه، إنك لتعلم أنك من الكاذبين، فتوعَّدني، فقال لي قرة بن هبيرة: ما فعل صاحبكم؟ فقلت له: إن اللّه اختار له ما عنده.

فقال: لا أصدق أحدًا منكم بعد.

قال: ثم لقيته بعد ذلك وقد أمَّنَهُ أبو بكر، وكتب معه أن أدِّ الصدقة.

فقلت له: ما حملك على ما قلت؟

قال: كان لي مال وولد فتخوفت من مسيلمة، وإنما أردت أن لا أصدق بعد من يقول: إنه رسول اللّه) [٢].

لم يكن قرة بقوة شخصية عامر بن الطفيل، ولا علقمة بن علاثة، واستعمل دهاءه وسياسته وَلُبَّهُ في البقاء على الموقع المائع، ظاهره الكفر دون أن يتبناه مع قومه ويعلنه، إنما يشارك المرتدين في إيقاف الصدقة وحقن دماء بني عامر من المواجهة مع المسلمين أو مع المشركين.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٣).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٧٣٤٨)، (ص ١٠٧٤).

٩ – ولئن انتهى قرة ﷺ في الصف الإسلامي بعدها دون ذكر فقد جاء من صلبه مَنْ ملأ دنيا الأدب حبًّا وحنانًا:

(فقد روى صاحب الأغاني [١] عن هذه الأبيات في خبر مرفوع إلى إبراهيم ابن محمد بن سلمان الأزدي قوله: لو حَلَفَ حالفٌ أنَّ أحسنَ أبيات قيلت في الجاهلية والإسلام في الغزل قول الصمة القشيري ما حنث). وغرة هذه القصيدة:

حننتَ إلى ريا ونفسك باعدت	مزارك من ريا وشعباكما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعًا	وتجزع أن داعي الصبابة أسمعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها	عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا) [٢]
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني	على كبدي من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع	عليك ولكن خل عينيك تدمعا) [٣]

١٠ – لقد أنقذ قرة بن هبيرة ﷺ عند أبي بكر الصديق بحسن سياسته، وأنقذ قومه من الحرب مع المشركين أو ضد المسلمين كما روى الطبري رحمه الله. فقال:

(وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه.

فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيئ قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام، ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سليم ولا طيئ إلا أن يأتوه بالذين حرَّقوا ومثَّلوا وعدَوْا على أهل الإسلام في حال ردتهم، فأتوه بهم فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة ونفرًا معه).

لقد خاضت القبائل الكبرى الخمسة حربًا وإيذاءً وتحريقًا للمسلمين، وعوقبوا على ممالأتهم وسكوتهم عليهم وأحضروهم للصديق، فعاقبهم على فعلتهم إلا عامر التي نَجَتْ من ذلك.

وحفظ لها الصديق وخالد رضوان الله عليهما هذا الموقف وقبل إسلامهم دون تردد.

لقد أنهى خالد ﷺ المرحلة الصعبة الأولى من مهمته، وأنهى ردة سليم وهوازن

---

(١) الأغاني للأصفهاني (٢٥/٦). (٢) شعر ابن عامر (١٨٥/١).

(٣) الإصابة لابن حجر (ص ١٧٤). هذا ولا ننسى أن ثاني أئمة المحدثين هو من بني قشير وهو مسلم ابن الحجاج القشيري رهط قرة بن هبيرة.

وعامر وأسد وغطفان وطيئ، فجاءه كتاب الخليفة الصديق كما ذكر الطبري:

(وحدثنا شعيب عن سيف عن أبي عمرو عن نافع قال:

كتب أبو بكر إلى خالد: ليزدك ما أنعم اللَّه عليك خيرًا، واتق اللَّه في أمرك، فإن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدَّ في أمرك ولا تنينَّ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره، ومن أحببت ممن حادَّ اللَّه أو صادَّهُ ممن ترى في ذلك صلاحًا فاقتله)[1].

إنها الخطوط الإسلامية العريضة التي يتحرك من خلالها خليفة المسلمين وأكبر قادته خالد بن الوليد سيف اللَّه المسلول:

١ - النصر نعمة من اللَّه، والنعمة تزداد بالشكر.

٢ - تقوى اللَّه هي المحرك الأعظم في كل خطوات الحرب، وخوف اللَّه تعالى يملأ كيان الجندي المسلم والقائد المسلم، فإن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

٣ - الصبر والمصابرة والجد في الجهاد، فإن الضعف والتراجع خذلان.

٤ - القاتل يُقتَل، ويعاقب بما جَنَتْ يداه، فلا مجال في قلب الحرب لِلِّين، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣] أما في غير الحرب: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٥ - ويبقى التعامل مع العدو مرتبطًا بمصلحة المسلمين عفوًا أو قتلًا.

(أم زِمل) و (الفجاءة السلمي):

- أما الزعيم اليوم لغطفان فهو امرأة وهي أم زِمل بنت أم قرفة بنت ربيعة بن فلان ابن بدر:

لقد أُخذت سبية في شبابها حين غزا المسلمون غطفان، وقتلت أمها أم قِرفة التي كان يضرب بها المثل في العز. (ففي شرح المواهب: فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية التي جرى فيها المثل: أعز من أم قِرفة)[2] (لأنها كانت تعلق في بيتها

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٥).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٦/١٥٨).

خمسين سيفًا كلهم لها ذو محرم، وكان لها اثنا عشر ولدًا، كُنِّيَتْ بابنها قِرفة، قتله النبي ﷺ، وسائر بنيها قتلوا مع طليحة في الردة فلا خير فيها ولا في بنيها، فأمر زيد ابن حارثة بقتل أم قِرفة لِسبِّهَا سيدنا رسول اللَّه ﷺ...) (١).

فأم زِمل من أعرق بيوت الكفر، موتورة ثائرة لقتل أمها وإخوتها الاثني عشر، وورثت المجد عن أمها (فاجتمعت تلك الفُلال (٢) إلى سلمى (أم زِمل)، وكانت في مثل عز أمها، وعندها جملها، فنزلوا إليها فذمَّرتهم (٣)، وأمرتهم بالحرب، وصعدت سائرة فيهم وصوَّبت تدعوهم إلى حرب خالد حتى اجتمعوا لها، وتشجعوا على ذلك، وتأشب (٤) إليها الشُّرَدَاء (٥) من كل جانب... فتجمع لها كل فَلٍّ ومُضَيَّق عليه (٦) من تلك الأحياء من غطفان وهوازن وسُلَيْم وأسد وطيئ، فلما بلغ ذلك خالدًا - وهو فيما هو فيه، من تتبع الثأر، وأخذ الصدقة، ودعاء الناس وتسكينهم - سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها، وغَلُظَ شأنها، فنزل عليها وعلى جُمَّاعها، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وهي واقفة على جملِ أمها، وفي مثل عزها. وكان يقال: من نخس جملها فله مائة من الإبل؛ لعزها، وأُبيرت يومئذ بيوتات من جاس، وهاربة، وأصيب في أناس من كاهل، وكان قتالهم شديدًا حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه (٧) وقتلوها وقتل حولها مائة رجل وبعث بالفتح، فقدم على إثر قرة بنحوٍ من عشرين ليلة) (٨).

الفجاءة السلمي:

لقد كان إسلام القبائل في عهد رسول اللَّه ﷺ أقرب إلى الاستسلام منه إلى الإسلام؛ إذ كان فتح مكة إيذانًا بقوة محمد ﷺ التي لا تقاوم، وخاصة بعد أن جربت هوازن حظها في المواجهة وتحول جيشها إلى سبايا وغنائم عند رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام، أما وقد توفي النبي ﷺ فليعيدوها جاهلية من جديد، وليتحرك كل زعيم قبيلة كما كان من قبل دولة ذات سيادة تامة لا تبعية عندها لأحد، وقد وضح

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (١٥٨/٦).
(٢) الفلال: الهاربون من الحروب السابقة مع المسلمين.
(٣) ذمرتهم: شجعتهم.
(٤) تأشب: تجمع.
(٥) الشرداء: المشردون.
(٦) تجمع لها كل فل ومضيق عليه: كل من فر من الحرب فعادوا إليها.
(٧) عقروا الجمل: قتلوه أو أصابوه.
(٨) تاريخ الطبري (٢٦٥/٢).

القرآن هذا المعنى صراحةً لهؤلاء الأعراب قائلًا: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

وهذا نموذج من نماذج هذه الجاهلية:

قال أبو جعفر (الطبري):

(وأما ابن حميد فإنه حدثنا في شأن الفجاءة عن سلمة عن محمد بن إسحاق عن عبد اللّه بن أبي بكر (أحد الرواة) قال:

قدم على أبي بكر رجل من بني سليم يقال له: الفجاءة، وهو إياس بن عبد اللّه... فقال لأبي بكر: إني مسلم، وقد أردت جهاد من ارتد من الكفار، فاحملني وأعني. فحمله أبو بكر على ظهر، وأعطاه سلاحًا، فخرج يستعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم، ويصيب من امتنع منهم، ومعه رجل من بني الشريد يقال له: نجبة ابن أبي الميثاء، فلما بلغ أبا بكر خبره كتب إلى طريفة بن حاجز: إن عدو اللّه الفجاءة أتاني يزعم أنه مسلم، ويسألني أن أقويه على من ارتد عن الإسلام فحملته فسلّحتُه، ثم انتهى إليَّ من يقين الخبر أن عدو اللّه قد استعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم، ويقتل من خالفه منهم، فسر إليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله، أو تأخذه فتأتيني به. فسار طريفة بن حاجز، فلما التقى الناس كانت بينهم الرميا بالنبل فقتل نجبة بن أبي الميثاء بسهم رُمي به، فلما رأى الفجاءة من المسلمين الجد قال لطريفة:

واللّه، ما أنت بأولى بالأمر مني، أنت أمير لأبي بكر وأنا أميره. فقال له طريفة: إن كنت صادقًا فضع السلاح، وانطلق معي إلى أبي بكر. فخرج معه، فلما قدما عليه أمر أبو بكر طريفة بن حاجز فقال: اخرج به إلى هذا البقيع فحرقه فيه بالنار. فخرج به طريفة إلى المصلى فأوقد له نارًا فقذفه فيها).

لقد كان أعرابيًا غادرًا يتمثل به قول اللّه تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩٧].

فلقد كان موغلًا في الكفر لم يدخل الإسلام إلى قلبه، وكان موغلًا في النفاق حين أظهر الإسلام وأعلنه، وجاء إلى خليفة رسول اللّه ﷺ يطلب من الجيش ليقاتل به المرتدين، وأخذه الصديق على ظاهره وأعطاه المال والسلاح والظهر ليقوم بتنفيذ

هذه المهمة، وحسب أن هؤلاء المسلمين مغفلون يلعب بهم، واستعمل المال والسلاح والظهر في حرب اللَّه ورسوله يقود الناس إلى عبوديته، ويقتل من يرفض الانصياع إليه حتى استفحل أمره، وعندما واجهه طريفة بن حاجز بمن معه من المسلمين، وقُتل وزيره نجبة، حسب أن اللعبة ستستمر، والاستهزاء بالمسلمين سيتابع، فادعى أنه أمير لأبي بكر، وكان طريفة القائد المسلم أدرك بذكائه حمق الفجاءة وغدره، فطلب منه أن يلقي السلاح إن كان صادقًا، ويمضي معه إلى الخليفة، فاستجاب ومضى وهو يحسب أن الخليفة لا يدري شيئًا عنه، وأنه سيضحك بكلمات على الخليفة وينتهي الأمر.

وكان الصديق له بالمرصاد، فمنذ قدومه له واجهه بجرائمه، وبالدماء التي في عنقه، وبغدره بالناس واستغلال المدد الإسلامي بالمال والظهر والسلاح ليصنع مجدًا له لا للإسلام.

وكان الحكمُ الصارم: (اخرج به إلى هذا البقيع فَحَرِّقْهُ فيه بالنار).

يقول تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فلا بد من الغلظة المناسبة مع مجرم الحرب هذا الذي قتل وسفك وسرق وغدر وارتد وخان؛ حتى لا يتحول ظاهرةً في الدولة الإسلامية، فيتجرأ هؤلاء الخسيسون الغادرون على أمثالها، ويستخفون بالمسلمين وقادة الدولة المسلمة لتحقيق أمجادهم.

وتناقلت الأنباءُ ما نزل به حتى يبقى عبرة لكل هؤلاء الطامعين الغادرين، ويعلموا أن لا هوادة معهم في دين اللَّه، وسيلقون مصير الفجاءة لو أقدموا على ذلك.

وكان هذا العقاب الصارم هو الذي اجتث أمثال هؤلاء المغامرين من تكرار أمثال هذه الحادثة، والمؤمن لا يُلْدَغ من جُحر مرتين.

لقد فعل الصديق ﷺ بالفجاءة كما فعل رسول اللَّه ﷺ بالعرنيِّيْنَ الذين فعلوا فعلة الفجاءة، واستعراض قصتهم هو الذي يوضح المنهج الإسلامي في التعامل مع الطغاة والمجرمين؛ لاجتثاث جريمتهم من المجتمع.

(روى البخاري أن أنسًا ﷺ حدثهم أن ناسًا من عكل وعرينة [1] قدموا المدينة

---

(١) عكل وعرينة: قبيلتان.

على النبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي اللَّه، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة [١]، فأمر لهم رسول اللَّه ﷺ بذودٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحيةَ الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذود [٢]، فبلغ النبي ﷺ، وبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسمروا أعينهم [٣]، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم) [٤].

وفي رواية ثانية للبخاري: (... وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون. قال أبو قلابة: هؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم [٥].

وفي رواية مسلم عن أنس: إنما سمل النبي أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء) [٦].

والحد فيهم كما قال اللَّه ﷻ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

* * *
* *
*

---

(١) استوخموا المدينة: استثقلوها ولم يوافق هواؤها أبدانهم.

(٢) الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع.

(٣) سمروا أعينهم: أحمى لهم مسامير الحديد ثم كحلهم بها.

(٤) البخاري، ح (٤١٩٢).

(٥) البخاري، ح (٢٣٣).

(٦) مسلم، ح (١٦٧١).

الفصل الخامس

الخطة النبوية وبنو تميم

لقد كان رسول اللَّه ﷺ يدرك أن القيادات الكبرى للقبائل لا تزال تحمل الكثير من عقد الجاهلية، فكان ﷺ يصطفي من الوفود التي ترد عليه شبابًا نابهين لم تخالطهم بعد عقدة الزعامة، ويركز عليهم، ويفقِّههم في الدين؛ ليكونوا الدعاة الحقيقيين في قبائلهم لهذا الدين، وكان العمل والدعوة تجري بهدوء وروية، وكانت الدعوة والفتوحات تمشيان جنبًا إلى جنب. وقد برزت هذه الظاهرة في قبيلة سليم، فقد كانت القبيلة تعمل على أن يتحمل المسلمون فيها جهاد الكافرين.

يقول الطبري: (حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، حدثنا ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن أبي بكر قال:

كانت سليم بن منصور قد انتقض بعضهم فرجعوا كفارًا، وثبت بعضهم على الإسلام مع أمير كان لأبي بكر عليهم يقال له: معن بن حاجز أحد بني حارثة (من الأنصار)، فلما سار خالد بن الوليد إلى طليحة وأصحابه كتب إلى معن بن حاجز أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام من بني سُليم مع خالد، فسار، واستخلف على عمله أخاه طريفة بن حاجز). وطريفة هو الذي قاد المواجهة ضد الفجاءة السلمي، وقتل صاحبه نجبة، وقاد الفجاءة إلى الصديق رضي الله عنه، وكان معقلًا من معاقل الإسلام في الجزيرة مع الجنود المسلمين من سليم.

الخطة النبوية في بني تميم

لقد كانت قبيلة تميم من أعز قبائل العرب وأكبرها، وكانت مكونة من قبائل وبطون كثيرة، ولكل بطن سيد من سادات بني تميم على الصيغة التالية:

١ - الزبرقان بن بدر على الرباب وعوف والأبناء.

٢ - قيس بن عاصم على البطون.

٣ - سهم بن بنجاب على مقاعس.

٤ - صفوان بن صفوان على بهدى من بني عمرو.

٥ - سبرة بن عمرو على خضَّم من بني عمرو.

٦ - وكيع بن مالك على بني مالك من بني حنظلة.

٧ - مالك بن نويرة على بني يربوع من بني حنظلة.

وانقسموا إلى ثلاثة فرق:

الفريق الأول: الفريق المسلم، الزبرقان بن بدر زعيم الرباب وعوف والأبناء. وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو زعيما بني عمر، وهؤلاء الثلاثة أعلنوا ثباتهم على الإسلام وبعثوا بصدقاتهم إلى الصديق.

الفريق الثاني: الفريق المانع للزكاة، وهم وكيع بن مالك، ومالك بن نويرة زعيما بني حنظلة.

الفريق الثالث: الفريق المتردد، وهما قيس بن عاصم وسهم بن منجاب.

وبقي الفريق المانع للزكاة وهما زعيما بني حنظلة وكيع بن مالك ومالك بن نويرة، وهما اللذان استجابا لسجاح بنت الحارث التغلبية التي ادعت النبوة، وقرروا حرب المسلمين من بني تميم، وكانت المعركة الأولى قد دارت بين المسلمين من الرباب وبين المشركين من جيش سجاح ومن والاهم من بني حنظلة.

غير أن المسلمين من بني حنظلة انحازوا جميعًا إلى الجيش الإسلامي.

(فاجتمع وكيع ومالك وسجاح، واجتمعوا على قتال الناس وقالوا: بمن نبدأ بخضم أم ببهدى أم بعوف والأبناء أم بالرباب؟ وكفوا عن قيس (بن عاصم) لما رأوا من تردده، وطمعوا فيه، فقالت لهم: أعدوا الرِّكاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب) [(١)].

وهزم اللَّه المشركين أمام المسلمين من بني الرباب.

وأحس الفريق المتردد الذي على رَأَسه قيس بن عاصم بنخوة الإسلام، فامتدح المسلمين من تميم، وعيَّر المشركين الذين أسر منهم ثلاثة قادة وهم سماعة ووكيع وقعقاع (وقتلت قتلى كثيرة، فقال في ذلك قيس بن عاصم وذلك أول ما استبان فيه الندم:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٩).

كأنك لَم تشْهد سَماعة إذْ غَزا ... ومَا سُرَّ قَعقَاع وخَابَ وكيع
رأيتُك قد صَاحبْتَ ضبَّة كارهًا ... على ندب فِي الصفْحَتَين وجيع
ومُطلِق أَسرَى كَان حُمقًا مَسيرها ... إلى صَخَرات أمرُهنّ جَميع) [1]

(وأرسلت سجاح بمددها من بني تغلب ودارت معركة أخرى ثم تصالح الفريقان على إطلاق الأسرى ودية القتلى، وكانت الراية الإسلامية واضحة (فلم يدخل في أمر سجاح عَمْري (من بني عمرو) ولا سَعْدي (من بني عوف والأبناء) ولا رِبِّيٌّ (من الرباب) ولم يطمعوا من جميع هؤلاء إلا في قيس حتى بدا منه إسعاد ضبة، وظهر منه الندم، ولم يمالئهم من حنظلة إلا وكيع ومالك، فكانت ممالأتهما موادعة على أن ينصر بعضهم بعضًا، ويحتاز بعضهم إلى بعض، فقال أصم التيمي في ذلك:

أَتتنا أختُ تغْلِب [2] فاستهدَّت ... جلاَئب من سَراة بَنِي أَبِينا
وأَرسـت دَعـوة فينـا سـفـاهًـا ... وكـانـت مِـن عَـمـائـر آخـريـنـا
فمَا كُنا لنزْريهم زبالًا [3] ... ومَا كَانت لتُسلِم إذ أُتينا
ألا سَفِهت حلُومكُم وضَلّت ... عَشِية تحشُدُون لَنا ثبينا [4]) [5]

وتحرك المسلمون من بني عمرو بقيادة أوس بن خزيمة الهجيمي لنصرة إخوانهم من الرباب وأنهوا الحلف بين المشركين من قومهم وبين سجاح التغلبية.

(ثم إن سجاح خرجت في جنود الجزيرة حتى بلغت النباج [6]، فأغار عليهم أوس ابن خزيمة الهجيمي فيمن تأشب [7] إليه من بني عمرو، فأسر الهذيل [8]، أسره رجل من بني مازن يدعى ناشرة، وأُسر عقة [9]، أسره الهجيمي، وتحاجزوا على أن يترادوا الأسرى، وينصرفوا عنهم ولا يجتازوا عليهم...

ولما رجع الهذيل وعقة إليها، واجتمع رؤساء أهل الجزيرة قالوا لها:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٩).
(٢) أخت تغلب: سجاح.
(٣) لنزريهم زبالًا: لنتهاون بهم.
(٤) ثبينا: تجمعًا.
(٥) المصدر نفسه (٢/٢٦٩).
(٦) النباج: اسم موقع.
(٧) تأشب: اجتمع إليه من بطون بني عمرو.
(٨ ، ٩) الهذيل وعقة: أكبر القيادات التغلبية التي جاءت مع سجاح من الجزيرة.

ما تأمرينا؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يزيدوننا على أن نجوز في أرضهم، وقد عاهدنا هؤلاء القوم.

فقالت: اليمامة. فقالوا: إن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة. فقالت:

عليكم باليمامة، ودفُّوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة) [١].

ومع مغادرة سجاح كانت الجيوش الإسلامية قد اقتربت من تميم، فانضم المسلمون والمترددون الذين حسموا أمرهم إليهم، وبقي وكيع ومالك على موقفهما.

ثم ندم قيس بعد ذلك، فلما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج صدقتها، فتلقاه بها ثم خرج معه وقال في ذلك:

ألا أبلِغَا عنِّي قُريشًا رسَالةً إذَا ما أتتْها بيِّنَات الودَائع [٢]

بينما مضى الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر إلى المدينة.

(وخرج الزبرقان والأقرع إلى أبي بكر وقالا: اجعل لنا خراج البحرين ونضمن ألا يرجع من قومنا أحد (عن الإسلام). ففعل وكتب الكتاب، وكان الذي يختلف بينهم طلحة بن عبيد الله، وأشهدوا شهودًا منهم عمر، فلما أُتي عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد، ثم قال:

لا والله ولا كرامة. ثم مزق الكتاب ومحاه، فغضب طلحة، فأتى أبا بكر، فقال: أأنت الأمير أم عمر؟ فقال: عمر! غير أن الطاعة لي، فسكت) [٣].

ورفض عمر ﷺ أي شرط لأحد من زعماء العرب، بل يريد الدينونة الكاملة لله

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٠).

وهذا وقد ساق الطبري رواية لا سند لها إطلاقًا تشير إلى أن قيادات بني تميم الزبرقان بن بدر وعطارد ابن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن خرشة وشبث بن ربعي كانوا قد انضموا إلى سجاح وصاروا من أتباعها حتى غزوا معها بني حنيفة، وحيث إن الرواية ساقطة لأنها بدون سند، وفي بعضها إحالة إلى الكلبي، وهو ضعيف جدًّا، فلم نأخذ بها، وبقيت الرواية المعتمدة هي رواية السري عن شعيب عن سيف عن الصعب ابن عطية بن بلال عن أبيه، وهي الرواية التي يُطمَأنُّ إليها من روايات الطبري.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٦٨). (٣) تاريخ الطبري (٢/٢٧١).

منهم جميعًا، وتم له ما أراد (وشهدا (الأقرع والزبرقان) مع خالد المشاهد كلها حتى اليمامة، ثم مضى الأقرع ومعه شرحبيل إلى اليمامة) [١].

خالد: قائد تاريخي:

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن سهل عن القاسم وعمرو بن شعيب قالا:

لما أراد خالد السير خرج من ظفر، وقد استبرأ أسدًا وغطفان وطيئًا وهوازن، فسار يريد البُطاح دون الحَزْن، وعليها مالك بن نويرة، وقد تردد عليه أمره، وقد ترددت الأنصار على خالد، وتخلفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا) [٢].

وهذه أول أزمة يشهدها جيش خالد ﷺ، أن يقرر نصف الجيش التخلي عنه، وعدم طاعته في مسيره، انطلاقًا من عهد الخليفة الصديق ﷺ أن يقيم الجيش في بزاخة حتى يأتيهم أمر جديد، وخالد رضوان اللّه عليه يدرس الساحة كلها، فلا يرى في هذه الصحراء إلا مالك بن نويرة، لا يزال يعلن عصيانه، فلا بد من حركة خاطفة قبل أن يستشري أمره ويمتد، فما يفعل حيال هذه الأزمة وخيرة أصحابه أنصار اللّه ورسوله يرفضون المسير معه (فقال خالد:

إن يكن عهد إليكم هذا، فقد عهد إليَّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإليَّ تنتهي الأخبار...) [٣].

فهو إذن يمضي على بينة، والصديق إنما يعيش معه في كل لحظة، وقد صدرت الأوامر له بالمتابعة، وإلى هذا الحد فالأمر عادي لدى كل قائد يتصرف تصرف خالد.

لكن البعد التاريخي لخالد ﷺ في تتمة الحوار مع السادة الأنصار إذ قال:

(ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة، فكنت إذ أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه، ومن معي من المهاجرين، والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم) [٤].

---

(١) تاريخ الطبري (٢٧١/٢).

(٢ - ٤) تاريخ الطبري (٢٧٢/٢).

لقد حدد ﷺ مسؤولية القائد الذي يغير التاريخ **من خلال ثلاثة خطوط حاسمة:**

الخط الأول: تنفيذ الأوامر بالتشاور مع خليفة المسلمين.

(إن يكن عهد إليكم هذا، فقد عهد إلي أن أمضي وأنا الأمير).

الخط الثاني: حيث لا يكون هناك كتاب ولا أمر فساحة المعركة هي الحكم إذ يرى القائد أن الفرص لا تأتي دائمًا باحتمالات النصر، وإذا كان إعلام الأمير سوف يفوت الفرصة بحيث لا يحتمل الأمر الاستشارة وتلقِّي الجواب فالأصل المضيُّ للمواجهة، واهتبال الفرصة وتحقيق النصر.

الخط الثالث: البحث عن الأفضل دائمًا هو الأساس حيث لا عهد ولا أمر، فالقائد البصير هو الذي يحدد ساحة المعركة وزمانها ومكانها.

ولقد سار ﷺ ضمن هذه الخطوط، ونال بجدارة لقب أعظم قواد التاريخ القديم كما قال بونابرت عنه، ونال لقب القائد الذي لم يهزم في معركة قط.

ونلاحظ عظمة أدب القائد مع الأنصار سادة المسلمين، فهو لم يصدر أمره بإكراههم على المسير وتهديدهم بالموت لو انخذلوا عنه، بل ترك لهم حرية الاختيار، ومضى بمن رضي بأمره.

لقد كانت الحجة من القوة بحيث تركت الأنصار بعد مغادرته في حيرة قاتلة، فإذا كان الأمر قد جاء إلى خالد - كما ذكر - بالمضي فقد خالفوا أمر الخليفة، فهو القائد وإليه تنتهي الأخبار (ومضى خالد، وندمت الأنصار وتذامروا وقالوا:

إن أصاب القوم خير إنه لخير حرمتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس.

فأجمعوا اللحاق بخالد، وجردوا إليه رسولًا، فأقام عليهم حتى لحقوا به، ثم سار إلى البطاح فلم يجد به أحدًا) (١).

وبهذه الروح العالية وبهذا الأدب الرفيع رَبَحَ قلوب جنده، ودفعهم إلى الالتحاق به وهم صفوة وخيرة جنوده وخيرة المسلمين.

وننظر من طرف آخر إلى فقه الأنصار ﷺ، فهم أدركوا أبعاد تخلفهم عن خالد، فإذا حقق نصرًا في جهاده فقد فاتهم أجر الجهاد وأجر الغنيمة، ولكن الخطر الأكبر

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٢).

إن كانت الهزيمة فسوف يُحَمِّلُهمُ المسلمون مسؤوليتها؛ لتخاذلهم وتخلفهم عنها (لَيَجْتَنِبَنَّكُمُ الناس). فتداركوا الأمر وبعثوا رسولًا إلى خالد ﷺ عن رغبتهم بالالتحاق به، ولم يتصرف ﷺ بردود الفعل، فأوقف الجيش حتى التحقوا به، وانتهت أعنف الأزمات التي مرت بخالد ﷺ في أول طريقه العسكري في الجزيرة.

سُمْعَة خالد أنهت مواجهة مالك:

(كتب إلي السري بن يحيى عن شعيب عن سيف عن الصعب بن عطية بن بلال، ارعوى مالك بن نويرة وندم وتحير في أمره، وعرف وكيع وسماعة قبح ما أتيا، فرجعا رجوعًا حسنًا ولم يتجبرا، وأخرجا الصدقات فاستقبلا بها خالدًا، فقال خالد: ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم؟

فقالا: ثَأْرٌ كُنَّا نطلبه في بني ضبة وكانت أيام تشاغل وفرص. وقال وكيع في ذلك:

فلا تحسبا أني رجعت وأنني ... منعت وقد تُحنى إلي الأصابع
ولكنني حاميت عن جل مالك ... ولاحظت حتى أكحلتني الأخادع
فلما أتانا خالد بلوائه ... تخطت إليه بالبطاح الودائع) [١]

وبانضمام وكيع إلى المسلمين واستسلامه لم يبق من بني تميم في المواجهة إلا مالك بن نويرة (ولم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يكره إلا ما كان من مالك بن نويرة ومن تأشب إليه بالبطاح فهو على حاله متحير شجٍ) [٢].

(قال أبو جعفر: فيما كتب به إليَّ السري بن يحيى يذكر عن شعيب بن إبراهيم أنه حدثه عن سيف بن عمر عن خزيمة بن شجرة الفقفاني عن عثمان بن سويد، عن سويد بن المثعبة الرياحي قال: قدم خالد بن الوليد البطاح فلم يجد عليه أحدًا، ووجد مالكًا قد فرقهم في أموالهم، ونهاهم عن الاجتماع حين تردد عليه أمره، وقال: يا بني يربوع، إنا كنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين، وبطَّأْنا الناس عنه فلم نُفلح ولم ننجح، وإني قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس، فإياكم ومناوأة قوم صُنع لهم، فتفرقوا في دياركم وادخلوا في هذا الأمر...) [٣].

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٢٧٢).

إنه موقف عاقل ومشرف ووعي كبير لدى مالك بن نويرة، فقد راح يزين الأمور مع هؤلاء المسلمين، كما زانها خالد وعمرو بن العاص في الخندق، ورأوا أن أمر محمد لا يزداد إلا علوًّا وأمرهم لا يزداد إلا سفالًا، فانسحب عمرو بن العاص إلى بستانه في الوهط، ثم إلى الحبشة، واعتزل خالد القيادة بعد عمرة القضاء، وهداه أمره مع عمروٍ وعثمان بن طلحة إلى الإسلام، وهذا ما انتهى إليه مالك بن نويرة.

١ - عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين وبطَّأْنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح.

وبتعمُّقه بهذه النتائج لم ير أن القوم أعظم دهاءً منه ولا أكثر عددًا منه ولا أشد عبقرية من بني تميم فرسان العرب وسادة الصحراء، إنما رأى أن هناك سرًّا إلهيًّا يهيئ لهم النجاح، ولو كان الأمر أمر سياسة فهم أهل بجدتها.

٢ - وإني قد نظرت في هذا الأمر، فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة.

٣ - وإذا الأمر لا يسوسه الناس فإياكم ومناوأة قوم قد صُنع لهم.

ومعنى أنه صنع لهم أي: أنهم منصورون من قوة خفية، ولا فائدة من مواجهتهم وحربهم، والحل هو البعد عن المواجهة، والتفرق في الديار والانسحاب من المعركة - كما يقول المصطلح العسكري: انسحابًا كيفيًّا - ولهذا جاء خالد إلى ديارهم فلم يَلْقَ جيشًا ولم يلق مواجهة.

خالد: قائد تاريخي ويخطئ:

(... فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله، ولما قدم خالد البُطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام أن يأتوه بكل من لم يجب، وإن امتنع أن يقتلوه، وكان مما أوصى به أبو بكر: إذا نزلتم منزلًا فَأَذِّنُوا وأقيموا، فإن أَذَّنَ القوم وأقاموا فَكُفُّوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة، ثم اقتلوهم كل قِتلة الحرق فما سواه، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم، فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من ثعلبة بن يربوع - من عاصم وعبيد وعرين وجعفر - فاختلفت السرية فيهم، وفيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم أذَّنوا وأقاموا وأسلموا، فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، وجعلت تزداد بردًا، فأمر خالد مناديًا

فنادى: أدفئوا أسراكم. وكانت في لغة كنانة إذا قالوا: دثروا الرجل فأدفئوه. دفْئُه قتله، وفي لغة غيرهم: أدفه فاقتله. فظن القوم - وهي في لغتهم القتل - أنه أراد القتل، فقتلوهم، فقتل ضرار بن الأزور مالكًا، وسمع خالد الواعية، فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد اللَّه أمرًا أصابه.

وقد اختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملك. فزبره خالد فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه أبو بكر، حتى كلَّمه عمر فيه، فلم يرض إلا أن يرجع إليه، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة، وتزوج خالد أم تميم بنت المنهال، وتركها لينقضي طهرها، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره، وقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقًا (١)، فإن لم يكن هذا حقًّا حق عليه أن تقيده. وأكثر عليه في ذلك، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا من وزعته فقال:

هيه يا عمر، تَأَوَّلَ فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد.

وودى مالكًا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، فأخبره خبره، فَعَذَرَهُ وَقَبِلَ منه وَعَنَّفَهُ في التزويج التي كانت تعيب به العرب من ذلك) (٢).

قال الطبري: (وكتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: شهد قوم من السرية أنهم أذَّنوا وأقاموا وصلوا، ففعلوا مثل ذلك، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء فقُتلوا، وقدم أخوه متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دمه، ويطلب إليه في سبيهم، فكتب له بِردّ السبي، وألحَّ عليه عمر في خالد أن يعزله، وقال: إن في سيفه رهقًا. فقال: لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفًا سَلَّهُ اللَّه على الكافرين) (٣).

هذه هي الرواية الواردة عن السري عن شعيب عن سيف الأولى والثانية، تتحدث الأولى عن خطأ في الفهم لأمر خالد (أدفئوا أسراكم). وتتحدث الثانية عن خلاف في الشهادة عن هؤلاء الأسرى هل هم عصاة ممتنعون أم مسلمون مسالمون؟.

وأمام هاتين الروايتين يبرز توتر في الصف المسلم يقوده أبو قتادة الأنصاري ﷺ والذي شهد بأنهم أقاموا وَصَلّوا وأذنوا، ولا سبيل للمسلمين على هؤلاء.

---

(١) رهقًا: شدة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٧٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/٢٧٣).

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١].

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

ورأى أبو قتادة ﷺ أن خللًا في المنهج الإسلامي قد وقع، ففارق الجيش متجهًا إلى المدينة.

كما جاء متمم بن نويرة أخو مالك بن نويرة يطالب بدم أخيه المسلم مالك، كما يطالب برد السبي إلى أهليهم، فكيف يُسبَوْن وقد دخلوا في الإسلام؟

وانتصر عمر ﷺ لأبي قتادة، وطالب بعزل خالدٍ عن القيادة؛ لأنه خالف هذا المنهج، واستعمل العنف والشدة في غير مكانهما.

وأمام هذين الرأيين لم يكن بُدٌّ من التحقيق مع قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد، فإهراق دم امرئ واحد بغير حق تعمدًا قد يعزله عن القيادة.

وجاء خالد بن الوليد ﷺ، ولم تَغْفِرْ له فتوحاته وانتصاراته كلها أن يعفى من التحقيق في مقتل عدد من الأسرى بغير حق.

تطالعنا رواية ثالثة من غير السري وشعيب وسيف لرواةٍ آخرين تقول:

(وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال (أي مالك بن نويرة) له وهو يراجعه: ما إخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا. قال: أولا تعده لك صاحبًا؟ ثم قدمه فضرب عنقه).

لكن الرواية من طرف آخر لضعف رواتها لا يمكن تبنيها، ففيها كلام لا نتصور إمكانية صدوره عن عمر ﷺ، وهذا الكلام هو:

(فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب، تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر.

فقال: عَدُوُّ اللَّه عدا على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته).

ولم يعجب المغرضين إلا هذا الكلام من الروايات كلها، فراحوا يأخذون من تاريخ خالد هذا النص الذي يُحَوِّلُ خالدًا إلى مجرم فاتك عدوٍّ للَّه يَقْتُلُ المرء المسلم لزواج امرأته.

بينما نجد الروايات الأخرى تتناسب تمامًا مع مستوى صحابة رسول اللَّه ﷺ: إن في سيفه رهقًا. أي: في سيفه شدة وعنف، وهذا لا غبار عليه. وهذا ما حدا به إلى

عزله عن القيادة العليا فقط وتسليمها إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح.

لقد قال علماء الجرح والتعديل في سند هذه الرواية:

(حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق عن طلحة بن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق:

يعقوب بن حميد: صدوق ربما وَهِم.

سلمة بن كهيل: صدوق يُغرِب.

محمد بن إسحاق: ضعَّفوه إذا عنعن.

طلحة بن عبد اللَّه: (سكتوا عنه) [١].

ولعل وهم ابن حميد أو إغراب سلمة هو الذي جعل هذا النص الغريب المنكر في قلب الرواية والذي لا يتناسب مع فقه الصحابة ومقامهم ورأيهم في بعضهم، وهذا ما جعلنا نتخلى عن هذه الرواية التي فيها الغريب المنكر إلى الروايتين الأمينتين السابقتين.

لقد كان حزم الصِّدِّيق من أبرز الصفات التي ساعدته على أن يتجاوز الأهوال التي تواجهه، فعندما يصل أبو قتادة ﷺ مفارقًا الجيش الإسلامي في المعركة دون إذن قائده خالد يقتضي تفهُّم وجهة نظره، لكن هذه الظاهرة لو تساهل بها الصديق لانفلتت الأمور، وعاد التقدير الشخصي هو الحكم على الثوابت العامة، ومن أجل هذا لم يَعْذُرِ الصديقُ أبا قتادة في مفارقة الجيش، ولم يسمح له أن يجلس في بيته بعد أن حمل على قائده، لم يرض عنه إلا أن يلتحق بالجيش عائدًا وحده، قاطعًا مفاوز الصحراء، ثم يعود مع عودة الجيش وقائده إلى المدينة، فالنظام العسكري والسمع والطاعة فيه لا تُبيح الاجتهادات الشخصية والخلافات في الرأي.

(وقد اختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملك، فزبره خالد فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه أبو بكر حتى كلَّمه عمر فيه، فلم يرض إلا أن يرجع إليه، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة).

وأبو قتادة ليس شخصًا عاديًّا، فهو فارس الإسلام الذي أعطاه رسول اللَّه ﷺ هذا اللقب: « خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة » [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٣).

(٢) مسلم، ح (١٨٠٧).

وعلى النهج نفسه فقد استدعى خالد ﷺ للتحقيق إلى المدينة، وكان المدعي العام عليه عمر ﷺ رئيس الوزراء في دولة الإسلام، وتمت المحاسبة من الرئيس الأعلى أبي بكر ﷺ، وأصدر حكمه قائلًا للمدعي العام عمر ﷺ:

(هيه يا عمر، تأوَّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد).

وودى مالكًا، وطالب الفاروق بعزله لشدته وعنفه في الحرب، ورفض الطلب.

(لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفًا سله اللَّه على الكافرين).

حدثان متشابهان:

حدثان في حياة خالد كان يود أن لا يكونا في سجله، وهما حدثان متشابهان:

قتل الأسرى في بني جذيمة.

وقتل الأسرى في البطاح عند بني تميم.

وكلا الحدثين كان يمكن أن يطيحا بخالد عن موقع القيادة، لكن مواهبه وطاقاته الهائلة هي التي غفرت له وحققت له الاستمرار في السدة العليا للقيادة، إنما لم تُعْفِهِ من الحساب والتحقيق، ولا بد أن نعود إلى الأسرى في بني جذيمة من خلال الحديث الصحيح في البخاري عنها عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ قال:

(بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ورفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره فقلت: لا واللَّه لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: « **اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد** » مرتين)[1].

وعالج رسول اللَّه ﷺ الأمر وودى الأسرى.

وعند ابن إسحاق في السيرة:

(ثم دعا علي بن أبي طالب ﷺ فقال: « **يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر**

---

(١) البخاري، ح (٤٣٣٩).

في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ». فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول اللَّه ﷺ به، فَوَدَى لهم الدماء وما أصاب من الأموال حتى إنه ليدي لهم مِيْلَغَةَ الكلب [١]، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي ﷺ حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يُودَ إليكم؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطًا لرسول اللَّه ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون. ففعل، ثم رجع إلى رسول اللَّه ﷺ، فأخبره الخبر، فقال: « **أصبتَ وأحسنت** ». ثم قام رسول اللَّه ﷺ، فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه حتى إنه ليرى بياض ما تحت منكبيه وهو يقول: « **اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد** ». ثلاث مرات) [٢].

ولا شك أن هذه الحادثة حُفِرَتْ في أعماقه؛ إذ تبرأ رسول اللَّه ﷺ من عمله أمام المسلمين جميعًا، ولم يتبرأ ﷺ من خالد، فليس خالد الخطأ، إنما عمله هو الخطأ، ومن أجل هذا لم ينعكس هذا العمل على موقع خالد ﷺ في القيادة، فقد بقي قائدَ خيالة المسلمين، وقاد الهجوم الأضخم للجيش الإسلامي في غزوة حنين، وجاهد جهاد الأبطال، وأثخنته الجراح في المعركة، وزاره رسول اللَّه ﷺ في رحله مواسيًا له في هذه الجراح.

وتَعلَّم خالد ﷺ كثيرًا من هذا الدرس، وهذا يؤكد أن وقوع الخطيئة الثانية مع الأسرى إنما كان خطأً في التأويل، أو خطأً في الفهم عند جيشه، حيث فسروا الدفء بالقتل، وكان أن نال مالكًا ما نال غيره حيث قتله ضرار بن الأزور أحد بني كنانة.

واستعد بعد عودته من المدينة وانتهاء التحقيق معه للجولة الكبرى والمعركة الفاصلة مع بني حنيفة، إذ اقتدى الصديق بنبيه ﷺ، وبقي خالد في موقع المسؤولية والقيادة.

* * *
* *
*

---

(١) مِيْلَغَة الكلب: الإناء الذي يشرب منه الكلب.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (م٢)، (٤/٥٧).

الفصل السادس

المعركة الفاصلة في جزيرة العرب
معركة اليمامة

المحاولة الأولى: عكرمة بن أبي جهل:

قال الطبري: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف، عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال:

كان أبو بكر حين بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة، واتبعه شرحبيل (ابن حسنة)، فبادر شرحبيل ليذهب بصوتها، فواقعهم، فنكبوه، وأقام شرحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره، فكتب إليه أبو بكر:

يا ابن أم عكرمة، لا أَرَيَنَّكَ ولا تُراني على حالها، لا ترجع فتوهِّن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة، وإن شُغِلا فامض أنت، ثم تسير وتسير جندك تستبرئون مَنْ مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت)[١].

لقد كان عكرمة ﷺ في تاريخه العسكري مثل خالد، وبقيا معًا في قيادة جيش المشركين في مكة إلى أن افترقا يوم مضى خالد وأسلم، ورفض عكرمة مرافقته مصرًّا على كفره إلى أن التقيا وجهًا لوجه يوم فتح مكة، خالد على رأس الجيش الإسلامي، وعكرمة على رأس جيش مكة الذي أصر على المواجهة، ورفض أمان النبي ﷺ في أن يلقي السلاح ويعتزل الحرب في بيته وهو آمن، ودارت رحى الحرب لسويعات قليلة، وانهزم جيش مكة في كل وجه، وكانت شر هزيمة وصفها أحد بني بكر:

(إنك لَو شَهدت يَوْمَ الخندَمة ... إذْ فَرَّ صَفْوانٌ وفَرّ عِكْرِمة
وأبـو يَـزِيـد قَـائِـم كـالمؤْتمـة ... استقبلَتْهم بالسُّيوفِ المسْلِمة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٥).

يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربًا فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نَهِيت خلفنا وهمهمة لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة) [(١)]

وكاد أن يهلك كافرًا لولا استأمنت له زوجه من رسول الله ﷺ، ثم أسلم وحسن إسلامه، واختاره الصِّدِّيق ﷺ أحد قادته.

(قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً، عقد لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة... وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة ابن أبي جهل) [(٢)].

لقد كان عكرمة بطلًا عظيمًا وشجاعًا جريئًا، لكن لم تبرز مواهبه قائدًا عسكريًّا على مستوى ابن عمه خالد، وكان يتوق - رضوان الله عليه - إلى الجهاد، فقد أمضى شطرًا من حياته في الجاهلية يجاهد صادًّا عن سبيل الله ثم هو اليوم يجاهد مؤمنا للذود عن حياض الإسلام، وتصور أن أمر مسيلمة من السهولة بحيث يمكن أن ينهيه قبل وصول شرحبيل مدده، فأسرع وهو يأمل أن يحمل سجله الإسلامي إنهاء عدوٍّ لدودٍ من أكبر أعداء الإسلام، لكن المفاجأة كانت كبيرة، حيث استطاع جيش مسيلمة أن يهزم جيش عكرمة، وخشي شرحبيل من المواجهة الجديدة، (فأقام بالطريق حيث أدركه الخبر).

وكان على عكرمة أن يعترف بالهزيمة، فبعث بأخبار هذه المعركة إلى الخليفة، وجاءه الجواب القاسي على مبادرته قبل انضمام شرحبيل ووصوله إليه.

(يا ابن أم عكرمة، لا أَرَيَنَّكِ، ولا تُراني على حالها، لا ترجع فتوهِّن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة).

فلا يريد أن يراه منهزمًا، ولا يريد أن يراه المسلمون منهزمًا وجيشه، فمعنويات الجيوش الإسلامية هي التي يقاتل بها المسلمون، ومثل هذه النكبة لو رآها المسلمون وحدث بها أبناء النكبة لوهنت نفسيات المجاهدين، فليمض مددًا إلى حذيفة وعرفجة اللذين يجاهدان في عمان ردتهم، وإن لم يكونوا بحاجة له فردة أهل اليمن تنتظره،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (م٢)، (٤٠/٣)، ط دار الخير.
(٢) تاريخ الطبري (٢٥٧/٢).

وعليه أن يمضي هذه المسافات الشاسعة كلها تدريبًا على الصبر، ورغبة في الثواب والأجر، وليبدأ صفحة جديدة تغسل هذه الصفحة يتحدث بها الناس.

* * *

المحاولة الثانية: محاولة شرحبيل بن حسنة:

قال الطبري: (وعجل شرحبيل بن حسنة، وفعل فِعل عكرمة، وبادر خالدًا بقتال مسيلمة قبل قدوم خالد عليه، فنُكِبَ فحاجز، فلما قدم عليه خالد لامه) (١).

إنه لشرف كبير أن تكون نهاية مسيلمة الكذاب عدو اللَّه على يد مجموعة من المسلمين، وطمع شرحبيل ﷺ بهذا الشرف ومن معه، وكانوا يودون إنهاء أمر مسيلمة قبل وصول خالد ﷺ، فتكون هدية له. لقد كانت العاطفة هي الغالبة، ولكن الحروب لا تنتهي بالعاطفة، ولا شك أن الجيش بحاجة إليها وهو يقاتل، لكنها لا تكفي لتقرر مصير المعركة، فلا بد من دراسة الساحة، ودراسة العدو، ووضع الخطط المناسبة للمواجهة، لا بد من الإعداد المادي للمواجهة بكل ما نملك من إعداد، ويكون بعدها الاعتماد أولًا وآخرًا على معية اللَّه ونصره للمؤمنين، وَفِقْهُ الحرب هذا هو الذي ملك خالد ناصيته، فمع قدرته على المغامرة والجرأة والعاطفة كان يملك الإعداد والحيطة اللازمتين لكل قائد تاريخي نادر. **من هذه الحيطة:**

أ - سرعة عودته لجيشه:

قال الطبري: (فلما قدم خالد على أبي بكر من البطاح رضي أبو بكر عن خالد، وسمع عذره، وقبل منه، وصدَّقه، ورضي عنه، وَوَجَّهَهُ إلى مسيلمة، وأوعب معه الناس، وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن فلان، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد، وعلى القبائل على كل قبيلة رجل، وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح) (٢).

ب - وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة:

(وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير) (٣).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٥).

(٢ ، ٣) المصدر نفسه (٢/٢٧٥).

ج – جعل الخيول خلفه لحمايته:

قال الطبري: (وكتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عمرو بن العلاء عن رجال قالوا: كان عدد بني حنيفة يومئذ أربعين ألف مقاتل في قراها وحجرها، فسار خالد حتى إذا أظل عليهم أسند خيولًا لعقة وهذيل وزياد، وقد كانوا أقاموا على خرج أخرجه لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح) (١).

د – تعبئة بني تميم لإخراج جيش سجاح:

قال الطبري: (وكتب – أي خالدًا – إلى القبائل من بني تميم فيهم، فنفَّروهم حتى أخرجوهم من جزيرة العرب.. وإنما أسند خالد تلك الخيول مخافة أن يأتوه من خلفه، وكانوا بأفنية اليمامة) (٢).

هـ – مدد جديد لخالد:

قال الطبري: (وأمد أبو بكر خالدًا بسليط ليكون ردءًا له من أن يأتيه أحد من خلفه، فخرج، فلما دنا من خالد وجد تلك الخيول التي انتابت تلك البلاد قد فُرِّقوا، فهربوا، وكان منهم قريبًا ردءًا لهم) (٣).

فخالد ﷺ يدرك أنه أمام عدو غير عادي، ويدرك أنه أمام دولة قائمة بذاتها عاصمتها اليمامة مركز أهل نجد، والعاصمة الاقتصادية كذلك التي تمد الحجاز ونجد بالقمح، فهي شريان الحياة العربية.

و – في قصة مجاعة بن مرارة:

قال الطبري: (فقالوا له: إن كنت تريد بهذه القرية غدًا خيرًا أو شرًّا فاستبق هذا الرجل – يعني: مجاعة – فأوثقه بالحديد. ثم دفعه إلى أم تميم امرأته فقال: استوصي به خيرًا. ثم مضى حتى نزل اليمامة على كثيب مشرف على اليمامة) (٤).

فقد جعل مستشاره أحد زعماء اليمامة، وأنزل عسكره على كثيب مشرف على اليمامة بحيث لا يؤتى من خلفه ولا من بين يديه.

بنو حنيفة في الساحة العربية:

لا بد أن نطلَّ ابتداءً على بني حنيفة وموقعهم وأهميتهم؛ لندرك بعدها لم أسمينا

(١ – ٣) تاريخ الطبري (٢/٢٧٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/٢٧٩).

هذه المعركة بالمعركة الفاصلة.

أولًا: هم (بنو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل... بن أسد ابن ربيعة بن نزار، وهم أهل اليمامة، وهم أصحاب نخل وزرع) (١).

فإذا كان الفرعان الكبيران من العرب هما مضر وربيعة فهما من ربيعة التي لا يمكن أن تخضع لمضر أهل رسول اللَّه ﷺ، وبينهما من التنافس ما بينهما.

ثانيًا: كان أول لقاء معهم في رحاب مكة المكرمة حين قصد رسول اللَّه ﷺ القبائل وأتاها في مضاربها، فماذا قالت كتب السيرة عن هذا اللقاء؟

(قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا عن عبد اللَّه بن كعب بن مالك: أن رسول اللَّه ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى اللَّه، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًّا منهم) (٢).

وماذا كان الرد؟

روى محمد بن عمر الأسلمي عن عامر بن سلمة الحنفي - وكان قد أسلم في آخر عمر النبي ﷺ - أنه قال: (نسأل اللَّه أن لا يحرمنا الجنة، لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعونا إلى اللَّه ﷻ، وأن نمنع له ظهره حتى يُبَلِّغَ رسالات ربه... ويشرط لنا الجنة، فما استجبنا له، ولا رددنا عليه ردًّا جميلًا، فحشنا عليه وحلم عنا...) (٣).

ثالثًا: (... فرجعت إلى هجر في أول عام فقال لي هوذة بن علي (ملك اليمامة): هل كان في موسمكم من خبر؟ قلت: رجل من قريش يطوف على القبائل يدعوهم إلى اللَّه تعالى وحده، وأن يمنعوا ظهره حتى يُبَلِّغَ رسالة ربه ولهم الجنة. فقال هوذة: من أي قريش هو؟ قلت: هو من أوسطهم نسبًا، من بني عبد المطلب. قال هوذة: أهو محمد بن عبد المطلب؟ قلت: هو هو. قال: أما إنه سيظهر على ما هاهنا. فقلت: هنا فقط من بين البلدان؟ قال: وغير ما هاهنا. ثم وافيت السنة الثانية، فقال: ما فعل الرجل؟ فقلت: رأيته على حاله في العام الماضي. قال: ثم وافيت في السنة الثالثة، وهي آخر ما رأيته، وإذا بأمره قد أمر، وإذا ذِكْرُهُ كَثُر بين الناس) (٤).

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/٣٠٩). (٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢/٥٠).

(٣ ، ٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/٥٩٥، ٥٩٦).

رابعًا: لقد كان هوذة بن علي مثل قيصر ومثل المقوقس ومثل النجاشي، فقد كان أربعتهم نصارى وكلهم على علم برسول الله ﷺ، وكلهم بعث له رسول الله ﷺ كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم يستجب لله ولرسوله إلا النجاشي، أما قيصر إمبراطور الروم والمقوقس وهوذة فلم يستجيبوا.

خامسًا: لقد كان هوذة بن علي يتتبع الأخبار ويتسقَّطها؛ ليعلم عما ينجلي الأمر، وقد أحاطت عبد القيس به ودخلت في دين الله ﷻ، وبلغه أخبار هدنة الحديبية، واستسلام قريش يائسة من حربه فهادنته، ولا داعي لأن تسقط الأخبار، فها هو سليط ابن عمرو العامري مبعوث خاص من محمد بن عبد الله يطلب المثول عنده، ومعه كتاب من رسول الله ﷺ إليه. (قالوا: وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري وهو أحد الستة إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا، فقدم عليه وأنزله وحباه، وقرأ كتاب النبي ﷺ...) (١).

وهذا نص الخطاب النبوي لهوذة بن علي صاحب اليمامة:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » (٢).

تجاهل هوذة مضمون الرسالة (وكتب إلى النبي ﷺ:

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك. وأجاز سليط بن عمرو بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ) (٣).

سادسًا: وكان السيد الثاني في بني حنيفة ثمامة بن أثال. وتقول بعض الروايات: إنه كتب إليهما معًا كما في السيرة لابن هشام (وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر ابن لؤي إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي، ملكي اليمامة) (٤).

ولعل الرد كان واحدًا للزعيمين، وخلاصته تقاسم الحكم بين محمد رسول الله ﷺ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٦٢/١).
(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص ٤٠٢).
(٣) المصدر نفسه (٢٦٢/١).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١٩٦/٤/٢).

وبين زعيمي اليمامة (اجعل لي بعض الأمر أتبعك).

وكان جواب النبي ﷺ لمن يريدون أن يحولوا الإسلام إلى اقتسام نفوذ بين الطغاة لا إلى تحكيم شريعة اللَّه.

(وقرأ كتابه وقال: لو سألني سيابةً [١] من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يديه. فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات) [٢].

سابعًا: ثمامة بن أثال الزعيم الثاني:

أما ثمامة بن أثال فكان له شأن آخر، وإن كان الموقف من الرسالة النبوية واحدًا للزعيمين، ومضى ثمامة معتمرًا إلى مكة، وساقته المقادير إلى رسول اللَّه ﷺ، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال:

(بعث رسول اللَّه ﷺ خيلًا قِبَلَ نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له « ثمامة بن أثال » سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد...) [٣].

وفي رواية السيرة لابن هشام: (حتى أتوا به رسول اللَّه ﷺ فقال: « **أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إساره** ». ورجع رسول اللَّه ﷺ إلى أهله فقال: « **اجمعوا ما عندكم من طعام، فابعثوا به إليه** ». وأمر بلقحته أن يُغدَى عليه بها ويراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعًا) [٤].

(... فخرج إليه رسول اللَّه ﷺ فقال: « **ما عندك يا ثمامة؟** »

فقال: عندي يا محمد خير، إن تَقْتُل تَقتلْ ذَا دم... وإن تُنعِم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ ما شئت. فتركه رسول اللَّه ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: « **ما عندك يا ثمامة؟** » فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فَسلْ تُعطَ منه ما شئت. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أطلقوا ثمامة** ».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال:

أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه.

---

(١) سيابة: شبر.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢٦٢).

(٣) مسلم، ح (١٧٦٤).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤/٢١٦).

يا محمد، واللَّه ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، واللَّه، ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، واللَّه، ما كان بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول اللَّه ﷺ وأمره أن يعتمر) [(١)].

قال ابن هشام: (فبلغني أنه خرج معتمرًا حتى إذا كان ببطن مكة لَبَّى، فكان أول من دخل مكة ملبيًا، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا. فلما قدموه ليضربوا عنقه قال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم، فَخَلَّوْهُ). فقال الحنفي في ذلك:

(ومنا الذي لَبَّى بمكة محرمًا برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم) [(٢)]

(فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا، ولكني أسلمت مع رسول اللَّه ﷺ، لا واللَّه، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول اللَّه ﷺ) [(٣)].

(ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى محمد رسول اللَّه ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع. فكتب رسول اللَّه ﷺ إليه أن يخلِّي بينهم وبين الحمل) [(٤)].

ثامنًا: وفد حنيفة في السنة العاشرة للهجرة:

بعد موت هوذة بن علي زعيم حنيفة وملكها، وبعد إسلام ثمامة رضي الله عنه الذي بدأ جهاده مع قومه يدعوهم إلى الإسلام، ولا يلقى منهم إلا كما لقي رسول اللَّه ﷺ من قومه، وبعد فتح مكة، وبعد الانتصارات على هوازن وغزوة تبوك، نزل بحنيفة ما نزل في العرب، حيث مضى الزعماء في القبائل كلها تعلن ولاءها للإسلام ولرسول الإسلام ﷺ .

اجتمعت قيادات بني حنيفة، وقررت أن تبعث وفدها إلى يثرب يعلن الإسلام أو الاستسلام لمحمد بن عبد اللَّه، فلا طاقة لأحد به.

---

(١) مسلم، ح (١٧٦٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤/٢١٦).

(٣) مسلم، ح (١٧٦٤)، والبخاري، ح (٤٦٢).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤/٢١٦).

وسنعرض روايتي الصحيحين، ورواية ابن إسحاق عن هذا الوفد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبي ﷺ المدينة فجعل يقول: إن جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعتُه. فقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد النبي ﷺ قطعة جريدة حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، قال: « **لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر اللّه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك اللّه، وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني** ». ثم انصرف عنه.

فقال ابن عباس: فسألت عن قول النبي ﷺ: « **وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت** ». فأخبرني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: « **بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأُوحي إليَّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما كذابَيْن يخرجان من بعدي، فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة** » (١).

أما رواية ابن إسحاق ففيها اختلافات وإضافات عن هذه الرواية. وهذا نصها:

(وقدم على رسول اللّه ﷺ وفد بني حنيفة فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب، فكان منزلهم في دار بنت الحارث امرأة من الأنصار ثم من بني النجار، فحدثني بعض علمائنا من أهل المدينة أن بني حنيفة أتت به رسول اللّه ﷺ تستره بالثياب، ورسول اللّه ﷺ جالس في أصحابه، ومعه عسيب من سعف النخل في رأسه خوصات، فلما انتهى إلى رسول اللّه ﷺ وهم يسترونه بالثياب كَلَّمه وسأله، فقال له رسول اللّه ﷺ: « **لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه** ») (١).

(قال ابن إسحاق:

وقد حدثني شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا، زعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول اللّه وَخَلَّفُوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول اللّه، إنا خلفنا صاحبًا لنا في رحالنا وفي ركابها يحفظها لنا. قال: فأمر له رسول اللّه ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال: « **أما إنه ليس**

---

(١) البخاري، ح (٧٠٣٧)، ومسلم (ص ٢٢٧٤).

بِشَرِّكُم مكانًا » - أي: لحفظه صنيعة أصحابه. وذاك الذي يريد رسول اللّه ﷺ - ثم انصرفوا عن رسول اللّه ﷺ، وجاؤوه بما أعطاه، فلما انتهى إلى اليمامة ارتد عدو اللّه وتنبَّأ وتكذَّب لهم، وقال: إني أشركت في الأمر معه. وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: أما إنه ليس بِشَرِّكم مكانًا؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معه. ثم جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول معناها للقرآن: (ولقد أنعم اللّه على الحبلى، أخرج منها نَسَمَةً تسعى، من بين صِفاق وحشى). وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، ومع ذلك يشهد لرسول اللّه ﷺ بأنه نبي، فأصفقت معه بنو حنيفة. فاللّه أعلم أي ذلك كان)[1].

تاسعًا: الرسل بين رسول اللّه ﷺ ومسيلمة:

(قال ابن إسحاق: وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول اللّه ﷺ:

من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه، سلام عليك، أما بعد.. فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون. فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب.

قال ابن إسحاق:

فحدثني شيخ من أشجع عن سلمة بن نعيم بن مسعود الأشجعي عن أبي نعيم قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول لهما حين قرآ كتابه: « **فما تقولان أنتما؟** » قالا: نقول كما قال. فقال: « **أما واللّه، لولا أن الرسل لا تُقْتَلُ لضربت أعناقكما** ». ثم كتب إلى مسيلمة:

« **من محمد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد .. فإن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين** ». وذلك في آخر سنة عشر).

وبادر رسول اللّه ﷺ ببعث رسله إلى اليمامة في محاولة لتطويق هذه الفتنة، لقد كان الرسول الأول هو حبيب بن زيد ولد أم عمارة.

(يقول ابن إسحاق:

وابنها حبيب (أي: أم عمارة) الذي أخذه مسيلمة الحنفي الكذاب صاحب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤/١٧٠، ١٧١).

اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول اللَّه؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول اللَّه؟ فيقول: لا أسمع. فجعل يقطِّعه عضوًا عضوًا حتى مات في يده لا يزيده على ذلك، إذا ذكر رسول اللَّه ﷺ آمن به وصلى عليه، وإذا ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع. فخرجت (أي: أم عمارة) فباشرت الحرب بنفسها حتى قتل اللَّه مسيلمة ورجعت وبها اثنا عشر جرحًا ما بين طعنة وضربة) (١).

وكان الرسول الثاني الرجَّال بن عنفوة الذي كان عضوًا في وفد بني حنيفة (وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ، وقرأ القرآن، وفقه في الدين، فبعثه معلمًا لأهل اليمامة يشغب على مسيلمة، وليشد أزر المسلمين، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنه سَمِعَ رسولَ اللَّه ﷺ يقول أنه قد أُشْرِكَ معه، فصدقوه واستجابوا له، وأمره بمكاتبة النبي ﷺ في ذلك، وإن هو لم يقبل أن يعينوه عليه، وكان الرجال بن عنفوة لا يقول شيئًا إلا تبعه مسيلمة) (٢).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال: (كان أبو بكر بعث إلى الرجَّال فأوصاه بوصيته ثم بعثه إلى اليمامة وهو يرى أنه على الصدق) (٣).

(قال سيف بن عمر عن طلحة عن عكرمة عن أبي هريرة: كنت يومًا عند النبي ﷺ في رهط معنا الرجال بن عنفوة فقال: « **إن فيكم لرجلًا ضرسه في النار أعظم من أحد** ». فهلك القوم وبقيت أنا والرجال، وكنت متخوفًا لها، حتى خرج الرجَّال مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرجَّال أعظم من فتنة مسيلمة. رواه ابن إسحاق عن شيخ عن أبي هريرة) (٤).

عاشرًا: وماذا عن ثمامة؟

(قال محمد بن إسحاق: ارتد أهل اليمامة عن الإسلام غير ثُمامة بن أثال ومن اتبعه من قومه، فكان مقيمًا باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول:

إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه اللَّه ﷻ على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به منكم يا بني حنيفة. فلما عصوه، ورأوا أنهم قد أصفقوا عن اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم، ومر العلاء بن الحضرمي ومن تبعه على جانب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٧٠/٤/٢، ١٧١). (٢) تاريخ الطبري (٢٧٦/٢).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٧٨). (٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٨/٦/٣).

اليمامة، فلما بلغه ذلك قال لأصحابه من المسلمين: إني واللَّه، ما أرى أن أقيم مع هؤلاء مع ما قد أحدثوا، وإن اللَّه تعالى لضاربهم ببلية لا يقومون بها ولا يقعدون، وما نرى أن نتخلف عن هؤلاء وهم مسلمون، وقد عرفنا الذي يريدون، وقد مروا قريبًا، ولا أرى إلا الخروج إليهم، فمن أراد الخروج منكم فليخرج. فخرج ممدًّا للعلاء ابن الحضرمي، ومعه أصحابه من المسلمين، فكأن ذلك قد فتَّ في أعضاد عدوهم حين بلغهم مدد بني حنيفة، وقال ثمامة بن أثال في ذلك (الطويل):

دعانا إلى ترك الديانة والهدى ... مسيلمة الكذاب إذ جاء يسجع

وفي آخرها:

فيا عجبًا من معشر قد تتابعوا ... له في سبيل الغي والفيء أشنع

وفي البعد عن دار وقد ضل أهلها ... هدى واجتماع كل ذلك مهيع

وروى ابن عيينة عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة نحو حديث عمارة بن غزية ولم يذكر الشعر، وبعث رسول اللَّه ﷺ فرات بن حيان إلى ثمامة ابن أثال في قتال مسيلمة وقتله) [1].

* * *
* *
*

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٢٨٢).

الفصل السابع

جولات المعركة

الجولة الأولى:

- مجاعة بن مرارة وقتل الأسرى:

يقول اللَّه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

واللَّه أعلم بطبيعة هؤلاء الأعراب الذين لا يخضعون إلا للقوة، فمطامع زعماء القبائل لا تنتهي عند حد، ومنذ ألف سنة ونيف يعيشون على الغزو والطمع في المغانم والكرّ والفرّ في البادية والثأر الذي يشكل أساس الحياة عند العربي عامة والأعرابي البدوي خاصة.

إن المخزون من الطاقات لديهم من الشجاعة والكرم والمروءة لا يقل لديهم عن مخزون الطمع في الزعامة، والرغبة في السيطرة، والنهم للغنائم، ولو صاحب ذلك الغدر والحيلة وقتل الأقربين، فلا بد من الغلظة عليهم لإرهابهم من العودة إلى حياة القبيلة ونظامها، فقد انضموا للإسلام حيث كان رسول اللَّه ﷺ سيد الجزيرة وحاكمها، ولا قِبَلَ لهم ولا طاقة لهم بمواجهته، وبوفاته انتقض الأمر كله، وحسبوا أن النبوة هي طريق الملك، فسرعان ما سلكوا هذا الطريق للسيطرة على أقوامهم وقبائلهم والأعداء المجاورين.

فالأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في بني حنيفة، وطليحة بن خويلد في بني أسد، وسجاح بنت الحارث في تغلب وتميم، وأصحاب النفوذ البعيدون عن سلطة المدينة، طرحوا التنبؤ في حياة الرسول ﷺ إعلانًا عن عدم الخضوع والانقياد للإسلام ولرسول اللَّه ﷺ، فبنو حنيفة حاولوا تقاسم النفوذ على لسان ملكهم هوذة ابن علي، ثم ورثه مسيلمة بن حبيب الذي سار على نهجه في المراوغة والمكر، لكن دون أرضية دينية مثل التي كانت عند هوذة بن علي، والذي كان يوقن أن محمدًا سيملك الأرض، لكن لعله يأخذ نصيبًا من هذا الملك، كما يقرأ في الكتب المقدسة، ويسمع من أقوال الرهبان والكُهَّان عن النبي الذي أطل زمانه، ويسود دينه.

وخالد ﷺ الخبير بالأرض العربية والنفسية العربية، والفقيه في دين اللَّه، يدرك هذه الأبعاد كلها، ولا يتحرك إلا على أرضٍ صلبة، وله في خليفته الصديق الأسوة الحسنة وفي التربية التي تلقاها على يد نبيه ﷺ ما يجعل خطه منضبطًا بنور النبوة، فللشدة مكانها، وللعفو مكانه، والإسلام ينظم الأمرين معًا بلا إفراط ولا تفريط، والتقوى هي المحرك الأول والأخير للإنسان المسلم.

وما نموذج مجاعة إلا واحد من هذه النماذج:

يقول الطبري: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن طلحة بن الأعلم عن عبيد بن عمير عن رجل منهم قال: لما بلغ مسيلمةَ دُنُوُّ خالد ضرب عسكره بعقرباء، واستنفر الناس، فجعل الناس يخرجون إليه، وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأرًا له في بني عامر وبني تميم قد خاف فواته، وبادر به الشغل، فأما ثأره في بني عامر فكانت خولة بنت جعفر فيهم، فمنعوه منها، فاختلجها [1]، وأما ثأره في بني تميم فنعم أخذوا له، واستقبل خالد شرحبيل فقدَّمه، وجعل على المقدمة خالد بن فلان المخزومي، وجعل على المجنبتين زيدًا وأبا حذيفة، وجعل مسيلمة على مجنبتيه المحكَّم والرجَّال.

فسار خالد وشرحبيل حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة هجم على جبيلة فإذا هو مجاعة وأصحابه، وقد غلبهم الكرى، وكانوا راجعين من بلاد عامر قد طووا إليهم، واستخرجوا خولة بنت جعفر، فهي معهم، فعرَّسوا [2] دون أصل الثنية ثنية اليمامة، فوجدوهم نيامًا، وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم، وهم لا يشعرون بقرب الجيش منهم، فأنبهوهم، وقالوا: من أنتم؟ قالوا: هذا مجاعة وهذه حنيفة. قالوا: وأنتم لا حَيَّاكم اللَّه. فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد، فأتوه بهم، فظن خالد أنهم جاؤوه ليستقبلوه، وليتقوه بحاجته، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما شعرنا بكم، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم. ولو فطنوا لقالوا: تلقيناك حين سمعنا بك. فأمر بهم فقتلوا، فجادوا بأنفسهم دون مجاعة بن مرارة، وقالوا: إن كنت تريد بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا فاستبق هذا ولا تقتله. فقتلهم خالد، وحبس مجاعة عنده كالرهينة) [3].

---

(١) اختلجها: انتزعها. (٢) عرسوا: باتوا ليلًا.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٧٨).

ومجاعة بن مرارة كما يقول ابن كثير: (... وأمر بضرب أعناقهم كلهم سوى مجاعة، فإنه استبقاه مقيدًا عنده؛ لعلمه بالحرب والمكيدة، وكان سيدًا في بني حنيفة، شريفًا مطاعًا) (١).

وعند ابن كثير كذلك إيضاح ساقه بدون سند إذ قال:

(ويقال: إن خالدًا لما عرضوا عليه قال لهم: ماذا تقولون يا بني حنيفة؟ قالوا: نقول: منا نبيّ ومنكم نبيّ. فقتلهم إلا واحدًا منهم اسمه سارية، فقال له:

أيها الرجل، إن كنت تريد غدًا بِعَدُوِّكَ هذا خيرًا أو شرًّا فَاسْتَبْقِ هذا الرجل. فاستبقاه خالد مقيدًا، وجعله في الخيمة مع امرأته) (٢).

وتذكر بعض الروايات أنه استحياه مع سارية لأنهما كانا مسلمين، واستفاد خالد كثيرًا من خبرته.

الجولة الثانية:

قال الطبري: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق: (وقد قال خالد بن الوليد وهو جالس على سريره، وعنده أشراف الناس، والناس على مَصَافِّهم، وقد رأى بارقة في بني حنيفة: أبشروا يا معشر المسلمين فقد كفاكم اللَّه أمر عدوكم، واختلف القوم إن شاء اللَّه. فنظر مجاعة وهو خلفه موثقًا بالحديد فقال: كلا واللَّه، ولكنها الهندوانية خشوا عليها من تحطمها فأبرزوها للشمس لِتَلِين لهم. فكان كما قال، فلما التقى المسلمون كان أولَ من لقيهم الرَّجَّالُ بن عنفوة فقتله اللَّه) (٣).

(ثم التقى الناس، ولم يلقهم حرب قط مثلها من حرب العرب، فاقتتل الناس قتالًا شديدًا حتى انهزم المسلمون، وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة، وإلى خالد، فزال خالد عن فسطاطه ودخل أناس الفسطاط وفيه مجاعة عند أم تميم، فحمل عليها رجل بالسيف، فقال مجاعة: مه أنا لها جار، فنعمت الحرة، عليكم بالرجال، فرعبلوا الفسطاط (٤) بالسيوف...) (٥).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٨/٦/٣).
(٢) المصدر نفسه (٣٢٨/٦/٣).
(٣) الطبري (٢٧٩/٢).
(٤) رعبلوا الفسطاط: مزقوه.
(٥) المصدر نفسه (٢٧٩/٢).

(... وكان الرَّجَّالُ بحيال زيد بن الخطاب، فلما دنا صفاهما قال زيد: يا رَجَّالُ، اللَّه اللَّه، فواللَّه لقد تركت الدين، وإن الذي أدعوك إليه لأشرفُ لك، وأكثر لدنياك. فأبى فاجتلدا، فقُتِل الرَّجالُ، وأهل البصائر من بني حنيفة في أمر مسيلمة، فتذامروا، وحمل كل قوم من ناحيتهم، فجال المسلمون حتى بلغوا عسكرهم، ثم أعروه لهم، فقطعوا أطناب البيوت، وهتكوها، وتشاغلوا بالعسكر، وعالجوا مجاعة، وهموا بأم تميم فأجارها، وقال: نعم أم المثوى) (١).

(ولما بلغ مسيلمةَ دُنُوُّ خالد ضرب عسكره بعقرباء، وخرج إليه الناس... وترك مسيلمة الأموال وراء ظهره، فقال شرحبيل بن مسيلمة: يا بني حنيفة، قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة، فإن انهزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير خطيبات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم. فاقتتلوا بعقرباء... والتقى الناس، وكان أول من لقي المسلمين نهار الرَّجَّال بن عنفوة فقُتِل، قتله زيد بن الخطاب، واشتد القتال، ولم يلق المسلمون حربًا مثلها قط، وانهزم المسلمون، وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد، فزال خالد عن الفسطاط إلى مجاعة، وهو عند امرأة خالد، وكان سلمه إليها فأرادوا قتلها، وقال: أنا لها جار، فنعمت الحرة. فتركوها، وقال: عليكم بالرجال. فقطعوا الفسطاط...) (٢).

إذن انتهت الجولة الأولى بعد قتال عنيف بتراجع المسلمين، وَتَقَدُّمِ بني حنيفة، لكن حملت هذه الجولة مقتل أحد القادة الثلاث الكبار عند مسيلمة، والذي كان قائد مسيرته وأشد الناس فتنة لبني حنيفة حين شهد لمسيلمة بالرسالة، (وكان المسلمون يسألون عن الرجال يرجون أن يثلم على أهل اليمامة أمرهم بإسلامه، فلقيهم في أوائل الناس متكتبًا) (٣).

الجولة الثالثة:

(... ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء - يعني: أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني: المسلمين - ثم جالد بسيفه حتى قُتِل. وقال زيد بن الخطاب

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٠).
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٢٠).
(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٧٩).

حين انكشف الناس عن رحالهم: لا تَحَوُّزَ بعد الرحال [1]. ثم قاتل حتى قُتِلَ، ثم قام البراء بن مالك أخو أنس بن مالك، وكان إذا حضر الحرب أخذته العرواء حتى يقعد عليه الرجال، ثم ينتفض تحتهم حتى يبول في سراويله، فإذا بال يثور كما يثور الأسد، فلما رأى ما صنع الناس أخذه الذي كان يأخذه حتى قعد عليه الرجال، فلما بال وثب، فقال: أين يا معشر المسلمين؟ أنا البراء بن مالك، هَلُمَّ إلي. وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم اللّه، وخلصوا إلى محكم اليمامة وهو مُحكَّمُ ابن الطفيل، فقال حين بلغه القتال: يا معشر بني حنيفة، الآن واللّه تُستحقب الكرائم غير رضيات، وينكحن غير خطيبات، فما عندكم من حسب فأخرجوه. فقاتل قتالًا شديدًا) [2].

(... وتذامر زيد وخالد وأبو حذيفة، وتكلم الناس - وكان يوم جنوب له غبار - فقال زيد: لا واللّه، لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى اللّه فأكلمه بحجتي، عَضُّوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم، وامضوا قُدُمًا). ففعلوا فردوهم إلى مصافِّهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم، وقتل زيد رَحِمَهُ اللَّهُ، وتكلم ثابت فقال: يا معشر المسلمين، أنتم حزب اللّه وهم أحزاب الشيطان، والعزة للّه ولرسوله ولحزبه أروني كما أريكم. ثم جلد فيهم حتى حازهم، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال. وحمل فحازهم حتى أنفذهم، وأصيب رَحِمَهُ اللَّهُ، وحمل خالد بن الوليد، وقال لحماته: لا أُوتَين من خلفي. حتى حمل فكان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة) [3].

(عن سالم بن عبد اللّه قال: لما أعطي الرايةَ سالمٌ يومئذ قال: ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها! قلتم: صاحب قرآن، وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات؟ قالوا: أجل. وقالوا: فانظر كيف تكون؟ قال: بئس واللّه حامل القرآن أنا إن لم أثبت. وكان صاحب الراية قبله عبد اللّه بن حفص بن غانم). وقال عبد اللّه بن سعيد بن ثابت وابن إسحاق: فلما قال مجاعة لبني حنيفة: ولكن عليكم بالرَّجَّال. إذا فئة من المسلمين

---

(١) لا تَحَوُّزَ بعد الرحال: أخذًا من قوله ﷻ: ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦]، فلا ملجأ بعد الرحال إلا الموت.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٧٩).

(٣) المصدر نفسه (٢/٢٨٠).

قد تذامروا بينهم، فتفانوا، وتفانى المسلمون يومئذ، وتكلم رجال من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقال زيد بن الخطاب: واللَّه، لا أتكلم أو أظفر أو أقتل، واصنعوا كما أصنع أنا. فحمل وحمل أصحابه. وقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، هكذا عني حتى أريكم الجلاد. وَقُتِلَ زيد بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

في اللحظات الحاسمة يتغير مصير البشرية، فلو أن هذه الحرب كانت إحدى أيام العرب السابقة لانتهت بفرار المسلمين، ثم عادت غارة شعواء ثانية، وهكذا دون حسم في خير أو شر أو مبدأ أو عقيدة، ولاستفحل سلطان مسيلمة حتى عم الجزيرة.

ولكننا أمام جيل جديد تربى في معمل النبوة العظيم صاغه رسول اللَّه ﷺ، ولقد كانت الدورة الأولى فيه في أُحد، يوم انقض المشركون على المسلمين بقيادة خالدنا نفسه الذي كان يمثل معسكر المشركين، ووصل الأمر في النكبة أن لم يبق حول رسول اللَّه ﷺ أحد إلا استشهد، خالد وهو يقود معركة الثأر في أُحد كان يتربى - وهو على شركه - في مدرسة النبي ﷺ وما تزحزح رسول اللَّه ﷺ خطوة إلى الوراء، إنما بقي يستعيد جنده واحدًا تلو الآخر بعد سيل الشهداء الذي شكل ترسانة من اللحم والدم حول رسول اللَّه ﷺ، وأعاد الهجوم ثانية حتى تراجعت فلول المشركين راضية من الغنيمة بالإياب، وكانت تود لو أنها قتلت على الأقل القادة الثلاثة محمدًا رسول اللَّه ﷺ وأبا بكر وعمر، ولكن حتى هذا الأمر قد فاتها فلم تحققه.

لقد دخل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدرسة الحربية في أُحد، وتعلم فيها أن الحرب جولات، ورغم شهاداته العليا ودورات الأركان التي خاضها قبل أُحد، وأعاد الكرة وانقضَّ على المسلمين من خلفهم، لكن الدورة الجديدة التي دخلها يوم أُحد أن جيش العقيدة لا ينهزم، قد يتراجع، وقد ينكب، لكنه لا يفر... ها هو يرى إخوانه من السابقين الأولين يقفون كالجبال الراسيات أمام زحف المشركين، ها هو عمر بن الخطاب حاضر في شخص أخيه زيد، وها هو الصديق حاضر في شخص ابنه عبد الرحمن، وها هو خطيب رسول اللَّه ﷺ ثابت بن قيس يقرن الأقوال بالفعال، وها هو

أبو حذيفة بن عتبة قد آن الأوان له أن يكفر عن كلمته التي قالها يوم بدر، ويرى أن هذه الكلمة لا تُمْسَح إلا بالدم، ولا يكفرها عنه إلا الشهادة، وها هو مولاه سالم ابن معقل حامل القرآن يتحول من قارئ إلى قائد لحمل راية المهاجرين، وبئس حامل القرآن أن يؤتى المسلمون من جهته كما قال عن نفسه.

هذه النماذج العليا التي شربت من رحيق النبوة هي التي أوقفت الزحف المشرك من هذه الأعداد الضخمة من بني حنيفة، وأعادتهم إلى مصافِّهم، وأبعد مما كانوا عليه، وسقطت هذه القيادات جميعًا شهداء في المعركة، ولا تزال المعركة بعد الصمود الإسلامي وصد زحف الشرك متكافئة بين الفريقين كما قال الطبري عن رواته لما اشتد القتال، وكانت يومئذ سجالًا، إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين (١). كان لا بد من خطوة أعنف لتغيير مصير المعركة.

الجولة الرابعة:

قال الطبري: (وكتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن طلحة بن الأعلم، عن عبيد بن عمير قال: إن المهاجرين والأنصار جَبَّنُوا (٢) أهل البوادي، وَجَبَّنَهُم أهل البوادي، فقال بعضهم لبعض: امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم، ونعرف اليوم من أين نؤتى. ففعلوا.

وقال أهل القرى: نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم.

فقال لهم أهل البادية: إن أهل القرى لا يحسنون القتال، ولا يدرون ما الحرب، فسترون إذا امتزنا من أين يجيء الخلل.

فامتازوا فما رئي يوم كان أَحَدَّ ولا أعظم نكاية مما رئي يومئذ، ولم يدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية، إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية، وأن البقية أبدًا في الشدة، ورمى عبد الرحمن بن أبي بكر المحكم بينهم بسهم وقتله وهو يخطب، فنحره، وقتل زيد بن الخطاب الرَّجَّال بن عنفوة) (٣).

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن الضحاك بن يربوع عن

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨١).

(٢) جبنوا: اتهموهم بالجُبن.

(٣) المصدر نفسه (٢/٢٨١).

أبيه عن رجل من بني سحيم قد شهدها مع خالد قال:

لما اشتد القتال، وكانت يومئذ سجالًا إنما تكون مرةً على المسلمين، ومرة على الكافرين، فقال خالد: أيها الناس، امتازوا لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى. فامتاز أهل القرى والبوادي وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر، فوقف كل بني أب تحت رايتهم، فقاتلوا جميعًا، فقال أهل البوادي يومئذ: الآن يستحرُّ القتل في الأجزع الأضعف، فاستحر القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه...) (١).

إنه لا يكفي الصمود في المعركة، وحتى تحسم فلا بد من الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، لقد كانت المرحلة السابقة مرحلة الثبات والصمود، ومن أجل ذلك (حفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل هناك) (٢).

وكانت فرصة ليتذامر الناس ويتلاوموا، فلا بد من تغيير في واقع المعركة، فاتَّهَمَ أهل البادية المهاجرين والأنصار بالجبن، وقالوا: إنما نؤتى من قبلكم. واتَّهم المهاجرون والأنصار وهم أهل المدن، اتهموا أهل البادية بالجبن، وأنهم لا يعرفون قتال أهل المدن مثلهم، وكانت فرصة سانحة رأى فيها القائد العظيم لتحريك كل طاقات المقاتلين للحفاظ على سمعتهم، واستجاشة ما عندهم من طاقات وهمم للقتال، فإذا كان المهاجرون والأنصار أعظم ما عندهم من طاقات كامنة في إيمانهم، فليتميزوا عن الآخرين، حيث يحركهم قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

فيهم أهل بدر الذين نزلت فيهم هذه الآية، ومن أجل هذا قال زيد: لا تحيُّز بعد الرحل. فإذا كان الرحل هو الحد الفاصل الذي يفيء إليه المسلم، ثم يعيد الكرة منه، فقد راحت الرحال، ولا تراجع بعدها أبدًا، وليس أمام المسلم المؤمن إلا التقدم أو الشهادة، لكن القيم التي تحرك الفريق الثاني من أهل البادية، والتي لم تصل أبعاد الإسلام في نفوسهم إلى المدى الكبير، ولا تزال قيم القبيلة والحفاظ على شرفها لها التأثير الأقوى، فلتعتمد هذه القيمة إذن في سبيل توظيفها لحرب الكفار، فالمهاجرون

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨١). (٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣٢٨).

والأنصار قد مَثَّلوا صيغة الأمة الواحدة التي انتهت فيها معالم العصبية القبلية، وهم يعملون على بناء الأجيال الجديدة على رَوِيَّة ومهل ليصلوا إلى هذا المستوى، لكننا نحن الآن بحاجة لشحذ كل طاقة وتعبئة كل قيمة تصب في جام الحرب ضد العدو، (فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر، فوقف بنو كل أب تحت رايتهم). ومن خلال عبقرية خالد ﷺ في هذه التعبئة المعنوية (فما رئي يوم كان أحد ولا أعظم نكاية مما رئي يومئذ).

وفي هذه الأجواء الملتهبة، والطاقات المتفجرة، كانت الحركة العظيمة للقيادة في الزحف العام نحو العدو (وحمل خالد بن الوليد وقال لحماته: لا أُوتَينَّ من خلفي. حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة)، (وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه، فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم، ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى المبارزة وانتمى، وقال: أنا ابن الوليد العود [١]، أنا ابن عامر وزيد. ونادى بشعارهم يومئذ، وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه. فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، وهو يرتجز:

أنا ابن أشياخ وسيفي السخت [٢] **أعظم شيء حين يأتيك النفت** [٣]

ولا يبرز له شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين وطحنت، ثم نادى خالد حين دنا من مسيلمة وكان رسول اللّه ﷺ قال: « **وإن مع مسيلمة شيطانًا لا يعصيه، فإذا اعتراه أزبد كأن شدقيه زبيبتان، لا يهم بخير أبدًا إلا صرفه عنه، فإذا رأيتم منه عورة، فلا تقيلوه العثرة** ». فلما دنا منه خالد طلب تلك، ورآه ثابتًا ورحاهم تدور عليه، وعرف أنها لا تزول إلا بزواله، فدعا مسيلمة طلبًا لعورته، فأجابه، فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة، وقال: إن قَبِلْنا النصف [٤]، فأي الأنصاف تعطينا. فكان إذا هم بجوابه أعرض بوجهه مستشيرًا، فينهاه شيطانه أن يقبل، فأعرض بوجهه مرة من ذلك، وركبه خالد فأرهقه فأدبر، وزالوا فذمر خالد الناس وقال: دونكم لا تقيلوهم [٥]،

---

(١) أنا ابن الوليد العود: أنا ابن الوليد القديم في السؤدد، أو شبَّه نفسه بالجمل الكبير المسن المدرب.

(٢) سيفي السخت: سيفي الشديد القاصم.

(٣) حين يأتيك النفت: حين يأتيك بالغضب يغلي كالمرجل.

(٤) النصف: إشارة إلى ما ذكره مسيلمة في كتابه: لنا نصف الأرض ولكم النصف.

(٥) لا تقيلوهم: لا تمهلوهم.

وركبوهم فكانت هزيمتهم...)، (... وانحازت بنو حنيفة تَبِعَهُم المسلمون يقتلونهم حتى بلغوا بهم إلى حديقة الموت... فدخلوها وأغلقوها عليهم...) [١].

الجولة الخامسة:

لقد كان المحكمُ بن الطفيل القائدُ الثاني عند مسيلمة هو صاحب الخطة المواجهة لخطة المسلمين، حيث نادى بني حنيفة بالالتجاء إلى الحديقة، وكان يحمي دخولهم الحديقة، ويحضهم على الثبات، وكان سهم عبد الرحمن بن أبي بكر ينتظره ليقع في حلقة وهو يخطب فيرديه قتيلًا، وبذلك يفقد بنو حنيفة اثنين من قادتهم الثلاثة، ويبقى مسيلمة هو الملاذ لهم، ولكنهم قد دخلوا إلى حصن حصين، وأغلقوا باب الحديقة، وهذا يعني أن يبقى المسلمون خارجها يحاصرونهم، ولن يؤثر عليهم الحصار، فعندهم الغلات والماء الوفير، وسوف يضطرون المسلمين إلى الانسحاب حين يرون أن لا جدوى من الانتظار، فهل يمضي هذا النصر، وتمضي هذه الدماء بهذه النتيجة؟ أم تأتي طائرات من السماء أو دبابات من الأرض تقصف باب الحديقة حتى يفتح؟

الاحتمالات كلها ضعيفة جدًّا لولا أن برز البطل العظيم في اللحظة المناسبة، إنه البراء بن مالك الذي قتل بيده مبارزةً ما لا يقل عن مائة بطل، فما هي هذه الدبابة التي سوف تدك الباب براجمات صواريخها؟

قال الطبري: (وكتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن هارون وطلحة عن عمرو بن شعيب وابن إسحاق أنهم لما امتازوا وصبروا وانحازت بنو حنيفة، تبعهم المسلمون يقتلونهم حتى بلغوا بهم إلى حديقة الموت... فدخلوها وأغلقوها عليهم، وأحاط المسلمون بهم، وصرخ البراء بن مالك فقال: يا معشر المسلمين، احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه. ففعلوا، حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وأُرعد فنادى: أنزلوني. ثم قال: احملوني. ففعل ذلك مرارًا ثم قال: أف لهذا خَشِعا. ثم قال: احملوني. فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين وهم على الباب من خارج فدخلوا، فأغلق الباب، ثم رمى بالمفتاح من وراء الجدار، فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يروا مثله، وأبير من في الحديقة منهم، وقد قتل اللَّه مسيلمة...) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨١).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٨١، ٢٨٢).

وقد أخرج البخاري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي بن حرب في قصته عن قتل حمزة، قال وحشي: فلما قُبض رسول اللَّه ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق، ثائر الرأس. قال: فرميته بحربتي، وأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

وفي رواية الطيالسي: فربك أعلم أينا قتله، فإن قتلته، فقد قَتَلْتُ خَيْرَ الناس وَشَرَّ الناس. (وفيه قال ابن عمر: كنت في الجيش يومئذ، فسمعت قائلًا يقول في مسيلمة: قتله العبد الأسود. قوله: « ووثب إليه رجل من الأنصار » هو عبد اللَّه بن زيد بن عاصم المازني كما جزم به الواقدي وإسحاق بن راهويه والحاكم)[١].

(وقد قتل اللَّه مسيلمة وقالت له بنو حنيفة: أين ما كنت تعدنا؟ قال: قاتلوا عن أحسابكم)[٢].

(وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء، ستمائة أو يزيدون، وقتل ثابت بن قيس يومئذ، قتله رجل من المشركين قطعت رجله فرمى بها، قاتله فقتله، وقتل من بني حنيفة في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف، وفي الطلب نحو منها)[٣].

وقال ضرار بن الأزور يوم اليمامة:

ولو سئلت عنا جنوب[٤] لأخبرت ... عشية سالت عقرباء[٥] وملهم[٦]
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت ... حجارته فيها من القوم بالدم
عشية لا تغني الرماح مكانها ... ولا النبل إلا المشرفي المصمم
فإن تبتغي الكفار غير مليمة ... جنوب فإني تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ... ولله بالمرء المجاهد أعلم[٧]

---

(١) فتح الباري (٤٢٥/٧).
(٢) تاريخ الطبري (٢٨٢/٢).
(٣) المصدر نفسه (٢٨٣/٢).
(٤ - ٦) أسماء مواقع المعركة.
(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢٩٨/٤، ٢٩٩).

لقد كان مسيلمة الهدف الرئيسي في المعركة، كل امرئ مسلم يتقرب إلى اللّٰه بدمه... فوحشِي يريد أن يقتل شر الناس بعد أن قتل خير الناس حمزة، فالتحق بالجيش المسلم على أمل أن يظفر بقتله، ونسيبة بنت كعب التي قطَّع مسيلمة ولدها إربًا إربًا لأنه كفر به تحركت مع الجيش المسلم تريد الثأر لابنها الشهيد. وَتُحَدِّثُنا عن رحلتها هذه فتقول كما روى البلاذري: (... وَقَاتَلَتْ يوم اليمامة فَقُطِعَتْ يدها وهي تريد مسيلمة الكذاب لتقتله، قالت: ما كانت ناهيةً لي حتى رأيتُ الخبيثَ مقتولًا، وإذا ابني عبد اللّٰه بن زيد يمسح سيفه بثيابه، فقلتُ: أقتلتهُ؟ قال: نعم. فسَجَدْتُ للّٰه شكرًا) [١]، (وذكر الواقدي أنه لما بلغها قتل ابنها حبيب عاهدت اللّٰه أن تموت دون مسيلمة أو تقتل، فشهدت اليمامة مع خالد بن الوليد ومعها ابنها عبد اللّٰه فَقَتَلَ مسيلمة، وَقُطِعَتْ يَدُهَا في الحرب) [٢].

ولم تُسَمَّ حديقة الموت جزافًا، فقد سقط الآلاف من المشركين والمئات من المسلمين صرعى فيها، ولا نبالغ إذا قلنا: إن عدد ما قتل من المسلمين في اليمامة يعادل ما قتل منهم منذ البعثة إلى اليمامة. وذلك لندرك أهمية هذه المعركة الفاصلة التي كانت كاليرموك بالنسبة للروم وكالقادسية بالنسبة لفارس، وهي اليمامة بالنسبة للعرب، والتي أنهت تَمَرُّدَ جزيرة العرب.

الجولة السادسة والأخيرة:

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال:

لما فرغ خالد من مسيلمة والجند قال له عبد اللّٰه بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر: ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون. فقال: دَعَاني أَبُثُّ الخيول فألقط من ليس في الحصون، ثم أرى رأيي. فبث الخيول فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان، فضموا هذا إلى العسكر، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون، فقال له مجاعة: إنه واللّٰه ما جاءك إلا سَرَعان الناس، وإن الحصون لمملوءة رجالًا، فهلم لك إلى الصلح

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤/٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (١٢٤٥٥).

على ما ورائي. فصالحه على كل شيء دون النفوس، ثم قال: أنطلق إليهم فأشاورهم وننظر في هذا الأمر ثم أرجع إليك. فدخل مجاعة الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية، ورجال ضعفى، فظاهر الحديد على النساء، وأمرهن أن ينشرن شعورهن، وأن يشرفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهن، ثم رجع فأتى خالدًا فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لك بعضهم نقضًا عليَّ، وهم مني براء. فنظر خالد إلى رؤوس الحصون، وقد اسودت (بالناس) وقد نهكت المسلمين الحرب، وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا بالظفر... قال مجاعة يومئذ ثانيةً: إن شِئْتَ أن تقبل مني نصف السبي والصفراء والبيضاء والحلقة والكراع عزمت وكتبت الصلح بيني وبينك. ففعل خالد ذلك، فصالحه على الصفراء والبيضاء (١) والحلقة (٢) والكراع (٣)، وعلى نصف السبي، وحائط من كل قرية يختاره خالد، ومزرعة يختارها خالد، فتقاضوا على ذلك، ثم سرَّحه وقال:

أنتم بالخيار ثلاثًا، والله لئن تتموا وتقبلوا لأنهدن إليكم، ثم لا أقبل منكم خصلة أبدًا إلا القتل. فأتاهم مجاعة فقال: أما الآن فاقبلوا. فقال سلمة بن عمير الحنفي:

والله لا نقبل، نبعث إلى أهل القرى والعبيد، فنقاتل ولا نقاضي خالدًا، فإن الحصون حصينة، والطعام كثير، والشتاء قد حضر. فقال مجاعة:

إنك امرؤ مشؤوم، وغرَّك أني خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح، وهل بقي منكم أحد فيه خير أو به دفع؟ وإنما أنا بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل ابن مسيلمة. فخرج مجاعة بسابع سبعة حتى أتى خالدًا فقال:

بعد شد ما رضوا اكتب كتابك. فكتب:

هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة بن عمير وفلانًا وفلانًا، قاضاهم على الصفراء والبيضاء (٤)، ونصف السبي، والحلقة (٥)، والكراع، وحائط من كل قرية، ومزرعة، على أن يسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، وذمة المسلمين على الوفاء) (٦).

---

(١) الصفراء والبيضاء: الأموال.
(٢) الحلقة: السلاح.
(٣) الكراع: اسم لجميع الخيل.
(٤) الصفراء والبيضاء: الأموال.
(٥) الحلقة: السلاح.
(٦) تاريخ الطبري (٢/٢٨٢، ٢٨٣).

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن طلحة عن عكرمة عن أبي هريرة:

(... وقد بعث أبو بكر ﷺ بكتاب إلى خالد مع سلمة بن سلامة بن وقش، يأمره إن أظفره اللَّه ﷻ أن يقتل من جرت عليه المواسي من بني حنيفة، فقدم فوجده قد صالحهم، فَوَفَّى لهم، وَتَمَّ على ما كان منه، وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد).

قال الطبري: (حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: قال مجاعة لخالد ما قال إذ قال له: « فَهَلُمَّ لأصالحك عن قومي » لرجل قد نهكته الحرب، وأصيب معه من أشراف الناس من أصيب، فقد رق وأحب الدعة والصلح... فصالحه على الصفراء والبيضاء والحلقة ونصف السبي، ثم قال: إني آتي القوم فأعرض عليهم ما قد صنعت. قال: فانطلق إليهم، فقال للنساء: البسن الحديد، ثم أشرفن على الحصون. ففعلن، ثم رجع إلى خالد، وقد رأى خالد الرجال فيما يرى على الحصون عليهم الحديد، فلما انتهى إلى خالد قال: أبوا ما صالحتك عليه ولكن إن شئت صنعت لك شيئًا، فعزمت على القوم. قال: ما هو؟ قال: أتأخذ مني ربع السبي وتدع ربعًا؟ قال: قد فعلت. قال: قد صالحتك. فلما فرغا فتحت الحصون، فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: وَيْحَكَ خدعتني. قال:

قومي ولم أستطع إلا ما صنعت) (١).

ثم إن خالدًا قال لمجاعة: زوجني ابنتك. فقال له مجاعة: مهلًا إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك. قال: أيها الرجل، زوجني. فَزَوَّجَهُ، فبلغ ذلك أبا بكر، فكتب إليه كتابًا يقطر الدم:

لعمري يا ابن أم خالد، إنك لفارغ تنكح النساء، وَبِفِناءِ بيتك دَمُ ألف رجل ومائتين من المسلمين لم يجفف بعد. فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعيسر. يعني عمر بن الخطاب. وقد بعث خالد وفدًا من بني حنيفة إلى أبي بكر، فقدموا عليه، فقال لهم أبو بكر: وَيْحَكُم ما هذا الذي استنزل منكم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٣).

ما استنزل؟! قالوا: يا خليفة رسول اللّه، قد كان الذي بلغك مما أصابنا أمرًا لم يبارك اللّه لي ولا لعشيرته فيه. قال: عليَّ ذلك، ما الذي دعاكم به؟ قالوا: كان يقول: يا ضفدع، نقي نقي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون. قال أبو بكر: سبحان اللّه، ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إلٍّ ولا بَرٍّ فأين يذهب بكم؟) (١).

لقد كان مجاعة بن مرارة شريفًا عظيمًا من أشراف بني حنيفة، وهو الذي أنقذ أم تميم زوج خالد بن الوليد من القتل، وأجارها من قومه، وشهد بها قائلًا: نعمت الحرة هذه. وأنقذ بني حنيفة من سبة عار قتلها، قائلًا لهم: عليكم بالرجال. وهو الذي أدرك أن بني حنيفة إنما كانوا يشحذون أسلحتهم في بداية المعركة للمواجهة مع المسلمين، وهو الذي استعمل ما يملك من دهاء لإنقاذ ما تبقى من قومه حين ألبس النساء السلاح، وأوهم خالدًا ﷺ أنهم مقاتلون أشداء، واستطاع أن ينقذ نصف السبي، ويحمي بقية المقاتلين من الموت.

وجاء خطاب الصديق ﷺ لخالد بقتل كل محتلم من بني حنيفة، فجميعهم على دين مسيلمة وردته، وهزموا في المعركة.

وأدرك خالد ﷺ أن مجاعة بن مرارة خدعه، ولم يَنْفِ مجاعة ذلك، وأكد له أن من حقه أن ينقذ قومه من الموت ومن الكفر حين عاهد على إسلامهم وبيعتهم، وكان خالد ﷺ القائدُ الفَذُّ بين خيارين:

بين أن يثأر لنفسه من هذه الخديعة، ويستجيب لرد هذه الطعنة التي جاءته من مجاعة، ويستغل كتاب الصديق بقتل كل رجال بني حنيفة.

وبين أن يعترف بالخديعة، وتسجل تاريخيًّا عليه، ويرفض كتاب الصديق لأنه عاهد مجاعة، ولا يحل للمسلمين الغدر بعد أن أعطوهم الأمان.

ولو كانت شخصية خالد ﷺ كما يصفها أهل الأهواء لكان الحل الأول هو المتناسب مع هذا الوصف... ولكان حقق رعبًا أكبر عند العرب، وأصبح الطاغية الذي لا يُؤْمَنُ جانبه، ولكن كم يستجيب لهذا الدين من العرب بعد هذا الغدر؟

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٤، ٢٨٥).

وكم يمكن أن يقتنع من بني حنيفة أو غيرهم برسالة الإسلام طالما أن قادته مثلهم يغدرون وينكثون بعد العهد الذي أعطوه بالأمان؟

لكن خالدًا أعظم مما يفتري أهل الأهواء عليه، وهو خرِّيج مدرسة النبوة التي تقول في ثالث موادها الحربية: ولا تغدروا.

وتنازل خالد عن شخصه، وَقَبِلَ إهانة الخديعة من خصمه، ورد كتاب الخليفة الذي وصل بعد العهد، وآثر رضا اللَّه على رضا الناس، وَوَفَّى لمجاعة بما عاهد، وَعَرَّفَ الناس دين اللَّه من أكاذيب متنبئيهم، وعادوا فدخلوا في دين اللَّه أفواجًا، وفتحت قلوبهم للإسلام بعد أن تكسَّرت قلوبهم بالحقد والذل، ويصبحون طعمة القتل على الكفر. إن الدورة التربوية التي حضرها خالد بن الوليد ﷺ حين بعثه رسول اللَّه ﷺ داعية إلى نجران هي التي أعادت صياغته ليقود الناس على هدى الإيمان وصياغة النبوة، وقد مر عليها أقل من سنتين، فنهاية السنة الحادية عشرة كانت حرب اليمامة، وفي جمادى الأولى من سنة عشر كانت بعثة خالد لبني الحارث بن كعب في نجران، وإن استعادتها ضرورية هنا حتى نفقه كيف تحول بنو حنيفة إلى القاعدة الصلبة للإسلام وتمام إنقاذهم على يد مجاعة بن مرارة ﷺ.

قال ابن إسحاق:

(ثم بعث رسول اللَّه ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، « **فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم** ». فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا. فأسلم الناس، ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب اللَّه وسنَّة نبيه ﷺ، وبذلك كان أمر رسول اللَّه ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا...) (١).

خالد بن الوليد خلق قائدًا عسكريًّا، ولم يُخلق داعية أو أميرًا سياسيًّا، ولكن لا بد من تدريبه على الدعوة، فالطريق طويل أمامه، فهو سيف اللَّه المعد لمواجهة كل أعداء اللَّه في الأرض من العرب والفرس والعجم، وأي قائد عسكري في الإسلام لا بد أن

---

(١) السيرة لابن هشام (١٨٢/٤/٢).

يكون داعية إلى الله ﷻ؛ لأنه مكلف قبل خوض المعركة بأن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام، فإن استجابوا أغمد سيفه، وأطلق علمه وفقهه، أما إذا أصروا على المواجهة فمنطق القوة والحرب غير منطق السلم والدخول في دين الله.

وهذه من التجارب العظيمة الناجحة التي خاضها ابن الوليد رضي الله عنه، ولا شك أن سمعته الحربية قد سبقته، فمنذ غزوة أُحد لَمَعَ نجمه في أنه استطاع ولو لمرة واحدة أن يوقف نصر المسلمين في أُحد، ويوقعهم في محنة كبيرة.

لكن أبرز أمجاده كانت بعد إسلامه في غزوة مؤتة حيث كانت العرب تتوقع فناء جيش محمد ﷺ بلقائه مع قيصر ملك الروم الذي أعد مائتي ألف مقاتل لمواجهة أربعة آلاف من المسلمين، وقال خالد عن تلك المعركة: (لقد كسرت في يدي تسعة أسياف ولم يثبت في يدي إلا صفيحة يمانية).

فتحرك خالد رضي الله عنه مع جيشه، وقد حددت مهمته أن يدعوهم ثلاثة أيام إلى الإسلام (... فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا. فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه...).

(... فبعث إلى رسول الله ﷺ بالكتاب التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، يا رسول الله صلَّى الله عليك، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا لقيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا أقمتُ فيهم، وقَبِلْتُ منهم، وعلَّمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنَّة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانًا، قالوا: يا بني الحارث، أسلموا تسلموا. فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنَّة نبيه ﷺ حتى يكتب إليَّ رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته) (١).

---

(١) السيرة لابن هشام (١٨٢/٤/٢).

لقد نجحت مهمة خالد ﷺ أيما نجاح، وعليه أن يتحرك بصفته داعية لا قائدًا حربيًا يتألف قلوب الناس، ويحببهم بالإسلام. وكتب إلى رسول الله ﷺ بإنجاز المهمة كاملة، فجاء الجواب النبوي التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

« **من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد:**

سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم، وأقْبِل، وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ». كم الفرق بين هذه الرسالة العظيمة، وبين موقف رسول الله ﷺ بعد بعثه خالدًا لبني جذيمة، وبعد أن استسلم الناس للإسلام. وكيف أسروا وقتلوا لظروف وملابسات انتهت بأن يرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء قائلًا:

« **اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد** ». ثلاث مرات، وعلى ملأ من الناس كافة.

لقد كان أقسى درس تلقاه ﷺ خلال السنة الأولى من إسلامه، ولأن القوة قدمت على الدعوة، وكان فشل المهمة الدعوية آنذاك، وعدم التثبت من الأمر والأسر رغم الإسلام، كل هذه الأمور حفرت في أعماق خالد، ولم ينس آثارها أبدًا، فما أن جاءت هذه المهمة إلا ووجدناه قد تجاوز هذه المرحلة، وبعث رسله يدعون إلى الإسلام ويبشرون به، ويكتفون بإعلان الناس إسلامهم، حتى ليمضي هو ﷺ، ويلتقي الناس في رحالهم وبيوتهم، ويدعو قادتهم وزعماءهم إلى الإسلام فيستجيبون.

إنه يريد أن يمحو آثار غزوة بني جذيمة من نفسه بعد أن محاها عليٌّ ﷺ من نفوس بني جذيمة وودى قتلاهم. ومع هذه البراءة من صنيع خالد، ومعالجة الآثار السلبية التي نتجت عن بعثة بني جذيمة لم يمنع هذا من تكليف رسول الله ﷺ لقائده العظيم خالد بقيادة الفرسان في غزوة حنين، خلال أقل من شهر من غزوة بني جذيمة، ومتابعة مهماته القتالية، ولم يمنع من تكليفه بالمهمة الفدائية الخارقة في استئسار أكيدر

ابن عبد الملك في قلب الصحراء العربية، ومن داخل حصنه، ثم كانت هذه المهمة الدعوية.

إن تربية العظماء والقادة هي من أعظم المهمات النبوية التي قام بها رسول اللَّه ﷺ حتى تتحول نفوسهم إلى الانصياع للإسلام، وإلى اللَّه ورسوله بدل الانصياع إلى الهوى والقوة وشهوة السلطة ونشوة الانتصار) (١).

ومن تربية العظماء والقادة التي تلقاها خالد ﷺ مهمة دعوية أخرى هي من أشق ما لاقاه في حياته، وهي في اليمن كذلك، فمهمته ﷺ في بني الحارث بن كعب كُلِّلَتْ بالنجاح ولم يلق فيها أدنى مشقة، أما تجربته الجديدة ومهمته الثانية فقد كانت في اليمن كذلك، وإلى قبيلة همدان. نستمع إليها كما وردت في النص:

(روى البيهقي بإسناد صحيح من حديث ابن إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنتُ فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر، دعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه. ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يعقب خالدًا إلا رجلًا ممن كان مع خالد أحب أن يعقب مع علي فليعقب معه. قال البراء:

فكنت ممن عقَّب مع علي، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي فَصَفَّنَا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول اللَّه ﷺ، فأسلمت همدان جميعًا، فكتب عليٌّ إلى رسول اللَّه ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول اللَّه ﷺ الكتاب خرَّ ساجدًا ثم رفع رأسه فقال: « **السلام على همدان، السلام على همدان** » (٢). وأصل الحديث في صحيح البخاري) (٣).

إن خالدًا الذي كان يدير أعظم المعارك الحربية مع الروم والفرس والعرب فيما بعد ويوقع بهم، وقف عاجزًا أمام إصرار همدان على عدم الاستجابة لدين اللَّه ﷻ: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

ولقد قال اللَّه تعالى لنبيه ذلك، فلا غرو أن يقال إلى خالد مثل هذا السؤال!!

---

(١) المنهج التربوي للسيرة النبوية، التربية السياسية (١٠/٤٦٠) للمؤلف.

(٢) البخاري، ح (٤٣٤٩).

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/٣٥٨).

لقد كان خالد ﷺ بطلًا لا يُشَقُّ له غبار، وما من معركة خاضها مع عدوٍّ له إلا انتصف منه، ولكن رسول اللَّه ﷺ يريد لجنديِّهِ خالد أن يكون داعية إلى اللَّه، فأصدر أوامره له بالتوجه إلى همدان، وتعثَّرت مهمة خالد ﷺ، ولم تستمر يومًا واحدًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، إنما استمرت ستة أشهر، والقوم على عنادهم ورفضهم الدعوة الإسلامية والدخول فيها.

ولو كانت هناك أوامر من النبي ﷺ بقتالهم لقاتلهم وهذا أهون الأمور عليه، لكن التجربة الفذة التي أرادها رسول اللَّه ﷺ لخالد أن يتدرب تدربًا كاملًا على الدعوة، ويصبر على صدود الناس، ويتحمل أذاهم، ويتابع دعوتهم، فهو لم يشهد هذه المرحلة التي عاشها رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون الأولون من السابقين المهاجرين، لقد عاشها معاندًا محاربًا للَّه ورسوله، واستمر على عناده عشرين عامًا حتى أسلم، فليجرب مرارة الصد كما كان يذيق المسلمين الأولين، وليتجرع كأس المواجهة الفكرية التي لا تُحَلُّ بالسيف، ولا تُنْهَى بالحرب، فمعركة بني حنيفة التي شهدناها مع أكبر قبائل العرب، وفي أعظم مواجهة في تاريخ الإسلام حتى يومها لم تحتمل معه شهرًا واحدًا لحسمها، وها هو يصبر ستة أشهر دون أن يلقى بصيص أمل، حتى يضطر أن يخبر رسول اللَّه ﷺ عن معاناته، فيبعث رسول اللَّه ﷺ جيشًا آخر على قيادته علي بن أبي طالب ﷺ ويكتبُ اللَّه تعالى هداية همدان على يديه بمجرد سماعهم كتاب رسول اللَّه ﷺ لهم، ورؤية ابن عمه بين ظهرانيهم.

وشاءت إرادة اللَّه تعالى أن يقيل ابن أبي طالب عثرة خالد مرتين:

المرة الأولى: التي ودى فيها قتلى بني جذيمة الذين قتلهم خالد حتى أرضاهم.

كما روى ابن هشام رؤيا رسول اللَّه ﷺ في ذلك:

(« **رأيت كأني لقِمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل عليٌّ يده فنزعه** ». فقال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول اللَّه، هذه سرية من سراياك تبعثها، فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض، فتبعث عليًّا فيسهله) (١).

والمرة الثانية: هذه والتي تم فيها إسلام همدان على يدي علي بن أبي طالب،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٥٦/٤/٢).

وتعلم خالد ﷺ أن خط الدعوة شيء، وخط الحرب شيء آخر، وعلى كل قائد إسلامي أن يكون داعية، وليس بالضرورة أن يكون كل داعية قائدًا، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له. بقي علينا أخيرًا أن نعرض الدرس الأخير لخالد ﷺ ليكون مرافقًا له. في جميع حروبه، ويتعلم كيف يتعامل مع من يظهر الإسلام.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول اللَّه، اتق اللَّه. قال: « **ويلك أولستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقي اللَّه؟** ».

ثم وَلَّى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول اللَّه، ألا أضرب عنقه؟ قال: « **لا، لعله يكون يصلي** ». فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقول في لسانه ما ليس في قلبه! قال رسول اللَّه ﷺ: « **إني لم أؤمر أن أُنَقِّبَ عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم** ».

قال: ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال: « **إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب اللَّه رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة** ». وأظنه قال: « **لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود** »[1].

ومن هذا الدرس تعلم خالد ﷺ في حروبه كلها التي تواجهه أن يقبل من الناس علانيتهم إذا أعلنوا إسلامهم، ويَكِلَ سرائرهم إلى اللَّه ﷻ.

وطبَّق هذا الدرس في بني حنيفة وفي تنفيذ الاتفاق الذي أبرمه مع مجاعة، ورأى من تبقى من بني حنيفة يبايعون على الإسلام، فلم يضرب أعناقهم، ولم يُنَقِّبْ عن قلوبهم ليعلم أنهم قد أسلموا خوفًا من السيف أو رغبةً في الإسلام.

وها نحن نودع خالدًا الآن، لنمضي مع بقية القادة إلى عمان واليمن، حتى تكتمل خارطة جزيرة العرب بعودتها إلى الإسلام من جديد، ونعود إلى خالد بفتح جديد ولكن في العراق، بعد أن أنهى بني حنيفة في نجد.

---

(١) البخاري، ح (٤٣٥١)، ورواه مسلم، ح (١٠٦٤).

الحدث الأعظم: جمع القرآن

مع عظمة النصر الذي تحقق، والذي لم يعادله نصر قبله، وفي اجتثاث قاعدة الشرك في الجزيرة العربية، لكن الثمن الذي قدم ثمنٌ باهظٌ لذلك، فقد فقدت الأمة غرة رجالاتها وقياداتها في هذه المعركة، ومعظمهم من حملة كتاب اللَّه ﷻ، فهم أمناء اللَّه على وحيه، وعاشت المدينة المنورة مأساةَ فراقها لهؤلاء الشهداء مضمَّخة بعبير النصر.

أخرج البخاري عن شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت ﵁ - وكان ممن يكتب الوحي - قال:

(أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ في أهل اليمامة، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول اللَّه؟ فقال عمر: هو واللَّه خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح اللَّه لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعمر عنده جالس، لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وكنت تكتب الوحي لرسول اللَّه ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجمعه، فواللَّه، لو كلفني نَقْلَ جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو واللَّه خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح اللَّه صدري للذي شرح اللَّه صدر أبي بكر وعمر.

فتتبعت القرآن أجمعه من الرِّقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة آيتين عند خزيمة بن ثابت الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم... ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها.

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه اللَّه، ثم عند عمر حتى توفاه اللَّه، ثم عند حفصة) [١].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٩٤/٨).

لقد كان حدثًا محليًا ما ندري إن كان الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أدركا أننا لا نزال نعيش في أفياء هذا الحدث الجلل، ونتفيأ ظلال هذه النعمة الكبرى، وستبقى البشرية تنعم في ظل هذا الحدث إلى قيام الساعة أَنْ نُقِلَ القرآنُ غضًا طريًا بعد أقل من عامين من وفاة رسول اللَّه ﷺ، وتم جمعه كاملًا في صحف محددة. ولا ندرك أبعاد هذه النعمة إلا حين نرى الذين نقول عنهم في كل صلاة: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] فالذين ضلوا لأنهم فقدوا كتابهم الذي جمع بعد مائة عام، وقضي على مئات النسخ بقرار بشري، واعتمدت نسخ أربعة للإنجيل تحمل من تلافيفها الكثير من التناقضات، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، فلقد تغيرت العقيدة كلها وتغيرت الوحدانية إلى الكفر والشرك نتيجة عدم جمع الكتاب مباشرة بعد رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إلى السماء.

وقد حفظ اللَّه لهذه الأمة دينها منذ اللحظة الأولى التي توفي فيها رسول اللَّه ﷺ بالكلمة الخالدة لأبي بكر:

من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت.

وحفظ اللَّه لهذه الأمة دينها بحفظ كتابها منذ السنة الأولى بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ، وتم جمع الكتاب بالقرآن الذي قدمه عمر رضي الله عنه، وأقره الصديق رضوان اللَّه عليه، ونفَّذه الشاب العظيم كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه.

« شابٌ عاقل لا نَتَّهِمُكَ »:

وَمَنْ لهذه المهمة سوى الشباب عامة؟ وسوى هذا الشاب العاقل ذي الذكاء الخارق من جهة ثانية؟ (وكان زيد يكتب لرسول اللَّه ﷺ الوحي وغيره، وكانت تَرِدُ على رسول اللَّه ﷺ كتب بالسريانية، فأمر زيدًا فتعلمها في بضعة عشر يومًا (١).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٨٢). وسنده صحيح.

وكتب بعده لأبي بكر وعمر، وكتب لهما معيقيب الدوسي معه أيضًا، واستخلف عمر ابن الخطاب زيد بن ثابت على المدينة ثلاث مرات) [(١)]... (وكان أحد فقهاء الصحابة الجُلَّة الفُرَّاض. قال رسول اللَّه ﷺ: « **أفرض أمتي زيد بن ثابت** » [(٢)]، وكان أبو بكر الصديق قد أمره بجمع القرآن في الصحف فكتبه فيها) [(٣)]، و (يقال: إنه كان في حين قدوم رسول اللَّه ﷺ المدينة ابن إحدى عشرة سنة. وكان يوم بعاث ابن ست سنين وفيها قتل أبوه. وقال الواقدي: استصغر رسول اللَّه ﷺ يوم بدر جماعة فردهم، منهم: زيد بن ثابت، فلم يشهد بدرًا. قال أبو عمر: ثم شهد أُحدًا وما بعدها من المشاهد. وقيل: إن أول مشاهده الخندق وكان ينقل التراب يومئذ مع المسلمين، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أما إنه نعم الغلام** ») [(٤)].

وكانت خطته أن لا يعتمد على علمه نفسه، ولا يكتفي بما كتب من الوحي، وعنده منه الشيء الكثير، إنما يتتبع القرآن من كل الوثائق التي كتب عليها الرِّقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، وكان لا بد لكل آية من شاهدين، إلا ما ورد عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه أن قَبِلَ ختام سورة التوبة منه فهو الصحابي الذي اعتبر رسول اللَّه ﷺ شهادته بشهادتين، لقد كانت المهمة عنده أثقل من الجبال، لكن همة الرجال والشباب تزلزل الجبال، فقد كان في الثانية والعشرين من عمره لا يزال في ربيع عمره وريعان شبابه، فلم يتم اختياره من بين شباب المهاجرين والأنصار عبثًا، إنما تم اختياره من شيخي هذه الأمة أبي بكر وعمر لأنه عاش عمره مع القرآن وللقرآن، وكان مَحَطَّ ثقة رسول اللَّه ﷺ من بين هؤلاء الشباب، واستأمنه رسول اللَّه ﷺ على كتاب اللَّه رغم صغر سنه، بل غدا كاتبه الخاص وكاتم أسراره حين يرد على الكتب التي تأتيه بالسريانية، كما يرد على زيف أهل الكتاب حين صار يقرأ التوراة والإنجيل باللغة التي كتبا بها. ولم تَحْتَجْ دورةُ تعلمه هذه اللغة أكثر من بضعة عشر يومًا حتى صار مصدرًا ومرجعًا فيها.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٨٠٥)، (ص ٢٤٥).
(٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي، ح (٣٧٩١)، وقال فيه: حسن صحيح. والأفرض الأعلم بالمواريث.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٨٠٥)، (ص ٢٤٦).
(٤) المصدر نفسه (ص ٢٤٦).

لقد تمت المهمة في أقل من سنة لأن الصديق ﷺ تلقى هذه الصحف واحتفظ بها عنده قبل وفاته، وقبل انتهاء خلافته، وقد توفي ﷺ في السنة الثالثة عشرة للهجرة النبوية، وانتقلت الصحف إلى عمر ﷺ مع تولي خلافته.

لقد استشهد سادة القراء في اليمامة بين من استشهد من الصحابة ﷺ، لكن الجيل الجديد الشاب هو الذي حمل الراية العلمية للأمة حين حمل الرعيل الأول الراية الجهادية في الذود عن هذا الدين ونشر مبادئه في الأرض، وقتال المرتدين الذين حاولوا القضاء عليه.

ومرت القضية بسلام، ولم يحمل لواء المعارضة لهذا التكليف إلا عبد اللَّه بن مسعود، الغلام المعلَّم الذي عاشر المرحلة المكية والمدنية، والذي جمع سبعين سورة من القرآن الكريم، ولا يزال زيد ﷺ يلعب مع الغلمان في شوارع المدينة، ثم سويت القضية بأمر خليفة رسول اللَّه الصديق ﷺ، وإقرار للصحف التي جمعها رضوان اللَّه عليه.

* * *
* *
*

الفصل الثامن

رِدَّةُ البحرين

وهي التي تسمى اليوم بالمنطقة الشرقية، الإحساء والدمام، فهي أقصى شرق الجزيرة العربية والتي كانت موطن الفرع العربي الكبير الثاني، موطن ربيعة، وعلى رأسهم بنو عبد القيس وشيبان وتغلب وبكر، وهم المتمرسون بالسيادة والحرب.

فهذه القبائل هي التي خاضت حرب البسوس التي استمرت أربعين عامًا بين بكر وتغلب، وهي التي خاضت حرب ذي قار ضد الفرس، وهي التي كانت موطن السيطرة والسيادة الفارسية، وهي التي مَثَّلَتْ عزَّ العرب في الجاهلية ممن كانوا يُسَمَّوْنَ بالمناذرة، وَمَثَّلَتْ أعرق عزهم في آخر ملوكهم النعمان بن المنذر، والذي قتل عند أربابه الفرس، فالجاهلية وأمجادها عريقة فيهم، وأيام العرب يحملون أكبر أمجادها في الملاحم والشعر والفروسية.

رسول الجارود: منقذ بن حيان:

لقد كان الجارود بن معلى العبدي نصرانيًّا يسمع بنبيٍّ أطلَّ زمانه، فدفع بعض القوم إلى يثرب، وكان أقرب الناس إليه ابن أخته منقذ بن حيان أحد بني غنم بن وديعة، واستغل الجارود السمعة التجارية لمنقذ، وطلب منه أن يمضي إلى المدينة ليسأل عن نبي ظهر في مكة، والكاهن يحدثه عنه قائلًا: (إن نبيًّا يخرج بمكة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه علامة، يَظْهَرُ على الأديان). فأتى مكة عام الهجرة، ثم شخص إلى يثرب بملاحف ونمرة مَنْ هجر بعد هجرة النبي ﷺ إليها، فبينا منقذ قاعد إذ مر النبي ﷺ فنهض منقذ إليه)[1]. لقد جاءت الفرصة المواتية يسأله ويتحدث ويتأكد، فإذا بالمفاجأة تذهله:

(... فقال النبي ﷺ: « **أمنقذ بن حيان؟ كيف جميع هيئتك وقومك؟** »)[2] وأن يسأل الرجل عن قومه عمومًا وهيئتهم فهذا أمر طبيعي، لكن أن يعرف أسماءهم

(١ ، ٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨١/١).

وأشخاصهم وسيادتهم ومواقعهم في قومه، فهذا ما لا يجد له تفسيرًا إلا النبوة (ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل يسميهم بأسمائهم، فأسلم منقذ، وتعلم سورة الفاتحة، و ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] ثم رحل قِبَل هجر، فكتب النبي ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتابًا، فذهب به وكتمه أيامًا، ثم اطلعت عليه امرأته وهي بنت المنذر بن عائذ، وكان منقذ ﷺ يصلي ويقرأ، فنكرت امرأته ذلك فذكرت لأبيها المنذر فقالت: أَنْكَرْتُ بعلي منذ قَدم من يثرب أن يغسل أطرافه، ويستقبل الجهة - تعني: القبلة - فيحني ظهره، ويضع جبينه مرة، ذلك وبدنه منذ قدم. فوقع الإسلام في قلبه (أي: المنذر) ثم ثار الأشج (هو المنذر نفسه) إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول اللَّه ﷺ، فوقع في قلوبهم، وأجمعوا على السير إلى رسول اللَّه ﷺ)[1].

قبيلة عبد القيس خير أهل المشرق:

روى أبو يعلى والطبراني بسند جيد والبيهقي عن مزيدة بن مالك العصري، وأبو يعلى عن الأشج العبدي، قال الأول: (بينما رسول اللَّه ﷺ يحدث أصحابه إذ قال لهم: « **سيطلع عليكم من هاهنا رَكْبٌ هم خير أهل المشرق** ». فقام عمر فتوجه نحوهم، فلقي ثلاثة عشر راكبًا، فقال: من القوم؟ فقالوا: من بني عبد القيس. قال: فما أقدمكم؟ التجارة؟ قالوا: لا. قال: أما إن النبي قد ذكركم آنفًا فقال خيرًا)[2].

لئن كان الأنصار هم خير أهل المغرب بعد قريش، وهم الذين أقاموا دولة الإسلام في يثرب قبل قدوم رسول اللَّه ﷺ، فقد كان بنو عبد القيس هم خير أهل المشرق، حيث أقاموا دولة الإسلام في هجر والبحرين، وكُلِّفَ أميرهم المنذر بن ساوى بأن يحكم بالإسلام في قومه ويأخذ الجزية من مجوس ويهود وهجر، وأن يقود الكتائب لحرب الكفار حوله من مضر وغيرهم، وكانت جواثى أول عاصمة للإسلام بعد المدينة حيث أقيمت بها أول جمعة بعدها.

(... ثم مشوا معه - أي: عمر - حتى أتوا النبي ﷺ، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدون. فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم، فمنهم من مشى، ومنهم من هرول، ومنهم من سعى، حتى أتوا النبي ﷺ، فابتدره القوم ولم يلبسوا إلا ثياب

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨١/١).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥٦٠/٦).

سفرهم، فأخذوا بيده فقبلوها، وفي حديث الزارعي بن عامر العبدي عند البيهقي: (فجعلنا نتبادر عن رواحلنا فنقبل يد رسول اللَّه ﷺ ورجله).

غير أن الأشج المنذر بن عائذ سيد بني عبد القيس لم يكن أقل من قومه شوقًا إلى الحبيب المصطفى ﷺ، لكنه اعتبر حق النبي أعظم من أن يقابله في ثياب سفره، ورسول اللَّه ﷺ يرمقه من بعيد، ففي حديث الإمام أحمد: « فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول اللَّه ﷺ وقبّلها ». وإذا كانت هذه الرواية قد ذكرت ثلاثة عشر راكبًا، فرواية ابن سعد تتحدث عن عشرين راكبًا، ولعلهم لم يصلوا دفعة واحدة، أو ذكر رؤساؤهم فقط، وذكرهم الآخر جميعًا.

فقد روى ابن سعد عن عروة بن الزبير - رحمه اللَّه تعالى -. وحدثني عبد الحميد ابن جعفر عن أبيه قالا:

(كتب رسول اللَّه ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلًا رأسهم عبد اللَّه بن عوف الأشج وفيهم الجارود ومنقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج، وكان قدومهم عام الفتح، فقيل: يا رسول اللَّه، هؤلاء وفد عبد القيس.

قال: « **مرحبًا بهم، نعم القوم عبد القيس** ». ونظر رسول اللَّه ﷺ إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا فقال: « **ليأتين ركب من المشرق، لم يُكْرَهُوا على الإسلام قد أنضوا الركاب، وأفنوا الزاد، وبصاحبهم علامة، اللَّهمَّ اغفر لعبد القيس، أتوني لا يسألوني مالًا هم خير أهل المشرق** » [1].

وللجمع بين الروايات يمكن الحديث عن وفادتين لبني عبد القيس:

الوفادة الأولى: قبل فتح مكة، وكانوا ثلاثة عشر راكبًا، ويؤيد هذا الرأي الحافظ ابن كثير.

الوفادة الثانية: بعد فتح مكة، وكانوا أربعين راكبًا معهم الجارود بن معلى العبدي.

الجارود بن معلى العبدي:

(ولقب بالجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم، فقال الشاعر:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١٤/١).

فَدُسْنَاهم بالخيل من كل جانب كما جرَّد الجارود بكر بن وائل [1]

فهو زعيم عربي تناقلت الشعراء مناقبه، وحرص عليه رسول الله ﷺ، وكما روى الطبراني عن أنس: (لما قدم الجارود وافدًا على رسول الله ﷺ فرح به وَقَرَّبَهُ وأدناه) [2]، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قدم الجارود بن معلى العبدي على رسول الله ﷺ ومعه سلمة بن عياض الأسدي، وكان حليفًا له في الجاهلية، وذلك أن الجارود قال لسلمة: إن خارجًا خرج بتهامة يزعم أنه نبي، فهل لك أن نخرج إليه؟ فَإنْ رأينا خيرًا دخلنا فيه، فإن كان نبيًّا فللسابق فضله وأنا أرجو أن يكون النبي الذي بَشَّرَ به عيسى ابن مريم. وكان الجارود نصرانيًّا قد قرأ الكتاب، ثم قال لسلمة: يضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأل عنها لا يخبر بها صاحبه، فلعمري لئن أخبر بها إنه لنبي يوحى إليه. ففعلا، فلما قدما على رسول الله ﷺ قال له الجارود: بم بعثك ربك يا محمد؟ قال: « **بشهادة أن لا إله إلا الله وأني عبد الله ورسوله، والبراءة من كل نِدٍّ أو وثن يُعبَدُ من دون الله تعالى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بحقها، وصوم رمضان، وحج البيت،** ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ».

قال الجارود: إن كنت يا محمد نبيًّا فأخبرنا عما أضمرنا عليه.

فخفق رسول الله ﷺ كأنه سِنَةٌ، ثم رفع رأسه وتحدَّر العرق عنه فقال: « **أما أنت يا جارود فإنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية، وعن حلف الجاهلية، وعن المنيحة، ألا وإن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مشدود، ولم يزدها الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام، ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة، فإنك تغدو برفد وتروح بمثله، وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت أن تسألني عن عبادة الأصنام، وعن يوم السباسب، وعن عقل الهجين، فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول:** ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، **وأما يوم السباسب: فقد أعقب الله تعالى منه ليلة القدر، خير من ألف شهر، فاطلبوها في العشر الأخير من رمضان، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها، تطلع الشمس وفي صبيحتها لا شعاع لها، وأما عقل الهجين: فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم**

(١، ٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (١٠٧٧).

يجير أقصاهم على أدناهم، أكرمهم عند اللَّه أتقاهم »، فقالا: نشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأنك عبد اللَّه ورسوله) [١].

وعند ابن إسحاق عمن لا يتهم عن الحسن: (أن الجارود لما انتهى إلى رسول اللَّه ﷺ كلمه، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ورغَّبهُ فيه، فقال:

يا محمد، إني كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟

قال: « **نعم، أنا ضامن أن قد هداك اللَّه إلى ما هو خير منه** ». فأسلم وأسلم أصحابه).

(وها هو الجارود يشعر منذ اللحظة التي أعلن فيها إسلامه أن قومه كلهم في عنقه، فقال: يا رسول اللَّه، ادع لنا أن يجمع اللَّه قومنا. فدعا له: « **اللَّهمَّ اجمع لهم ألفة قومهم، وبارك في بَرِّهِم وَبَحْرِهم** ».

وعاد الزعيم الجندي الجارود يسأل حبيبه المصطفى كل شيء يخصه في دينه ودنياه فقال: يا رسول اللَّه، أي المال أتَّخذ ببلادي؟ فسأله: « **وما بلادك؟** ».

قال: مأواها وعاء، وَنَبْتُهَا شفاء، وَرِيْحُها صَبَا، ونخلها غوادٍ، قال ﷺ: « **عليك بالإبل فإنها حمولة، والجمل يكون عددًا، والناقة ذودًا** ».

ولم يتمالك سلمة رفيق الجارود في دربه أن سأل رسول اللَّه ﷺ:

(يا رسول اللَّه، أي المال أتخذ ببلادي؟ (بلاد بني أسد). قال: « **وما بلادك؟** ».

قال: مأواها سباح، ونخلها صراح، وتلاعها فياح.

فقال: « **عليك بالغنم، فإن ألبانها سجل، وأصوافها أثاث، وأولادها بركة، ولك الأكيلة والربا** [٢] » [٣].

وقبل أن يغادر الزعيمان المدينة قام كل واحد منهما بتسجيل هذه الزيارة في سجل الخالدين، حين عبرا عن مشاعرهما وإسلامهما.

قال الجارود يتحدث شعرًا شاعريًّا عن إسلامه:

(شهدت بأن اللَّه حق وسامحت ... بنات فؤادي بالشهادة والنهض

فأبلغ رسول اللَّه عني رسالة ... بأني حنيف حيث كنت من الأرض

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٤٦٦).

(٢) الربا: الزيادة.

(٣) المصدر نفسه (٦/٤٦٧).

وأنت أمين الله في كل خلقه على الوحي من بين القضيضة والقض
فإن لم تكن داري بيثرب فيكم فإني لكم عند الإقامة والخفض
أصالح من صالحت من ذي عداوة وأبغض من أمسى على بغضكم بغضي
وأدني الذي واليته وأحبه وإن كان في فيه العلاقم من بغضي
أذبّ بسيفي عنكم وأحبكم إذا ما عدَوكم في الرفاق وفي النقض
وأجعل نفسي دون كل ملمة لكم جنة من دون عرضكم عرضي)[1]

المنذر بن ساوى ملك البحرين:

(وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر ابن ساوى العبدي وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتابًا، فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه... وإني قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فَأَحْدِثْ إليّ في ذلك أمرك). فكتب إليه رسول الله ﷺ: « **إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية** »[2].

وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وبألا تنكح نساؤهم، ولا تؤكل ذبائحهم[3].

لقد قامت دولة الإسلام في البحرين كما قامت دولة الإسلام في عمان، حيث أسلم ابنا الجلندي ملك عمان على يد عمرو بن العاص، وأسلم المنذر بن ساوى على يد العلاء بن الحضرمي، وبقي العلاء بجوار المنذر يفقهه في الدين، كما بقي عمرو رضي الله عنه بجوار ابني الجلندي يفقههما في الإسلام، وقام أول مسجد في الإسلام في جواثى عاصمة البحرين في أقصى المشرق العربي، كما قام المسجد النبوي أول مسجد نبوي في الدنيا بعد مسجد قباء.

وترافقت وفاة ملك البحرين المنذر بن ساوى رضي الله عنه في سنة وفاة النبي ﷺ وقد حضر احتضاره العلاء وعمرو رضي الله عنهما.

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٤٦٧، ٤٦٨).
(٢ ، ٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢٦٣).

(وكان من حديث البحرين أن النبي ﷺ والمنذر بن ساوى اشتكيا في شهر واحد، ثم مات المنذر بن عمرو بعد النبي ﷺ بقليل، وارتد بعده أهل البحرين، فأما عبد القيس ففاءت، وأما بكر فتمت على ردتها، وكان الذي ثنى عبد القيس الجارود حتى فاؤوا) [١]، وكانت وفاة المنذر التي أعقبت وفاة رسول اللَّه ﷺ هيأت النفوس للردة مع العرب، لكن الجارود بن معلى العبدي (أبا بكر المشرق) هو الذي قمع الردة عند قومه، فبه هدى اللَّه الناس بني عبد القيس، وبه عصمهم من الغواية (فلما جاء إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم، فلم يلبث يسيرًا حتى مات النبي ﷺ، فقالت عبد القيس: لو كان محمد نبيًّا لما مات. وارتدوا، وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم، ثم قام فخطبهم فقال:

يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سَلْ عما بدا لك. قال: تعلمون أنه كان للَّه أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم. قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا، بل نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمدًا ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه.

قالوا: ونحن نشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأنت سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم ولم يبسطوا ولم يبسط إليهم، وَخَلَّوا بين سائر ربيعة وبين المنذر والمسلمين، وكان المنذر (ملك البحرين) منشغلًا بهم حياته، فلما مات المنذر، حصر أصحاب المنذر في مكانين حتى تنقَّذهم العلاء) [٢].

وغدت خريطة ربيعة أن حمل لواء الردة والكفر فيها زعيمان هما الحطم بن ضبيعة والمنذر بن النعمان بن المنذر.

(وارتدت ربيعة بالبحرين فيمن ارتد من العرب إلا الجارود بن عمرو بن حنش ابن المعلى العبدي، فإنه ثبت على الإسلام ومن معه من قومه، وقام حين بلغته وفاة رسول اللَّه ﷺ وارتداد العرب فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأكفِّر من لا يَشْهَد. واجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدت، فقالوا: نرد الملك في آل المنذر، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يسمى: الغرور) [٣].

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٢٨٥).

(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٨٦).

وفي رواية أخرى عن عمير بن فلان العبدي أوردها الطبري بسنده المأمون قال: (لما مات رسول اللَّه ﷺ خرج الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه في بكر ابن وائل على الردة، ومن تأشب إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرًا، حتى نزل القطيف وهجر، واستغوى الخط ومن فيها من الزط والسيابجة، وبعث بعثًا إلى دارين فأقاموا له ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم يمدون المنذر والمسلمين (أي: بني عبد القيس). وأرسل إلى الغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جواثى وقال: اثبت فإني إن ظفرت مَلَّكْتُكَ بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة. وبعث إلى جواثى وحصرهم وألحوا عليهم، فاشتد على المحصورين الحصر، وفي المسلمين المحصورين رجل من صالح المسلمين يقال له: عبد اللَّه بن حذف أحد بني أبي بكر بن كلاب، وقد اشتد عليه وعليهم الجوع حتى كادوا أن يهلكوا، وقال في ذلك عبد اللَّه بن حذف:

ألا أبلغ أبا بكرٍ رسولًا ... وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكُمْ إلى قومٍ كرامٍ ... قُعود في جواثى محصرينا
كأن دماءهم في كل فجٍّ ... شعاع الشمس يغشي الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا ... وجدنا الصبر للمتوكلينا) (١)

القائد الجديد: العلاء بن الحضرمي:

فهو خبير المنطقة، وهو الذي حمل الرسالة بعد فتح مكة إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وأسلم المنذر على يديه، وقاوم المنذر الردة حتى توفي، وحكم العلاء بعده البحرين، ثم عاد إلى المدينة.

لم يبعث أبو بكر ﷺ جيشًا ليواجه المرتدين من ربيعة، وإنما بعث رجلًا قائدًا فقط عليه أن يقود جموع المؤمنين في تميم وجموع المؤمنين في بني عبد القيس ليواجه بهم ردة ربيعة، وجموع المؤمنين في بني حنيفة والشخصيات القيادية الكبرى هي التي تغير مقود التاريخ، فأبو بكر في المدينة وسهيل بن عمرو في مكة وثمامة بن أثال في بني حنيفة والجارود بن معلى العبدي في بني عبد القيس والزبرقان وقيس بن عاصم في

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٦).

بني تميم هي الركائز الكبرى التي قام عليها هزيمة الردة في أرض العرب، إننا أمام قيادات تاريخية رباها رسول الله ﷺ غيرت مسار التاريخ في اللحظات الحاسمة، ونحن أمام أمة تتحرك، ولسنا أمام شخص يلغي دور الأمة في الحركة، وهذا ما نحرص على طرحه في هذه الدراسة، فليس أبو بكر ﷺ هو الذي أنهى الردة، إنما الأمة التي قادها أبو بكر ﷺ هي التي أنهت الردة، ولعل هذا النص الدقيق يجلي هذه الفكرة:

(عن السري عن شعيب عن سيف عن الصعب بن عطية بن بلال عن سهم ابن منجاب عن المنجاب بن راشد قال:

بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين، فلما أقبل إليها كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة من بني سحيم، ومن أهل القرى من سائر بني حنيفة، وكان متلددًا [1]... فلما دنا منا ونحن في عليا البلاد (ومنجاب تميمي) لم يكن أحد له فرس من الرباب وعمرو بن تميم إلا جَنَّبه [2] ثم استقبله (أي: العلاء) فأما بنو حنظلة فإنهم قدَّموا رجلًا وأخَّروا أخرى، وكان مالك بن نويرة في البطاح ومعه جموع يساجلنا ونساجله، وكان وكيع بن مالك في القرعاء معه جموع يساجل عمرًا وعمرو يساجله، وأما سعد بن زيد بن مناة فإنهم كانوا فرقتين، فأما عوف والأبناء فإنهم أطاعوا الزبرقان بن بدر فثبتوا على إسلامهم وتموا وذبوا عنه... فلما رأى قيس بن عاصم ما صنعت الرباب وعمرو من تلقي العلاء ندم على ما كان فرط منه، فتلقى العلاء بإعداد ما كان قسم من الصدقات، ونزع عن أمره الذي كان به، واستاق حتى أبلغها إياه، وخرج معه إلى قتال أهل البحرين، وقال في ذلك شعرًا كما قال الزبرقان بن بدر في صدقته حين أبلغها أبا بكر:

وفيت بأذاود الرسول [3] وقد أبت — سعاة فلم يردد بعيرًا مجيرها
معًا ومنعناها [4] من الناس كلهم — ترامي الأعادي عندنا ما يضيرها
فأديتها كي لا أخون بذمتي — محانيق [5] لم تدرس لركب ظهورها
أردت بها التقوى ومجد حديثها — إذا عصبة سامى قبيلي فخورها

---

(١) متلددًا: متحيرًا.

(٢) جنب الفرس: تركه جانبًا وركب الإبل وانضم إلى العلاء.

(٣) وفيت بأذواد الرسول، وهي إبل الصدقة، حيث سلمها للسعاة الذين يجمعون الزكاة.

(٤) منعها من الناس وساقها لرسول الله ﷺ. (٥) المحانيق: الإبل.

وعاد ليفخر بقومه وبنفسه كما فخر بين يدي رسول اللَّه ﷺ:

وإني لمن قومٍ إذا عد سعيهم ... يرى الفخر منها حيُّها وقُبورها
أصاغرهم لم يضرعوا وكبارهم ... رزان مراسيها عِفاف صدورها [١]
ومن رهط كنَّادِ توفيت ذمتي ... ولم يثن سيفي نجها وهريرها
وللَّه ملك قد دخلت وفارس ... طعنت إذا ما الخيل شد مغيرها [٢]
ففرجت أولاها بنجلاء ثرةٍ ... بحيث الذي يرجو الحياة يضيرها
ومشهد صدق قد شهدت فلم أكن ... به خاملًا واليوم يَثني مصيرها
أرى رهبة الأعداء مني جراءة ... ويبكي إذا ما النفس يوحى ضميرها

لقد وقف أبو بكر خطيبًا ﷺ، فغير مجرى التاريخ بخطبته التي قال فيها بعد وفاة النبي ﷺ: « من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت ».

ووقف الجارود بن معلى العبدي في قومه بني عبد القيس، فأوقف ردتهم وضمهم إلى الصف الإسلامي، وكما فعل زعيم طيئ عدي بن حاتم ﷺ وهو النصراني السابق، فأوقف ردة طيئ وضمها إلى الصف الإسلامي، فقد وقف الجارود بن معلى العبدي وهو النصراني السابق فأوقف ردة عبد قيس وضمها إلى الصف الإسلامي.

ولم تعلن البحرين ردتها إلا بعد موت ملكها المنذر بن ساوى، فكانت بكر وتغلب وهما قوام ربيعة الفرع الثاني من العرب العدنانيين قد أعلنا ردتهما، وأنقذ اللَّه عبد القيس بالجارود العبدي زعيمها الروحي والشعبي فانضمت إليه، وتكوَّن مع العلاء بن الحضرمي جيش جديد هو الجيش الإسلامي الذي جمع المسلمين من تميم والمسلمين من حنيفة، والمسلمين من عبد القيس، اجتمعوا بعيدًا عن أية راية قبلية أو أية راية جاهلية، وكانوا نواة الأمة المسلمة، وكان على رأسهم العلاء بن الحضرمي أحد قيادات الرعيل الأول، وهم خريجو دار الأرقم وما قبلها الذين حضروا كل دورات الأركان الأولى.. السجن والتشريد والهجرة والإيذاء والملاحقة، وحضنتهم يد النبوة الحانية ثلاثة عشر عامًا ترعاهم وتربِّيهم وتزكِّيهم.

---

(١) يفخر بعقل قومه وشجاعتهم.

(٢) كما يفخر لشجاعته في الحرب ورهبة أعدائه منه.

هذا الجيش الجديد بقيادته وجنوده هو أول جيش إسلامي تشكل بعيدًا عن العاصمة المدينة المنورة، فهو في أقصى الشرق بينما قيادة الدولة المسلمة في أقصى الغرب وعلى تخوم البحر الأحمر، أما هذا الجيش فعلى تخوم بحر الظلمات.

ومن الذي قاد معسكر الشرك؟

لقد انتعشت الجاهلية العربية من جديد، وقامت دولة المناذرة من جديد، وهي التي قوضها كسرى لخروج النعمان على أوامره، فتجمعت جحافل الشرك تحت إمرة قائدين ضليعين عَمِلا أمجادًا سابقة، هما المنذر بن النعمان بن المنذر والحطم بن ضبيعة.

(واجتمعت ربيعة بالبحرين، وارتدت، وقالوا: نرد الملك في آل المنذر. فملَّكوا المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يسمى الغرور...) [١].

وعن عمير بن فلان العبدي قال:

(لما مات النبي ﷺ خرج الحُطَمُ بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة، ومن تأشب [٢] إليه من غير المرتدين ممن لم يَزَلْ كافرًا حتى نزل القطيف وهجر، واستغوى الخط [٣] وما فيها من الزط والسيابجة [٤]، وبعث بعثًا [٥] إلى دارين، فأقاموا له ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم يمدون المنذر والمسلمين، وأرسل إلى الغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جواثى وقال: أُثبت فإني إن ظفرت مَلَّكْتُكَ بالبحرين حتى تكون كالمنذر بالحيرة، وبعث إلى جواثى، فحصرهم وألحوا عليهم، فاشتد على المحصورين الحصر، وفي المسلمين المحصورين رجل من صالح المسلمين يقال له: عبد اللَّه بن حذف أحد بني أبي بكر بن كلاب، وقد اشتد عليه وعليهم حتى كادوا أن يهلكوا، وقال في ذلك عبد اللَّه بن حذف:

ألا أبلغ أبا بكر رسولًا ... وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكُمُ إلى قومٍ كرامٍ ... قُعود في جواثى محصرينا

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٠٣).
(٢) تأشب إليه: اجتمع إليه من هنا وهناك.
(٣) الخط: بلدة تنسب لها الرماح الخطية ومن قراها القطيف وقطر.
(٤) الزط والسيابجة: غير العرب من الأقوام الأخرى.
(٥) بعث بعثًا: أرسل جيشًا.

كـأن دمـاءهـم في كـل فـجٍّ شعاع الشمس يغشي الناظرينا
تـوكـلنـا عـلى الرحـمـن إنـا وجدنا الصبر للمتوكلينا) [(١)]

لقد كانت هذه الجولة الأولى من المعركة حيث حصر المشركون المسلمين بينهم في جواثى التي تحمل أقدم مسجد في الأرض بعد المسجد النبوي، ولا شك أن النداء الذي بعثه عبد اللَّه بن حذف قد وصل إلى خليفة رسول اللَّه أبي بكر الصديق ﷺ، وكان العلاء بن الحضرمي هو قائد الجيش الإسلامي، وعرف أن لا مندوحة من المواجهة مع المشركين والمرتدين، وندع الحديث للصحابي العظيم المنجاب بن راشد الذي ينقل لنا أوفى صورة وأجلاها عن هذه الحرب في سند من أجود أسناد الطبري رحمه الله:

(كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن الصعب بن عطية بن بلال عن سهم ابن منجاب عن منجاب بن راشد قال:

بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين، فلما أقبل إليها كان بحيال اليمامة، لحق به ثَمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة... فلما رأى قيس ابن عاصم (التميمي) ما صنعت الرباب وعمرو (فرعان من تميم) من تلقي العلاء ندم على ما كان فرط منه... وخرج معه إلى قتال أهل البحرين... فأكرمه العلاء، وخرج مع العلاء من عمرو وسعد والرباب مثل عسكره، وسلك بنا الدهناء [(٢)] حتى إذا كنا في بحبوحتها [(٣)] والحنانات والعزافات [(٤)] عن يمينه وشماله، وأراد اللَّه ﷻ أن يرينا آياته نزل وأمر الناس بالنزول...).

لقد كانت خطة الحكم محكمة، حيث اتفق مع أخي النعمان بن المنذر وَمَنَّاهُ بإعادة ملك أخيه النعمان في الحيرة، والأرجح أنه ابنه، ولم يكن يطمئن لعبد القيس، إذ إنها تمد المنذر بن ساوى والمسلمين معه، وحسب الخطة فَسَيُطْبِقُ على المسلمين المحاصرين وَيُنْهِيهم، وسوف يَفْرُغ بعدها لعبد قيس، وها هو الجيش الإسلامي بقيادة أحد المهاجرين الأولين العلاء بن الحضرمي وجنده خيرة العرب من القبائل الذين ثبتوا على دينهم، ومضوا يجاهدون في سبيل اللَّه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٦).
(٢) الدهناء: الصحراء ولعلها الربع الخالي.
(٣) بحبوحتها: في داخلها.
(٤) الحنانات والعزافات: أصوات الريح كعزف الجن.

المحنة:

(... نزل وأمر الناس بالنزول، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقي عندنا بعير ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلا ذهب عليها في عرض الرمل، وذلك حين نزل الناس وَقَبْلَ أن يَحُطُّوا، فما علمت جمعًا هجم عليهم من الغم ما هجم علينا، وأوصى بعضنا إلى بعض).

التضرع إلى اللّه:

(ونادى منادي العلاء: اجتمعوا. فاجتمعنا عليه.

فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟

فقال الناس: وكيف نُلَام ونحن إن بلغنا غدًا لم تَحْمَ شمسه حتى نصير حديثًا؟!

فقال: يا أيها الناس، لا تراعوا، ألستم مسلمين؟! ألستم في سبيل اللّه؟! ألستم أنصار اللّه؟!

قالوا: بلى.

قال: فأبشروا، فواللّه لا يخذل اللّه من كان مثل حالكم.

ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بنا، ومنا المتيمم، ومنا من لم يزل على طهوره، فلما قضى صلاته جثا لركبتيه، وجثا الناس، فنصب في الدعاء، ونصبوا معه، فلمع لهم سراب الشمس، فالتفت إلى الصف، فقال رائد ينظر: ما هذا؟ ففعل ثم رجع فقال: سراب. فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر كذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء).

﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾:

(ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس معه، فمشينا حتى نزلنا عليه، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكرد [1] من كل وجه، فأناخت إلينا، فقام كل رجل إلى ظهره [2] فأخذه، فما فقدنا سلكًا [3]، فأرويناها، وأسقيناها العلل

---

(١) تُكرد: تطرد. أي: يطرد بعضها بعضًا كأنها تتسابق.

(٢) قام كل رجل إلى ظهره: قام إلى جمله أو ناقته التي عليها حاجته.

(٣) السلك: جمع سلكة وهو الخيط الذي يخاط به الثوب.

بعد النهل، وتروَّينا ثم تروَّحنا، وكان أبو هريرة رفيقي، فلما غبنا عن ذلك المكان قال لي: كيف علمك بهذا المكان؟

فقلت: أنا من أهدى العرب بهذه البلاد).

الكرامة الربانية:

(قال: فكن معي حتى تقيمني عليه.

فكررت به، فأتيت به على ذلك المكان بعينه، فإذا هو لا غدير به، ولا أثر للماء، فقلت له: واللَّه، لولا أني أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءً ناقعًا قبل اليوم. وإذا إداوة مملوءة.

فقال: يا أبا سهم، هذا واللَّه المكان، ولهذا رجعتُ ورجعت بك، وملأت إداوتي، ثم وضعتها على شفيره، فقلت: إن كان منًّا من المن، وكانت آية عرفتها، وإن كان غياثًا عرفته.

فإذا منّ من المن، فحمد اللَّه).

إن كانت المعجزة لرسول اللَّه ﷺ، فالكرامة لصحابته، فهم أولياء اللَّه، وهم جنود المصطفى ﷺ، فلقد شهد العلاء بن الحضرمي يوم بدر، وليذهب عنكم رجز الشيطان، ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

ويذكر فرحته الغامرة ذلك اليوم، ولم يكن يدري أنه سيكون قائدًا لجيش المسلمين فيما بعد وتقع الكرامة له.

وشهد يوم الحديبية، يوم أنزل اللَّه تعالى الماء، وقال على لسان نبيه كما في الحديث القدسي: « **أصبح مؤمن بالأنواء وكافر بي، وأصبح مؤمن بي وكافر بالأنواء، فأما المؤمن بالأنواء والكافر بي فيقول: سحابة مرت فأمطرت. وأما المؤمن بي والكافر بالأنواء فيقول: اللَّه ابتعث سحابة فمرت فأمطرت** ».

وحمد اللَّه ﷻ أن كان قلبه كالثلج في برد يقينه باللَّه، إنها معجزة لرسول اللَّه ﷺ، لكن لم يَدْرِ بخلده أن يكون بعد خمس سنين على رأس جيش في قلب الصحراء المهلكة، ويغيثه اللَّه تعالى بالماء ويحيي به الجيش كله.

إنها الأمة التي تحركت لتغير التاريخ، وتطبق عمليًا ما ترتب عليه عند رسول اللَّه ﷺ وفي مدرسة النبوة.

لقد وقعت الكرامة، لكنه تعلم من مدرسة النبوة كذلك أن التخطيط مهمة القائد، فلا بد أن يعد بالجهد البشري لمواجهة العدو.

ولقد سمع المنجاب بن راشد وأبو هريرة رضي الله عنهما أخبار بدر والحديبية من كتاب اللَّه، ومن قصص الرعيل الذي سبقهما، لكن أبا هريرة يريد أن يشهد عمليًا ما سمعه نظريًا، ومن أجل ذلك ملأ أبو هريرة رضي الله عنه إداوته، ووضعها على شفير الغدير يريد أن يتأكد أنها كرامة، أهو ماء غدير دائم؟ ودعا رفيقه المنجاب بن راشد بن المنطقة وربيب الصحراء إن كان يعرف المكان بعد مغادرته، وحدد المنجاب المكان بالضبط لكن بلا ماء، وأرى أبو هريرة المنجاب إداوة الماء المملوءة؛ ليؤكد له أنها منٌّ من المن، وأنها سقيا من اللَّه سيقت لهؤلاء المؤمنين، وأعادت إليهم إبلهم وظهورهم وافرة كما هي، وحتى نعلم غمرة الفرحة بهذه الآية نستعيد حديث رسول اللَّه ﷺ القائل: « **وَلَلَّهُ أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على ظهر ناقته في فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك، إذا هي قائمة فوق رأسه، وعليها طعامه وشرابه، فقال من شدة الفرح: اللَّهمَّ أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح** » (١).

فهم قد أعدوا أنفسهم للموت في هذه الصحراء التي تعزف فيها الريح عزيف الجن، وفي هذا الظلام الدامس، وقالوا:

وكيف نلام ونحن إن بلغنا غدًا لم تحم شمسه حتى نصير حديثًا.

وها هم الآن وقد عادت إليهم إبلهم ونواضحهم وشربوا واغتسلوا وأسقوا إبلهم العلل بعد النهل، لم يَغِبْ عنهم غير جسد رسول اللَّه ﷺ وشخصه، أما هم فيتحركون وروح المصطفى ﷺ تتألق بينهم، وتتوهج في قلوبهم، وتضيء لهم طريق ظلماتهم.

ومما أضاءته لهم كذلك أن للكرامة حدودها، وللجهد البشري حدوده، فالكرامة أنقذتهم من الفناء والموت، لكنهم أصبحوا قادرين على مواجهة العدو، وأصبحوا

---

(١) البخاري، ح (٦٣٠٨)، ومسلم، ح (٢٧٤٧).

قادرين على التخطيط والتفكير والتضحية، وكانت خطة العلاء ﷺ أن يجمع قوى المسلمين المبعثرة ضمن خطة محكمة تُحَوِّلُ حصار المسلمين إلى حصارٍ للمشركين.

تجمع القوى:

(... فحمد اللَّه، ثم سرنا حتى ننزل هجر، قال:

فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضما في عبد القيس حتى تنزلا على الحطم مما يليكما، وخرج هو فيمن جاء معه، وفيمن قدم عليه، حتى ينزل عليه مما يلي هجر، وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين، وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء ابن الحضرمي، وخندق المسلمون والمشركون، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم، فكانوا كذلك شهرًا، فبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال، فقال العلاء: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبد اللَّه بن حذف: أنا آتيكم بخبر القوم. وكانت أمه عجلية [1] ....).

غزوة خندق جديدة:

ذكريات الخندق تفوح على المسلمين من جديد، ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، وكيف بقي المسلمون قرابة نصف شهر يخرجون لقتال المشركين عند الخندق، وبلغهم نقض قريظة العهد، وقال رسول اللَّه ﷺ: « **من يأتيني بخبر القوم؟** »، ومضى الزبير بن العوام، ومضى خَوَّاتُ ابن جبير، وجاؤوا بخبر القوم، وكان الجهد البشري يَنْصَبُّ على تفريق القوم، فكانت مباحثات الرسول ﷺ مع قادة غطفان لينسحبوا من المعركة مقابل ثلث ثمار المدينة، وقال عليه الصلاة والسلام: « **إني رأيت العرب قد رَمَتْكُمْ عن قوس واحدة فأحببت أن أخفف عنكم** ». ثم كان مقدم نعيم بن مسعود الذي أسلم أثناء المعركة، وعرض خدماته على رسول اللَّه ﷺ.

فقال له: « **الحرب خدعة، فَخَذِّلْ عنا ما استطعت** ». وتحرك بعبقريته، فوضع خطة التخذيل الكبرى، وشارك القوم بعضهم ببعض. وتم على أعقابها مع الريح العاتية التي

---

(١) من بني عجل، أحد قبائل ربيعة.

أهلكتهم وشتتت شملهم فانسحبوا الانسحاب من المعركة، وقال ثانيةً عليه الصلاة والسلام: « **مَن يأتيني بخبر القوم؟** » فكان حذيفة بن اليمان ابن بجدتها والذي هَمَّ بقتل أبي سفيان لولا أن تذكر قول رسول الله ﷺ: « **لا تُحْدِثْ فيهم حدثًا** ».

نعيم بن مسعود جديد:

لقد اختلف الاسم فقط من نعيم بن مسعود إلى عبد اللَّه بن حذف، ومن حذيفة ابن اليمان إلى عبد اللَّه بن حذف، وكلاهما حذيفة وحذف.

إنه عبد اللَّه بن حذف نفسه الذي أطلق شعره يستصرخ المسلمين في المدينة وهم في الحصار:

ألا أبـلـغْ أبـا بـكـر رسـولًا ... وفـتْـيَـان المدِيـنـة أجـمَـعِـينا
فـهـلْ لـكُـمْ إلـى قَـوم كِـرامٍ ... قُعود في جَواثى مُحْصَرينا
كـأن دِمَـاءهـم مـن كـل فَـجٍّ ... شَعاعُ الشمس يَغْشى الناظرينا
تـوكّـلـنـا عـلَـى الرحـمَـن إنـا ... وجـدْنَـا الـصَّـبـر لـلـمتـوَكـلـينا

إنه الشاعر المحاصَرُ من المشركين في جواثى، وها هو اليوم الشاعر المحاصر بقيادة العلاء بن الحضرمي بعد تجمع القوى الإسلامية، وكما كان نعيم بن مسعود بن غطفان قد نجحت خطته بصفته واحدًا منهم ونديمًا لبني قريظة، فقد تكفل ابن حذَف بالمهمة لأن أمه عجلية، ومن القيادات الكبرى عند الحطم سيد بني عجل أبجر بن بجير، لقد وضع عبد اللَّه الخطة كاملة، فلقد تعرف على الهدف فقط، وقد فقه مقولة النبي ﷺ في الخندق: « **الحرب خدعة** ». هو معرفة خبر القوم، وترك له بعبقريته أن يضع خطة التنفيذ، وكم هو رائع وجود التغطية الصحفية الكاملة للمنجاب بن راشد رضي الله عنه ينقل لنا تفاصيل الخطة!

(... فقال عبد اللَّه بن حذف: أنا آتيكم بخبر القوم - وكانت أمه عجلية - فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه، فقالوا له: من أنت؟ فانتسب لهم، وجعل ينادي: يا أبجراه، فجاء أبجر بن بجير، فعرفه، فقال: ما شأنك؟

فقال: لا أضيعن الليلة بين اللهازم، علام أُقتل وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة؟ أيتلاعب بي الحطم ونزاع القبائل وأنتم شهود؟!

فتخلَّصَهُ وقال: واللَّه، إني لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة!

فقال: دعني من هذا وأطعمني، فإني قد مِتُّ جوعًا. فقرَّب له طعامًا، فأكل ثم قال: زودني واحملني وجوزني [١] أنطلق إلى طيتي. ويقول ذلك لرجل قد غلب عليه الشراب، ففعل، وحمله على بعير، وزوده، وجوزه.

وخرج عبد اللَّه بن حذف حتى دخل عسكر المسلمين، فأخبرهم أن القوم سكارى، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاؤوا واقتحموا (أي: المشركين) الخندق هرابًا، فمتردٍّ، وناجٍ، ودهش، ومقتول، أو مأسور. واستولى المسلمون على ما في العسكر، لم يفلت رجل إلا بما عليه).

إنها الخطة التي أنهت العدو وقضت عليه، حيث عرف ابن حذف حال القوم وسكرهم، وهو أنسب الأحوال للهجوم عليهم، وتم استغلال الفرصة المناسبة، وتمت المباغتة التي حَوَّلَتْ عدوهم إلى فارٍّ أو قتيل أو أسير.

ولا بد لنا أن نستعرض القادة الثلاثة الكبار عند المسلمين، والقادة الثلاثة الكبار عند المشركين، وتتم التغطية الإعلامية الصحفية لصاحبنا العظيم المنجاب بن راشد ينقل لنا وقائع المعركة ونتائجها، وأحوال قياداتها.

قادة المرتدين الثلاثة:

(فأما أبجر فأفلت، وأما الحطم فإنه بعِلَ [٢] ودُهِش وطار فؤاده، فقام إلى فرسه – والمسلمون خلالهم يجوسونهم [٣] – ليركبه، فلما وضع رجله في الركاب انقطع به، فمر به عفيف بن المنذر أحد بني عمرو بن تميم، والحطم يستغيث ويقول: ألا رجل من بني قيس بن ثعلبة يعقلني؟ فرفع صوته، فعرف صوته، فقال (أي: عفيف بن المنذر): أبو ضبيعة؟ قال: نعم. قال: أعطني رجلك أعقلك. فأعطاه رجله يعقله، فنفحها [٤]، فأطنها [٥] من الفخذ وتركه، فقال: أجهز عليَّ. فقال: إني أحب ألا تموت حتى أمضك [٦]. وكان مع عفيف بن المنذر عدة من ولد أبيه، فأصيبوا لَيْلَتَئِذٍ، وجعل الحطم لا يمر به أحد من المسلمين إلا قال:

---

(١) جوزني: أعطني جائزة.

(٢) بعِل: دهش وخاف ولم يدر ما يصنع.

(٣) يجوسونهم: يخوضون فيهم.

(٤) نفحها: ضربها.

(٥) أطنها: قطعها.

(٦) أمضك: أعذبك.

هل لك في الحطم أن تقتله؟ ويقول ذلك لمن لا يعرفه، حتى مر به قيس بن عاصم، فقال له ذلك، فمال عليه فقتله، فلما رأى فخذه نادرة [١] قال: واسوأتاه، لو علمت الذي به لم أحرِّكه. وخرج المسلمون بعدما أحرزوا الخندق على القوم يطلبونهم، فاتبعوهم، فلحق قيس بن عاصم أبجر (القائد الثالث للمشركين) - وكان فرس أبجر أقوى من فرس قيس - فلما خشي أن يفوته طعنه في العرقوب، فقطع العصب، وسَلِم النسا [٢]، فكانت رادة. وقال عفيف بن المنذر:

فَإن يرقأ [٣] العرقُوب لا يرقأ النسا ... ومَا كُلّ من يهْوَى بذَلك عَالم

ألم تَر أنا قد فَلَلنَا حُمَاتِهم [٤] ... بأسْرة عَمرٍو والربَاب الأكَارم

وأسر عفيف بن المنذر الغرور بن سويد (القائد الثاني) فكلَّمتْه الرباب فيه، وكان أبوه ابن أخت التيم، وسألوه أن يجيره، فقال العلاء: إني قد أجرت هذا. قال: ومن هذا؟ قال: الغرور. قال: أنت غررت هؤلاء؟ قال:

أيها الملك، إني لست بالغرور، ولكني المغرور. قال: أَسْلِمْ، فأسلم وبقي بهجر وقتل عفيف المنذر بن سويد بن المنذر - أخا الغرور لأمه - وأصبح العلاء فَقَسَّمَ الأنفال، ونفَّل رجالًا من أهل البلاء ثيابًا، فكان فيمن نفَّل عفيف بن المنذر، وقيس ابن عاصم، وثُمامة بن أثال، فأما ثمامة فنُفِّل ثيابًا فيها خميصة [٥] ذات أعلام، كان الحطم يباهي بها، وباع الثياب، وقصد عُظْمُ الفلال [٦] لدارين، فركبوا فيها السفن، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل فيهم، وأرسل إلى عتيبة بن النهاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ما هم عليه، والقعود لأهل الردة بكل سبيل، وأمر مِسْمَعًا بمبادرتهم، وأرسل إلى حفصة التميمي، والمثنى بن حارثة الشيباني، فأقاموا لأولئك بالطريق، فمنهم من أناب فقبلوا منه واشتملوا عليه، ومنهم من أبى ولج فمنع من الرجوع، فرجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا إلى دارين، فجمعهم اللَّه بها، وقال في ذلك رجل من بني ضبيعة ابن عجل يدعى وهبًا يعيِّر من ارتد من بكر بن وائل:

ألم تَر أَن اللَّه يَسْبِكُ خلقه ... فَيَخْبُث أقْوَام ويصْفُو معشر

---

(١) نادرة: ساقطة.

(٢) سَلِم النسا: سلم عرق النسا.

(٣) يرقأ: يشفى ويعافى.

(٤) فللنا حماتهم: هزمنا جيشهم.

(٥) خميصة: كساء أسود له علمان.

(٦) عُظْمُ الفلال: معظم الهاربين.

لحى اللَّه أقوامًا أصيبوا بخنعةٍ [1] أصابهم زَيد الضّلال ومعمر

لقد رأينا نهاية قيادات المشركين، أما أبجر بن بجير فقد فرَّ من المعركة ولحق به قيس بن عاصم التميمي، ولما لم يدركه طعنه في العرقوب، فقطع العصب وعرق النسا، وأنهاه كبطل مقاتل (فإن يرقأ العرقوب لا يرقأ النسا...).

وأما الحطم بطل ردة بكر بن وائل فقطعت رجله من الفخذ وانفصلت عن جسده، وبقي يعاني من الألم والعذاب ويستغيث بالمسلمين أن يقتلوه حتى قتله قيس ابن عاصم، وندم على قتله حين رأى رِجْلَهُ ساقطة مفصولة عن جسده؛ لأنه خفف عنه العذاب قبل موته، وأما الغرور بن سويد [2] (ابن أخي النعمان بن المنذر) وهو الذي كان يعد لإعادة ملك المناذرة، فقد أسر وأجاره من أسره، ثم ندم فأسلم وحسن إسلامه وقال عن نفسه:

لست الغرور، ولكنني المغرور.

وماذا عن قيادات المسلمين؟

أما قيس بن عاصم التميمي فهو سيد بني تميم الذي انضم إلى جيش العلاء، وساق له الصدقة بعد تردد، وكان من أحلم العرب وأشجعهم، وقد رأينا بطولاته، منه تعلم الأحنف بن قيس الحلم، فهو الذي قتل الحطم بطل ردة البحرين، وهو الذي أنهى حياة أبجر القتالية، كما ذكرنا من قبل.

وثمامة بن أثال هو سيد بني حنيفة الذي اعتصم بإسلامه، وقاوم ردة مسيلمة، وانضم إلى الجيش الإسلامي بقيادة العلاء ابن الحضرمي، وهو الذي نفله العلاء على بلائه وبطولته في الجيش، وكان مما نفله خميصة الحطم، والتي كانت سببًا في استشهاده، حيث رآها قوم الحطم عليه فقتلوه.

أما البطل الثالث الذي برز في المعركة فهو عفيف بن المنذر التميمي، والذي كان له كسيد بني تميم قيس بن عاصم الدورُ الأكبر في الإجهاز على القيادات، فهو الذي أنهى حياة الحطم بن ضبيعة القتالية يوم أطنَّ قدمه من الفخذ وفصلها عن جسده،

---

(١) بخنعة: بِذِلَّةٍ.

(٢) اختلفت الروايات عن الغرور هذا هل هو أخو النعمان بن المنذر أم هو ابنُه أم هو ابن أخيه، وإن كان الطبري قد اعتمد أخيرًا رواية أنه ابن أخيه وسماه بالغرور بن سويد بن المنذر.

وهو الذي أسر القائد الثاني للمشركين الغرور بن سويد، ثم أجاره حتى أسلم وحسن إسلامه، وهو الذي قتل المنذر بن سويد بن المنذر أخا الغرور.

وكانت يقظة قائد الجيش الإسلامي العلاء ﷺ في حصار الفارِّين إلى قبائلهم، فأوكل إلى الشخصيات الإسلامية في بكر بن وائل، عتيبة بن النهاس وعامر ابن الأسود أن يراقبوا هؤلاء الفارين في القبيلة، ويلاحظوا تصرفاتهم، من أن يعيدوا الفتنة من جديد، ولم يكتف بذلك فأرسل إلى حفصة التميمي والمثنى بن حارثة الشيباني، ليقطعوا الطريق على الفارين إلى قبائلهم (فمنهم من أناب فقبلوا منه واشتملوا عليه، ومنهم من لج فمنع من الرجوع، ومضى إلى (دارين) حيث عسكر المرتدون هناك، وكانت دارين هي الموقع الاحتياطي الذي لجأ إليه المقاتلون بعد هزيمتهم في المعركة، ولم يغادر العلاء ﷺ ساحة المعركة إلا بعد أن اطمأن إلى عودة القيادة الإسلامية وسيطرتها على بكر بن وائل التي كان معظمُ المرتدين هناك، وبرزت منها قياداتهم). (ولم يَزَلِ العلاء مقيمًا في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل، وبلغه عنهم القيام بأمر اللَّه، والغضب لدينه، فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي أيقن أنه لن يؤتى من خلفه بشيء يكرهه على أحد من أهل البحرين...) (١).

إلى دارين المعركة الفاصلة:

ونعود إلى صحافِيِّنا العظيم المنجاب بن راشد، يتابع لنا وصف وقائع المعركة الجديدة التي أعيدت فيها الكرامات من جديد لحزب اللَّه في الأرض.

(... وندب الناس إلى دارين، ثم جمعهم فخطبهم وقال:

إن اللَّه جمع لكم أحزاب الشياطين وشُرَّدَ الحرب في هذا البحر، قد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فامضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن اللَّه قد جمعهم. فقالوا: نفعل ولا نهاب واللَّه بعد الدهناء هولًا ما بقينا. فارتحل وارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصاهل (٢) والجامل (٣) والشاحج (٤) والناهق (٥)، والراكب والراجل، ودعا ودعوا، وكان دعاؤهم:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٨٩).

(٢) الصاهل: الفرس. والصهيل صوته.

(٣) الجامل: القطيع من الإبل.

(٤) الشاحج: البغل. والشحيج: صوته.

(٥) الناهق: الحمار.

يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، يا ربنا.

فأجازوا ذلك الخليج بإذن اللَّه جميعًا يمشون على مثل رملة ميثاء، فوقها ماء يَغْمِرُ أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات، فالتقوا بها، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فما تركوا بها مخبرًا، وسبوا الذراري، واستاقوا الأموال، فبلغ نَفَلُ الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين، قطعوا ليلهم وساروا يومهم، فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا. وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

ألم تر أن اللَّه ذَلَّلَ بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دَعَوْنَا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل) [١]

لقد كان رسول اللَّه ﷺ يربِّي الجيل المؤمن على الصلة بتاريخ الأنبياء، وخاصة تاريخ بني إسرائيل، سواء في نقاط القوة أو نقاط الضعف، وكان تاريخ بني إسرائيل المحتشد في القرآن حيًّا في أذهان هذا الجيل العظيم.

ففي بدر قال المقداد رضي الله عنه:

واللَّه، لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون)، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون...

وعندما سئل عليه الصلاة والسلام عن عدد أصحاب بدر قال: « **عدة أصحاب طالوت** » [٢].

وعندما أرادهم أن يجتازوا العقبة في الطريق إلى الحديبية قال: « **واللَّه، إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فرفضوها** » [٣].

وعندما قالوا له وهم في الطريق إلى حنين: « اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » قال: « **هذا ما قاله بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة** » [٤].

وها هو الجيش الإسلامي الذي تربَّى في محضن النبوة، وقرر أن يخوض البحر كما خاضه موسى من قبل وجعله ﴿ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧] كان يتحرك بهذه الروح، ويتضرع ذلك التضرع:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) البخاري ح (٣٧٤٠).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٣٠٩).

(٤) المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٤٤).

يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا.

فأجازوا ذلك الخليج بإذن اللَّه جميعًا يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل.

وما الفرق بين شق البحر لموسى ﷺ، وخوض البحر هذا لجند محمد ﷺ؟ إنها الكرامة نفسها لحزب اللَّه هنا وهناك.

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]. وهكذا قال العلاء:

(إن اللَّه جمع لكم أحزاب الشياطين وَشُرَّدَ البحر في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن اللَّه قد جمعهم فقالوا: نفعل ولا نهاب واللَّه بعد الدهناء هولًا ما بقينا).

ولكن الكرامة لهذا الجيش المسلم أعظم، فبنو إسرائيل كانوا فارِّين من العدو.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

أما هذا الجيش المسلم فماضٍ لجهاد عدوه وللإجهاز عليه (واقتتلوا قتالًا شديدًا فما تركوا به مخبرًا، وسبوا الذراري، واستاقوا الأموال).

هذا هو جيش حزب اللَّه الذي أنجى المسلمين من الهلكة في الدهناء، وَذَلَّلَ لهم البحر كما ذَلَّلَهُ لموسى نبي اللَّه، ولقد رأى هذا الجيش أن مِنَّةَ اللَّه عليه أكبر من مِنَّتِهِ على بني إسرائيل:

ألم تَر أن اللَّه ذَلَّلَ بحره وأنزلَ بالكُفَّار إحْدَى الجَلائل

دَعَوْنَا الذي شَقَّ البِحَار فجاءَنا بأعجَبِ مِنْ فلقِ البِحَار الأوائل

وَتَعُودُ لهذا الحزب المؤمن أنسام أُحد حين أرجف المرجفون ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(... فأرجف مرجفون وقالوا: هاذاك مفروق قد جمع رهطه شيبان وتغلب

والنمر. فقال لهم أقوام من المسلمين: إذن تشغلهم عنا اللهازم.

واللهازم يومئذ قد استجمع أمرهم على نصر العلاء وطابقوا. وقال عبد اللَّه ابن حذف في ذلك:

لا تُوعدونا بمفْرُوق وأسرته إن يأتِنا يلْقَ فِينا سُنة الحطم
وإنّ ذا الحيَّ من بكر وإن كَثروا لَأُمَّةٌ داخِلون النّار في أُمَم
فالنخْل ظَاهِره خيْل وبَاطنه خيل تَكَدَّس بالفتيان في نعم)

وعودة إلى المنجاب بن راشد رضي الله عنه.

(... قال: وكان مع المسلمين راهب في هجر فأسلم يومئذ فقيل: ما دعاك إلى الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء، خشيت أن يمسخني اللَّه بعدها إن أنا لم أفعل.

- فيض في الرمال (إشارة إلى غيث اللَّه تعالى في الدهناء).
- وتمهيد أثباج البحار (إشارة إلى خوض المسلمين البحر إلى دارين).
- ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء من السحر:

قالوا: وما هو؟

قال: اللَّهمَّ أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك، والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والحي الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت في شأن وعلمت اللَّهمَّ كل شيء بغير تعلم.

فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر اللَّه.

فلقد كان أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يسمعون من ذلك الهجري بعد) (١).

الرسائل المتبادلة بين خليفة رسول اللَّه وأميره:

ولا نزال مع المنجاب بن راشد الناطق الإعلامي يغطي كل أحداث المعركة ويقدم كل وثائقها.

(وكتب العلاء إلى أبي بكر:

أما بعد، فإن اللَّه تعالى فَجَّرَ لنا الدهناء فيضًا لا ترى غواربه، وأرانا آية وعبرة بعد غَمٍّ وكرب، لنحمد اللَّه ونمجده، فادع اللَّه واستنصره لجنوده وأعوان دينه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٩٠).

فحمد أبو بكر اللَّه ودعاه وقال:

ما زالت العرب فيما تحدث عن بلدانها يقولون: إن لقمان حين سئل عن الدهناء أيحتضرونها أو يدعونها نهاهم وقال: لا تبلغها الأرشية [١]، ولم تقر العيون، وإن شأن هذا الفيض من عظيم الآيات، وما سمعنا به في أمة قبلها، اللَّهمَّ اخلف محمدًا ﷺ فينا.

ثم كتب إليه العلاء بهزيمة أهل الخندق، وقتل الحطم، قتله زيد ومعمر:

أما بعد، فإن اللَّه تبارك اسمه سَلَبَ عَدُوَّنَا عقولهم، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار، فاقتحمنا عليهم خندقهم، فوجدناهم سكارى، فقتلناهم إلا الشريد، وقد قتل اللَّه الحطم.

فكتب إليه أبو بكر: أما بعد، فإن بلغك عن بني شيبان بن ثعلبة تمام على ما بلغك وخاض فيه المرجفون، فابعث إليهم جندًا فأوطئهم، وَشَرِّدْ بهم مَنْ خلفهم.

فلم يجتمعوا، ولم يصر ذلك من إرجافهم إلى شيء) [٢].

نحن أمام خليفة رسول اللَّه الصديق ﷺ، وهو أعلم العرب بتاريخهم وأيامهم وأنسابهم، ونرى أثر ثقافته ﷺ في حديثه عن الدهناء وتاريخها منذ لقمان عليه السلام، وكيف نهاهم عن حفرها لأن الحبال لا تبلغ أعماقها، وقد تركها رب العزة حتى تقع بها الكرامة لجيش حزب اللَّه، وفاضت غواربها ثم غاصت بعد ذلك إلى الأبد.

ونرى الخليفة ﷺ، وهو يعيش مع جنده لحظة بلحظة، ويوصي قائده العلاء أن يَحْذَرَ من شيبان إذا عرف حقيقة الأمر، وأن للإرجاف أصلًا، ولا عجب، فعودة إلى مكة قبل خمسة عشر عامًا نشهد فيها لقاء رسول اللَّه ﷺ مع وفد شيبان، والذي كانت قيادة شيبان فيه المثنى بن حارثة، ومفروق بن عمرو، هذا اللقاء الذي حضره الصديق ﷺ، وكان لقاءً وديًّا رغم أنه لم يَنْتَهِ بإسلام أحد من قادة الوفد، أما اليوم فها هو المثنى بن حارثة تُوكَلُ إليه مهمة ملاحقة الفارِّين من المعركة واستتابتهم، بينما نرى زميله مفروق بن عمرو لا يزال في الصف المشرك، وتنطلق الإشاعات عن جَمْعِهِ شيبان للمواجهة ثم تكذيب هذه الإشاعات بعد ذلك.

* * *

---

(١) الأرشية: جمع رشاء وهو الحبل.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٩١).

الفصل التاسع

ردة عُمان

لقد دخلت عُمان الإسلام بدعوة عمرو بن العاص ﷺ، حيث استعمل عبقريته ودهاءه في الحرب النفسية على ملكي عمان عبد وجيفر ابني الجلندي، وأقنعهما بالإسلام، وقد سبق حديثنا تفصيلًا عن ذلك.

وها هي رسالة رسول الله ﷺ بين يَدِي تُشِعُّ نورًا كأنما خرجت الآن من ختم رسول الله ﷺ عليها مرسلة إلى ملكي عمان:

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إنْ أقررتما بالإسلام وَلَّيْتُكُمَا، وإن أَبَيْتُمَا فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نُبُوَّتي على مُلْكِكُمَا. محمد رسول الله ».

واستسلم ملكا عمان لله، وقامت دولة الإسلام في عمان على رأسها عمرو ابن العاص وملكا عمان إلى أن استدعي عمرو ﷺ للمدينة.

فـ (نبغ بعمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسامي في الجاهلية الجُلندي، وادعى بمثل ما ادعى به من كان نبيًّا، وغلب على عمان مرتدًّا، وألجأ جيفر وعبدًا إلى الأجبال والبحر، فبعث جيفر إلى أبي بكر، يخبره بذلك، ويستجيشه عليه، فبعث أبو بكر الصديق حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير، وعرفجة البارقي من الأزد، حذيفة إلى عمان، وعرفجة إلى مهرة، وأمرهما إذا اتفقا أن يجتمعا على من بُعِثَا إليه، وأن يبتدئا بعمان، وحذيفة على عرفجة في وجهه، وعرفجة على حذيفة في وجهه، فخرجا متساندين، وأمرهما أن يُجِدَّا السير حتى يَقْدُمَا عمان، فإذا كانا منها قريبًا كاتبا جيفر وعبادًا، وعملا برأيهما، فمضيا لما أمرا به...) [(١)].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩١).

لقد كان تصور العرب للزعامة قائمًا على استعباد الناس وانصياعهم للزعيم:

أنْتَ المليكُ علَيْهم وهُم العَبِيد إلىَ القِيَامة

وعندما رأوا رسول اللَّه ﷺ قد ساد العرب قاطبةً بالنبوة والرسالة، وانقادت العرب له بهذا الدين، وكان تصورهم عن الدين ملتبسًا بكل مفاهيم الشرك والوثنية. ولم يَمُرَّ على إسلامهم عام أو أقل أو أكثر إلا وفوجئوا بوفاة النبي ﷺ.

لقد بَيّن اللَّه سَجِيَّةَ هؤلاء الزعماء وطبيعتهم بقوله سبحانه: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ ... ﴾ [الحجرات: ١٤].

هذا الطراز من الناس هو الذي يمثلهم ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، فهو استسلم لقيادة محمد النبي، فلما أن مات الرسول عليه الصلاة والسلام رأى أن النبوة هي أقرب طريق للزعامة، وهذه تجربة محمد بن عبد اللَّه سيد قريش، فليكن هو النبي إذن، مثل تفكير مسيلمة بن حبيب الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، فهو لا يقل عن أحد من هؤلاء.

وسرعان ما سيطر على الساحة، وانتصر على منافسيه عبادٍ وجيفر، وألجأهما مع أتباعهما إلى البحر والجبل، ورأى أن الأمر قد انتهى بذلك.

لقد كان الإسلام في الطراز الآخر من الرجال الذين رشفوا من رحيق النبوة، ورسخ الإسلام في قلبهم رسوخ الجبال، فكان الصِّدِّيقُ ﷺ أكمل الناس إيمانًا في الأرض هو الذي يقود هذه الأمة، فاختار قائدين يَمُتَّان إلى عمان بنسب، **أحدهما**: من حمير، هو حذيفة بن محصن الغلفاني، **وثانيهما**: عرفجة بن هرثمة البارقي من الأزد. وما ندري هل هو من أزد عمان أو غيرهم، فقد صمتت كتب التراجم تمامًا عنهما إلا أنهما من الصحابة؛ لأنهم لم يكونوا يُؤَمِّرُون إلا الصحابة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فكلاهما كانا في المدينة يعيشان في الجامعة النبوية، ويتلقون يوميًا دروسًا تعمق هذا الإيمان في القلوب، كل صحابي هو فرد في هذه الجامعة النبوية في المدينة، لكنه إذا خرج من هذه الجامعة فهو قائد مسؤول عن إدارة معارك، وإدارة مدن، وإدارة أمم، فهذان الاسمان نكرتان بين الجنود الكبار والقادة العظام، لكنه من اللحظة التي يغادر فيها المدينة ليتحمل مسؤولية القيادة تلقى الأضواء كاملة عليه، وعلى قدرته القيادية، وكفاءته السياسية، ومع هذا كله فالتربية لا تنقطع أبدًا حتى على السابقين

الأولين من المهاجرين، أو القيادات المشهورة بعد فتح مكة. يوضح هذا المعنى هذا النص:

(وقد كان أبو بكر بعث عكرمة إلى مسيلمة باليمامة، وأتبعه شرحبيل بن حسنة، وسمى لهما اليمامة وأمرهما بما أمر به حذيفة وعرفجة، فبادر عكرمة شرحبيل، وطلب حظوة الظفر، فنكبه مسيلمة فأحجم عن مسيلمة، وكتب إلى أبي بكر بالخبر. وأقام شُرحبيل عليه حيث بلغه الخبر، وكتب أبو بكر إلى شرحبيل بن حسنة: أن أقم بأدنى اليمامة حتى يأتيك أمري. وترك أن يمضيه لوجهه الذي وَجَّهَهُ له، وكتب إلى عكرمة يُعَنِّفُهُ لتسرعه وقال:

لا أَرَيَنَّك ولا أسمع بك إلا بعد بلاء، وَالْحَقْ بعمان حتى تقاتل أهل عُمان، وَتُعِينَ حذيفة وعرفجة، وكل واحد منكم على خيله، وحذيفة ما دمتم في عمله على الناس، فإذا فرغتم فامض إلى مهرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمن حتى تلاقي المهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت، وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد، وليبلغني بلاؤك.

فمضى عكرمة في أثر عرفجة وحذيفة فيمن كان معه حتى لحق بهما قَبْلَ أَنْ ينتهيا إلى عمان، وقد عهد إليهم أن ينتهوا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ في السير معه أو المقام في عمان...) [1].

لقد كان الخليفة الراشد ﷺ هو الحارس الأمين علىالأمة وعقيدتها ومبادئها، فهذا القائد العظيم عكرمة بن أبي جهل ﷺ تُوَجَّهُ الأوامرُ إليه بانتظار وصول أخيه شرحبيل ابن حسنة ﷺ إليه ليتحركا معًا بقواتهما نحو اليمامة ومسيلمة، وفي لحظة اندفاع عاطفي للقضاء على الشرك أسماها المؤرخون (وطلب حظوة الظفر، فنكبه مسيلمة) والحديث في شفافية كاملة، ووضوح جلاء تامَّين، سبق أخاه شرحبيل، وهاجم مسيلمة على أمل أن يحقق نصرًا سريعًا يُضَافُ إلى سِجِلِّهِ العسكري، وفشل الهجوم ونكبه مسيلمة. ووصل الخبر إلى الخليفة الصديق ﷺ، إنها مخالفة صريحة للأوامر الصادرة من الخليفة، وثمار مرة لمخالفة هذه الأوامر، وجاء كتاب الصديق عنيفًا شديدًا لقائده عكرمة.

يا سبحان اللَّه ! أَذَلُّ قبائل قريش وأضعفها بنو تيم أحد أفرادها يهدد أعز قريش عكرمة بن أبي جهل في تقريع وَلَوْمٍ وتعنيف. ولو كان هذا الأمر في الجاهلية لتحرك

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩١).

عكرمة نحو العاصمة بقواته، وأسقط الخلافة، ولأقل من هذا بكثير كانت الحروب تقع بين القبائل وتستمر سنين طوالًا، أما مع الإسلام فعكرمة يسمع كلام الخليفة كأنما هو أمر من اللَّه ورسوله: لا أرينَّك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء، والحق بعُمان حتى تقاتل أهل عمان، وَتُعِينَ حذيفة وعرفجة...

لقد حدد له مواقع القتال التي يخوضها في أعرض ساحة عربية في الشرق والجنوب لا يعرف شيئًا عن هذه الأرض، ولا عن أهلها، وعليه أن يقاتل جنديًا تحت إمرة قادة لا يعرف عنهم إلا اسمهم، وهل هناك أصعب في الدنيا من أن تُحَوِّلَ القائد إلى جندي؟! وكما يسمونه في العصر الحاضر: تكسير رتبةٍ من جنرال إلى مجند، من فريق إلى ملازم أو نقيب. وهو لا يُعْفَى من الحرب، بل عليه أن يقاتل كذلك. وختم كلامه له بتحديد أعسر مهمة عليه:

(وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد وليبلغني بلاؤك...).

وبعد تنفيذ المهمة يمكن أن يقابل الخليفة؛ ليتخذ الخليفة رأيه وقراره، بينما تَصْدُرُ الأوامر من جهة أخرى من الصديق ﷺ للقائدين الجديدين أن ينتهيا إلى رأي عكرمة، ويستشيرانه في أمور الحرب فليس الأمر عند الصِّدِّيق هو إذلال عكرمة والانتقام منه، إنما هو تربيته على الجندية التي فاته أن يتربى عليها، فمنذ أن دخل الإسلام دخله قائدًا، ولم يُتَحْ له أن يمارس هذه التربية إلا عندما وقع الخلل القيادي عنده، فمخالفته لأمر الخليفة، وَسَعْيُهُ للفوز بالحظوة على أخيه شرحبيل، أظهر لدى الخليفة أنه بحاجة إلى أن يَدْخُلَ دورة تربوية عنيفة على السمع والطاعة في المنشط والمكره، فكانت الدورة في القتال تحت إمرة عرفجة وحذيفة، وبالمقابل فعليهما أن يستفيدا من خبرته الحربية، واستراتيجيته العليا في قتال العدو، إنها أمة تبايع الخليفة الراشد، تربيتها وصياغتها على هدي النبوة لمن فاته مثل هذه الدورات، ولم يكن عكرمة ﷺ ليتلكَّأ أو يتردد في تنفيذ الأوامر، فمضى لِتَوِّهِ حتى التقى بالقائدين العظيمين قبل أن يصلا إلى عمان ليشاركوا جميعًا في تنفيذ الخطة التي رسمها لهم الخليفة الصديق ﷺ.

الظفر في المعركة:

(... فلما تلاحقوا - وكانوا قريبًا من عمان - بمكان يُدعَى رِجامًا راسلوا جيفر وعبادًا، وبلغ لقيطًا مجيء الجيش. فجمع جموعه وعسكر بدبار، وخرج جيفر وعباد

من موضعهما الذي كانا فيه، فعسكرا بصحار، وبعثا إلى حذيفة وعرفجة وعكرمة في القدوم عليهما، فقدموا عليهم بصُحار، فاستبرؤوا (١) ما يليهم حتى رضوا مما يليهم، وكاتبوا رؤساء مع لقيط وبدؤوا بسيد بني جُديد، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضوا عنه، ونهدوا إلى لقيط، فالتقوا على دبا، وقد جمع لقيط العيالات (٢)، فجمعهم وراء صفوفهم ليجربهم، وليحافظوا على حرمهم - ودَبا هي المصر والسوق العظمى - فاقتتلوا بدبا قتالًا شديدًا، وكادَ لقيط يستعلي الناس، فبينا هم كذلك، وقد رأى المسلمون الخلل، ورأى المشركون الظفر، جاءت المسلمون موادُّهم العظمى من بني ناجية، وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس، وعليهم سيحان ابن صوحان وشواذب (٣) عمان من بني ناجية وبني عبد القيس، فَقَوَّى اللَّه بهم أهل الإسلام، ووهَّن أهل الشرك، فولى المشركون الأدبار، فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم، وسبوا الذراري، وقسموا الأموال على المسلمين، وبعثوا بالخُمْس إلى أبي بكر مع عرفجة، ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعمان حتى يوطئ الأمور، ويسكِّن الناس. وكان الخمس ثمانمائة رأس، وغنموا السوق بحذافيرها، فسار عرفجة إلى أبي بكر بِخُمْسِ السبي والغنائم، وأقام حذيفة لتسكين الناس، ودعا القبائل حول عمان إلى سُكون (٤) ما أفاء اللَّه على المسلمين، وشواذب عمان، ومضى عكرمة في الناس وبدأ بمهرة. وقال في ذلك عباد الناجي:

لعَمْرِي لقد لَاقى لقِيط بن مَالك ... من الشَّر مَا أخْزَى وجُوه الثَّعالِب
وبَادى أبو بَكر وَمَنْ هَلَّ فارتمى ... خَلِيجان من تيّاره والمَراكب
ولم تَنْهَهُ الأولى ولم ينكَأ العِدَا ... فألوت عَليه خَيلُه بالجنائب) (٥)

مضى عكرمة ﷺ إلى التَّوِّ لتنفيذ أوامر الخليفة، والتقى مع حذيفة وعرفجة قبل الوصول إلى عمان، وحسب توجيهات الصِّدِّيق ﷺ لا بد أن يحمل عبء المواجهة الأول المسلمون أنفسهم من قبائل المرتدين، وهذا يعني أن تكون نواة المواجهة الحاسمة مع المرتدين من جيش جيفر وعباد ملكي عمان واللذين انسحبا إلى الجبال

(١) استبرؤوا ما يليهم: تأكدوا من ولائهم لهم.
(٢) العيالات: النساء والولدان الصغار.
(٣) شواذب: أفراد ومتفرقون من القبائل.
(٤) سكون: الإقامة والسكن.
(٥) تاريخ الطبري (٢/٣٩٤).

في المرحلة الأولى، فتمت مراسلتهما، وَعَبَّآ جيشًا من أهل عمان، والتقى الجيش الإسلامي بفرقه الأربع؛ فريق: عباد وجيفر، وفريق: عكرمة، وفريق: حذيفة، وفريق: عرفجة، وتمت التعبئة العامة حيث كان القائد العام عرفجة ﷺ، والتقى الجيشان المسلم والمرتد في دبا، وكانت اللحظة العسكرية ابتداءً بمحاولة تمزيق جيش المرتدين، حيث اتصلوا بأكبر قادته سيد بني جديد (فكاتبهم وكاتبوه حتى ارْفَضُّوا عنه، ونهدوا إلى لقيط).

إن فكرة تمزيق جيش العدو هي خطة نبوية تعلمها المسلمون من رسول اللَّه ﷺ يوم الخندق حين عرض على قادة غطفان الانسحاب من المعركة مع قريش مقابل ثلث ثمار المدينة، ولَعَلَّ جيفر وعبادا هما أصحاب المبادرة لأنهم أعلم بجيش لقيط وقياداته، ونجحت الخطة الأولى في انشقاق سيد بني جديد مع قومه عن لقيط، ولا شك أن هذا أوهن نفسيته، وتذكرنا مغامرته بسوق النساء معه كي يحارب العرب عن شرفهم، فهو أغلى ما يملكونه بخطة مالك بن عوف في غزوة حنين، والتي دعت دريد بن الصمة القائد المجرب المحنك أن يهزأ بمالك الشاب المغامر ويقول له: راعي ضأن واللَّه، وهل يَرُدُّ المنهزم شيء. وصدقت حكمة دريد، وسيق نساء هوازن سبايا بين المسلمين، ولم تختلف النتائج كثيرًا بين المعركتين.

فكما كانت الجولة الأولى لهوازن في حنين كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

كذلك كانت الجولة الأولى في هذه المعركة للمشركين المرتدين على المسلمين (وكاد لقيط يستعلي الناس مبناهم كذلك، وقد رأى المسلمون الخلل ورأى المشركون الظفر...).

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا... ﴾ [التوبة: ٢٦].

فنزلت الملائكة من السماء في حنين وملأت فجاج الأرض، وكما يقول الراوي عن جبير بن مطعم قال: (لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، فلم أَشُكَّ أنها الملائكة، ولم يكن إلا هزيمة القوم) (١).

---

(١) تاريخ الطبري (٣/١٦٩).

أما هنا وفي هذه الحرب أنزل اللَّه سكينته على المؤمنين، وأرسل جنودًا يرونهم.

(... فبينما هم كذلك، وقد رأى المسلمون الخلل، ورأى المشركون الظفر، جاءت المسلمون موادهم العظمى من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سوحان بن صوحان، وشواذب عمان من بني ناجية وعبد القيس، فَقَوَّى اللَّه بهم أهل الإسلام، ووَهَّنَ اللَّه بهم أهل الشرك، فَوَلَّى المشركون الأدبار).

وكما كان نصر هوازن من أعظم ما نصر به المسلمون بعد الفتح، وصارت ثروة هوازن كلها بين المسلمين، وسيقت نساؤهم وذراريهم سبايا بيد المسلمين. وهزم المشركون شر هزيمة - كان نصر دبا كذلك أعظم نصر بعد اليمامة.

(فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم، وسبوا الذراري، وَقَسَّمُوا الأموال على المسلمين، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة... فسار عرفجة إلى أبي بكر بخمس السبي والغنائم، وأقام حذيفة لتسكين الناس، ومضى عكرمة في الناس).

لقد تكون الجيش الإسلامي الذي تجاوز فكرة القبيلة، فالمسلمون يلتقون من كل القبائل تحت راية واحدة، راية « لا إله إلا اللَّه »؛ القيسي والمضري، والعدناني والقحطاني، ليواجه كثير من هؤلاء أبناء قومهم وبني عمومتهم، وصار الصِّدِّيق رمز الإسلام في الأرض بعد رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه، فأبو بكر يقود المعركة من المدينة والتي انتهت بعشرة آلاف من القتلى في صفوف المشركين، إنها المعركة بين الشر الذي يقوده لقيط بن مالك، وبين الخير الذي يقوده أبو بكر:

لعمْرِي لقد لاقَى لقيط بن مَالك — من الشَّر ما أخزَى وجُوه الثعالب
وبادى أبو بكْر ومَنْ هَلّ فارتمى — خلِيجَان من تَيّاره المَتراكب

ولا بد من الإشارة أن الشِّعْرَ في هذه المعارك لم يكن أبدًا على مستوى النصر الذي يتحقق في كل معركة، فمعركة اليمامة مع مسيلمة، ومعركة دارين مع الحطم، ومعركة دبا مع لقيط، لو كانت في الجاهلية لأُلِّف فيها الدواوين، بينما نرى مع كل معركة من هؤلاء مقطوعة شعرية في حدود الأبيات الثلاثة.

وتعليل ذلك أن المؤمنين قد عُمِّرَ قلبهم بالقرآن، فلم يَعُدِ الفخر بالذات وبالمجد

وبالبطولة هو الذي يُعَمِّرُ قلوبهم، والمشركون المنهزمون كيف ينطقون بالشعر وقد ذاقوا الذُّلَّ والمرارة وفجيعة الهزيمة.

إنه نور القرآن ونور الهدى هو الذي يملأ الكينونة البشرية اليوم، فحين تنتهي معركة العقيدة وحرب المبادئ تبدأ الجولة الجديدة، لا لإذلال المنهزمين، بل لفتح قلوبهم لهذا الدين، وتعليمهم أمور دينهم، ودعوتهم إلى الدخول في دين اللَّه أفواجًا، وقد زال الطواغيت الذين كانوا حائلًا بين الناس وبين شريعة اللَّه.

متابعة المعركة بمهرة بالنجد بقيادة عكرمة:

(ولما فرغ عِكرمة وعرفجة وحذيفة من ردة عمان، خرج عكرمة في جنده نحو مهرة [(١)] واستنصر مَنْ حول عمان وأهل عمان، وسار حتى يأتي مهرة ومعه ممن استنصره من ناجية والأزد وعبد القيس وراسب وسعد من بني تميم، يسير حتى اقتحم على مهرة بلادها، فوافق بها جمعين من مهرة، أما أحدهما: فبمكان من أرض مهرة يقال له: جيروت، وقد امتلأ ذلك الحيز إلى نضدون - قاعين من قيعان مهرة - عليهم شخريت رجل من بني شخراة، وأما الآخر: فبالنجد، وقد انقادت مهرة جميعًا لصاحب هذا المجمع عليهم المَصبِّح أحد بني محارب والناس كلهم معه، إلا ما كان من شخريت، فكانا مختلفين، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه، وكل واحد من الجندين يشتهي أن يكون الفلج [(٢)] لرئيسهم، وكان ذلك مما أعان اللَّه به المسلمين، وَقَوَّاهم على عدوهم، وَوَهَّنَهُم.

ولما رأى عكرمة قلةَ مَنْ مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام، فكان لأول الدعاء فأجابه، ووهَّنَ اللَّه بذلك المصبح، ثم أرسل إلى المصبح يدعوه إلى الإسلام، والرجوع عن الكفر، فاغتر بكثرة من معه، وزاد مباعدة لمكان شخريت، فسار إليه عكرمة، وسار إليه معه شخريت، فالتقوا هم والمصبح بالنجد، فاقتتلوا أشد من قتال دبا.

ثم إن اللَّه كشف جنود المرتدين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون، فقتلوا

---

(١) مهرة: اسم قبيلة من قضاعة تنسب إليهم الإبل المهرية، ولهم في اليمن محل يسمى مهرة بينه وبين عمان مسيرة شهر، وكذلك بينه وبين حضرموت. راجع معجم البلدان (٢١١/٨)، عن قادة فتح الجزيرة لمحمود شيت خطاب (ص ٣٨٧).

(٢) الفلج: النصر.

ما شاؤوا وأصابوا ما شاؤوا، وأصابوا فيما أصابوا ألفي نجيبة، فَخَمَّسَ عكرمة الفيء، فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر، وقسَّم الأربعة أخماس على المسلمين، وازداد عكرمة وجنده قوة بالظهر والمتاع والأداة، وأقام عِكرمة حتى جمعهم على الذي يجب، وجمع أهل النجد؛ (أهل رياض الروضة، وأهل الساحل، وأهل الجزائر، وأهل المر واللبان، وأهل جيروت، وظهور الشحر، والصبرات، ونيعب، وذات الخيم) (١) فبايعوا على الإسلام، فكتب بذلك مع البشير - وهو السائب أحد بني عابد ابن مخزوم - فقدم على أبي بكر بالفتح، وقدم شخريت بعده بالأخماس، وقال في ذلك علجوم المحاربي:

جَزى اللَّه شخْرِيتًا وأفنَاء هشيم وفِرضم إذ سَارت إلِيْنَا الجلَائب
جَزاء مُسيءٍ لم يراقِبْ لِذمةٍ ولم يَرْجُها فيما يرجَّى الأقارب
أعِكرم لولا جمْعُ قَومي وفعلهم لضاقَت عليك بالفَضَاء المذَاهب
وكنا كَمن اقتَاد كفًّا بأختِها وحلَّت علينا في الدُّهور النَّوائب) (٢)

لقد تفرق القادة الثلاثة كُلٌّ في مهمة، فقد مضى عرفجة بالسبي والغنائم إلى المدينة، وبقي حذيفة بن محصن في عمان (حتى يوطئ الأمر ويسكن الناس، ولا عجب أن يُختار حذيفة بن محصن لهذه المهمة، فهو ابن المنطقة نفسها، وهو الأمين عليها في تثبيت أقدامها بالإسلام)، فقد ذكر صاحب الروض المعطار وهو يُعَرِّف بدبا قوله:

(دبا: مثل عصا، موقع بظهر الحيرة، ودبا فيما بين عمان والبحرين، كان وفد الأزد من أهل دبا مُقِرِّين بالإسلام، فبعث فيهم مصدقًا منهم يقال له: حذيفة بن اليمان (٣)

---

(١) أسماء مواقع وبلدان. (٢) تاريخ الطبري (٢/٣٩٣).

(٣) تضاربت الروايات وتناقضت حول شخص حذيفة ﷺ وليس من الصعب الجمع بينهما، فرواية الروض هذه أضافت (اليمان) بلا ضرورة؛ لأنها فسرته بعد بـ (محصن) وكلمة اليمان هذه تخلط بين حذيفة بن اليمان ﷺ وهو غطفاني وبين حذيفة بن محصن وهو أزدي، وكذلك زيادة كلمة (أبو) لأن الحديث كله عن حذيفة، وبالعودة إلى كتب التراجم وخاصة أسد الغابة، نجد ثلاثة أشخاص من الصحابة يحملون اسم حذيفة، واثنان يذكران بدون ذكر اسم أبيهم، وهما حذيفة (البارقي) وحذيفة (الأزدي). ويرى ابن الأثير أنهما اسمان لشخص واحد فيقول: (... ،وليس كذلك، فالأزد شعب عظيم يشتمل على عدة قبائل وبطون كثيرة منها الأوس والخزرج، وخزاعة وأسلم وبارق والعتيك وغيرها... فبان بهذا السياق أن كل بارقي أزدي، وفي سبب تسميته ببارقة أقوال...) أسد الغابة (٢/٤٢٠).

(محصن) الأزدي من أهل دبا، وكتب له فرائض صدقات أموالهم، ثم رسم له أخذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم، ففعل ذلك حذيفة، ورد فاضلها إلى رسول اللَّه ﷺ (لم يجد لها موضعًا)، فلما توفي رسول اللَّه ﷺ منعوا الصدقة وارتدوا، فدعاهم حذيفة إلى التوبة فأبوا، وأسمعوه شتم النبي ﷺ، فقال: يا قوم، أسمعوني الأذى في أبي وأمي، ولا تسمعوني الأذى في رسول اللَّه ﷺ، فَأَبَوْا إلا ذلك، فجعلوا يرتجزون:

لقد أتانا خبر رَدِيٌّ أمست قريش كلها نبيّ

ظلم لعمر اللَّه عبقري

فكتب حذيفة [1] إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه بما كان منهم، فاغتاظ أبو بكر الصديق عليهم غيظًا شديدًا وقال: من لهؤلاء؟ ويل لهم. ثم بعث إليهم عكرمة ابن أبي جهل، وكان النبي ﷺ استعمله على سفلى بني عامر مصدقًا، فلما بلغته وفاة النبي ﷺ انحاز إلى تبالة في أناس من العرب ثبتوا على الإسلام، فكان مقيمًا بتبالة فجاءه كتاب أبي بكر رضي الله عنه، وكان أول بعث بعثه إلى أهل الردة: أن سر فيمن قبلك من المسلمين إلى أهل دبا، فسار عكرمة في نحو ألفين من المسلمين، ورأس أهل الردة

---

(١) وردت في بعض المراجع أبو حذيفة والصواب ما أثبتناه.

ونحن نرى أن حذيفة (البارقي) وحذيفة (الأزدي) وحذيفة (القلعاني) كما في الطبري وحذيفة (الغلفاني) هي أربعة مسميات لمسمى واحد؛ لأن حذيفة (الأزدي) يقول: (أتيت النبي ﷺ في ثمانية نفر من الأزد أنا ثامنهم يوم الجمعة...) أسد الغابة (٢/ ٤٢٠)، وحذيفة البارقي يروي عن جنادة (الأزدي) وحذيفة (الغلفاني). أخرجه أبو عمر وقال: لا أعرفه بأكثر من أن أبا بكر الصديق عزل عكرمة بن أبي جهل عن عمان وَسَيَّرَهُ إلى اليمن واستعمل على عمان حذيفة (القلعاني)... وذكره الطبري فقال: حذيفة بن محصن الغلفاني. فحذيفة بدون أب وافد الأزد، وحذيفة بن محصن القلعاني، والغلفاني يولى على الأزد عوضًا عن عكرمة، ويبعثه أبو بكر لمواجهة ردة الأزد مع عرفجة بن هرثمة، فالأربعة هم واحد، واللَّه أعلم. وبربط روايات كتب التراجم مع روايات الروض المعطار للحميري يتأكد أن هؤلاء الأربعة هم شخصٌ صحابيٌّ واحد، بايع النبي ﷺ، وكان مصدقًا لرسول اللَّه ﷺ في قومه في دباء، وعندما ارتدوا جاء إلى الصديق وأخبره فبعثه عليهم مع عرفجة بن هرثمة، وأمر عكرمة أن يلتحق بهم، واتفق الثلاثة على إرسال عرفجة بالغنائم والفتح للصديق وإبقاء حذيفة في قومه يدعوهم إلى الإسلام وَيُثَبِّتُ الناس على الإسلام، وأصبح عكرمة وحده يقود معركة مهرة، وينتصر فيها. وعند البلاذري حذيفة بن محصن (البارقي) إذ يقول في فتوح البلدان: (ولما قبض رسول اللَّه ﷺ ارتدت الأزد وعليها لقيط بن مالك ذو التاج، وانحازت إلى دبا... فوجه إليهم أبو بكر رضي الله عنه حذيفة بن محصن (البارقي) من الأزد و (عكرمة بن أبي جهل). فتوح البلدان للبلاذري (ص ٩٣).

لقيط بن مالك، فلما بلغه مسير عكرمة بعث ألف رجل من الأزد يَلْقَوْنَهُ، وبلغ عكرمة أنهم في جموع كثيرة فبعث طليعة، وكان لأصحاب لقيط أيضًا طليعة، فالتقوا، فاقتتلوا ساعة، ثم رزق اللّه تعالى عكرمة عليهم الظفر، فهزموهم، وأكثر فيهم القتل، ورجعوا منهزمين أجمعين إلى لقيط بن مالك...).

ومضى عكرمة ﷺ القائد الثالث ليواجه ردة مهرة وقد سبر الساحة، وعرف ما بين القائدين المرتدين من خصومة وضغينة، فَوَجَّهَ عبقريته قبل المواجهة في تفتيت صف العدو المتكالب على المسلمين (ولما رأى عكرمة قلة مَنْ مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام، فكان لأول الدعاء، فأجابه وَوَهَّنَ اللّه بذلك المصبح).

ثم كانت المعركة الفاصلة بعد ذلك، وكانت الغلبة والفلج للمؤمنين، حيث أنهى اللّه المصبح كما أنهى لقيطًا ذو التاج.

(... فاقتتلوا أشد من قتال دَبا، ثم إن اللّه كشف جنود المرتدين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون، فقتلوا منهم ما شاؤوا، وأصابوا ما شاؤوا، وأصابوا فيما أصابوا ألفي نجيبة، فخمس عكرمة الفيء، فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر).

واختيار عكرمة ﷺ لشخريت أن يكون هو الرسول بالغنائم لأبي بكر هو اختيار مُوَفَّقٌ وعبقري، فهو الذي يطمئن الصديق ﷺ لصدقه بعد ردته. هذا من جهة، ومن جهة ثانية: فهو الذي يشهد ببلاء عكرمة وحسن قيادته؛ إذ لا يزال عكرمة تحت الاختبار: (لا أَرَيَنَّكَ ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء، وَالْحَقْ بعمان حتى تقاتل أهل عمان، وتعين حذيفة وعرفجة... فإذا فرغتم فامض إلى مهرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمن حتى تلاقي المهاجر بن أبي أمية باليمن وبحضرموت، وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد، وليبلغني بلاؤك).

إنه أعسر اختبار يتعرض له أحد القادة الكبار، نَفَّذَ نصف مهمته، أعان عرفجة وهرثمة في دبا ثم مضى إلى مهرة، وكتب اللّه له النصر، وبعث بالغنائم مع شخريت.

ثم الجزء الثاني من المهمة **على ثلاث مراحل:**

١ - ثم ليكن وجهك إلى اليمن حتى تلاقي المهاجر بن أبي أمية.

٢ - باليمن وحضرموت.

٣ - وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد.

وهكذا تُبْنَى الرجال، وَيُصَاغ العظماء.

ولقد عرفنا من هذا النص أن هناك فرقًا بين البشير وبين الرسول بالأخماس.

فالبشير يقطع الفيافي وحده وبأقصى سرعة ممكنة ليبشر المسلمين بالفتح، أما الرسول فمعه الغنائم، وقد يكون معه السبايا، وقد يكون معه النجائب من الإبل والغنم، فهو مثقل بحمله الذي يمضي به إلى الخليفة، فيتأخر عن البشير.

والملاحظ أن المهمة في مرحلتها الثالثة قد أوشكت على الانتهاء من توطئة الناس بين عمان واليمن (وأقام عكرمة حتى جمعهم على الذي يحب، وجمع أهل النجد، أهل رياض الروضة، وأهل الساحل، وأهل الجزائر، وأهل المرِّ واللُّبان، وأهل جَيْرُوت، وظهور الشِّحْر، والصَّبَرَات، ويَنْعَب، وذاتِ الخَيَم، فبايعوا على الإسلام...).

فالمهمة أن يوطِئ من بين عمان واليمن ممن ارتد، وهذه الأقوام وبهذا التفصيل الممل تدخل تحت هذه المهمة، فلم يمض البشير بنصر مَهْرَةَ فقط، إنما هو معنيٌّ بتوطئة من بين اليمن وعمان ومبايعتهم على الإسلام، وبذلك بقيت المرحلتان من الجزء الثاني من المهمة وهي إطفاء ردة اليمن وحضرموت.

هذا ولم يَنْسَ عكرمة ﷺ أنه داعية إسلام ابتداء قبل أن يكون صاحب حرب، فكان عليه قبل المواجهة أن يدعو المرتدين إلى الإسلام، فإذا انتهى عهدُ السلام فقد بدأ جَوُّ الحرب، ولكن حالة لبوسها.

ففي الحالة الأولى (أرسل إلى المصبح يدعوه إلى الإسلام، والرجوع عن الكفر، فاغتر بكثرة من معه، وازداد مباعدة لمكان شخريت).

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ... ﴾ [الأنفال: ٦١].

« ... **ولئن يهدي اللّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعَم** ». (أو) « **مما طلعت عليه الشمس** » (١).

أما إذا أصروا على الحرب، فلها نكهة جديدة وروح جديدة.

(فاقتتلوا أشد من قتال دبا، ثم إن اللّه كشف المرتدين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاؤوا، وأصابوا ما شاؤوا، وأصابوا فيما أصابوا ألفي نجيبة).

---

(١) متفق عليه.

الفصل العاشر

رِدَّةُ اليمن الثانية

قال أبو جعفر الطبري:

(وكان أول منتقض بعد النبي ﷺ بتهامة عك والأشعرون، وذلك أنهم حين بلغهم موت النبي ﷺ تجمع منهم طخارير [١]، فأقبل إليهم طخارير من الأشعرين وخضم فانضموا إليهم، فأقاموا على الأعلاب طريق الساحل، وتأشب [٢] إليهم أوزاع [٣] على غير رئيس، فكتب بذلك الطاهر بن أبي هالة إلى أبي بكر وسار إليهم، وكتب أيضًا بمسيره إليهم، ومعه مسروق العكي، حتى انتهى إلى تلك الأوزاع على الأعلاب، فالتقوا فاقتتلوا فهزمهم اللَّه، وقتلوهم كل قتلة، وأنتنت السبل لقتلهم، وكان مقتلهم فتحًا عظيمًا. وأجاب أبو بكر الطاهر قبل أن يأتيه كتابه بالفتح: بلغني كتابك تخبرني فيه مسيرك واستنفارك مسروقًا وقومه إلى الأخابث بالأعلاب، فقد أصبت، فعاجلوا هذا الضرب، ولا ترفهوا عنهم، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمن طريق الأخابث، ويأتيكم أمري. فسميت تلك الجموع من عك وَمَنْ تَأَشَّبَ إليهم إلى اليوم الأخابث، وسمي ذلك الطريق طريق الأخابث. وقال في ذلك الطاهر بن أبي هالة:

ووَاللَّه لولا اللَّهُ لا شيء غيره ... لما فُضَّ بالأجراع جَمْعُ العثاعثِ
فلم تَرَ عَيْنِي مثلَ يوم رأيته ... بجنب صُحَارٍ في جموعِ الأخابثِ
قتلناهم ما بين قُنةِ خَامِرٍ [٤] ... إلى القِيعَةِ الحمراءِ [٥] ذاتِ النبائثِ
وفئنا بأموال الأخابثِ عَنْوَةً ... جِهَارًا ولم نحفِل بتلكَ الهثاهثِ [٦]

وعسكر طاهر على طريق الأخابث، ومعه مسروق ينظر أمر أبي بكر رَحِمَهُ اللَّهُ) [٧].

الطاهر بن أبي هالة ربيب رسول اللَّه ﷺ، فهو ابن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من زوجها

---

(١) طخارير: جاء في طخارير أي: في أشابه من الناس متفرقين.

(٢) تأشب: تجمع.

(٣) أوزاع: متفرقون من قبائل شتى.

(٤ ، ٥) أسماء أماكن.

(٦) الهثاهث: التخليط في الأمر.

(٧) تاريخ الطبري (٢/٢٩٤، ٢٩٥).

أبي هالة، ولا شك أنه تربى في بيت النبوة، أو رشف من رحيقها الكثير، يحدثنا عن مهمته هذه أبو موسى الأشعري ﷺ، قال:

(بعثني رسول اللَّه ﷺ خامس خمسة على أخلاف اليمن، أنا، ومعاذ بن جبل، وخالد بن سعيد بن العاص، والطاهر بن أبي هالة، وعكاشة بن ثور، فبعثنا متساندين وأمرنا أن نتياسر، وأن نُيَسر ولا نعسر، ونبشر ولا ننفر، وأنه إذا قدم معاذ طاوعناه ولم نخالفه. أخرجه أبو عمر)[1].

فهو إذن والي رسول اللَّه ﷺ ابتداءً على هذه المنطقة، كما ذكر الطبري نفسه: (توفي رسول اللَّه ﷺ وعلى مكة وأرضها عتاب بن أبي أسيد والطاهر بن أبي هالة، عتاب على بني كنانة، والطاهر على عك[2] وذلك أن النبي ﷺ قال: « **اجعلوا عمالة عك في بني أبيها معد بن عدنان** »).

فعك وإن كانت تقيم في طريق اليمن فهي عدنانية، ولعودتها إلى نسبها أوصى رسول اللَّه ﷺ أن تكون الإمارة فيها عدنانية، فكان الطاهر بن أبي هالة ﷺ الأسيدي التميمي من صلب عدنان.

لكن في كل قبيلة أراذلها، وهم الذين سما هم الصديق: الأخابث، فقد اجتمعوا من كل صوب وأعلنوا ردتهم عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، فكان لهم الطاهر ﷺ بالمرصاد، وقاتلهم (فهزمهم اللَّه، وقتلوهم كل قتلة، وأنتنت السبل لقتلهم، وكان ذلك فتحًا عظيمًا).

وحق للطاهر ﷺ أن ينتصر، فالمنهج دائمًا هو قتال الكافرين بالمسلمين من كل قبيلة؛ فلذلك ضم إليهم مسروقًا العكي، وتحدث عن فضل اللَّه تعالى عليه بالنصر، ولاحظنا زمام المبادرة عنده - رضوان اللَّه عليه - حين لم يدعهم حتى يستفحل أمرهم، بل فاجأهم ولا يزالون يتجمعون وَيُعِدُّون العدة، بل لم يكونوا قد اختاروا قائدًا لهم بعد، ولا شك أن هذا النصر قد أخاف مَنْ حولهم، فأصبحت الطريق آمنة للجيوش الإسلامية لتواجه الردة الكبرى في الأخلاف الأربعة الأخرى في اليمن. هذا وتصل عك في امتدادها إلى مشارف صنعاء، ومن هنا تأتي أهمية تأمين الموقع الأول للدخول إلى اليمن، وأن يكون الطريق من مكة إلى صنعاء ليس أمامه عائق.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ت (٢٥٩٩).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٣١٨).

اليمن من الردة إلى العودة

لم تكن اليمن بالجزء اليسير من أرض العرب، فقد كانت تعادل نصف العرب أو تزيد؛ ولذلك احتاجت لتثبيتها وعودتها إلى حظيرة الإسلام أكثر من خمسةٍ وعشرين قائدًا محليًّا وخارجيًّا **نذكرهم على سبيل المثال:**

أولًا: أمراء الأخلاف الخمسة:

١ - أبو موسى الأشعري. ٢ - معاذ بن جبل.

٣ - الطاهر بن أبي هالة. ٤ - عكاشة بن ثور.

٥ - خالد بن سعيد بن العاص.

ثانيًا: القادة المساندون الأمراء:

٦ - عكرمة بن أبي جهل. ٧ - سويد بن مقرن.

٨ - المهاجر بن أبي أمية. ٩ -عرفجة بن هرثمة.

ثالثًا: قيادات فتح حضرموت:

١٠ - زياد بن لبيد البياضي. ١١ - عكاشة بن محصن الأسدي.

رابعًا: القيادات المحلية:

١٢ - فيروز الديلمي ومعه جشيش وداذويه.

١٣ - فروة بن مسيك المرادي. ١٤ - جرير بن عبد اللَّه البجلي.

١٥ - عمير ذي مران. ١٦ - سعيد ذي ذود.

١٧ - سميفع ذي الكلاع. ١٨ - حوشب ذي ظليم.

١٩ - شهر ذي يناف. ٢٠ - معاوية قائد بني عقيل.

٢١ - مسروق العكي. ٢٢ - عبيدة بن سعد.

٢٣- شرحبيل بن السمط الكندي. ٢٤ - عامر بن شهر.

٢٥ - يعلى بن أمية. ٢٦ - يزيد بن قنان.

٢٧ - خالد بن فلان المخزومي. ٢٨ - ربيعة الحضرمي.

قيس بن مكشوح يرتد ثانية:

(قال أبو جعفر: فمن ارتد ثانية منهم قيس بن عبد يغوث بن مكشوح.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف قال:

كان من حديث قيس في ردته الثانية أنه حين وقع إليهم الخبر بموت رسول الله ﷺ انتكث وعمل في قتل فيروز وداذويه وجُشيش. وكتب أبو بكر إلى عمير ذي مران وإلى سعيد ذي ذود وإلى سميفع ذي الكلاع، وإلى حوشب ذي ظليم وشهر ذي يناف يأمرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر الله والناس وَيَعِدُهُمُ الجنودَ:

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زود، وسميفع بن ناكور ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشهر ذي يناف: أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحُوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدُّوا معه، فإني قد وَلَّيتُهُ...).

يقول الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن المستنير بن يزيد عن عروة بن غزية:

ولما سمع بذلك قيس أرسل إلى ذي الكلاع وأصحابه:

إن الأبناء نُزَّاع في بلادكم، ونقلاء فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأي أن أقتل رؤساءهم، وَأُخْرِجَهم من بلادنا، فتبرؤوا. فلم يمالئوه، ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا، وقالوا: لسنا مما هاهنا في شيء، أنت صاحبهم وهم أصحابك.

فَتَرَبَّصَ لهم قيس، واستعد لقتل رؤسائهم وتسيير عامتهم، فكاتب قيس تلك الفالَّة (١) السيارة اللّحجيَّة، وهم يصعِّدون في البلاد ويصوِّبون، محاربين لجميع مَنْ خالفهم، فكاتبهم قيس في السر، وأمرهم أن يتعجلوا إليه، وليكون أمره وأمرهم واحدًا، وليجتمعوا على نفي الأبناء من اليمن، فكتبوا إليه بالاستجابة له، وأخبروه أنهم إليه سِراع، فلم يفجأ أهل صنعاء إلا الخبر بدُنُوِّهم منها، فأتى قيس فيروز في ذلك كالفَرِق (٢) من هذا الخبر، وأتى داذويه فاستشارهما ليُلبس عليهما (٣)، ولئلا يتهماه، فنظروا في ذلك واطمأنوا إليه.

---

(١) الفالة: هم الذين هربوا من جيش الأسود العنسي، ولم يأووا إلى مركزٍ مُعَيَّنٍ.

(٢) الفَرِق: الخائف.

(٣) ليلبس عليهما: ليغشهما بأنه معهما ضد هذه الفالة.

ثم إن قيسًا دعاهم من الغد إلى طعام فبدأ بداذويه، وَثَنَّى بفيروز، وَثَلَّثَ بجشيش، فخرج (١) على داذويه حتى دخل عليه، فلما دخل عليه عاجله فقتله، وخرج فيروز يسير حتى إذا دنا سمع امرأتين على سطحين تتحدثان، فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قتل داذويه. فلقيهما فعاج حتى يرى أُوِيَّ (٢) القوم الذين أربؤوا (٣)، فأُخبر برجوع فيروز، فخرجوا يركضون، وركض فيروز، وتلقاه جشيش، فخرج معه متوجهًا نحو جبل خَوْلَان - وهم أخوال فيروز - فسبقا الخيول إلى الجبل ثم نزلا، فتوقّلا، وعليهما خفاف ساذَجة، فما وصلا حتى تقطعت أقدامهما، فانتهيا إلى خولان وامتنع فيروز بأخواله، وآلى أن لا ينتعل ساذجًا، ورجعت الخيول إلى قيس، فثار بصنعاء فأخذها، وجبى ما حولها، مقدمًا رِجْلًا، ومؤخرًا أخرى، وأتته خيول الأسود، ولما أوى فيروز إلى أخواله خولان فمنعوه وتأشب إليه الناس، كتب إلى أبي بكر بالخبر، فقال قيس: وما خولان؟! وما فيروز؟! وما قرار أووا إليه؟! وطابق على قيس (٤) عوامُّ قبائل مَنْ كَتَبَ أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين، وعمد قيس إلى الأبناء (٥) ففرقهم ثلاث فرق، أقر من أقام وأقر عياله، وفرّق عيال الذين هربوا إلى فيروز فِرقتين، فَوَجَّهَ إحداهما إلى عدن ليُحملوا في البحر، وحُمِلَ الأخرى في البر، وقال لهم جميعًا: الحقوا بأرضكم. وبعث معهم مَنْ يُسَيِّرُهُم، فكانت عيال الديلمي (٦) ممن سُيِّرَ في البر، وعيال داذويه ممن سُيِّر في البحر.

فلما رأى فيروز أن قد اجتمع عوامُّ أهل اليمن على قيس، وأن العيال قد سُيِّروا، وعرّضهم للنهب، ولم يجد إلى فراق عسكره في تَنَقُّذِهِم سبيلًا، وبلغه ما قال قيس في استصغاره الأخوال والأبناء، فقال فيروز منتميًا ومفاخرًا وذكر الظُّعن (٧):

ألا نَاديا ظُعنًا إلى الرمل ذِي النخْلِ ... وقُولا لَها ألَّا يقَالَ ولاَ عَذلي
وَمَا ضَرَّهم قَولُ العُداةِ ولو أَثْرَى ... أَتى قَومَه مِن غير فُحش ولاَ بَخْلِ
فَدع عَنك ظُعنًا بالطرِيق التِي هَوت ... لطيَّتِها صَمْدَ الرِّمَال إلَى الرَّمْلِ

(١) خرج: قيس هو الذي خرج.
(٢) أوي القوم: نُزُلَهُم.
(٣) أربؤوا: فعل القوم الذين كلفهم باغتياله.
(٤) طابق على قيس: اجتمعوا إليه ومعه.
(٥) الأبناء: الفرس الذين أسلموا.
(٦) الديلمي: فيروز والي رسول الله ﷺ ووالي أبي بكر ﷺ.
(٧) الظعن: الذين وزعهم قيس لإخراجهم من اليمن.

وإنّا فإنْ كَانت بصنْعَاء دَارُنا لنَا نسْلُ قومٍ من عَرانِينهم نَسْلي
وللديْلمِ الرَّزّام مِنْ بعدِ بَاسلٍ (١) أبى الخفْض واختَار الحرُور علَى الظلِّ
وكانَتْ مَنَابِيتُ العِراقِ جِسَامُهَا لِرَهْطِي إذا كِسْرَى مراجِلُهُ تَغْلي
وبَاسلُ أصْلي إن نميْتُ ومَنْصِبي كَما كُلّ عَود مُنتَهاه إلَى الأَصل
هُمْ تركُوا مجْرَاي سَهلًا وحصَّنوا فِجَاجي بحسْنِ القوْلِ والحَسَبِ الجزْل
فَما عَزنا في الجهْل (٢) من ذِي عدَاوةٍ أَبى اللَّه إلا أن يُعِزَّ علَى الجهْل
ولَا عَاقنا في السِّلْم عَن آلِ أحمَد ولا خسَّ في الإسْلَام أن أسْلَموا قَبلي
وإن كَان سَجْلٌ (٣) من قَبِيلي أرَشَّنِي (٤) فإني لراجٍ أن يُغرِّقَهُم سَجْلي

وقام فيروز في حربه، وتجرد لها، وأرسل إلى بني عقيل بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة رسولًا بأنه متحفز بهم يستمدهم ويستنصرهم في ثَقَلِهِ على الذين يزعجون أثقال الأبناء، وأرسل إلى عكٍ رسولًا يستمدهم ويستنصرهم على الذين يزعجون أثقال الأبناء.

فركبت عُقيل وعليهم رجل من الحلفاء يقال له: معاوية، فاعترضوا خيل قيس فتنقذوا أولئك العيال، وقتلوا الذين سيَّرُوهم، وقصروا عليهم القرى، إلى أن رجع فيروز إلى صنعاء، وأمدت عُقيل وعك فيروز بالرجال، فلما أتت أمدادهم فيمن كان اجتمع إليه، خرج فيمن كان تَأَشَّبَ إليه ومن أمده من عك وعقيل، فناهد قيسًا فالتقوا دون صنعاء، فاقتتلوا، فهزم اللَّه قيسًا في قومه ومن أنهضوا، فخرج هاربًا في جنده حتى عاد معهم، وعادوا إلى المكان الذي كانوا فيه مبادرين حين هربوا بعد مقتل العنسي، وعليهم قيس، وتذبذبت رافضة العنسي وقيس معهم فيما بين صنعاء ونجران، وكان عمرو بن معديكرب بإزاء فروة بن مسيك في طاعة العنسي) (٥).

قدوم عكرمة:

يقول الطبري: (وكتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن سهل عن القاسم

---

(١) باسل: هو باسل بن ضبة بن أدة، ويقال: إن الديلم من ولده. انظر جمهرة أنساب العرب (ص ٢٠٣)، وفيروز ديلمي.

(٢) فما عزنا في الجهل: فما غلبنا في الجاهلية.

(٣) السَّجْل: الدلو الملأى بالماء.

(٤) الأرش: النقص.

(٥) تاريخ الطبري (٢٩٦/٢، ٢٩٧).

وموسى بن الغصن، عن ابن محيريز، قال: فخرج عكرمة من مهرة سائرًا نحو اليمن حتى ورد أبين [١]، ومعه بشر كثير من مهرة وغيرهم.

واستبرأ النخع وحمير [٢]، وأقام لاجتماعهم [٣].

ذكر خبر طاهر حين شخص مددًا لفيروز:

قال أبو جعفر الطبري: (قد كان أبو بكر ﷺ كتب إلى طاهر بن أبي هالة بالنزول إلى صنعاء وإعانة الأبناء، وإلى مسروق، فخرجا حتى أتيا صنعاء، وكتب إلى عبد الله ابن ثور بن أصغر بأن يجمع إليه العرب ومن استجاب له من أهل تهامة، ثم يقيم مكانه حتى يأتيه أمره...) [٤].

يقول الطبري: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن المستنير بن يزيد عن عروة بن غزية وموسى، عن أبي زرعة السيباني قال:

ولما فصل المهاجر بن أبي أمية من عند أبي بكر - وكان في آخر من فصل - اتخذ مكة طريقًا، فمر بها، فاتَّبعه خالد بن أسيد، ومر بالطائف، فاتبعه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم مضى، حتى إذا حاذى جرير بن عبد الله ضمه إليه، وانضم إليه عبد الله بن ثور حين حاذاه، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك، وَفَارَقَ عمرو ابن معديكرب قيسًا، وأقبل مستجيبًا، حتى دخل على المهاجر من غير أمان، فأوثقه المهاجر، وأوثق قيسًا، وكتب بحالهما إلى أبي بكر ﷺ، وبعث بهما إليه، فلما سار المهاجر من نجران إلى اللحجية [٥]، والتقت الخيول على تلك الفالَّة استأمنوا، فأبى أن يؤمنهم، فافترقوا فرقتين، فلقي المهاجر إحداهما بعجيب، فأتى عليهم، ولقيت خيوله الأخرى بطريق الأخابث، فأتوا عليهم وعلى الخيول عبد الله، وقتل الشرداء بكل سبيل، فقدم بقيس وعمرو بن معديكرب فقال (أي: أبا بكر):

يا قيس، أعدوت على عباد الله تقتلهم، وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين. وَهَمَّ بقتله لو وجد أمرًا جليًّا، وانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داذويه

---

(١) أبين: مدينة في اليمن.

(٢) استبرأ النخع وحمير: اعتبرهم بريئين مما نُسب إليهم من ردة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٩٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/٢٩٩).

(٥) اللحجية: المقيمون في لحج وهم الذين هربوا بعد هزيمة قيس.

شيئًا، وكان ذلك عمل في سر لم يكن به بَيِّنَةٌ، فتجافى له عن دمه، وقال لعمرو بن معديكرب: أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟! لو نصرت هذا الدين لرفعك اللَّه. ثم خَلَّى سبيله، وردهما إلى عشائرهما، وقال عمرو:

لا جرم لأقيلن ولا أعود.

كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن المستنير وموسى قالا:

سار المهاجر من عَجِيبِ حتى ينزل صنعاء، وأمر أن يتبعوا شُذَّاذ القبائل الذين هربوا فقتلوا من قدروا عليهم منهم كل قتلة، ولم يُعْفِ متمردًا، وقبل توبة من أناب من غير المتمردة، وعملوا في ذلك على قدر ما رأوا من آثارهم، ورجوا عندهم، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء وبالذي يتبع من ذلك) [١].

قيس بن مكشوح:

لقد كان قيس بن مكشوح زعيمًا في الردة الأولى مع الأسود العنسي، وكان من أكبر قواده.

فعن جشيش الديلمي قال: (... ورأيناه (أي: الأسود العنسي) قد تغير لقيس ابن عبد يغوث - وكان على جنده - فقلنا: يخاف على دمه، فهو لأول دعوة. فدعوناه وأنبأناه الشأن، وأبلغْنا عن النبي ﷺ، وكان في غَمٍّ وضيقٍ من أمره، فأجابنا إلى ما أجبنا من ذلك (أي: العمل في الأسود إما غيلة وإما مصادمة).

فقد انضم سرًّا إلى المقاومة الإسلامية، وكان في العز على مستوى الأسود العنسي اللعين (وأخبره الشيطان بشيء فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، وما يقول؟ قال: يقول: عمدت إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك، وحاول ملكك وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود، يا أسود، اقطف قنته [٢].

لقد أدرك قيس أن الساحة لا تسع لكليهما فإما هو وإما الأسود، فاختار أن يتحالف مع المسلمين ومع والي رسول اللَّه ﷺ على اليمن وهو فيروز الديلمي، واغتالوا الأسود بالاتفاق مع زوجته، ووصل الخبر إلى رسول اللَّه ﷺ، وهو على فراش الموت.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٩).

(٢) كناية عن قطف رأسه.

ثم كانت الردة الثانية التي نتحدث عنها اليوم.

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]).

وانقلب قيس على عقبيه، لقد اختلطت الزعامة عنده بالنبوة، وليس معذورًا بهذا الموقف، فقد رأى بعينه مصير الأسود العنسي الكذاب، وكيف لم تنفعه ترَّهاته وَدَجَلُهُ، وكان قيس ممن ساهم بالقضاء عليه، والعودة إلى المحضن النبوي.

ورأى أن يتحرك براية وطنية ليستطيع أن يكسب الأتباع والأنصار، ويغدر بأقرب الناس إليه؛ ليخلو له الأمر، ويكون الزعيم الوحيد بلا منازع.

* * *

لقد مرت هذه الردة بخمس مراحل متلاحقة يحسن عرضها بجلاء، نشهد من خلال هذا العرض دور الجهد البشري، ودور العون الإلهي، حتى تم القضاء عليها واجتثاثها من جذورها.

المرحلة الأولى: إعلان الحرب على الإسلام:

لكن هذا الإعلان لم يكن بدون تخطيط، وبدون مقدمات، ولسنا مع قيس مع رجل عادي، بل مع قائد يخطط، ويحسب للأمور حساباتها، وزعامته ليست من فراغ.

فقد بعث في عملية التعبئة للمواجهة إلى موقعين كبيرين، وأعلمهما عن تخليه عن الإسلام، ومخططاته في القضاء على دعاته. نجح في أحدهما وأخفق في الآخر.

أما الموقع الأول فهو وجوه اليمن وقياداتها.

عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن العاقب ذو ذود، وسميفع بن ناكور ذو الكلاع، وحوشب ذو ظليم، وشهر ذو يناف. وهؤلاء هم ملوك حمير، و (ذو) بمعنى ملك، ولئن نجح في ضمهم له فقد سارت اليمن وراءه، ولا يستطيع أن يضمهم إليه إلا بأمر خطير ذي بال وهو القضاء على الأبناء وهم الفرس الذين حكموا اليمن مع ذي يزن. وهؤلاء هم حلفاؤه الأدنون، والقضاء عليهم هو قضاء على الإسلام الذي يمثلونه، ففيهم أمير اليمن من رسول الله ﷺ ومن خليفته أبي بكر الصديق، ولم يكن يشك باستجابتهم لدعوته، فالزعامة تقتضي ذلك.

(أرسل إلى ذي الكلاع وأصحابه: إن الأبناء نُزَّاع في بلادكم، ونُقَلاء فيكم، فإن

تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأي أن أقتل رؤساءهم، وأخرجهم من بلادنا...) ولم يكن يعلم أن الخليفة الصديق ﷺ قد سبقه إليهم.

وكتب أبو بكر إليهم:

(من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى عمير بن أفلح ذي مُرَّان، وسعيد بن العاقب ذي ذُود، وسميفع بن ناكور ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشهر ذي يناف. أما بعد؛ فأعينوا الأبناء وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدوا معه، فإني قد وليته).

ومن أجل هذا رفض ملوك حمير الاستجابة لدعوة قيس، لكنهم لم يعلنوا الحرب عليه وقالوا له: لسنا مما هاهنا في شيء، أنت صاحبهم وهم أصحابك.

الموقع الثاني: وهم بقايا جيش العنسي الذين يزرعون الأرض فسادًا يتنقلون ما بين صنعاء ونجران، لم يستسلموا للمسلمين، ولم يجدوا ملجأ يأويهم ينطلقون منه.

(فكاتب قيس تلك الفالَّة السيارة اللحجية، وهم يصعِّدون في البلاد ويصوِّبون محاربين لجميع من خالفهم، فكاتبهم قيس في السر، وأمرهم أن يتعجلوا له، وليكون أمره وأمرهم واحدًا، وليجتمعوا على نفي الأبناء من اليمن، فكتبوا إليه بالاستجابة له، وأخبروه أنهم إليه سراع، فلم يفجأ أهل صنعاء إلا الخبر بِدُنُوِّهِم منها، فأتى قيس فيروز في ذلك كالفَرِق من هذا الخبر، وأتى داذويه، فاستشارهما ليلبس عليهما، ولئلا يتهماه، فنظروا في ذلك واطمأنوا إليه).

وهنا برزت حنكة قيس، فقد أخفى صلاته السرية عن رفاقه الأبناء، وعن فيروز والي رسول اللَّه ﷺ، وأحضر ذلك المدد الضخم وحاصر صنعاء، وأظهر أمام فيروز وداذويه أنه واحد منهم، قد غزي مثلهم بهذه الفالَّة ليطمئنوا إليه.

ونجحت خطته في هذا الجانب، وكان الجانب الثاني من الخطة هو القضاء على قيادات الأبناء الثلاثة غدرًا وفتكًا بهم، وبذلك يخلو له الجو في صنعاء، فيقضي على الأبناء، وتصبح السلطة كلها في قبضته. وحتى هذه اللحظة لم يعلن عداءه وحربه وخروجه على الإسلام.

فشله في القضاء على القيادات:

لقد كان قدر اللَّه وعونه، ووعي فيروز وسرعة مبادرته بعد عون اللَّه له، هو الذي أحبط خطة الفتك به وبأخيه جشيش.

(ثم إن قيسًا دعاهم من الغد إلى طعام فبدأ بداذويه، وَثَنَّى بفيروز، وَثَلَّثَ بجشيش).

هؤلاء الثلاثة الذين قَدَّرَ اللَّه تعالى لهم أن يُنْهُوا الردة الأولى.

فخرج داذويه حتى دخل عليه، فلما دخل عليه عاجله فقتله.

وخرج فيروز يسير حتى إذا دنا سمع امرأتين على سطحين تتحدثان، فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قتل داذويه. فلقيهما، فعاج حتى يرى أوي القوم الذين أربؤوا، فأخبر برجوع فيروز، فخرجوا يركضون، وركض فيروز، وتلقاه جشيش، فخرج معه متوجهًا نحو جبل خولان - وهم أخوال فيروز - فسبقا الخيول إلى الجبل، ثم نزلا فتوقلا وعليهما خفاف ساذجة، فما وصلا حتى تقطعت أقدامهما، فانتهيا إلى خولان، وامتنع فيروز بأخواله، ورجعت الخيول إلى قيس، فثار بصنعاء فأخذها، وجبى ما حولها، مقدمًا رِجْلًا ومؤخرًا أخرى، وأتته خيول الأسود، ولما أوى فيروز إلى أخواله خولان فمنعوه وتأشب إليه الناس، كتب إلى أبي بكر بالخبر، فقال قيس: وما خولان؟ وما فيروز؟ وما قرار أووا إليه...).

لقد كان فيروز ﷺ بطل المواجهة، فمنذ أن أدرك خيانة قيس وقتله لداذويه، عرف أن النجاة الآن هي أكبر إنجاز يقوم به، فإن لم يفلت من قبضة قيس فهذا يعني انتهاء دوره ودور الإسلام في اليمن، فأسرع ينهب الأرض فرارًا إلى أخواله في خولان هو وأخوه جشيش، وأشرع قيس الخيل تلحق به فكان أسرع من الخيل، ووصل إلى المكان الآمن الذي يطمئن إليه. إن الاستفادة من قيم الجاهلية في هذه الظروف هو فقه للبيئة التي يعيش فيها، فلتكن إجارته من أخواله خولان هي نقطة الانطلاق عنده، إن مهمة القائد غير مهمة الجندي، فلو كان فيروز مجرد جندي مقاتل لكان استشهاده هو ذروة السعادة، ولكن فيروز القائد والي رسول اللَّه ﷺ على اليمن له مهمة أخرى أكبر من مهمة الشهادة، إن مهمته أن يقود الجموع ثانية لاسترداد صنعاء التي سيطر عليها قيس والمشركون وأتباع الأسود العنسي، وعليه أن يخطط لذلك انطلاقًا من توجيهات الصديق ﷺ له، ألم يَأْوِ المسلمون إلى الحبشة بضعة عشر عامًا ليكونوا القاعدة الاحتياطية لدولة الإسلام؟ وفي جوار دولة نصرانية غير مسلمة، وكان بالإمكان خلال ساعات أن ينتهوا شهداء في سبيل اللَّه، وهذا فيروز ﷺ وجد الملاذ

الآمن، ووجد نقطة الانطلاق، والركيزة لمواجهة العدو، وبعث الكتاب إلى خليفة رسول اللَّه يخبره بالواقع، ويستمر التوجيه منه، ثم كانت المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: إحباط مخطط العدو بطرد الأبناء من اليمن:

وكما ذكرنا من قبل، فلم يكن قيس بأقل وعيًا وحنكة من فيروز الذي فاته بامتناعه بأخواله خولان، فلا بد من سرعة المبادرة، والقضاء على الأبناء، وإخراجهم من اليمن، ليصبح فيروز مجرد لاجئ سياسي لا هَمَّ له إلا الحفاظ على حياته. فكيف تَصَارع العبقريان؟ ومن انتصر؟

(ورجعت الخيول إلى قيس، فثار بصنعاء فأخذها، وجبى ما حولها، مقدمًا رِجْلًا ومؤخرًا أخرى، وأتته خيول الأسود، ولما أوى فيروز إلى أخواله خولان فمنعوه وتَأَشَّبَ إليه الناس، كتب إلى أبي بكر بالخبر.

فقال قيس: وما خولان؟ وما فيروز؟ وما فرار أووا إليه؟ وطابق على قيس عوام قبائل مَنْ كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين، وعمد قيس إلى الأبناء ففرَّقهم ثلاث فرق:

- أقر من أقام وأقر عياله.
- وفرّق عيال الذين هربوا إلى فيروز فرقتين.
- فوجه إحداهما إلى عدن ليحملوا في البحر وحمل الأخرى في البر.

وقال لهم جميعًا: الحقوا بأرضكم. وَبَعَثَ معهم مَنْ يُسَيِّرُهُم، فكان عيال الديلمي ممن سير في البر، وعيال داذويه ممن سير في البحر)[1].

فقد استغل قيس غياب القائدين - فيروز وجشيش - وقرر تنفيذ مخطط إنهاء وجود الأبناء في اليمن بعد أن أصبح ذا قوة وشوكة بانضمام عَوَامّ أهل اليمن معه، فأبقى الخانعين الذين لم ينضموا إلى فيروز مع عيالهم، وقرر إخراج عائلات المجاهدين عن طريق البر والبحر، وقيس يعرف قيمة الوقت، ويعرف انتهاز الفرص، فنفذ قراره وبعث عيال المهاجرين من يوصلهم إلى البحر، ومن يقودهم خارج اليمن، وظهر على الساحة أن الأمر قد انتهى، ونجحت خطته.

---

(١) تاريخ الطبري (٢٩٧/٢).

الحركة المضادة من فيروز وإحباط مخطط قيس:

(فلما رأى فيروز أن قد اجتمع عوامُّ أهل اليمن على قيس، وأن العيال قد سُيِّروا، وعرضهم للنهب، ولم يجد إلى فراق عسكره في تنقذهم سبيلًا، وبلغه ما قال قيس في استصغاره الأخوال والأبناء، فقال فيروز منتميًا ومفاخرًا وذكر الظُّعن...) (١).

كان الشعر هو السلاح الإعلامي الوحيد في دنيا العرب آنذاك، فقام ابتداء بالتعبئة الإعلامية المناسبة مضادًّا لطروحات قيس في اعتبار الأبناء دخلاء على اليمن وعلى العرب، فأخذ بالمقولة المشهورة التي تقول: إن الديلم أبوهم باسل بن ضبة بن أد، وأد واحد من أجداد النبي ﷺ. فأرومتهم العربية مشهورة، وضبة لا تزال فروعها ممتدة في أنحاء العراق، فأرسل رسالته في الأرض العربية يعلن فيها انتماءه العربي:

وإنا فإن كانت بصنْعَاء دَارُنا ... لنا نسلُ قَومٍ من عَرانِينهم نَسلي
وللديلَمِ الرَّزام مِن بعْدِ باسلٍ ... أَبى الخفض واختَار الحزُورَ علَى الظلِّ
وكانتْ منَابِيتُ العراقِ جِسَامُهَا ... لرهْطِي إذا كِسْرَى مرَاجِلُه تَغلي
وَباسلُ أصْلي إن نَميتُ ومَنْصِبي ... كَما كَلُّ عَوْدٍ مُنتَهاه إلى الأَصلِ
هَمْ تركُوا مجَراي سَهلًا وحصَّنوا ... فِجاجي بِحُسن القَوْل والحسَبِ الجزْلِ (٢)

ثم ها هو يعلن انتماءه الإسلامي كذلك، وفخره بهذا الانتماء، ولا عجب، فهو والي الصديق إلى اليمن، فإذا كانت أرومته عزيزة في الجاهلية، فكيف تكون هذه الأرومة في الإسلام؟

فما عَزَّنَا في الجهْلِ منْ ذِي عدَاوةٍ ... أَبى اللَّهُ إلَّا أن يُعِزَّ علَى الجهْلِ
ولا عَاقنا في السِّلْمِ عَن آل أحْمَد ... ولا خَسَّ في الإسْلَامِ أن أَسْلَموا قبلي
وإن كان سَجْلٌ من قَبيلي أرَشَّني ... فإنِّي لراجٍ أن يغرِّقهم سَجْلي (٣)

فأمجاده الخاليات إن شَحَّتْ فَمَجْدُهُ الأثيل ومناقبه العظمى كفيلة أن تغطي ما فاته من أمجاد قومه.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢٩٧/٢).

المرحلة الثالثة: استعادة صنعاء:

خطة مضادة:

وبعد هذا البيان الإعلامي الذي وزع على اليمن وجوارها:

(قام فيروز في حربه، وتجرد لها، وأرسل إلى بني عقيل بن كعب ربيعة بن عامر ابن صعصعة رسولًا بأنه متحفز بهم، يستمدهم ويستنصرهم في ثَقَلِهِ على الذين يزعجون أثقال الأبناء، وأرسل إلى عك رسولًا يستنصرهم ويستصرخهم على الذين يزعجون أثقال الأبناء، فركبت عُقيل، وعليهم رجل من الحلفاء يقال له: معاوية، فاعترضوا خيل قيس، فتنقذوا أولئك العيال، وقتلوا الذين سيروهم، وقصروا عليهم القرى إلى أن رجع فيروز إلى صنعاء، ووثبت عك وعليهم مسروق، فساروا حتى تنقذوا عيالات الأبناء، وقصروا عليهم القرى إلى أن رجع فيروز إلى صنعاء، وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال، فلما أتته أمدادهم - فيمن كان قد اجتمع إليه - خرج فيمن كان تأشب إليه وَمَنْ أمده من عك وعقيل، فناهد قيسًا، فالتقوا دون صنعاء، فاقتتلوا فهزم اللّٰه قيسًا في قومه، فخرج هاربًا في جنده حتى عاد معهم، وعادوا إلى المكان الذي كانوا به مبادرين حين هربوا بعد مقتل العنسي، وعليهم قيس، وتذبذبت رافضة العنسي، وقيس معهم فيما بين صنعاء ونجران.

وكان عمرو بن معديكرب بإزاء فروة بن مسيك في طاعة العنسي) [١].

لا بد أن يصاحبنا بشكل دائم في رحلتنا مع الفتوحات الإسلامية الارتباط الوثيق بين القبلية والإسلام، بحيث توظف عاطفة القبيلة لخدمة هذا الدين، فبنو عامر بن صعصعة كما مر معنا لم يواجهوا الإسلام بعد وفاة رسول اللّٰه ﷺ، فسيد كعب بن ربيعة هو قرة بن هبيرة، والذي بقي محافظًا على عدم المواجهة مع مسيلمة، لكنه أعلن ولاءه للإسلام، وهو الذي أثنى عليه رسول اللّٰه ﷺ بقوله: « **أفلح مَن رُزق لُبًّا** » [٢]. إلا أن الفرع الثاني من عامر بن صعصعة، وهم كلاب بن ربيعة والذي كان على رأسه علقمة ابن علاثة، تبرأ من رئيسه علقمة حين ارتد، وبنو عُقيل بن كعب بن ربيعة الذين استنجد فيروز بهم برز منهم شخصيات كثيرة، وأهم هذه الشخصيات لقيط بن عامر أبو رزين

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٧).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٩/٣٣) رقم (١٥٧٤١).

الذي وفد على رسول اللَّه ﷺ ولم يشهد تاريخ الوفود في السيرة النبوية وافدًا مثله، والذي قدم لنا أطول حوار على الإطلاق مع رسول اللَّه ﷺ؛ وذلك حرصًا على الفقه في دين اللَّه. ولا نبعد أن يكون هذا الحوار هو الذي جعل بني عُقيل بن كعب أثبت الناس رسوخًا في دين اللَّه، والذي تناوله بنو عقيل، الآباء والأبناء والنساء.

فنحن إذن مع بني عُقيل معقل من معاقل الإسلام، استطاع فيروز رضي الله عنه أن يعرف كيف يستغيث بهم لإنقاذ الأبناء من رهط فيروز، السبايا والأولاد والذين دفعهم قيس إلى الخروج من الجزيرة عن طريق البر، وبنو عقيل بن كعب أقرب ما يكونون منهم.

وتحركت عقيل بشبابها ورجالها وأبطالها مع أحد حلفائهم - معاوية - والذي لا نعرف عنه شيئًا إلا اسمه، وأنقذوا أولئك العيال، وقتلوا الذين سيروهم، واحتفظوا بهم لحين انضمام جيش بني عُقيل إلى فيروز.

أما بنو عك والذين تحدثنا عنهم قريبًا وهم في تهامة على ساحل البحر، والذين ارتدوا وقُمعت ردتهم بسيد بني عك المسلم العظيم مسروق مع الطاهر بن أبي هالة، وهو ابن خديجة رضي الله عنها ، وأصبح مسروق بعد هذا النصر علمًا من أعلام المسلمين، حيث يكتب أبو بكر رضي الله عنه لواليه الطاهر: (بلغني كتابك تخبرني فيه مسيرك واستنفارك مسروقًا وقومه إلى الأخابث بالأعلاب، فقد أصبت، فعاجلوا هذا الضرب ولا ترفهوا عنهم).

لقد جاء النداء مسروق العكي من الطاهر بن أبي هالة قائد جيش الصديق، فكان أول المستجيبين للجهاد في سبيل اللَّه، وها هو يستجيب للنداء الثاني والاستغاثة الثانية من فيروز والي الصديق على اليمن، فكان أول المستجيبين، وتحرك بجشيه نحو الجنوب لينقذ عيال الأبناء من قوم جشيش، وقصروا عليهم القرى وقتلوا الذين سيروهم.

كانت هذه هي **الخطوة الأولى** في تحطيم مخطط قيس، فقد استنقذ الجيش الإسلامي من عُقيل بن كعب، ومن عك سبايا المسلمين من قيادات المرتدين.

أما الخطوة الثانية الأهم فكانت هي استرداد صنعاء؛ لأن الذي يحكم صنعاء هو في النهاية الذي يحكم اليمن، وكان فيروز من العبقرية، وسرعة المبادرة، وقوة التأثير، بحيث لم يستسلم ولم يتخاذل، ولم يَكْتَفِ بنجاته عند أخواله خولان، بل أنقذ المهجرين من قومه أولًا، ثم جمع قواته كلها لغزو صنعاء.

كان قوام جيشه من ثلاثة فصائل إسلامية جمعها تحت قيادة واحدة:

الفصيل الأول: من اجتمع إليه وانضم معه من شباب فارس الذين تركوا صنعاء وقدموا إليه مع مَنْ تحرك من شباب خولان أخواله، مع مَنِ انضم بشخصه إلى هذا التجمع.

الفصيل الثاني: بنو عقيل بن كعب بإمرة حليفهم معاوية.

الفصيل الثالث: بنو عك بإمرة سيدهم مسروق العكي.

وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال، فلما أتته أمدادهم - فيمن كان اجتمع إليه - خرج فيمن كان تأشب إليه وَمَنْ أمده من عك وعقيل، فناهد قيسًا، فالتقوا دون صنعاء، فاقتتلوا، فهزم اللَّه قيسًا في قومه ومن أنهضوا، فخرج هاربًا في جنده ومن معهم، ورجع فيروز إلى صنعاء، وكما ذكرنا من قبل فلم يكن قيس كذلك ممن يستسلم، بل كان خصمًا عنيدًا ومخطِّطًا بارعًا، فلم يَكْتَفِ بالهرب، بل عاد وجمَّع قواته خارج صنعاء، وبقي مع قومه ومع رافضة العنسي يتردد ما بين صنعاء إلى نجران، ويبث الرعب في هذه المواقع ضد المسلمين.

وكان لقيس بن مكشوح حليف قوي، وهو الذي أعلن ردته وانضم للعنسي، وهو عمرو بن معديكرب، لكن كان مقابل هذا الحليف القوي فروة بن مسيك المرادي ﷺ الصحابي الجليل الذي وفد إلى رسول اللَّه ﷺ، كان لعمرو بن معديكرب بالمرصاد، فلا يدعه يغلب أو يتحرك. ومن أجل هذا لم يتمكن عمرو من إمداد قيس أو انضمامه إليه، وفروة وعمرو من قبيل واحد هو بنو مراد، وهكذا أصبحت القوتان المسلمة والمشركة متكافئتين، إلا أن رجحان الكفة الإسلامية في استرداد صنعاء والسيطرة عليها، وهذا مرتكز قوي في المواجهة.

المرحلة الرابعة: وصول الأمداد الإسلامية التي بعثها الصديق وانضمامها لفيروز:

تركنا عكرمة بن أبي جهل، وقد خاض معركة مهرة وحده، وانتصر فيها انتصارًا عظيمًا على عدوه، وجاءته أوامر الصديق ﷺ منذ البداية:

(فإذا فرغتم فامض إلى مهرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمن، حتى تلاقي المهاجر ابن أبي أمية باليمن وبحضرموت، وأوطئ من بين عُمان واليمن، وليبلغني بلاؤك).

وقد بلغه بلاؤه في عمان ومهرة، ومضى إلى اليمن حسب الأوامر: وليكن وجهك منها إلى اليمن... (فخرج عكرمة من مهرة سائرًا نحو اليمن، حتى ورد أبين، ومعه

بَشَرٌ كثير من مهرة، سعد بن زيد، والأزد، وناجية، وعبد القيس، وحدبان من بني مالك بن كنانة، وعمرو بن جندب من العنبر).

هذا هو الجيش الذي تحرك به من مهرة إلى اليمن، لكنه يريد قاعدة يمنية تنضم إلى جيشه، خبيرة بالأرض، وخبيرة بحرب اليمن، فَدُلَّ على النخع، إحدى القبائل اليمنية الكبرى، وكان وفدهم قد جاء إلى رسول الله ﷺ، ودعا لهم (فعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو لهذا الحي من النخع - أو قال: يثني عليهم - حتى تمنيت أني رجل منهم. رواه الإمام أحمد برجال ثقات والبزار والطبراني)[(١)].

(فجمع عكرمة النخَع بعدما أصاب من مدبريهم فقال لهم:

كيف كنتم في هذا الأمر؟

فقالوا له: كنا في الجاهلية أهل دين، لا نتعاطى العرب بعضها من بعض، فكيف بنا إذا صرنا إلى دين عرفنا فضله، ودَخَلَنَا حُبُّه؟!

فسأل عنهم فإذا الأمر كما قالوا، ثبت عوامهم، وهرب من كان فارق من خاصتهم، واستبرأ النخع وحمير، وأقام لاجتماعهم، وأرز قيس بن عبد يغوث المكشوح لهبوط عكرمة إلى اليمن إلى عمرو بن معديكرب...)[(٢)].

وكان هذا هو المدد الأول الذي جاء من جهة شرق اليمن.

وجاء المدد الثاني من شمالها وكان على رأسه المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة.

فمن هذا المهاجر؟

هو أخو أم المؤمنين أم سلمة ؓ.

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي السائب عطاء ابن فلان المخزومي عن أبيه عن أم سلمة والمهاجر بن أبي أمية: أنه كان تخلف عن تبوك، فرجع رسول الله ﷺ وهو عليه عاتب، فبينا أم سلمة تغسل رأس رسول الله ﷺ، قالت: كيف ينفعني شيء وأنت عاتب على أخي[(٣)]؟

فرأت منه رقة، فأومأت إلى خادمها، فدعته، فلم يزل برسول الله ﷺ ينشر عذره

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦٥١/٦). (٢) تاريخ الطبري (٢٩٨/٢).

(٣) قال أبو جعفر الطبري: قد كان أبو بكر ؓ كتب إلى طاهر بن أبي هالة بالنزول إلى صنعاء وإعانة الأبناء، وإلى مسروق، فخرجا حتى أتيا صنعاء. تاريخ الطبري (٢٩٩/٢).

حتى عذره، ورضي عنه، وأمَّرَهُ على كِندة، فاشتكى المرض ولم يطق الذهاب، فكتب إلى زياد ليقوم له على عمله، وبرأ بعد، فأتم له أبو بكر إمرته، وأمره بقتال مَنْ بين نجران إلى أقصى اليمن...).

وما هو قِوام جيش المهاجر بن أبي أمية ﷺ؟ وذلك بعد أن عرفنا قوام جيش عكرمة.

يقول الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن المستنير بن يزيد عن عروة عن غزية وموسى عن أبي زُرعة السيباني قال:

ولما فصل المهاجر بن أبي أمية من عند أبي بكر - وكان آخر من فصل - اتخذ مكة طريقًا فمر بها، فاتبعه خالد بن أسيد، ومر بالطائف فاتبعه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم مضى، حتى إذا حاذى جرير بن عبد اللَّه ضمه إليه، وانضم إليه عبد اللَّه بن ثور حين حاذاه، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك...).

إذن قد انضم إليه خمس من القيادات الشابة بمن معهم، فكانوا هم قوام جيش المهاجر، فقد كان عتاب بن أسيد ﷺ هو والي رسول اللَّه ﷺ ووالي أبي بكر ﷺ على مكة، فبعث معه أخاه خالد بن أسيد مع مجموعة من المجاهدين، وكان عثمان ابن أبي العاص الفتى المسلم هو والي رسول اللَّه ﷺ ووالي أبي بكر الصديق على الطائف، فبعث أخاه عبد الرحمن بن أبي العاص مع ثلة من المجاهدين لينضموا للمهاجر ﷺ.

وانضم إليه جرير بن عبد اللَّه البجلي سيد قومه مع المجاهدين المسلمين من قومه، وانضم إليه عبد اللَّه بن ثور حين حاذاه.

(وكتب أبو بكر إلى عبد اللَّه بن ثور بن أصغر بأن يجمع إليه العرب، ومن استجاب له من أهل تهامة، ثم يقيم مكانه حتى يأتيه أمره).

وجاء الأمر بأن ينضم ومن معه إلى جيش المهاجر بن أبي أمية ﷺ.

وهكذا صار عندنا ثلاثة جيوش إسلامية:

الجيش الأول على رأسه فيروز ﷺ، ومن انضم إليه من المسلمين وطلائع عقيل ابن كعب بن ربيعة وطلائع عك بقيادة مسروق والطاهر بن أبي هالة.

والجيش الثاني على رأسه عكرمة بن أبي جهل ومعه من قبائل المسلمين بشر كثير

من مهرة، وسعد بن زيد، والأزد، وناجية، وعبد القيس، وحدبان من بني مالك ابن كنانة، وعمرو بن جندب بن العنبر، وقبيلة النخع المباركة.

وكان الجيش الثالث على رأسه المهاجر بن أبي أمية، ومعه المجاهدون من مكة وثقيف وتهامة وبجيلة بقياداتها العظيمة.

فأطبق الإسلام برجاله من أقصى الجزيرة شرقيها وغربيها ليواجه الكفر الذي قاده قيس ابن عبد يغوث، مع من أطبق معه من اليمن، ولا بد لنا قبل أن نتحدث عن النهاية العظيمة بالنصر أن نبرز القائد الثاني في اليمن الذي قاد جحافل الكفر ضد المسلمين وهو:

عمرو بن معديكرب:

وهو الفارس البطل المشهور في الجاهلية والإسلام، والشاعر المجيد كذلك.

(وكان عمرو بن معديكرب قد فارق قومه سعد العشيرة في بني زبيد وأخلافها وانحاز إليهم وأسلم معهم، فكان فيهم، فلما ارتد العنسي، واتبعه عوامٌّ مذحج، اعتزل فروة فيمن أقام معه على الإسلام، وارتد عمرو فيمن ارتد، فخلفه العنسي، فجعله بإزاء فروة، فكان بحياله، ويمتنع كل واحد منهما لمكان صاحبه من البراح، فكانا يتهاديان الشعر، فقال عمرو يذكر إمارة فروة ويعيبها:

وجدنا ملك فروة شر ملك ... حمارًا ساف منخره بقذر
وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحولاء من خبث وغدر

فأجابه فروة الصحابي العظيم:

أتاني عن أبي ثور كلام ... وقدمًا كان في الإيغال يجري
وكان اللَّه يبغضه قديمًا ... على ما كان من خبث وغدر) [1]

(وكان أول ردة عمرو بن معديكرب أنه كان مع خالد بن سعيد، فخالفه واستجاب للأسود، فسار إليه خالد بن سعيد حتى لقيه، فاختلفا ضربتين، فضربه خالد على عاتقه، فقطع حمالة سيفه فوقع، ووصلت الضربة إلى عاتقه، وضربه عمرو فلم يصنع شيئًا، فلما أراد خالد أن يثني عليه، نزل فتوقل في الجبل وسلبه فرسه وسيفه الصمصامة، ولحج عمرو فيمن لحج) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٨).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٩٩).

المرحلة الخامسة: استسلام المرتدين:

بعد وصول الجيوش الإسلامية كان القائدان الكبيران اللذان يمثلان الشرك والردة هما عمرو بن معديكرب، وقيس بن عبد يغوث، وكلاهما زعيم كبير في قومه، وبعد أن انضم فروة بن مسيك ﷺ إلى الجيوش الإسلامية لم يكن لدى قيس وعمرو إلا توحيد كلمتهما لمهاجمة ومواجهة هذه الجيوش الجرارة، فسرعان ما انضما إلى بعضهما، ولكن سرعان ما افترقا، فلمن تكون الزعامة؟ ومن يطيع الآخر؟ رغم معرفتهما أن خلافهما سيقود إلى دمار معسكر الشرك كله، تمامًا كما رأينا من قبل مع شخريت والمصبح، فتتكرر الصورة هنا ثانية.

(وأرز قيس بن عبد يغوث لهبوط عكرمة إلى اليمن إلى عمرو بن معديكرب، فلما ضامَّهُ وقع بينهما تنازع، فتعايرا، فقال عمرو بن معديكرب يعير قيسًا غدره بالأبناء، وقتله داذويه، ويذكر فراره من فيروز:

غدرت ولم تُحسِن وفاءً ولم يكن ... ليحتمل الأسباب إلا المعوَّدُ
وكيف لقيس أن ينوِّط نفسه[1] ... إذا ما جرى والمضرجي المسوَّدُ[2]

وقال قيس:

وفيت لقومي واحتشدت لمعشرٍ ... أصابوا على الأيام عَمْرًا ومرثدا
وكنتُ لدى الأبناء لما لقيتهم ... كأصيد[3] يسمو بالعزازة[4] أصيدا

وقال عمرو بن معديكرب:

فما إن داذوي لكم بفخرٍ ... ولكن داذوي فضح الذمارا
وفيروز غداه أصاب فيكم ... وأضرب في جموعكم استجارا

(ثم قدم - أي المهاجر بن أبي أمية - على أهل نجران، فانضم إليه فروة بن مسيك، وفارق عمرو بن معديكرب قيسًا، وأقبل مستجيبًا، حتى دخل على المهاجر من غير أمان فأوثقه المهاجر، وأوثق قيسًا، وكتب بحالهما إلى أبي بكر ﷺ، وبعث

---

(١) ينوِّط نفسه: يهلك نفسه وهو يعيره بفراره من حرب فيروز، فلن يهلك نفسه، إنما يفر حين يكون السلاح هو الحكم.

(٢) المضرجي المسود: الحرب السائدة. (٣) أصيد: كريم يعتز بأصله الصيد.

(٤) العزازة: العز والمجد.

بهما إليه، فلما سار المهاجر من نجران إلى اللحجية والتفَّت الخيول على تلك الفالة استأمنوا فأبى أن يؤمنهم، فافترقوا فرقتين، فلقي المهاجر إحداهما بعجيب، فأتى عليهم، ولقيت خيوله الأخرى بطريق الأخابث، فأتوا عليهم - وعلى الخيول عبد اللَّه - وقتل الشرداء بكل سبيل، فقُدِّم بقيس وعمرو على أبي بكر، فقال:

يا قيس، أغدوت على عباد اللَّه تقتلهم، وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين، وهَمَّ بقتله لو وجد أمرًا جليًّا، وانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داذويه شيئًا، وكان ذلك عملًا عُمِل في سِرٍّ لم يكن به بينة، فتجافى له عن دمه.

وقال لعمرو بن معديكرب:

أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نَصَرْتَ هذا الدين لرفعك اللَّه. ثم خَلَّى سبيله، وردهما إلى عشائرهما. وقال عمرو:

لا جرم لأقبلن ولا أعود)

يقول الطبري: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف، عن المستنير وموسى قالا:

سار المهاجر من عجيب حتى ينزل صنعاء، وأمر أن يتبعوا شُذَّاذ القبائل الذين هربوا فقتلوا من قدروا عليه منهم كل قتلة، ولم يُعفِ متمردًا، وقبل توبة من أناب من غير المتمردة، وعملوا في ذلك على قدْر ما رأوا من آثارهم، ورجوا عندهم، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء، وبالذي يتبع من ذلك)[1].

ما أحوجنا إلى أن نفقه هذه السياسة الإسلامية في السلم وفي الحرب، حيث نعرف من خلالها أن الإسلام هدفه هداية البشر قبل قتلهم، لكنه لن يستسلم للمجرمين والعصابات الذين يريدون أن يقودوا الناس إلى الدمار والنار.

ففي شرعة الحرب نعلم أن عمرو بن معديكرب وقيس بن عبد يغوث هما قادة التمرد والردة، والأصل أن يقتلا ويصلبا، فقد استسلما دون أمان، وفي قتلهما قَمْعٌ للمرتدين والمشركين، هذه هي النظرة العجلى للأمر، والتراخي معهما يعني عند المتسرعين تخاذلًا في دين اللَّه، ومحاباةً للجاهلية، وإعطاءً للدنية في الدين. والآية صريحة في ذلك: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن

---

(١) تاريخ الطبري (٢٩٩/٢).

يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فالردة والتمرد الذي استمر ثلاث سنوات، وأمكن اللَّه منهما بغير عقد ولا عهد - كان هذا كافيًا لذبحهما أو صلبهما؛ ليعتبر الناس بذلك.

هذا صحيح، لكننا نحن أمام جند اللَّه، وأما الجيل الذي رَبَّاه رسول اللَّه ﷺ، ومضى في الأرض ليحكم الأرض بالدين والعدل، فالإمام هو صاحب القرار في النهاية، وكان بإمكان المهاجر بن أبي أمية رضي الله عنه أن يقتلهما أو يصلبهما على باب صنعاء، أو يقطِّع أيديهم وأرجلهم من خِلَاف، ولكن الروح النبوية التي تَجَلَّتْ لدى المهاجر والقيادات الإسلامية التي معه، اكتفت بأن توثقهما، وتبعثهما إلى الصديق ليُنفذ رأيه فيهما، وقد وثقا بدون أمان.

ونعود معهما إلى خليفة رسول اللَّه ﷺ رضي الله عنه..

كان يمكن أن يبعث برأسيهما ليوضعا على باب المسجد النبوي، أو أن يفعل ذلك الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بهما ذلك ليرى كُلُّ مَنْ تُسَوِّلُ له نفسه أن يتمرد أو يرتد أو يثور مَغَبَّةَ عمله، ونتيجة عصيانه وتمرده، لكن الصِّديق الذي اهتدى بهدي النبوة، والذي رأى رسول اللَّه ﷺ في فتح مكة وفي غزوة حنين، وكيف تألف قادة الشرك، وتعامل مع قلوبهم حتى أصاخوا لهذا الدين.. أبو بكر ومن معه من جند اللَّه - يعرفون الفقه السياسي لهذا الدين.

فبمقدار ما يتحقق من إرهاب للمتمردين والثائرين في قتلهما، لكن بمقدار ما تصبح اليمن في قبائلها الكبار تحمل الحقد والضغينة والثورة على الإسلام ثأرًا لهذين القائدين، وتتعبأ النفوس كلها ضد الإسلام، وهذا ما لا يريده اللَّه تعالى لدينه، ولم يبعث به رسول اللَّه ﷺ، إنما هو الرحمة المهداة للبشرية.

لقد حاكمهما الصديق رضي الله عنه، وكان بإمكانه قتل قيس بن عبد يغوث بداذويه الذي قتله به وغدر به غيلة، لكن البينة لم تكن كافية على ذلك، فلم يقتل به، واكتفى بتبكيتهما وتذكيرهما بهذا الدين، والموقع الأنسب لهم، وأن يقودا اليمن إلى الخير، وأطلق سبيلهما، فهو يعرف فقه هذه النفوس، وانتهت ردة اليمن، وصارا من أعظم

أركان الإسلام فيها فيما بعد، وقتلا الثائرين والمرتدين والقاتلين للمؤمنين، وَأَمَّنَا مَنْ لم يكن قد خرج على الإسلام ودولته، وانتهت ردة اليمن إلى الأبد.

وَتَحَوَّلَ هذان الزعيمان العظيمان إلى دعاة إلى اللَّه ﷻ ومجاهدين في سبيله.

ما أحوجنا إلى مثل هذه الوقفات في مسيرة الفتوحات؛ لنعلم أي جيل يتحرك لتحرير البشرية من ظلامها وظلماتها، هذا الجيل الذي عزَّ نظيره في القيادات والفتوحات والمواجهات.

* * *
* *
*

الفصل الحادي عشر

إنهاء ردة حضرموت

لقد كانت خارطة حضرموت مُقَسَّمَةً إلى **ثلاث مناطق رئيسية:**

١ - **حضرموت:** وعليها زياد بن لبيد البياضي، وهو أنصاري.

٢ - **السكاسك والسكون:** وعليها عكاشة بن محصن الأسدي من المهاجرين الأولين.

٣ - **كندة:** وَوُلِّيَ عليها لرسول الله ﷺ ثم الصِّدِّيق مِنْ بعده المهاجر بن أبي أمية.

(قال أبو جعفر: كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن الصلت عن كُثَيِّر بن الصلت قال: مات رسول الله ﷺ وَعُمَّالُه على بلاد حضرموت: زياد بن لبيد البياضي على حضرموت، وعكاشة بن محصن على السكاسك والسكون، والمهاجر على كندة، وكان بالمدينة لم يكن يخرج حتى توفي رسول الله ﷺ فبعثه أبو بكر بعد إلى قتال مَنْ في اليمن، والمضي بعد إلى عمله) [١].

فكندة إذن كان زياد بن لبيد أميرها بالوكالة؛ لتأخر المهاجر في الوصول إليها، وأراد الصديق ﷺ أن يختبر المهاجر بالجهاد قبل الولاية، (فأمره بقتال مَنْ بين نجران إلى أقصى اليمن؛ ولذلك أبطأ زياد وعكاشة عن مناجزة كندة انتظارًا له) [٢].

الرِّدَّةُ الأولى:

حيث استجاب الكنديون لدعوة الأسْود العنسي، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس الكندي، والملوك الأربعة، وهم إخوة، وكانوا على رأس بني عمرو بن معاوية الفرع الكبير من كندة، بينما كان الأشعث على رأس الفرع الثاني منها وهم بنو الحارث ابن معاوية، وحتى انتهت ردة الأسود العنسي في حياة رسول الله ﷺ، وبقيت كندة بفرعيها في حصونها تنتظر المهاجر بن أبي أمية واليها أن يصل إليها.

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٠٠).

أزمة كندة واستقصاؤها قَبْلَ قدوم المهاجر:

وكانت السياسة النبوية تقوم على كسر الحواجز بين هذه المناطق الثلاث بعد أن جمع بينها الإسلام، فـ (أمر رسول اللّٰه ﷺ بما يوضع من الصدقات أن يوضع صدقة بعض حضرموت في كِندة، وتوضع صدقة كندة في بعض حضرموت، وبعض حضرموت في السكون، والسكون في بعض حضرموت، فقال نفر من بني وليعة (من كندة):

يا رسول اللّٰه، إنا لسنا بأصحاب إبل، فإن رأيت أن يبعثوا إلينا بذلك على ظهر؟ (أي: على ظهر إبل). قال: « **فإن رأيتم!** »، قالوا: فإنا ننظر، فإن لم يكن ظهر فعلنا.

فلما توفي رسول اللّٰه ﷺ، وجاء ذلك الإبان [١]، دعا زياد الناس إلى ذلك، فحضروه، فقالت بنو وليعة: أبلغونا كما وعدتم رسول اللّٰه ﷺ. فقالوا: إن لكم ظهرًا فهلموا فاحتملوا [٢]. ولاحَوْهم [٣] حتى لاحوا زيادًا، وقالوا له: أنت معهم علينا. فأبى الحضرميون، ولجَّ الكنديون، فرجعوا إلى دارهم، وقَدَّموا رِجْلًا، وَأَخَّرُوا أخرى، وأمسك عنهم زياد انتظارًا للمهاجر) [٤].

المهاجر في صنعاء، وعكرمة في أبين:

لقد نَفَّذَ القائد العظيم المهاجر مهمته في تطهير اليمن من الردة كما أمره الصديق رضي الله عنه (فلما قدم المهاجر صنعاء، كتب إلى أبي بكر بكل الذي صنع، وأقام حتى قدم عليه جواب كتابه مِنْ قِبَلِ أبي بكر، فكتب إليه أبو بكر وإلى عكرمة أن يسيرا حتى يقدما حضرموت، « وَأَقِرَّ زيادًا على عمله، وَأْذَنْ لمن معك مِنْ بين مكة واليمن في القُفْل إلا أن يُؤْثِرَ قومٌ الجهاد، وأَيِّدْه بعبيدة بن سعد ». ففعل.

فسار المهاجر من صنعاء يريد حضرموت، وسار عِكرمة من أبين يريد حضرموت، فالتقيا بمأرب، ثم فوَّزا من صهيد، حتى اقتحما حضرموت، فنزل أحدهما على الأشعث والآخر على وائل) [٥]. لم تبدأ الردة بحضرموت بعد وفاة رسول اللّٰه ﷺ مباشرة، لكن آثار الردة السابقة لم تزل قائمة بعد، والأشعث بن قيس مع الملوك

---

(١) الإبان: الوقت.

(٢) احتملوا، أي: خذوا صدقاتكم على إبلكم.

(٣) لاحَوْهم: نازعوهم وخاصموهم.

(٤، ٥) تاريخ الطبري (٢/٣٠٠).

الأربعة يتظاهرون بقبول الحكم الإسلامي، وأدرك الصِّديق بنفاذ فكره أن كندة إن عاجلًا وإن آجلًا لن يثبتوا على الإسلام، ويقبلوا الحكم الإسلامي، فقد كانت كندة ملوك العرب، ونعرف أن حجرًا الكندي وضع أولاده الأربعة ملوكًا على قبائل العرب، وأن إحدى تلك القبائل قتلته، فقامت حرب من أعنف الحروب من أجله، وكيف أن امرأ القيس الكندي الشاعر الأمير، مضى إلى ملك الروم يستنجده بمدد منه لحرب العرب الذين قتلوا أباه، وظهرت للصديق ﷺ أمارات تفيد ببوادر هذا العصيان الذي ذكرنا إحدى صوره السابقة، ثم كانت أزمة الناقة.

الأزمة الثانية في كندة:

وكانت قبل وصول المهاجر ﷺ إلى مركز عمله في كندة، فقد كان زياد ﷺ هو الذي يأخذ صدقات بني عمرو بن معاوية في كندة، واختلف مع أحدهم حول ناقة اسمها شذرة دخلت خطأً في الصدقات، ولأنها ناقة جيدة أراد صاحبها أن يحتفظ بها، فرفض زياد ﷺ ذلك بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة، وخاف زياد من التساهل في حق اللَّه أن يقود إلى طمع عند كندة.

(... وقال زياد: لا ولا تنعم، ولا هي لك، لقد وقع عليها ميسم الصدقة، وصارت في حق اللَّه، ولا سبيل إلى ردها، فلا تكون شذرة عليكم كالبسوس. فنادى العداء: يا آل عمرو، بالرياض أُضَامُ وأُضطهد، إن الذليل من أكل في داره. ونادى: يا أبا السميط، فأقبل أبو السميط حارثة بن سراقة بن معديكرب، فقصد لزياد بن لبيد وهو واقف، فقال: أطلق لهذا الفتى بكرته، وخذ بعيرًا مكانها، فإنما بعير مكان بعير. فقال: ما إلى ذلك من سبيل! فقال: ذلك إذا كنت يهوديًّا. وعاج إليها، فأطلق عقالها، ثم ضرب على جنبها، فبعثها وقام دونها وهو يقول:

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمَّع كما يُلَمَّعُ الثوب

فأمر به زياد شبابًا من حضرموت والسكون فمغثوه [1] ووطئوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وارتهنوهم وأخذوا البكرة فعقلوها كما كانت...

وتصايح أهل الرياض، وتنادوا، وغضبت بنو معاوية لحارثة، وأظهروا أمرهم،

---

(١) مغثوه: ضربوه ضربًا غير شديد.

وغضبت السكون لزياد، وغضبت له حضرموت، وقاموا جميعًا دونه، وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء وهؤلاء، لا تحدث بنو معاوية شيئًا لمكان أسرائهم شيئًا، ولا يجد أصحاب زياد على بني معاوية سبيلًا يتعلقون به عليهم، فأرسل إليهم زياد:

إما أن تضعوا السلاح، وإما أن تؤذنوا بحرب.

فقالوا: لا نضع السلاح أبدًا حتى ترسلوا أصحابنا.

فقال زياد: لا يرسلون أبدًا حتى ترفضوا وأنتم صغرة قمأة يا أخابث الناس، ألستم سكان حضرموت وجيران السكون؟ فما عسيتم أن تكونوا وتصنعوا في دار حضرموت؟

وقالت له السكون: ناهد القوم فإنه لا يفطمهم إلا ذلك.

فنهد إليهم ليلًا، فقتل منهم، وطاروا عباديد، ونقل زياد حين أصبح في عسكرهم:

وكنت امرأً لا أبعث الحرب ظالمًا　　　فلما أَبَوْا سامحت في حرب حاطب

ولما هرب القوم خلَّى عن النفر الثلاثة، ورجع زياد إلى منزله على الظفر) (١).

لقد اعتاد القوم على الحياة الجاهلية وعلى سلطة القبيلة، والانتقال من هذه الحياة إلى دولة مدنية ذات سيادة على أبنائها هو من الصعوبة بمكان، فكندة لا تضام، وقد اعتادت على أن تحكم الناس وتتحكم في رقابهم، وتكون لها السلطة القاهرة، فكيف تخضع لحاكم فوقها؟ أرادت من جهة ثانية أن تُحَوِّل الحرب صراعًا بين قبيلتين، وليس احتكامًا إلى شرعة اللَّه أو شرعة العبيد، فهذه صورة من صور شرفهم في الجاهلية.

(كان الحارث بن عمرو الكندي ملكًا على الحيرة، ثم تفاسدت القبائل من نزار، فأتاه أشرافهم فقالوا: إنا في دينك، ونخاف أن نتفانى فيما يحدث بيننا، فوجِّه منا من بنيك ينزلون فينا، فينكفون بعضنا عن بعض.

فَفَرَّقَ ولده في قبائل العرب، فملَّك ابنه حجرًا على بني أسد وغطفان، وملّك ابنه شُرحبيل على بكر بأسرها وبني حنظلة بن مالك والرباب، وملّك ابنه معديكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة، وطوائف من بني دارم والصنائع، وملّك ابنه عبد اللَّه على عبد القيس، وملك ابنه سلمة على قيس...) (٢).

---

(١) تاريخ الطبري (٣٠١/٢).

(٢) أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى بك وزملائه (ص ١١٢ - ١١٤) مقتطفات.

وعندما أخطأت بنو أسد بمنعها الأتاوة السنوية له (أخذ سراتهم، وجعل يقتلهم بالعصا، وأباح الأموال، وصيرهم إلى تهامة، وآلى باللَّه ألا يساكنوهم في بلد أبدًا، وحبس جماعة من أشرافهم) (١).

(وكان اعتذار الشاعر عبيد بن الأبرص باسمهم يمثل صورة الخضوع الكامل لهم والعبودية لسلطانهم، حيث يقول:

إما تركْتَ تركْتَ عفوًا ... أو قتَلْتَ فَلَا ملَامة

أنتَ المليكُ عليهمُ ... وهُمُ العبيدُ إلَى القِيَامة

ذَلُّوا لسوطِك مثلما ... ذل الأشَيْقِر ذُو الخزَامة) (٢)

ولقد أدرك زياد ﷺ هذه المعاني، فلن يقبل التطاول على سلطان اللَّه حتى بتغيير ناقة مكان ناقة، كما قال الصديق ﷺ حين فتح العرب على مانعي الزكاة:

(واللَّه، لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول اللَّه لقاتلتهم عليه).

وفي رواية: (لو منعوني عناقًا).

ولا شك أن الناقة شذرة أهم من العناق.

وحين تجاوز بعض رجالات كندة سلطان اللَّه، وأطلق الناقة، تمت عقوبته مباشرة، فأخذوه وضربوه وأسروه مع من شاركه.

وكانت الحرب، حيث أعلنت كندة رسميًّا المواجهة للإسلام وجيش الإسلام، كانت مطالبتهم إطلاق الأسرى، وتطفأ نار الفتنة، ولو قبل زياد ﷺ هذه المساومة فعليه أن يلقى كل يوم مثل هذا التجاوز ليرضى غزو كِندة، فكان الموقف الحازم هو الحل إذا ألقوا السلاح وتراجعوا عن المواجهة، وخضعوا لشريعة اللَّه، فيمكن إطلاق الأسارى، أما فرض ذلك بالقوة فهذا وَهَنٌ في دين اللَّه.

وكانت المواجهة، وكانت هزيمة كندة، وتفرق الجيش هاربًا في كل فَجٍّ، وعندئذ أطلق زياد ﷺ سراح الأسرى.

النفرة الثانية، الأزمة الثالثة:

(ولما هرب القوم تخلى عن النفر الثلاثة، ورجع زياد إلى منزله على الظفر،

(١ ، ٢) أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى بك وزملائه (ص ١١٢ - ١١٤) مقتطفات.

ولما رجع الأسراء إلى أصحابهم ذمروهم فتذامروا، وقالوا: لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين. فأجمعوا وعسكروا جميعًا، وتنادوا بمنع الصدقة، فتركهم زياد، لم يخرج إليهم، وتركوا المسير إليه، وأرسل إليهم الحصين بن نمير، فما زال يسفر بينهم وبين زياد وحضرموت والسكون حتى سكن بعضهم عن بعض. وهذه النفرة الثانية، وقال السكوني في ذلك:

لعمْري وما عَمْري بعُرضة جَانب ... ليجتلِبَنّ مِنها المرارَ بَنُو عمرو

كذبتُم وبَيتِ اللَّه لا تمنعُونَها ... زِيادًا وقد جِئنا زِيادًا علَى قدرِ

فأقاموا بعد ذلك يسيرًا) (١).

الامتناع في المحاجر، الأزمة الرابعة:

(ثم إن بني عمرو بن معاوية خصوصًا خرجوا إلى المحاجر، إلى أحماء حموها. فنزل جمدُ محجرًا، ويخوص محجرًا، ويشرحُ محجرًا، وأبضعة محجرًا، وأختهم العمردة محجرًا، وكانت بنو عمرو بن معاوية على هؤلاء الرؤساء).

فهؤلاء الملوك الأربعة وأختهم، وهم الذين لعنهم رسول اللَّه ﷺ لانضمامهم إلى الأسود العنسي في الردة الأولى.

وهؤلاء هم الفرع الأول من كندة، وتجاوب الفرع الثاني من كِندة بنو الحارث ابن معاوية فساروا على خطا إخوانهم.

(ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها، فنزل الأشعث بن قيس محجرًا، والسمط بن الأسود محجرًا، وطابقت معاوية كلها على منع الصدقة، وأجمعوا على الردة إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه، فإنهما قاما في معاوية فقالا:

واللَّه، إن هذا لقبيح بأقوام أحرار التنقل، إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف بالرجوع عن الجميل، وعن الحق إلى الباطل والقبيح؟ اللَّهمَّ إنا لا نمالئ قومنا على هذا، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا - يعني يوم البكرة ويوم النفرة - وخرج شرحبيل بن السمط، وابنه السمط، حتى أتيا زياد بن لبيد فانضما إليه) (٢).

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٠٢/٢).

فإذن لم يعلن إسلامه ورفضه الردة إلا شُرحبيل بن السمط وابنه، مع أن الأشعث ابن قيس حين وفد إلى المدينة في عهد رسول الله ﷺ، وفد في ثمانين راكبًا، وأعلنوا إسلامهم. والعجيب أن لا ينضم للجيش الإسلامي من كندة إلا هذان الرجلان.

(وخرج ابن صالح وامرؤ القيس بن عابس حتى أتيا زيادًا فقالا له:

بيِّت القوم، فإن أقوامًا من السكاسك قد انضموا إليهم، وقد تسرَّع إليهم قوم من السكون، وشُذَّاذ من حضرموت، لعلنا نوقع بينهم وقعة تورث بيننا عداوة، وتفرِّق بيننا، إن أَبَيْتَ خشينا أن يَرْفَضَّ الناس عَنَّا إليهم، والقوم غارون لمكان من أتاهم، راجون لمن بقي...) (١).

لقد كان الجيش الإسلامي قوامه من السكاسك والسكون وأهل حضرموت، لكن عندما أعلنت كندة منع الصدقة لاقى هذا هوًى في ضعاف الناس، لعلهم يُعفون منها، فأخذ هؤلاء يتسللون سرًّا لبني كندة وينضمون إليهم.

وسرعة المبادرة في هذه المرحلة هي الفرق بين القائد العبقري والقائد العادي، فقد أدرك مستشارو زياد ﷺ أن عدم المواجهة مع كندة سوف يُطمِع الكثيرين بالانضمام إليهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فكندة تريد أن ترجئ المواجهة على أن ينضم إليها الكثير من السكاسك والسكون والحضارمة، وسمع زياد ﷺ لمستشاريه، واهتبل الفرصة، وانقضَّ بجيشه على كندة في محاجرها، مبتدئًا ببني عمرو بن معاوية، الذين لا يزالون يعدُّون العدة، ويجمِّعون الكتائب. ولم يخطر ببالهم أن الحرب ستقع في التَّوِّ، فهم العصاة، وهم الذين يقررون اللحظة المناسبة للمواجهة، فجاءهم والجيش وهم يتفكهون في حديثهم حول النار يتدفؤون بها.

(فقال: شأنكم. فجمعوا جمعهم، فطرقوهم في محاجرهم، فوجدوهم حول نيرانهم جلوسًا، فعرفوا من يريدون، فأكبوا على بني عمرو بن معاوية، وهم عدد القوم وشوكتهم من خمسة أوجه في خمس فرق، فأصابوا مشرحًا وفحوصًا وجمدًا وأبضعة، وأختهم العمردة أدركتهم اللعنة فقتلوا فأكثروا، وهرب من أطاق، ووُهنت بنو عمرو بن معاوية، فلم يأتوا بخير بعدها، وانكفأ زياد بالسبي والأموال) (٢).

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٠٢/٢).

لقد أنهى زياد ﷺ قوة بني عمرو بن معاوية بقتل ملوكهم الأربعة، وآلت القيادة كلها للأشعث بن قيس، حيث انضم بنو عمرو بن معاوية من أطاق منهم الفرار أو يحمل مرجل الحقد على المسلمين إلى بني الحارث بن معاوية، لكن هذا الانضمام كان بسبب مباشر أراد الأشعث أن يستعرض فيه عضلاته، فأخذ السبي من المسلمين.

معركة محجر الزرقان:

(... وانكفأ زياد بالسبي والأموال، وأخذوا طريقًا يفضي بهم إلى عسكر الأشعث وبني الحارث بن معاوية، فلما مروا بهم فيه استغاث نسوة بني عمرو ابن معاوية ببني الحارث ونادينه: يا أشعث، يا أشعث! خالاتك، خالاتك! فثار في بني الحارث بن معاوية فتنقذهم – وهذه الثالثة – وقال الأشعث:

منعت بني عمرو وقد جاء جمعهم بأمعز (١) من يوم البضيض وأصبرا) (٢)

لقد كان المسلمون يتجنبون المواجهة مع الأشعث وقومه بني الحارث بن معاوية، ما استطاعوا سبيلًا إلى ذلك، ولا زالوا يأملون أن يراجع الأشعث مواقفه، ويتحرك ضميره الإيماني الذي تكون يوم ذلك اللقاء في المدينة، لكن الأشعث دخل هنا طرفًا مباشرًا في المعركة وأدرك عقابيل موقفه.

(وعلم الأشعث أن زيادًا وجنده إذا بلغهم ذلك لم يقلعوا عنه ولا عن بني الحارث ابن معاوية، وبني عمرو بن معاوية، فجمع إليه بني الحارث بن معاوية، وبني عمرو ابن معاوية، ومن أطاعه من السكاسك والسكون، والخصائص من قبائل ما حولهم.

وتباين لهذه الوقعة مَنْ بحضرموت من القبائل، فثبت أصحاب زياد على طاعة زياد، ولُجت كندة) (٣).

لقد تمزقت حضرموت، وتحول التجمع قبليًا بحتًا حين (تباينت القبائل)، وبهذه الصيغة غدا زياد ﷺ أقلية بمن معه، فليس معه إلا السكاسك والسكون إلا من فر منهم أو انضم إلى الأشعث، فرأى زياد أن الأوان قد آن للاستنجاد بالمهاجر ﷺ، والذي هو الوالي الأصلي على كندة، وهو القائد المقرر للمواجهة، وكان زياد ﷺ يتباطأ بالمواجهة انتظارًا لوصول أخيه المهاجر، وبعد أن طهر المهاجر صنعاء وما حولها،

---

(١) بأمعز: بأشد.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٠٢).

ووصل إلى مأرب مع جيش عكرمة، كان الأساس أن ينطلق الجيشان إلى حضرموت مددًا لزياد الذي رأيناه وحده في الميدان ولا قائد سواه.

(فلما تباينت القبائل كتب زياد إلى المهاجر، وكاتبه الناس فتلقاه بالكتاب، وقد قطع صهيد مفازة ما بين مأرب وحضرموت، واستخلف على الجيش عكرمة، وتعجل في سرعان الناس، ثم سار حتى قدم على زياد، فنهد إلى كِندة، وعليهم الأشعث، فالتقوا بمحجر الزرقان، فاقتتلوا به، فهزمت كندة، وقتلت، وخرجوا هرابًا، فالتجأت إلى النجير وقد رمُّوه [١] وحصنوه. وقال في يوم محجر الزرقان المهاجر:

كُنا بزرقَان إذ يشرِّدُكُمْ ... بحرٌ يزَجّي في مَوجه الحطبا
نحْن قتلنَاكُمُ بمحجَرِكم ... حتَّى ركبتم من خَوفنا السببا [٢]
إلى حِصَار يكونُ أهونُهُ ... سَبْيُ الذرارِي وسوقُها خَببًا [٣]) [٤]

وهذا المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة ﷺ في عرينه الذي وصل إليه بعد أن طهر اليمن من الشرك ليتم أمجاده بتطهير حضرموت، وسرعان ما التقى بالأشعث بن قيس الذي جمع الجيش الجرار، فإذا بزياد وجيشه، والمهاجر بجيشه، يضيقان الخناق عليه وعلى قومه، فما هي إلا ساعات، وينهزم الأشعث بجيشه يلوذون بالفرار إلى آخر معقل لهم النجير، وهو الحصن الذي أعدوه لمثل هذه النهاية فرموه وأصلحوه، وتحركت جيوش المسلمين خلفهم تحاصرهم فيه، ولم يَنْسَ المهاجر ﷺ أن يبلغ رسالته الإعلامية للأشعث وجنده بعد أن أبلغهم رسالته الحربية، وأكد له أن المصير محتوم، فقد حصرتم أنفسكم في النجير، وأهون ما في هذا الحصار أخذ سباياكم يمشون خببًا خائفين يتجرعون ذل الهزيمة.

المعركة الفاصلة، معركة النجير:

(وسار المهاجر في الناس من محجر الزُرقان حتى نزل على النُّجير، وقد اجتمعت إليه كندة فتحصَّنوا فيه، ومعهم من استغووا من السكاسك، وشُذَّاذ السكون وحضرموت والنجير على ثلاثة سُبُل، فنزل زياد على أحدها، ونزل المهاجر على الآخر، وكان الثالث لهم يؤتون فيه ويذهبون فيه إلى أن قدم عكرمة في الجيش فأنزله

---

(١) رموه: رمموه وأصلحوه.
(٢) السبب: الطريق إلى الحصار.
(٣) الخبب: مشية سريعة دون السعي.
(٤) تاريخ الطبري (٣٠٢/٢).

على ذلك الطريق، فقطع عليهم المواد وردَّهم، وفرَّق في كندة الخيول، وأمرهم أن يوطئوهم، وفيمن بعث يزيد بن قنان من بني مالك بن سعد، فقتل من بقرى بني هند إلى برهوت، وبعث فيمن بعث إلى الساحل خالد بن فلان المخزومي وربيعة الحضرمي فقتلوا أهل محيا وأحياء أخر، وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم، فقالوا: الموت خير مما أنتم فيه، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم للَّه أنفسكم، فأنعم عليكم، فبؤتم بنعمه، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظَّلمة.

فَجَزُّوا نواصيهم، وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض، وجعل راجزهم يرتجز في جوف الليل فوق حصنهم:

صبَاح سُوء لَبنِي قَتيرة ... وللأمِير من بَنِي المغيرة

وجعل راجز المسلمين زياد بن دينار يرد عليهم:

لا تُوعدونا واصبروا حصِيرة ... نحنُ خيولُ ولد المغيرة

وفي الصّباح تظْفَرُ العشِيرة

فلما أصبحوا خرجوا على الناس، فاقتتلوا بأفنية النجير، حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة، وجعل عكرمة يرتجز يومئذ:

أطعَنُهم وأنا علَى أوْفاز ... طعنًا أبوءُ بِه علَى مَجاز

ويقول:

أنفِّذ قَولي ولَه نفَاذ ... وكُل من جَاورَنِي مُعاذ

فهزمت كندة، وقد أكثروا فيهم القتلى) [١].

لقد كان حصن النجير من المناعة والقوة بحيث لن يتمكن المسلمون من فتحه إلا مصالحة أو استسلامًا من كندة، وبقي الأمر لصالح كندة، حيث كان أحد الطرق الموصلة لهم مفتوحًا لم يسيطر عليه المسلمون، إذ سيطروا على طريقين من ثلاثة، فكان زياد رضي الله عنه على أحدهما، والمهاجر على الآخر، فكانت الصاعقة عليهم أن وصل عكرمة رضي الله عنه بالجيش الثالث، وسيطر على الطريق الثالثة التي كانت منفذ الحياة لكندة، وبذلك أُطبق عليهم الحصار من كل جهة، فأصبحت كندة كلها داخل الحصن مُعَرَّضَةً للإبادة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٠٣).

ولجأ المسلمون إلى قتل وقتال من هم خارج الحصن من كندة، وكان عكرمة هو صاحب الخطة (إذ بعث يزيد بن قنان من بني مالك بن سعد فقتل من بقرى بني هند إلى برهوت، وبعث فيمن بعث إلى الساحل خالد بن فلان المخزومي وربيعة الحضرمي فقتل أهل محيا وأحياء أخر، وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم، فقالوا: الموت خير مما أنتم فيه).

وهذا هو الذي يريده عكرمة، أن يخرجوا من حصونهم إلى المواجهة ثأرًا لقومهم الذين يقتلون خارج النجير، وبذلك استدرجوهم من حصونهم، فاتخذت كندة قرارها، (وتعاقدوا وتواثقوا أن لا يفر بعضهم عن بعض) ومن شدة فرحهم بقرارهم الحاسم أصبحوا يهددون المسلمين بطلوع الصباح حيث تكون المواجهة (وجعل راجزهم يرتجز في جوف الليل فوق حصنهم:

صبَاح سُوء لبَنِي قَتيرة ولِلأميرِ منْ بَنِي المِغيرَة

وبنو قتيرة هم جيش المهاجر ﷺ، والأمير من بني المغيرة هو المهاجر بن أبي أمية ابن المغيرة، وخرجت رجال كندة مع الصباح من حصونهم (فلما أصبحوا خرجوا على الناس فاقتتلوا بأفنية النجير، حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة، فهزمت كندة وقد أكثروا فيهم القتل).

فعاد من فر وسلم ثانية إلى النجير، وأغلقوا عليهم الحصن، وبقي الأشعث على قيادتهم فلم يُصَبْ في المعركة.

استسلام الحصن:

(كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن أبي إسحاق الشيباني عن سعيد ابن أبي بردة عن عامر، أنه (أي: الأشعث) دخل عليه (على المهاجر) فاستأمنه على أهله وماله، وتسعة ممن أحب، وعلى أن يفتح لهم الباب فيدخلوا على قومه، فقال له المهاجر: اكتب ما شئت وأعجل. فكتب أمانه وأمانهم، وفيهم بنو عمه وأهلوهم، ونسي نفسه، عجل ودهش، ثم جاء بالكتاب فختمه، ورجع فسرَّب الذين في الكتاب) (١). إنه عمل غادر، وفي منتهى الأنانية، أن يفكر بإنقاذ نفسه وأهله

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٠٣).

وأشراف كندة ويدع أعراضه نهبة للسبي، وبقايا جنوده عرضة للقتل، لم يكن مثل هذا العمل يليق بقائد يمثل أعظم ملوك العرب، فقد كان بالإمكان أن يعيد الكرَّة، أو يحاول إنقاذ مَنْ في الحصن، ولو أنه صبر لكان في ذلك نجاةٌ له ولقومه.

ففي رواية الطبري عن السري قال:

(كتب أبو بكر رَحِمَهُ الله إلى المهاجر مع المغيرة بن شعبة:

إذا جاءكم كتابي هذا ولم تظفروا، فإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتلة، واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة، أو ينزلوا على حكمي. وإن جرى بينكم صلح قبل ذلك فعلى أن تخرجوهم من ديارهم، فإني أكره أن أقر أقوامًا فعلوا فعلهم في منازلهم؛ ليعلموا أن قد أساؤوا، وليذوقوا وبال بعض الذي أتوا) (١).

لقد دخل الأشعث الحرب لاستنقاذ نساء بني عمرو بن معاوية من السبي وقال:

منعْتُ بني عمرو وقَد جاء جمْعُهم بأمعزَ مِن يوْم البضِيضِ وأصْبرا

وكان بمندوحة عن الحرب، فما باله اليوم يَقْبَلُ أن يكون نساء بني عمرو وبني الحارث كلهم سبايا مقابل إنقاذ نفسه وبضعة من قومه؟

لقد فقد حكمته ابتداءً يوم أدخل نفسه في حرب المسلمين مغترًّا بقوته وعزة قومه، وفقد حكمته انتهاءً يوم فاوض على تسليم الحصن برجاله ونسائه مقابل نجاته مع تسعة من قومه (وقال الأجلح والمجالد: لما لم يبق إلا أن يكتب نفسه وثب عليه جحدم بشفرة، وقال: نفسك أو تكتبني؟ فكتبه، وترك نفسه) (٢).

(قال أبو إسحاق: فلما فتح الباب اقتحمه المسلمون، فلم يَدَعُوا فيه مقاتلًا إلا قتلوه، ضربوا أعناقهم صبرًا، وأُحصي ألف امرأة ممن في النجير والخندق، ووضع على السبي والفيء الأحراس، وشاركهم كثير) (٣).

إنها بالضبط صورة حصار بني قريظة يوم أصروا على نكث عهدهم وقالوا: من محمد؟ لا عهد بيننا وبينه. واستقووا بقريش، فحصروا حتى نزلوا على حكم سعد ابن معاذ رضي الله عنه، والذي قال:

أحكم أن تُقتل الرجال، وتُسبى الذراري والنساء.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣٠٣/٢، ٣٠٤).

فقال له رسول الله ﷺ: « **لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات** » (١).

فالغدر له جزاؤه، وأهونه القتل والسبي.

ولتستمع إلى الآيات الكريمات هل هي تتحدث عن قريظة أم النجير؟ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

لقد ظاهر بنو الحارث بن معاوية بني عمرو بن معاوية على غدرهم ونكثهم. فكان ذلك الجزاء الصارم لهم على الإصرار على الغدر، والخروج على الإسلام ودولته.

نسي نفسه جزاء غدره بقومه:

(وقال كثير بن الصلت: لما فتح الباب، وفرغ ممن في النجير، وأحصي ما أفاء الله عليهم، دعا الأشعث بأولئك النفر، ودعا بكتابه فعرضهم، فأجاز مَنْ في الكتاب، فإذا الأشعث ليس فيه، فقال المهاجر:

الحمد لله الذي أخطأك نوؤك يا أشعث، يا عدو الله! قد كنت أشتهي أن يخزيك الله. فشدَّه وثاقًا، وَهَمَّ بقتله.

فقال له عِكرمة: أخِّرْه وأبلغه أبا بكر، فهو أعلم بالحكم في هذا، وإنه كان رجلًا نسي اسمه أن يكتبه، وهو ولي المخاطبة، أَفَذَاكَ يُبْطِلُ ذاك؟!

فقال المهاجر: إن أمره لبيِّن، ولكني أتبع المشورة وأوثرها.

وأخَّرَهُ وبعث به إلى أبي بكر مع السبي، فكان معهم يلعنه المسلمون، ويلعنه سبايا قومه، وَسَمَّاه نساءُ قَوْمِهِ: عرف النار (كلام يمان يسمون به الغادر).

وكان المغيرة تحير ليله للذي أراد الله، فجاء والقوم في دمائهم، والسبي على ظهر، وسارت السبايا والأسرى، فقدم القوم على أبي بكر ﷺ بالفتح والسبايا والأسرى... (٢).

لقد كان قدر الله تعالى أن يتأخر المغيرة بن شعبة ﷺ في الوصول برسالته إلى المهاجر قائد الجيش الإسلامي في حضرموت، واستعجل الأشعث في الاستسلام، وكان يمكن أن تصل رسالة الصديق، ويكتفي بإخراج القوم من ديارهم دون قتل أو سبي.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٦/٦) رقم (٥٣٣٠). (٢) تاريخ الطبري (٢/٣٠٤).

وكان قدر اللَّه أن ينسى الأشعث نفسه، فيرى رعب القتل في كل لحظة، وسيبقى رعب القتل قائمًا حتى بعد وصوله إلى الصديق، فهو بغير أمان، ولو شاء المهاجر قَتْلَهُ لقتله، لكن حكمة اللَّه تعالى أن ينزل المهاجر عند رأي ابن عمه عكرمة بن أبي جهل ابن هشام بن المغيرة. الذي يرى أن أمثال هؤلاء القادة يترك حكمهم للخليفة الأعلى في المدينة، كما جرى مع قيس بن عبد يغوث، وعمرو بن معديكرب في اليمن، ورأى الصديق ﷺ العفو عنهم؛ ليبقوا ذُخْرًا للإسلام بعد أن ذاقوا وَبَالَ غَدْرِهم وخيانتهم وَرِدَّتِهم.

وفوق هذا فإن عكرمة ﷺ يرى أن في قتل الأشعث شبهة، وهو ما قام بهذه المفاوضة والتسليم إلا من أجل إنقاذ نفسه، فهل نسيانه لكتابة نفسه يكفي لأن يقتل. واستجاب المهاجر ﷺ لابن عمه عكرمة، لا للشبهة، إنما للشورى، فالأمر عنده بيِّن. وشاءت إرادة اللَّه تعالى أن يجلل الأشعث بالخزي والعار من سبايا نفسه، ومن جيش المسلمين، فالفريقان يلعنانه لهذا المصير المشؤوم الذي قاد قومه إليه.

كانت هذه العوامل تنهش في قلب الأشعث، وتجعله يدرك مدى ما أقدم عليه من غدر وردة واستسلام، ويتمنى لو أن الأرض ابتلعته قبل هذا المصير المشؤوم الذي قاد قومه إليه، وكانت صورة رسول اللَّه ﷺ تظهر في قلبه وعقله، فيزداد سخطه على نفسه، وكيف أكرمه رسول اللَّه ﷺ، وأحسن وفادته، فقد وقع في سخط اللَّه ورسوله دون أن يحقق لقومه إلا الدمار والأسر.

وهذا هو الأشعث بن مئناس السكوني يبكي أهل النجير بقوله:

لعمْري وما عَمْري عليَّ بهيِّـنِ ... لقد كُنتُ بالقتْلَى لحقّ ضَنين
فَلا غرو إلا يَوم أقْرعُ بينهم ... وما الدَّهر عِندي بعدَهم بأَمين
فليت جُنوبَ الناس تحت جنوبهم ... ولم تمش أنثَى بعدهم بِجَنِينِ
وكُنت كذات البوِّ رِيعت فأقْبلَت ... على بوِّها إذ طرَّبت بحنينِ

ويقبل أبو بكر توبة الأشعث:

(... فدعا بالأشعث فقال (أي: أبا بكر):

استزلك بنو وليعة، ولم تكن لتستزل لهم، ولا يرونك لذلك أهلًا، وهلكوا

وأهلكوك؟! أما تخشى أن تكون دعوة رسول اللَّه ﷺ قد وصل إليك منها طرف؟ « **ما تراني صانعًا بك؟** ».

قال: إني لا علم لي برأيك، وأنت أعلم برأيك.

قال: إني أرى قتلك.

قال: فإني أنا الذي راوضت القوم في عشرة، فما يحل دمي.

قال: أفوضوا إليك؟

قال: نعم.

قال: فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من في الصحيفة، وإنما كنت قبل ذلك مراوضًا. فلما خشي أن يقع به قال: أوتحتسب فيَّ خيرًا فتطلق إساري، وتقيلني عثرتي، وتقبل إسلامي، وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي، وترد عليَّ زوجتي؟

وقد كان خطب أم فروة بنت أبي قحافة مقدمه على رسول اللَّه ﷺ، فَزَوَّجَهُ وأخره إلى أن يقدم الثانية، فمات رسول اللَّه ﷺ، وفعل الأشعث ما فعل - فخشي أن لا ترد عليه.

قال: تجدني خير أهل بلادي لدين اللَّه؟

فتجافى له عن دمه، وَقَبِلَ منه، ورد عليه أهله، وقال: انطلق، فليبلغني عنك خير. وَخَلَّى عن القوم الذين ذهبوا.

وقسم أبو بكر في الناس الخمس، واقتسم الجيش الأربعة الأخماس) (٢).

لقد كانت محاكمة من أهم المحاكمات في التاريخ، فقد أثبت عليه الحكم، وأن جزاءه القتل.

ولما سقطت حجته تقدم بما لديه من ندم واعتراف بذنب وعودٍ حميد إلى الإسلام (تجدني خير أهل بلادي لدين اللَّه).

بل طمع بأكثر من ذلك، بعودة أم فروة أخت الصديق إليه بعد خطبته لها يوم وَفَدَ على رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٠٤).

إن إقالة العثرات من أخلاق الرجال.

وإن فراسة الصِّدِّيق في الرجال يشهد بها أعلم الناس بالرجال، عمر بن الخطاب ﷺ: « رحم اللَّه أبا بكر، لقد كان أعلم مني بالرجال ».

وانقلب العَدُوَّان اللدودان سيدا اليمن قيس بن عبد يغوث، وعمرو بن معديكرب أعظم أعمدة الإسلام فيه، وكان قومهما أطوع لهما في الدين والإسلام منهما في الردة، وتحوَّل الثعلب العدو اللدود سيد حضرموت الأشعث بن قيس من قائد الردة والخيانة والغدر إلى أعظم ركائز الإسلام في حضرموت.

وسنرى بلاء هؤلاء الثلاثة العظام فيما بعد في الجهاد في سبيل اللَّه. ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

لقد كان الصديق ﷺ يُعجِم أعواد الرجال، ويربيهم وَيُعِدُّهُم ليكونوا قادة التغيير في الأرض، فهذا عكرمة ﷺ قد بلغه بلاؤه في عمان واليمن وحضرموت، ونجح في الدورة القاسية التي اختبره بها، وهذا المهاجر ﷺ نجح في الدورة القاسية التي اختبره بها، فطلب عكرمة إليه، وأما المهاجر فهو أصلًا والي رسول اللَّه ﷺ على كندة في حضرموت.

(وكتب أبو بكر إلى المهاجر يخيره اليمن أو حضرموت، فاختار اليمن، فكانت اليمن على أميرين، فيروز والمهاجر، وكانت حضرموت على أميرين، عبيدة بن سعد على كِندة والسكاسك، وزياد بن لبيد على حضرموت).

وبذلك دانت اليمن وحضرموت للإسلام.

وغدت الجزيرة العربية كلها محضن الإسلام العظيم، لتكون هي القاعدة الصلبة لحمل راية الإسلام إلى الخافقين.

وكانت هذه السنة الحادية عشرة من أصعب السنوات في تاريخ الإسلام كله،

ولولا الرجال العظام الذين كانوا حول الصديق، ولولا عبقرية الصديق في اختيار الرجال واختبارهم، ولولا القاعدة الصلبة المسلمة في كل قبيلة، والتي حملت راية مواجهة قومها كما كانت مواجهة بدر، لولا هذه الأمور كلها لكنا اليوم في الجاهلية

الجهلاء والضلالة العمياء، ولبقيت البشرية تائهة في الظلمات.

لكنهم جُنْدُ الرحمن الذين تربوا على يدي رسول اللَّه ﷺ، وصاغتهم يد النبوة فساروا بهذا الدين، وقاموا على تربية الوافدين الجدد من القيادات العربية التي تحمل كل عقد الزعامة، فأخضدوا شوكتهم، وأدخلوهم في جند اللَّه، ونزعوا منهم كل بلايا وطامَّات الجاهلية، إنها حرب تربية تحمل القوة والنور في آنٍ واحد، فكان نصر اللَّه الذي وعد للمؤمنين.

السنة الثانية عشرة

من تحرير قلب الجزيرة إلى تحرير أطرافها كاملة

المثنى قبل الإسلام وبعده:

لا بد أن نشير ابتداء إلى التصور العربي عن فارس، وحدود تفكير العرب بالنسبة لهم، وذلك من خلال محادثات رسول اللَّه ﷺ مع وفد بني شيبان.

روى الحاكم والبيهقي وأبو نعيم وقاسم بن ثابت عن علي ﷺ قال:

لما أمر اللَّه ﷻ نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه... فذكر الحديث إلى أن قال:

ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم، فقال: من القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول اللَّه ﷺ وقال: بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس. وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم جمالًا ولسانًا، وكان له غديرتان تسقطان على تريبته، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال له أبو بكر:

كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد عن الألف، ولن تُغلب ألف من قِلة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح. والنصر من عند اللَّه يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، لعلك أخا قريش؟

فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول اللَّه ﷺ فها هو ذا. فقال مفروق: إلام

تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « **أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأني عبد اللّه ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على اللّه وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق...** ».

... ثم كأنه أحب أن يشرك المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى - وأسلم بعد ذلك:

قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة، والآخر السماوة.

فقال له رسول اللّه ﷺ: « **ما هذان الصريان؟** ».

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا العرب مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول اللّه ﷺ: « **ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين اللّه ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم اللّه أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون اللّه وتقدسونه؟** ».

فقال النعمان: اللّهمّ ذلك لك.

فتلا عليهم رسول اللّه ﷺ: « ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] » [١].

فالمثنى هو بطل شيبان وصاحب حربها، وهو يمكن أن يتحرك غزوًا باتجاه العرب ومياههم، أما باتجاه الإمبراطورية الفارسية فلا؛ لأن ذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وهم بحماية كسرى، لا يحدثون حدثًا، ولا يؤوون محدثًا. وبالصراحة التي حمدها لهم رسول اللّه ﷺ قال: وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا العرب مما تكرهه الملوك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٥٧ - ١٥٩).

بينما كان الرسول الخاتم ﷺ يعلم وهو يبحث عن النصرة في مضارب العرب أن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار.

هذه النقلة التربوية العظيمة التي نقل بها رسول اللَّه ﷺ الأمة من حلمها بحلف كسرى وقيصر إلى الضفة الثانية « **يورثكم اللَّه أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم** ».

لقد كانت هذه الكلمة الخالدة التي غزت أعماق المثنى كفيلة بأن تجعله إنسانًا آخر، صحيح أنه لم يسلم بلسانه، لكنه أسلم بقلبه، وكانت ذو قار هي أول خطوة على الطريق من ثمار هذه التربية، حيث اختارت شيبان وبكر بن وائل كلمة السر (محمد) تَيَمُّنًا بذلك الرجل الذي لقوه في مكة، ودعاهم إلى اللَّه، وبشرهم بالنصر على الفرس. وكما يقول عليه الصلاة والسلام وهو يتحدث عن (ذي قار): « **ذاك يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبي نصروا** » [1] **ويمر الزمن ويأتي وفد شيبان على رأسه المثنى بن حارثة الشيباني في عام الوفود ليعلن إسلامه للَّه رب العالمين.**

ويتوفى رسول اللَّه ﷺ، وتفترق كلمة شيبان، فيكون المثنى على رأس تيار المسلمين ضد المرتدين، وحين تقع حروب الردة في البحرين بجواره يسارع لنجدة المسلمين ضد عدوهم المرتد، وذلك بعد معركة دارين.

(وقصد عُظْمُ الفلال لدارين، فركبوا السفن، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل فيهم، وأرسل إلى عتيبة بن النهاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ما هم عليه، والقعود لأهل الردة بكل سبيل، وأرسل إلى خصفة التميمي، والمثنى بن حارثة الشيباني، فأقاموا لأولئك بالطريق، فمنهم من أناب، فقبلوا منه واشتملوا عليه، ومنهم من أبى ولجَّ فمنع من الرجوع، فرجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا إلى دارين فجمعهم اللَّه بها...) [2].

بينما كان الزعيم الآخر مفروق بن عمرو هو قائد معسكر الردة.

(ولما رجع العلاء إلى البحرين، وضرب الإسلام فيها بِجرانه، وعز الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله، أقبل الذين في قلوبهم ما فيها من الإرجاف، فأرجف مرجفون وقالوا: ها ذاك مفروق قد جمع رهطه من بني شيبان وتغلب والنِّمر. فقال لهم أقوام من المسلمين:

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (ص ٢٤٣).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٨٩).

إذن تشغلهم عنا اللهازم. واللهازم يومئذ قد استجمع أمرهم على نصر العلاء وطابقوا، وقال عبد اللَّه بن حذف في ذلك:

لا تُوعدُونا بمفرُوق وأسْرتهُ إن يَأْتِنا يلقَ فِينا سُنَّةَ الحطَم
وإن ذَا الحي منْ بَكر وإن كَثُروا لأمةٌ داخلُونَ النَّار فِي أمم
فالنخْل ظَاهِره خَيْل وبَاطنه خَيل تكدَّس بالفِتيان فِي النعم) [1]

ثم كانت الخطوة الثالثة من المثنى ﷺ وقد استقر الإسلام في قلب الجزيرة وهي (أن المثنى بن حارثة سار حتى قدم على أبي بكر ﷺ فقال: أمِّرْني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي. ففعل ذلك، فأقبل وجمع قومه، وأخذ يغبر بناحية كسكر مرة، وفي أسفل الفرات مرة) [2].

المثنى قائد من قواد خالد:

(ونزل خالد بن الوليد النباج، والمثنى بن حارثة بخفان معسكر، فكتب إليه خالد ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره فيه بطاعته، فانقض إليه جوادًا حتى انتهى إليه... وأقبل خالد بن الوليد يسير، فعرض له جابان صاحب أَلَّيس، فبعث إليه المثنى ابن حارثة، فقاتله، فهزمه، وقتل جل أصحابه إلى جانب نهر يدعى نهر دم لتلك الوقعة، وصالح أهل أَلَّيس، وأقبل حتى دنا من الحيرة، فخرجت إليه خيول آزاذبة صاحب خيل كسرى التي كانت في مسالح ما بينه وبين العرب، فلقوهم بمجتمع الأنهار، فتوجه إليهم المثنى بن حارثة، فهزمهم اللَّه) [3].

لقد تربى خالد ﷺ في أجواء مكة، وكل خبرته الحربية كانت في حروبه للإسلام لعشر سنوات، لكن كفاءته وموهبته برزت، إضافة إلى خبرته في بدايات صعود نجمه العسكري، واستطاع أن يغير مسار حرب في مؤتة فاز على إثرها بلقب سيف اللَّه.

« **ثم أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه سلَّه اللَّه على المشركين، خالد بن الوليد، جعل اللَّه النصر على يديه** ». وانتشر هذا الاسم معه، ونشر الرعب في صفوف كل من واجهوه، وها هو المثنى بن حارثة ﷺ صاحب حرب شيبان، وشيخهم المجرب، ينضم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٠).
(٢، ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٠٨).

بأمر الصديق تحت إمرة خالد، وخبرة المثنى ﷺ في لقاء الفرس، لا يضارعها خبرة أحد، ومن أجل هذا بعثه خالد لصاحب أليس فهزمه، وواجه خيالة آزاذبة صاحب خيل كسرى ومن معه فهزمهم اللَّه، وكانت عظمة هذا الدين هي في تفجير الطاقات المبدعة أولًا، ثم حسن توظيفها وتوجيهها ثانيًا، فالبطولة عند العرب جزء من كيانهم. كانت في الجاهلية تبرز وتكمن في حرب بعضهم بعضًا، وفي إفناء بعضهم بعضًا، وتحولت في الإسلام إلى الجهاد في سبيل اللَّه ضد أعداء اللَّه. إن تصارع الطاقات .. يجعل المحصلة صفرًا إن لم تكن دون ذلك، أما تعاون الطاقات وتكاتفها وتكاملها هو الكفيل بتغيير مقود التاريخ. وهذا ما نراه في مسيرتنا هذه مع هذا الجيل المثالي العظيم المبدع، وكان العام الثاني عشر يمثل نقلة هائلة في تاريخ البشرية، حيث انطلق العرب المسلمون خارج الإطار المحلي إلى أنهار كسرى وتخومها التي كان العرب يتحاشونها.

وأما ما يلي أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، لقد بدأت حرب التحرير من العدو الفارسي، ووقع الحَدَثُ الذي تهابه الفرس.

إلى العراق:

(قال أبو جعفر: ولما فرغ خالد من أمر اليمامة كتب إليه الصديق ﷺ، وخالد مقيم في اليمامة - عن الشعبي - أن سِرْ إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبُلَّة، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم [(١)].

وحدثني عمرو بن شبة، وبالإسناد الذي تقدم ذكره... أن أبا بكر ﷺ وَجَّهَ خالد ابن الوليد إلى أرض الكوفة، وفيها المثنى بن حارثة الشيباني، فسار في المحرم سنة اثنتي عشرة، فجعل طريقه البصرة، وفيها قطبة بن قتادة السدوسي) [(٢)]، بينما ينقل الواقدي رأيًا آخر يشير إليه الطبري بقوله:

(قال أبو جعفر: وأما الواقدي فقال: اختلف في أمر خالد بن الوليد، فقائل يقول: مضى في وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق. وقائل يقول: رجع من اليمامة، فقدم المدينة، ثم سار إلى العراق من المدينة على طريق الكوفة، حتى انتهى إلى الحيرة) [(٣)].

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣٠٧/٢).

ونرجح الرأي الأول؛ لأن الثاني بلا إسناد.

(وأقبل حتى دنا من الحيرة، ثم قال لهم خالد: أدعوكم إلى اللَّه وإلى عبادته وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر.

فقالوا: لا حاجة لنا في حربك.

فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق، ثم نزل على بانقيا (١)، فصالحه بُصُبهرى (٢) بن صلوبا على ألف درهم وطيلسان، وكتب لهم كتابًا، وكان خالد صالح أهل الحيرة على أن يكونوا عيونًا له ففعلوا) (٣).

الحيرة التي كانت رمز عز العرب وعاصمة المناذرة، بلغت أوج عزها في عهد النعمان بن المنذر، والذي رفض في النهاية الرضوخ للفرس فَقُتِلَ، وأصبحت بعده ذليلة خانعة يحكمها أجراء أكثر منهم أمراء، وذهب العز الذي كان لهم.

يجلي هذا المعنى ما رواه ابن شاهين عن طريق أبي الحسن المدائني عن شيوخه.

(قال: ... وفد رجل من النخع يقال له: زرارة بن عمرو على رسول اللَّه ﷺ فقال:

يا رسول اللَّه، إني رأيت في سفري هذا رؤيا هالتني. قال: « **وما رأيت؟** ».

قال: رأيت أتانًا (٤) تركتها في الحي كأنها ولدت جديًا أسفع (٥) أحوى (٦).

فقال له رسول اللَّه ﷺ: « **هل لك من أمةٍ تركتها مصرة حملًا؟** ».

قال: نعم، تركت أمة لي أظنها قد حملت.

قال: « **فإنها قد ولدت غلامًا وهو ابنك** ».

قال: يا رسول اللَّه، ما باله أسفع أحوى؟

---

(١) بانقيا: اسم موقع.

(٢) بصبهرى: اسم فارسي.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٠٨).

(٤) أتانًا: الأنثى من الحمر.

(٥) أسفع: أسود مشرب بحمرة.

(٦) أحوى: سواد إلى خضرة أو حمرة.

قال: « **ادن مني** ». فدنا منه. فقال: « **هل بك برص تكتمه؟** ».

قال: والذي بعثك بالحق نبيًّا، ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك.

قال: « **فهو ذلك** ».

قال: يا رسول اللَّه، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان [١] ودملجان [٢] ومسكتان [٣].

قال: « **ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زِيِّهِ وبهجته** »... [٤]).

فرسول اللَّه ﷺ عبَّر رؤيا زرارة بن عمرو للنعمان على هذا الزي أنه رمز لملك العرب وعزهم وقوتهم، والذي سيأخذ بالإسلام أوفى غايته.

وسرعان ما استجاب قادة الحيرة لخالد، وتقدموا بالجزية دون الإسلام أو المواجهة، وكان هذا الرأي لداهية الحيرة الراهب عبد المسيح بن بقلة الذي أعلن استعداده للسلم مع المسلمين، وما له في حربهم من حاجة.

واستسلام الحيرة بهذه السهولة يعني: أن العرب على استعداد للسلم. ولكنهم ليسوا على استعداد للإسلام، فكان بعضهم على نصرانيته، وبعضهم على وثنيته، وقليل جدًّا منهم مَنْ أعلن دخوله في الإسلام، وطريق الدعوة طويل وشائك فيه الغمرات والصعوبات، ثم ينجلين بعد ذلك، ويدخل العرب في الإسلام طائعين مختارين.

ولا ننسى أن ابن النعمان بن المنذر أو أخاه كانا من قادة حركة الردة كما مر معنا،

وقد وعده البدو أن يتوجه على ملك أبيه وهو الغرور بن المنذر أو الغرور بن النعمان، وبعد هزيمته تاب إلى اللَّه وحسن إسلامه، وكان يقول: أنا المغرور.

كما لا بد أن نشير إلى أن خالدًا ﷺ إنما كان يمضي بهذه الأمة المؤمنة الفَتِيَّةِ يواجه بها كل أعداء اللَّه، فالذي قاله لزعماء الحيرة، والذي قاله لأشراف فارس، والذي قاله لكل عدو، هو أنه يتحرك بهذه الأمة، لا بشخصه ولا لزعامته ولا لمجده الشخصي.

(... وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر).

---

(١) القرط: الحِلَق التي توضع في الأذن. (٢) دملج: المعضد من الحليّ.

(٣) المسكة: السوار والخلاخيل من الذبل وهي قرون العاج.

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٦٥٢).

هذه الأمة التي انطلقت من قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولم يأت الإسلام لتحرير العرب فقط، إنما جاء لتحرير العالم كله، فلا بد من إعلام القيادة الفارسية بهذا الانقلاب السياسي والكوني الذي غيّر العالم.

(فعن الشعبي قال: أقرأني بنو بقيلة كتاب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن:

من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فالحمد للَّه الذي فضَّ خدمتكم، وسلبكم ملككم، ووهَّن كيدكم، وإنه من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا.

أما بعد، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليَّ بالرُّهُن، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله إلا هو لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة.

فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون. وذلك سنة اثنتي عشرة) [١].

الرأي الآخر في تحرك خالد:

قال أبو جعفر: وأما غير ابن إسحاق وغير هشام ومن ذكرت قوله من قبل فإنه قال في أمر خالد ومسيره إلى العراق ما حدثنا به عبيد اللَّه بن سعد الزهري قال:

حدثني عمي عن سيف بن عمر عن عمرو بن محمد عن الشعبي قال:

لما فرغ خالد من اليمامة كتب إليه أبو بكر ﷺ:

إن اللَّه فتح عليك، ففارق حتى تلقى عياضًا. وكتب إلى عياض بن غنم وهو بين النباج [٢] والحجاز: أن سر حتى تأتي المصَيَّخ فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق [٣] حتى تلقى خالدًا، وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره.

ولما قدم الكتاب على خالد وعياض، وأذنا بالقُفل عن أمر أبي بكر، قفل أهل

---

(١) تاريخ الطبري (٣٠٨/٢).

(٢) النباج: قال أبو منصور: في بلاد العرب نباجان أحدهما على طريق البصرة، والآخر نباج بني سعد بالقريتين.

(٣) عارق: اتجه إلى العراق.

المدينة وما حولها وأعروهما، فاستمدا أبا بكر، فأمد أبو بكر خالدًا بالقعقاع بن عمرو التميمي، فقيل له: أتُمد رجلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجل. قال: لا يهزم جيش فيه مثل هذا. وأمد عياضًا بعبد بن عوف الحميري وكتب إليهما أن استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يَغْزُوَنَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي. فلم يشهد الأيام مرتد.

فلما قدم الكتاب على خالد بتأمير العراق كتب إلى حَرملة وسُلمى والمثنى ومذعور باللحاق بهم، وأمرهم أن يواعدوا جنودهم الأُبُلَّةَ، وذلك أن أبا بكر أمر خالدًا بكتابه إذا دخل العراق أن يبدأ بفرج السند والهند، وهو يومئذ الأُبُلَّةَ ليوم قد سماه. ثم حشر من بينه وبين العراق، فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومُضر إلى ألفين كانا معه، فقدم في عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة - يعني بالأمراء الأربعة: المثنى ومذعورًا وسُلمى وحرملة - فلقي هُرمز في ثمانية عشر ألفًا.

حدثنا عبيد الله، قال: حدثني عمي، عن سيف، عن المهلب الأسدي، عن عبد الرحمن بن سياه وطلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عتيبة، قالوا:

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد إذ أمَّره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها، وإلى عياض إذ أمَّرَهُ على حرب العراق أن يأتيها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال:

إذا اجتمعتما بالحيرة، وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفه، فليكن أحدكما ردءًا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم على عدو الله، وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن.

قال سيف عن طلحة بن الأعلم، عن المغيرة بن عتيبة - وكان قاضي أهل الكوفة - قال:

فرَّق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، فسرَّح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرَّح عدي بن حاتم وعاصم ابن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ودليله رافع، فواعدهم جميعًا الحُفَيْر ليجتمعوا به، وليصادموا به عدوهم، وكان فرج الهند أعظم فروج فارس شأنًا، وأشدها شوكة، وكان صاحبه يحارب العرب في البر، والهند في البحر.

وقعة ذات السلاسل:

قال: وشاركه (أي: الراوي المغيرة بن عتيبة عبد الرحمن بن سياه) المهلب بن عقبة وعبد الرحمن بن سياه الأحمري الذي تنسب إليه الحمراء - حمراء سياه - قال:

(لما قدم خالد على هرمز كتب بالخبر إلى شِيرَى بن كسرى وإلى أردشير ابن شيرى، وجمع جموعه، ثم تعجل إلى الكواظم في سرعان أصحابه ليتلقى خالدًا، وسبَّق حلبته فلم يجدها طريق خالد، وبلغه أنهم تواعدوا الحفير، فعاج يبادره إلى الحفير فنزله، فتعبَّى به، وجعل على مجنبتيه أخوين يلاقيان أردشير وشيرى إلى أردشير الأكبر، يقال لهما: قباذ وأنوشجان، واقترنوا في السلاسل، فقال من لم يرَ ذلك لمن رآه: قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا، فإن هذا طائر سوء. فأجابوهم وقالوا: أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب. فلما أتى الخبر خالدًا بأن هرمز في الحفير، أمال الناس إلى كاظمة، وبلغ هرمز ذلك، فبادره إلى كاظمة، فنزلها وهو حسير، وكان من أسوأ أمراء ذلك الفرج جوارًا للعرب، فكل العرب عليه مغيظ، وقد كانوا ضربوه مثلًا في الخبث حتى قالوا: أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز. وتعبَّى هرمز وأصحابه، واقترنوا في السلاسل، والماء في أيديهم، وقدم خالد عليهم فنزل على غير ماء، فقالوا له في ذلك، فأمر مناديًا به، فنادى: ألا انزلوا وحطوا أثقالكم، ثم جالِدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين.

فحطت الأثقال، والخيل وقوف، وتقدم الرَّجْل، ثم زحف إليهم حتى لاقاهم. فاقتتلوا، وأرسل اللَّه سحابة، فأغزرت ما وراء صف المسلمين، فقواهم بها، وما ارتفع النهار وفي الغائط مقترن [1].

حدثنا عبيد اللَّه، قال: حدثني عمي، عن سيف، عن عبد الملك بن عطاء البكائي من المقطع بن الهيثم البكائي مثله، وقالوا:

وأرسل هرمز وأصحابه بالغد ليغدروا بخالد، فواطؤوه على ذلك، ثم خرج هرمز، فنادى رجل: أين خالد؟ وقد عهد إلى فرسانه عهده، فلما نزل خالد نزل هرمز، ودعاه إلى النزول، فنزل خالد ومشى إليه، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وحملت حامية هرمز وغدرت، فاستلحموا خالدًا، فما شغله ذلك عن قتله، وحمل

---

(١) وفي الغائط مقترن: وفي الأماكن المنخفضة مكان إلا وامتلأ بالماء.

القعقاع بن عمرو، واستلحمَ حماة هرمز فأناموهم [١]. وإذا خالد يماصعهم [٢]، وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، وجمع خالد الرِّثاث وفيها السلاسل، فكانت وقر بعير - ألف رطل - فسميت ذات السلاسل، وأُفلت قباذ وأنوشجان). حدثنا عبيد اللَّه، قال: حدثني عمي عن سيف عن عمرو بن محمد عن الشعبي، قال: كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، فكان هرمز ممن تم شرفه، فكان قيمتها مائة ألف، فنفلها أبو بكر خالدًا، وكانت مفصصة بالجوهر، وتمام شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة.

حدثنا عبيد اللَّه، قال: حدثني عمي عن سيف، عن محمد بن نويرة، عن حنظلة ابن زياد بن حنظلة قال: لما تراجع الطلب من ذلك اليوم نادى منادي خالد بالرحيل، وسار بالناس، واتبعته الأثقال حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم، وقد أفلت قباذ وأنوشجان، وبعث خالد بالفتح وما بقي من الأخماس وبالفيل، وقرأ الفتح على الناس، ولما قدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس فطيف به بالمدينة ليراه الناس جعل ضعيفات النساء يقلن:

أمن خلق اللَّه ما نرى؟! ورأينه مصنوعًا، فرده أبو بكر مع زر.

قال: ولما نزل خالد موضع الجسر الأعظم اليوم بالبصرة، بعث المثنى بن حارثة في آثار القوم، وأرسل معقل بن مقرن المزني إلى الأبُلَّة ليجمع له مالها والسبي، فرجع معقل إلى الأبلة فجمع الأموال والسبايا) [٣].

قال أبو جعفر: وهذه القصة في أمر الأبلة وفتحها، خلاف ما يعرفه أهل السير، وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح، وإنما كان فتح الأبُلة أيام عمر ﷺ، وعلى يد عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة، وسنذكر أمرها وقصة فتحها إذا انتهينا إلى ذلك إن شاء اللَّه.

* * *

---

(١) أناموهم: قتلوهم.

(٢) يماصعهم: يقاتلهم بشدة حتى ارتدوا وانهزموا.

(٣) تاريخ الطبري (٣٠٨/٢ - ٣١٠).

موقف الفرس:

١ - الجديد في الرأي الآخر هو أن هذه المواقع التي أخذها المسلمون لم يَتَخَلَّ عنها الفرس بسهولة، إنما قاتلوا عنها بدمائهم، وجرت معارك طاحنة بينهم وبين المسلمين حتى سقطت من أيديهم.

٢ - وقد ساهم في قيادة المعارك عند الفرس أكفأ قياداتهم، ومن بلغ بهم المجد منتهاه مثل هرمز، وخاض بعضهم حروبًا هائلة مع الروم في حربهم الأخيرة أمثال هرمز وقارن وغيرهما.

٣ - وقد نشروا الظلم والرعب في آن واحد في السكان الأصليين للمنطقة، ولا سلطان يلجؤون إليه يرفع عن كاهلهم هذا الظلم، فالعبودية الكاملة خاصة على الفلاحين وأهل الضواحي الذين غدوا أُجَرَاءَ عند كبار الملاك من الفرسِ ومَنْ صانعوهم من العرب، يستعبد القوي الضعيف كما يشاء دون رادع أو زاجر.

٤ - وكان الكتاب الذي بعثه خالد ﷺ لمرازبة أهل فارس هو الشرارة التي فَجَّرَتِ الحرب، وعكفوا على دراسته بعناية، وعرفوا أنهم ليسوا أمام النماذج السابقة التي أَلِفُوها، بل هم أمام بعث جديد، وروح جديدة سرت في هذه الأمة تريد أن تغير هذا الواقع برمته، لقد جن جنون كسرى يوم جاءه خطاب النبي ﷺ، فمزق كتابه، وقال: (عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي. ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: « **مزق الله ملكه** » وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله باليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به)[١].

ولم يمر على هذا الكتاب خمس سنوات حتى كانت كتائب الإسلام تطرق أبواب فارس، وكان كتاب خالد الذي حدد الخط الجديد للبشرية على ضوء الواقع.

أ - (من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس) إذ ابتدأ خالد بنفسه إشعارًا للفرس المتعجرفين بالقوة التي تناسبهم، فليس الكتاب عن ضعف أو ذُلٍّ.

ب - (سلام على من اتبع الهدى) فالسلام والأمن والاستقرار للمهتدين، أما المحاربون والمستعبدون للناس والمستذلون لهم فلا أمن ولا استقرار لهم حتى يرفعوا عن الأمم المستعبدة نير الاستعباد والذل.

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري (ص ٣٦٢).

جـ - (أما بعد؛ فالحمد للَّه الذي فض خدمتكم، وسلب ملككم، ووهَّن كيدكم).

والاستفادة من الظروف النفسية، والواقع المرير الذي تعانيه مملكة الفرس من الهزيمة التي تجرَّعوها من الروم، لا بد أن تكون حاضرة بذهنهم، وتكون لهم عبرة في تحديد مواقفهم من أعدائهم.

د - (وإنه من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا).

ولعل هذا النص من أهم نصوص الرسالة، فالقوم هؤلاء لم يأتوا حرصًا على مال، وطمعًا في اغتصاب وفتح، ورغبةً في انتقام وثأر، القوم دعاة هدى في الوجود، ويكفي أنِ يقبل القوم هدى اللَّه والإسلام؛ حتى يعود الفاتحون أدراجهم إلى بلادهم، ويصبحوا إخوة لهم، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

هـ - (أما بعد؛ فإذا جاءكم كتابي، فابعثوا إليّ بالرهُن، واعتقدوا مني الذمة).

ولو كان الخطاب لا يحمل إلا حلين فقط الإسلام أو السيف، لَحَقَّ لكل المرجفين في الأرض أن يقولوا: إن الإسلام انتشر بالسيف. لكن وجود الحل الثالث هو الذي ينفي هذا الإفك المفترى، فبالذمة والجزية يتعايش البشر على اختلاف عقائدهم وثقافاتهم وأديانهم، ولا تراق قطرة دم واحدة، والحوار بعدها هو الطريق الوحيد للإسلام، حيث يتمكن الدعاة إلى اللَّه من إيصال شريعة اللَّه إلى خلق اللَّه كافة. لا يحول دونها طاغية أو ظالم، وبعدها فالناس أحرار في اختيار عقيدتهم، إذ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] و ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ومن حق كل عبد من عبيد اللَّه أن تصله دعوة اللَّه، ولن يسمح للطواغيت بإصرارهم على استعباد الناس والحيلولة بينهم وبين سماع شريعة اللَّه.

و - (وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة).

وإذا أصر الطواغيت على استعباد واستذلال الناس، فلن يسمح لهم بذلك، وسوف يحاربون حتى يحكم اللَّه بين الفريقين، ولا بد أن يسمع الفرس بهذا البعث الجديد في أمة العرب الذي لم يسمعوه في حياتهم من قبل خلال القرون الطوال، فالذين كانوا يأتونهم كانوا يرغبون بالحياة ورغد العيش، وما تتصدق به عليهم دولة الفرس من خيرات بلادهم يرضون به.

أما هذا البعث الجديد فهو رسالة هدى ونور للبشرية جميعًا أو مسالمة هذه الأمة لتبلغ الرسالة، أو القتال بروح جديدة، (بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)، فما لهم عند اللَّه بعد الموت أكبر بكثير من هذه الحياة الدنيا.

ولهذه المعاني جميعًا اهتم الفرس بالرسالة، وشعروا أن خلقًا جديدًا وروحًا جديدة قد بعثت بهذه الأمة.

ز - (فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون...).

(ولما قدم كتاب خالد إلى هرمز كتب بالخبر إلى شيرى بن كسرى، وإلى أردشير ابن شيرى، وجمع جموعه).

٥ - ولقد برزت عبقرية هرمز وكفاءتُه يوم عرف أن لقاء قادة المسلمين في حفير، فأسرع إليها، وحين غيَّر خالد خطته كان له من سرعة المبادرة ما يمضي إلى كاظمة قبله، ويستولي على الماء، وأعد أكفأ قادته قباذ وأنوشجان على مجنبتيه، ففي عالم الأسباب يجب أن يكون النصر لهرمز، الأكثر عددًا وعدة وخبرة وتجربة، ولم يكتف بذلك، بل أعد العدة للغدر بخالد من خلال كمين أعده إليه حين يدعوه إلى المبارزة، ولا يضيره أن يقال بأنه غدر لينتصر، فالحرب خدعة، والمهم الانتصار، وهو يعلم أن مقتل خالدٍ هو مقتل للجيش كله، كما هو العادة عندهم، وهو من طبعه الغدر والنكث، وكانت العرب تضرب مثلًا به في هذا المجال (أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز).

٦ - وفوجئ خالد ﷺ بتأخر وصول عياض إليه كما تواعدا من قبل، كما فوجئ باستيلاء العدو على الماء، والمسلمون على غير ماء، ولم يكن يَدُرْ بخلده عزم هرمز على الغدر، إنها ثغرات كبار ثلاث تجعل الترجيح لصالح الجيش الفارسي في النصر.

٧ - ولم يكن لخالد أن ييأس أو يهن، فما أعطاه اللَّه تعالى من القوة والصبر والعبقرية يجعله ابن الأزمات الكبار، الغمراتُ ثم تنجلينا، فأصدر أوامره بالقتال على الماء ساعة الوصول لساحة الحرب قائلًا: (ألا انزلوا وحطوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء إلى أصبر الفريقين، وأكرم الجندين). وتحركت الرجالة وزحفت قبل الفرسان، وأشعل القتال ساعة وصوله، فاقتتلوا قتالًا شديدًا أولًا على الماء.

ورب العزة جل جلاله يرى جنده وحزبه لم يتوانوا لحظةً واحدة عن الواجب، ولم يستجموا برهة واحدة ليستريحوا، بل كانوا منفذين لأمر قيادتهم بلا تلعثم أو تردد، وكما أنزل اللَّه الغيث في بدر وأنزله في الصحراء والدهناء ها هو ينزله في كاظمة، (وأرسل اللَّه سحابة، فأغزرت ما وراء صف المسلمين، فقواهم بها، وما ارتفع النهار وفي الغائط مقترن). فقد امتلأت كل المناطق المنخفضة بالماء، ولم تعد تتسع لمزيد، فاللَّه معهم بصورة محسوسة حية واقعة.

٨ - ونحن الآن مع بداية خط جديد نرى معالمه الآن، ثم يتكرر دائمًا في كل مرة، العدو أكثر عدة وعددًا وكفاءة، والمسلمون فئة قليلة يفاجَأون بأسلحة وخطط لم يكونوا يعرفونها من قبل، فيفتح اللَّه عليهم بخطط مكافئة، وتبرز كفاءات نادرة ما كانت لِتُعْرفَ فيهم من قبل، ويتواتر النصر معركة إثر معركة، وعلى النادر أن تقع هزيمة كاسحة تجتاحهم، بل هزيمة مؤقتة إن وقعت يعودون بعدها مباشرة لأخذ زمام المبادرة والسيطرة على ساحة المعركة.

٩ - وها هو خالد ﷺ يتقدم للمبارزة لأعلى مستويات القيادة في الإمبراطورية الفارسية، فما يمهله حتى يقتله، ويقع الغدر، وينقضُّ الكمين على خالد ليقصمه، فلم ينثن للكمين حتى أجهز على هرمز، وعيون المسلمين وعقولهم وقلوبهم ترمق المبارزة التي ستحدد مصير المعركة.

١٠ - ولم تكن عينا النسر القعقاع بن عمرو ﷺ لتغفل لحظة واحدة عن المفاجآت، أليس هو الذي قال عنه الصديق ﷺ: (لا يهزم جيش فيه مثله). وها هو الغدر أمام عينيه، وها هو الكمين يبرز لخالد لينهيه، فانقض كما ينقض النسر على فريسته ووراءه ثلة من أبطال المسلمين على ذلك الكمين الغادر، فأنهوه، وأنهوا هرمزًا، وأنهوا المعركة (وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، وجمع خالد الرثاث فيها والسلاسل فكانت وقر بعير. فسميت: ذات السلاسل، وأفلت قباذ وأنوشجان).

خلف قباذ وأنوشجان، معركة المذار:

(وقد كان هرمز كتب إلى أردشير وشيرى بكتاب خالد إليه بمسيره من اليمامة نحوه، فأمده بقارن بن قريانس، فخرج قارن من المدائن ممدًّا لهرمز حتى إذا انتهى إلى

المذار بلغته الهزيمة، وانتهت إليه الفُلَّال [١] فتذامروا، وقال فُلال الأهواز وفارس لفلال السواد والجبل [٢]: إذا افترقتم فلن تجتمعوا إذن أبدًا، فاجتمعوا على العود مرة واحدة، فهذا مدد الملك، وهذا قارن لعل اللَّه يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض ثأرنا. ففعلوا وعسكروا بالمذار، واستعمل قارن على مجنبتيه قباذ وأنوشجان وأرز المثنى والمعنى إلى خالد بالخبر، ولما انتهى الخبر إلى خالد عن قارن قَسَّمَ الفيء على من أفاءه اللَّه عليه ونفل الخمس ما شاء اللَّه، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبي بكر، وبالخبر عن القوم وباجتماعهم... مع الوليد بن عقبة... وخرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النباش فابتدراه، فسبقه إليه معقل، فقتله، وقتل عاصم الأنوشجان، وقتل عدي قباذ، وكان شرف قارن قد انتهى.

ثم لم يقاتل المسلمون بعده أحدًا انتهى شرفه في الأعاجم، وقُتلت فارس مقتلة عظيمة، فضموا السفن، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم، وأقام خالد بالمذار، وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت، وقسم الفيء، ونفل من الأخماس أهل البلاء، وبعث ببقية الأخماس، ووفد وفدًا مع سعيد بن النعمان أخي بني عدي بن كعب.

قال أبو جعفر: حدثنا عبيد اللَّه قال: حدثنى عمي عن سيف عن محمد بن عبد اللَّه عن أبي عثمان قال: قتل ليلة المذار ثلاثون ألفًا سوى من غرق، ولولا المياه لأتي على آخرهم، ولم يفلت منهم مَنْ أفلت إلا عراة وأشباه العراة.

وقال سيف عن الشعبي: كان أول من لقي خالدًا مهبطه العراق هرمز بالكواظم، ثم نزل الفرات بشاطئ دجلة، ثم الثني، ولم يلق بعد هرمز أحدًا إلا كانت الوقعة الأخيرة أعظم من التي قبلها حتى أتى دومة الجندل، وزاد سهم الفارس في يوم الثني على سهمه في ذات السلاسل، فأقام خالد بالثني بسبي عيالات المقاتلة، ومن أعانهم، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دعوا، وكل ذلك أخذ عنوة، ولكن دعوا إلى الجزاء فأجابوا وتراجعوا، وصاروا ذمة، وصارت أرضهم لهم، كذلك جرى ما لم يقسم، فإذا اقتسم فلا) [٣].

---

(١) الفلال: الهاربون من المعركة.

(٢) فلال السواد والجبل: العرب الهاربون والفلاحون المقاتلون الذين ضمهم الفرس إلى الجيش.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣١١، ٣١٢).

ونقف عند ثلاث جمل من هذه الوقعة الجديدة:

١ - (وخرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد، وأبيض الركبان... فسبقه إليه فقتله، وقتل عاصم الأنوشجان، وقتل عدي قباذ).

فليست البطولة حكرًا على خالد القائد، فقد سبق معقلُ بن الأعشى خالدًا إلى قارن فقتله، كما قتل القائدان الآخران من عاصم وعدي، وبمقتل القادة الثلاثة انتهت المعركة.

٢ - (ولم يَلْقَ بعد هرمز أحدًا إلا كانت الوقعة الأخيرة أعظم من التي قبلها)، فالنصر يجلب النصر، والمعنويات ترتفع، ومعية اللَّه سبحانه مع المؤمنين، ويمضي الفتح صعدًا لا يقف، ويأتي أعظم القادة عندهم إلى مصارعهم على أيدي المسلمين.

٣ - (وأقر الفلاحين إلى ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دعوا، وكل ذلك أخذ عنوة، ولكن دعوا إلى الجزاء فأجابوا وتراجعوا، وصاروا ذمة، وصارت أرضهم لهم).

فنحن إذن أمام حرب تحرير لشعوب الأرض، والمستضعفين من كل مكان، هؤلاء الفلاحون الذين تَحَوَّلُوا إلى أجراء من مستعمريهم القدامى الفرس، هؤلاء تعود أرضهم لهم، وَيُكَفُّون الدفاع عنها بالجزية والخراج، لكن يحسون بإنسانيتهم من جديد، وبعودة أراضيهم لهم بعد حرمان. إنها حرب تحرير من العبودية، وكان من الممكن أن يتحول المسلمون إلى طبقة إقطاعية تخلد إلى الأرض، وتفرز الظلم والاستبداد من جديد، ولكن الإسلام جاء كما حدد الصحابي العظيم:

(لِنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) (١).

وجاء التطبيق العملي لتألق النصر من جديد، من خلال المعركة الجديدة مع قيادات الفرس:

الأندرزغر وبهمن جاذويه:

السري عن شعيب عن سيف، عن المهلب بن عقبة وزياد بن سرجس وعبد الرحمن ابن سياه:

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠١/٢).

(لما وقع الخبر بأردشير بمصاب قارن وأهل المذار، أرسل الأندرزغر - وكان فارسيًّا من مولدي السواد - ولم يكن ممن ولد في المدائن ولا نشأ بها، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش، وأمره أن يعبر طريق الأندرزغر، وكان الأندرزغر قبل ذلك على فرج خراسان، فخرج الأندرزغر سائرًا من المدائن حتى أتى كسكر ثم جازها إلى الولجة، وخرج بهمن جاذويه في أثره، وأخذ غير طريقه، فسلك وسط السواد، وقد حشر إلى الأندرزغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين، فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة، فلما اجتمع له ما أراد واستتم أعجبه ما هو فيه، وأجمع السير إلى خالد، ولما بلغ خالدًا وهو بالثني خبرُ الأندرزغر ونزوله الولجة، نادى بالرحيل، وخلَّف سويد بن مقرن، وأمره بلزوم الحفير، وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة، وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة، وترك الاغترار، وخرج سائرًا في الجنود نحو الولجة حتى ينزل على أندرزغر وجنوده وَمَنْ تَأَشَّبَ إليه)[(١)].

لم يتحرك خالد ﷺ إلا وهو مطمئن إلى أن الساحة كلها مضيئة أمامه، لم يندفع إلى عدوه فقط وخلَّى ظهره عاريًا؛ فقد يأتي عدو من خلفه ويحتل ما حرره؛ فلذلك أبقى الثني بقوة تحت إمرة سويد بن مقرن، كما بعث قوة أخرى إلى أسفل دجلة، وكانت وصاياه الحذر الدائم وعدم الاغترار، واليقظة المستمرة، فمضى وظهره مَحْمِيٌّ من العدو وهو كفيل بمواجهة الجيوش الجرارة، وحيث فاجأه الكمين مع هرمز من قبل، فاستعمل سلاح العدو نفسه وترك كمينًا له يرقب المعركة وَيَنْقَضُّ في اللحظة المناسبة.

(ونزل خالد على الأندرزغر في صفر، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ، واستبطأ خالد كمينه، فخرج الكمين في وجهين، فانهزمت صفوف الأعاجم، وَوَلَّوا، فأخذهم خالد من بين أيديهم، والكمين من خلفهم، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه، ومضى الأندرزغر في هزيمته فمات عطشًا... وسار خالد بسيرته بالفلاحين فلم يقتلهم، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمة فتراجعوا)[(٢)].

ما هو الجديد في هذه المعركة؟

الأول: لقد كان الفرس مقاتلين أشداء قد خبروا الحرب وجربوها، وتكفينا شهادة خالد ﷺ في هذا المجال: (قاتلت الروم والعرب والفرس، فلم أجد أشد من قتال

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣١٢/٢، ٣١٣).

الفرس). وهذا يفسر لنا قول الراوي: (فاقتتلوا بها قتالًا شديدًا حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ). ولعله لولا كمين خالد ﷺ لَوَهَنَ المسلمون.

ولا بد أن يدرك الجيل الراشد هذا المعنى. فلقد قال القرآن لقيادة هذا الجيل: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقال لقيادة هذا الجيل: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولا شك أن هذه المعاني كان القادة يبثُّونها في صفوف الجند المقاتلين، الجيل الثاني بعد جيل الصحابة؛ لأنه كما مر معنا قد استعفى الكثير من قيادات الأنصار وعادوا إلى المدينة، حيث خيرهم خالد ﷺ بأمر الصديق، ومسؤولية الجيل الرائد أن يقوم بتربية هذا الجيل الجديد الفَتِيِّ، وَصَهْرِه في بوتقة الإسلام العظيم عقيدةً وسلوكًا.

الثاني: نرى خالدًا ﷺ سيف اللّه يشير إلى معنًى جديد يعبئ به كل الطاقات البشرية بلا استثناء، وليس حديث الجنة فقط، وما أحوجنا إلى أن ندرك هذا المعنى، فلا نتطرف، ولا نتهور ونتصور الناس كلهم ملائكة لا يحبون إلا الجنة.

فالقرآن الكريم ابتداءً حين وعد بالجنة وعد بالنصر مع الغنيمة كذلك.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

وهذا المعنى الجديد الذي عبأه خالد ﷺ في نفوس المقاتلة هو الرغبة في الدنيا مع الآخرة والجنة.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وهذا هو مغزى خطبة خالد ﷺ.

(وقام خالد في الناس خطيبًا يرغِّبهم في بلاد العجم، ويزِّهدهم في بلاد العرب وقال:

ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب، وباللّه لو لم يلزمنا الجهاد في اللّه، والدعاء إلى اللّه ﷻ، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن تُقَارَعَ على هذا الريف حتى نكون أولى

به، وَنُولِي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه) [١].

الثالث: وبمقدار ما حقق العدالة في الأرض، وأعطى الفلاحين حقوقهم، بمقدار ما كان شديدًا بأسه على المقاتلين، فلغة الحرب تعني إرهاب العدو والنكاية فيه.

﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا الجبار العنيد من أبطال العدو الذي كان يثخن في المسلمين ويذبح فيهم بارزه خالد وقتله.

وكان يُحْسَبُ بألف رجل عند الفرس، ويريد خالد ﷺ أن يبعث رسالة إلى كل أبطال العدو، ويعلمهم مصيرهم على يديه، فكان هذا المنظر الرعيب الرهيب للعدو:

(عن الشعبي قال:

بارز خالد يوم الولجة رجلًا من أهل فارس يُعدل بألف رجل فقتله، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه) [٢].

الرابع: ولكن رسالة أخرى يريد أن يرسلها خالد إلى القيادات العربية التي تمالئ الفرس، فكان أسر ولدي أكبر قائدين عربيين هدفًا عاليًا عنده، وتحقق هذا الهدف.

وأصاب في أناس من بكر بن وائل ابنًا لجابر بن بجير، وابنًا لعبد الأسود.

وراء بهمن جاذويه وخبر أليس:

لئن مات الأندرزغر عطشًا وهلك جيشه، لكن بهمن جاذويه مَدَدُهُ لا يزال حيًّا، وراح يمضي يعبئ العرب والفرس لمواجهة جند اللّه في الأرض.

(السري عن شعيب عن سيف...).

ولما أصاب خالد بن الوليد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم، فاجتمعوا إلى أُلَّيس، وعليهم عبد الأسود العجلي، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل: عتيبة بن النهاس وسعيد بن مرة وفرات بن حيان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي، وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه وهو بِقُسْيَاثَا...: أن سر حتى تقدم أُلَّيْس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب، فقدم بهمن جاذويه جابان وأمره بالحث وقال:

---

(١) تاريخ الطبري (٣١٢/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣١٣/٢).

كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك.

فسار جابان نحو أليس وانطلق بهمن جاذويه إلى أردشير ليحدث بها عهدًا، وليستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضًا، وعرَّج عليه، وأخلى جابان لذلك الوجه، ومضى حتى أتى أليس فنزل بها في صفر، واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب، وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان جابر بن بجير نصرانيًا فساند عبد الأسود...) (١).

لقد نجا بهمن جاذويه من الموت حين لم يلتحق بجيش الأندرزغر بمدده الذي بعثه به أردشير، ثم تفلَّت ثانية حين صدرت إليه الأوامر من إمبراطور الفرس أردشير أن يمضي مع نصارى العرب لمواجهة العرب المسلمين، ولا بد من تنفيذ الأمر، ترى أكان يتهرب من لقاء خالد، ويخشى الهزيمة التي تنهي حياته أو تنهي مَجْدَهُ العسكري؟! ليس ذلك بعيدًا، ومن أجل هذا تَعَلَلَ بالذهاب إلى المدائن ولقاء كسرى. (وانطلق بهمن جاذويه ليحدث به عهدًا، وليستأمره فيما يريد أن يشير به، فوجده مريضًا)، وكانت القيادة لجابان الذي حصد هذا المصير المشؤوم.

ولا بد لنا من تجلية ظاهرة طالما طمسها دعاة القومية العلمانيون، فهم يطرحون على الناس دائمًا أن العرب النصارى انضموا إلى المسلمين ضد الغزاة من الروم والفرس، ويقدمونها على أنها حقائق تاريخية لا تقبل الجدل، والحقيقة ليست كذلك، وإن كان فيها جزء يسير من الصحة، نشهده فيما بعد، لكن المؤكد أن العرب المسلمين حاولوا استمالة العرب النصارى إلى صفهم، وحركوا فيهم النخوة العربية، لكن الذين استجابوا لذلك كانوا أقلية نادرة.

وحين نذكر أول معركة مع الروم في مؤتة تؤكد كتب السيرة أن مائة ألف من العرب كانوا يقاتلون بجوار الروم فيها، ويذكرون القبائل التي شاركت فيها (وانضمت إليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة ألف منهم عليهم رجل من عذرة، ثم أحد إراشة يقال له: مالك بن رافلة...) (٢) وشهدنا الحروب السابقة التي قاتل فيها العرب بجوار الفرس، وها نحن نشهدهم هنا؛ إذ الجيش كله عربي بقيادة فارسية.

---

(١) تاريخ الطبري (٣١٣/٢).

(٢) المصدر نفسه (١٥٠/٢).

(واجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب، وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان جابر ابن بجير نصرانيًا، فساند عبد الأسود، وقد كان خالد بلغه تجمع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشب إليهم، فنهد لهم ولا يشعر بدنو جابان، وليست لخالد همة إلا مَنْ تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم) [1]، وَقَدَّمَتِ العرب غرر قياداتهم التي برزت في الجاهلية لتواجه المدَّ الإسلامي العربي.

مسار المعركة:

(... فلما طلع على جابان بأليس قالت الأعاجم لجابان: أنعاجلهم أم نُغَدِّي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ؟ فقال جابان: إن تركوكم والتهاون بكم فتهاونوا، ولكن ظَنِّي بهم أنهم سيعجلونكم، ويعجلونكم عن الطعام. فعصوه وبسطوا البسط، ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها، وتوافوا عليها، فلما انتهى خالد إليهم وقف وأمر بحط الأثقال، فلما وُضِعت توجه إليهم، ووكل خالد بنفسه حوامي يحمون ظهره، ثم ندر أمام الصف فنادى:

أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ (رجل من جذرة) فنكلوا عنه جميعًا إلا مالكًا، فبرز له، فقال له خالد: يا ابن الخبيثة، ما جرأك عليَّ من بينهم وليس فيك وفاء؟ فضربه فقتله. وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا، فقال جابان:

ألم أقل لكم يا قوم؟! أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم. فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلدًا: ندعها حتى نفرغ منهم، ونعود إليها. فقال جابان: وأيضًا أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون. فالآن أطيعوني، سُمُّوها، فإن كانت لكم فأهون هالك، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئًا وأبليتم عذرًا. فقالوا: لا. اقتدارًا عليهم، فجعل جابان على مجنبتيه عبد الأسود وأبجر، وخالد على تعبئته في الأيام التي قبلها، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، والمشركون يزيدهم كَلَبًا وشدة ما يتوقعون من قدوم جاذويه، فصابروا المسلمين للذي كان في علم الله أن يضرّهم إليه، وَحَرِبَ المسلمون عليهم [2] وقال خالد: اللَّهمَّ إن لك عليَّ

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣١٣).

(٢) حَرِب المسلمون عليهم: غضبوا واشتد قتالهم.

إن مَنَحْتَنَا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم!

ثم إن اللَّه ﷻ كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديه، فنادى في الناس: الأسر الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع. فأقبلت الخيول بهم أفواجًا مستأسرين يساقون سوقًا، وقد وكل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب أليس، فضرب أعناقهم، وقال له القعقاع وأشباه له: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان، ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تَبَرَّ بيمينك. وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده، فجرى دمًا عبيطًا، فسمي نهر الدم لذلك الشأن.

ولما هزم القوم وَأُجْلُوا عن معسكرهم، ورجع المسلمون من طلبهم، ودخلوه، وقف خالد على الطعام فقال: قد أنفلتكموه فهو لكم. وقد كان رسول اللَّه ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفله، فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل، وجعل من لم يعرف الأرياف ولم يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاق البيض؟ وجعل من عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحًا: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم. فيقول: هو هذا. فسمي: الرقاق، وكانت العرب تسميه: القِرى.

وعن المغيرة قال: كانت على النهر أرحاء فطحنت بالماء وهو أحمر قوت العسكر، ثمانية عشر ألفًا أو يزيدون ثلاثة أيام، وبعث خالد بالخبر مع رجل يدعى جندلًا من بني عجل، وكان دليلًا صارمًا، فقدم على أبي بكر بالخبر، وبفتح أليس، وبقدر الفيء، وبعدة السبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس، فلما قدم على أبي بكر فرأى صرامته وثبات خَبَرِهِ قال: ما اسمك؟ قال: جندل. قال: ويها جندل!

نفس عصام سودت عصامًا وعوَّدَتْه الكَرَّ والإقداما

وأمر له بجارية من ذلك السبي، فولدت له.

قال: وبلغت قتلاهم سبعين ألفًا جلُّهم من أمغيشيا.

قال أبو جعفر: حدثنا عبيد اللَّه قال: حدثني عمي، عن سيف، عن محمد، عن

أبي عثمان وطلحة، عن المغيرة قال: لما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا، وقد أعجلهم عما فيها، وقد جلا أهلها وتفرقوا في السواد، ومن يومئذ صارت السكرات في السواد، فأمر خالد بهدم أمغيشيا، وكل شيء كان في حيزها، وكانت مصرًا كالحيرة، وكان فرات بادَقْلَى ينتهي إليها، وكانت أُلَّيْس من مسالحها، فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط..

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن بحر بن الفرات العجلي عن أبيه قال: لم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا، بلغ سهم الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النفل الذي نفله أهل البلاء، وقالوا جميعًا قال أبو بكر رحمه الله حين بلغه ذلك:

يا معشر قريش! يخبرهم بالذي أتاه:

عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد؟!) [1].

* * *

١ - (وليست لخالد همة إلا عرب الضاحية).

فهذه القيادات التي تتحدى الجيش الإسلامي من العرب لم يجد خالد لها عذرًا في هذا الموقف، ويريد أن يوقف هذا النزيف العربي بقتل قادتهم الذين يوردونهم التهلكة، ويمعنون في ذبح العرب إرضاءً لعيون العجم، ويقبلون أن يكونوا عملاء لهم، أليست بكر بن وائل هي التي قادت معركة ذي قار من قبل مع شيبان؟ ما بالهم اليوم يرضون أن يكونوا ضحايا لهم؟

٢ - جابان الذي كان صدًى لصورة الإسلام عند الفرس، وعنجهية عوامهم الذين يحتقرون العرب رفضوا تنفيذ أمر قائدهم جابان، والذي أكد لهم أن خالدًا لن يدعهم يهنؤون بطعام ولا شراب، وأظهروا تهاونًا بهذه التحذيرات، فعاجلهم خالد رضي الله عنه على طعامهم، وبلغ استعلاؤهم مداه أن سنقاتل المسلمين ثم نعود إلى طعامنا، ورفضوا

(١) الطبري (٣١٥/٢).

ثانية نصيحة قائدهم جابان في سم الطعام؛ لعلهم يقتلون المسلمين بهذا السم، لكنهم كانوا واثقين من انتصارهم، فأبوا ذلك، وطعامهم أهم عندهم، سيعودون إليه بعد النصر، ولم يكونوا يعلمون أنهم يحفرون قبورهم بأيديهم، وأنهم يُساقُون إلى مَصَارعهم، وصدقهم جابان وسفهوه وكذبوه وأعلن لهم خبيئة قلبه:

ألم أقل لكم يا قوم؟ واللَّه ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى ذلك اليوم.

فرهبة خالد تتلظى في أعماقه، وهم لا يدركون مَنْ يواجهون.

٣ - وكانت المبارزة.. ولقي مالك بن قيس أحد القادة الثلاثة مصرعه حين نكص قائدا المجنبتين العرب عبد الأسود وأبجر عن مواجهة خالد وتحديه لهما بالمبارزة، وهما قصده، ولكل منهما أسير لدى خالد، ولداهما اللذان أخذهما في المعركة السابقة، وكانت معركة حامية الوطيس رغم كل البدايات التي توحي بأنها معركة سهلة، حيث فاجؤوهم وهم على طعامهم.

(فاقتتلوا قتالًا شديدًا).

وسبب هذا الاقتتال الشديد وصبر الفرس على الحرب هو أملهم بقدوم مدد بهمن جاذويه.

ولا أدل على شدة الهول في هذه المعركة من نذر خالد ﵁:

(اللَّهمَّ إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم).

وما كان ليقدم على هذا النذر لو لم يصل إلى مرحلة قريبة من اليأس من الانتصار عليهم.

ومن جانب آخر، فقد بقيت هذه المعركة محفورة في أعماقه دون كل المعارك الأخرى التي خاضها في حياته حيث قال:

(ما لقيتُ قومًا كأهل فارس، وما لقيت من أهل فارس كأهل أليس) [(١)].

والدليل الرابع على هول هذه الحرب هو عدد القتلى فيها.

(وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا، وكانت الوقعة في صفر) [(٢)].

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٤٤)، دار الكتب العلمية. (ط٣)، (١٤١٨هـ).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٤٤).

٤ – ولم يتمكن خالد ﷺ من الوفاء بنذره إلا بعد أن فتح الماء على الدماء حتى جرت؛ لأنها تترقرق في مكانها ولا تجري، ولم يكن ذلك عجبًا، فكما اتكأ خالد على جثة البطل العدو وهو يتغدى أراد أن يجري الأرض بدمائهم، فالحرب لا تعرف إلا منطق الغلظة والشدة، وما لم تدخل الرهبة ويدخل الرعب على قلب العدو، فلا يمكن أن يهدأ أو يسالم، ولو تمكن من المسلمين لما رعى فيهم إلًّا ولا ذمة. وفي الوقت الذي يُحَرَّرُ المستضعفون في الأرض لأول مرة في التاريخ على يد المسلمين وهم الفلاحون الآمنون ويملكون أرضهم، في الوقت نفسه يقاتل الطغاة وجنودهم وتجري الأنهار بدمائهم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

٥ – بالتأكيد لم يثبت خالد وحده في المعركة، إنما صبر معه الجيل الرائد كله، ولم يتخلوا عنه، ولم يجبنوا ولم يتخاذلوا، وبقوا معه حتى آخر ساعة من المعركة، ولقوا أهوالها وشدائدها. ونحن حين لا ننفي عظمة القائد والروح التي تسري في جنوده من جَرَّاء صبره وثباته لا يدفعنا هذا إلى المبالغة في دوره بحيث نلغي دور الأمة المجاهدة معه، فلكلٍّ فضله وسابقته، ومن أجل هذا استحقت الأمة كلها أن ترث الأمم السابقة، وتأخذ مِقْود القيادة منها، فحين انتهت المعركة (وقف خالد على الطعام فقال: (قد نفلتكموه فهو لكم). مقتديًا برسول اللَّه ﷺ في خيبر حين نفل الطعام للمسلمين، فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل) كما هم متساوون في السراء متساوون في الضراء، لم يؤخذ الحيز الأكبر منه للقيادة، وبقي القسم الضئيل للجيش، فلا تفاوت هنا بين أحد، حتى إن بعض المسلمين – بل أكثرهم – لم يكن قد رأى في حياته هذه الرقاق البيض من الخبز الشهي، ولم يكن ذاقه، فلم يعرف اسمه، حتى راح من يعرفه يقول لمن يجهله: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم. فيقولون: هذا. وفي نظرة من بعيد على هذه الأمة الوارثة، وكأنا نأخذ لها لقطة تليفزيونية وهي تتناول عشاءها بعد هذه الأهوال، وترث الطعام الذي كان معدًّا للمشركين، كأن هذه اللقطة النادرة وجد مكتوبًا عليها.

وفي الجانب الآخر كانت اللوحة الثابتة: ﴿ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ... ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

إنها أمة ترث أمة، وتحقيق لموعود اللَّه في الأرض.

(فقدم على أبي بكر بالخبر، وبفتح أليس، وبقدر الفيء، وبعدة السبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس.

٦ - وكانت ثمرة ذلك الجهاد المضني في أليس أن سقطت أمغشيا بلا قتال، بكل ما تملك من خيرات وثروات).

(فأصابوا فيها ما لم يصيبوا بمثله قط... بلغ سهم الفارسى ألفًا وخمسمائة، سوى النفل الذي نفله أهل البلاء).

لقد كان الصديق ﷺ يقود الأمة في هذه الوراثة - وهو سيد ولد آدم بعد الأنبياء والمرسلين - بكتاب اللَّه تعالى، وشرعة الدين الذي أكمله اللَّه تعالى لهذه الأمة، ولم يكن بعد عليها إلا أن تتحرك بهذا الكتاب وتسيح في الأرض، وتفتح الأقطار، وكان قَدَرُ اللَّه لهذه الأمة أن هَيَّأَ لها رجالًا عظامًا لم يجد التاريخ مثلهم في الزمان وفي المكان، وكان خالد ﷺ رائدًا في قمة هذه النماذج حتى ليبلغ من إعجاب الصديق بعبقريته وكفاءته النادرة أن قال عقب هذه الفتوحات: (أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد؟!).

حديث يوم المقر وفم فرات بادَقْلَى:

(ثم سار خالد من أمغشيا إلى الحيرة، وحمل الرجال والأثقال في السفن، فخرج مرزبان [(١)] الحيرة وهو الأزاذبه [(٢)]، فعسكر عند الغَرِيَّين [(٣)]، وأرسل ابنه فقطع الماء عن السفن، فبقيت على الأرض، فسار خالد في خيل نحو الأزاذبه، فلقيه على فرات بادقلى [(٤)]، فضربه وقتله وقتل أصحابه، وسار نحو الحيرة، فهرب منه الأزاذبه، وكان قد بلغه موت أردشير وقتل ابنه فهرب بغير قتال) [(٥)].

سقوط الحيرة عاصمة العراق:

(ونزل المسلمون عند الغريين، وتحصن أهل الحيرة، فحصرهم في قصورهم.

---

(١) المرزُبة: رياسة الفرس. وهو مرزُبانُهم، أي: رئيسهم.

(٢) الأزاذبه: اسم ملك الحيرة الفارسي.

(٣) الغريّان: بناءان كالصومعتين كانا بظهر الكوفة قرب القبر الذي يقال له: قبر علي.

(٤) فرات بادقلى: الكلمة فارسية وأصلها بودقلى ومعناه بالفارسية: المتفرع، ويكون المعنى عند تفرع الفرات.

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٤٢/٢).

وكان ضرار بن الأزور محاصرًا القصر الأيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي.

وكان ضرار بن الخطاب محاصرًا قصر الغريين، وفيه عدي بن عدي المقتول.

وكان ضرار بن مقرِّن المزني عاشر عشرة إخوة محاصرًا قصر ابن مازن، وفيه ابن أكال.

وكان المثنى محاصرًا قصر ابن بقيلة، وفيه عمرو بن المسيح بن بقيلة.

فدعوهم جميعًا وأجلوهم يومًا وليلة، فأبى أهل الحيرة، وقاتلهم المسلمون، فافتتحوا الدور والأديار، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور، كان يقتلنا غيركم.

فنادى أهل القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث وهي: إما الإسلام، وإما الجزية، أو المحاربة. فَكَفُّوا عنهم) [1].

ولا بد لنا من الوقفة عند الحيرة وعند أبطالها المسلمين الذين يحاصرون قصورها.

نعيد إلى الذاكرة إسلام عدي بن حاتم كما وردت في الصحيح:

(من حديث أبي عبيدة بن حذيفة عن عدي بن حاتم ﷺ عنه قال أبو عبيدة: كنت أحدِّثُ عن عدي بن حاتم، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة فلو أتيته. فكنت أنا الذي أسمعه منه، فأتيته فقلت: إنّي كنت أحدث عنك حديثًا، فأردت أن أكون أنا الذي أسمعه منك. قال:

لما بعث اللَّه ﷻ النبي ﷺ فررت منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم.

قال: فكرهت مكاني الذي أنا فيه، حتى كنتُ أشدَّ كراهية له مني من حيث جئت، فقلت: لآتين هذا الرجل، فواللَّه، إن كان صادقًا لأسمعن منه، وإن كان كاذبًا فما هو بضائري.

قال: فأتيته، واستشرفني الناس، وقالوا: عدي بن حاتم، عدي بن حاتم (قال: أظنه قال ثلاث مرار). فقال لي (أي: رسول اللَّه ﷺ): « **يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم** ».

قال: قلت: إني من أهل دين. قالها ثلاثًا.

قال: « **أنا أعلم بدينك منك** ».

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٤٣).

قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟

قال: « **نعم، أليس ترأس قومك؟** ».

قلت: بلى. قال: فذكر محمد الركوسية، وقال: « **فإنه لا يحل في دينك المرباع** » [١].

فلما قالها تواضعت لها قال: « **وإني أرى مما يمنعك خصاصة ترى من حولي، وأن الناس علينا إلبًا** [٢] **واحدًا، هل تعرف مكان الحيرة؟** ».

قال: سمعت بها ولم آتها.

قال: « **لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز تفتح** ».

قلت: كسرى بن هرمز؟؟!!

قال: « **كسرى بن هرمز** ». ثلاث مرات.

قال: « **وليوشكن أن يبتغي من يُقْبَلُ منه ماله صدقة فلا يجد** ».

قال: فلقد رأيت اثنتين، قد رأيت الظعينة تخرج من الحي بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل التي أغارت على المدائن.

وايم اللَّه، لتكون الثالثة أنه لحديث رسول اللَّه ﷺ حدثنيه) [٣].

وفي رواية ابن إسحاق في السيرة:

« **ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه** (أي: الدين) **أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم اللَّه، ليوشكن أن نسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم** ».

قال: فأسلمت) [٤].

لم يَمْضِ على موعود رسول اللَّه ﷺ أربع سنين إلا وكانت القصور في الحيرة محاصرة من حزب اللَّه، حيث ابتدأ السلطان ينهار من غيرهم لهم، وهذه الحيرة موطن عز الجاهلية أيام النعمان بن المنذر تغدو تعلن استسلامها لجند اللَّه في الأرض.

---

(١) المرباع: يأخذ ربع الغنيمة ولا يحل له ذلك. (٢) إلبًا: مجتمعين علينا.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة لإبراهيم العلي (ص ٤٦٠) وقال فيها: أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٧٧/٤، ٣٧٨) وإسناده حسن وغيره.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، مجلد واحد (١٧٥/٤).

كذلك لا بد أن نتعرف على القادة الأربعة الذين يحاصرون قصور الحيرة:

أما المثنى بن حارثة فقد سبق وتحدثنا عنه.

أما هؤلاء القادة الثلاثة فهم الضرارون الثلاثة:

١ - ضرار بن الأزور:

لقد فتح اللَّه قلبه للإسلام وهو سيد من سادات بني أسد بن خزيمة وأثريائهم، فقد روى لنا البغوي عنه قوله: (بعثني أهلي إلى النبيّ ﷺ بلقوح [١]...) [٢] وكانت إحدى هذه اللقاح كلفه رسول اللَّه ﷺ بحلبها.

(فأمرني رسول اللَّه ﷺ فجهدت حلبها، فقال: « **دع داعي اللبن** ».

ثم مرَّ به الزمن، وأصبح جنديًا في الجيش الإسلامي، وبرزت قوته وَفُتُوَّتُهُ وانصرف عن ثروته وتجارته، فيقال: (إنه كان له ألف بعير برعاتها، فترك جميع ذلك. ويقال: إن النبي ﷺ أرسله في منع الصيد في بني أسد، واختلف في وفاته) [٣]).

(وكان فارسًا شجاعًا شاعرًا مطبوعًا... ولما قدم على رسول اللَّه ﷺ أنشد:

خلعت القداح وعزف القيا ... ن والخمر أشربها والثمالا
وكري المحبر في غمرة ... وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلة بدَّدْتنا ... وطرَّحت أهلك شتى شمالا
فيا رب لا أغبنن صفقتي ... فقد بعت أهلي ومالي بدالا

فقال ﷺ: « **ما غبنت صفقتك يا ضرار** ».

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: قتل ضرار بن الأزور يوم أجنادين في خلافة أبي بكر. وقال غيره: توفي ضرار بن الأزور في خلافة عمر في الكوفة) [٤].

٢ - ضرار بن الخطاب الفِهري:

وإذا كان ضرار الأول أسديًا فضرار الثاني قرشي صميمي سيد بني فهر وزعيمها. وكان أبوه الخطاب بن مرداس رئيس بني فهر في زمانه، وكان يأخذ بالمرباع

---

(١) اللقوح: جمع لقاح، وهي الناقة الولود المرضعة.

(٢ ، ٣) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني، (١/٢٦٥)، ت (٤٣٣٣).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (١/٣٥٤)، ت (١٢٤٥).

لقومه، وكان ضرار بن الخطاب يوم الفِجار على بني محارب بن فهر، وكان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجوِّدين، حتى قالوا: ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم، وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق.

قال الزبير بن بكار: (لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبعري. قال الزبير: ويقدمونه على ابن الزبعري لأنه أقل منه سقطًا وأحسن صنعة...) [(١)].

(قال أبو عمر: كان ضرار بن الخطاب من مسلمة الفتح، ومن شعره في يوم الفتح:

يا نبيّ الهدَى إليك لجا ... حيُّ قريش ولَات حِين لجاءِ
حينَ ضاقت عليهمُ سَعةُ الأر ... ض وعادَاهمُ إله السَّماء
والتقَتْ حلقتَا البِطَان [(٢)] علَى القوْ ... م ونُودوا بالصيْلم [(٣)] الصلْعاء [(٤)]
إن سَعدًا يريد قاصِمة الظَّهـ ... ـر بأهل الحَجُون والبطْحاء) [(٥)]
خَزرجِيٌّ لو يستطيع من الغيـ ... ـظ رمَانا بالنسْر [(٦)] والعوَّاءِ [(٧)]
وغر الصدْر لا يهمُّ بشَيء ... غير سفك الدما وسبي النساء
قد تلظَّى على البِطَاح وجاءت عنه ... هِند بالسَّوأة السوآء [(٨)]
إذ يُنَادي بِذُلِّ حيِّ قُريش ... وابنُ حَرب بذَا مِنَ الشُّهداء
فلئن أقْحَم اللِّواء ونَادى ... يا حُماة الأَدبَاء أهل الِّلواء
ثم ثَابت إليه من بهم الخزْ ... رَج والأوْسُ أنجم الهَيْجاء
لتكونَن في البطَاح قريش ... فقْعة القاع [(٩)] في أكُف الإماء
فانهَيَنَّهُ فإنّه أَسدُ الأسْـ ... ـد لدَى الغَابِ وَالغٌ فِي الدماء
إنه مُطرق يريد لنا الأمـ ... ـر سكوتًا كالحيَّة الصماء) [(١٠)]

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن حجر، ت (١٢٤٤)، (ص ٣٥٣).
(٢) التقت حلقتا البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير. ويقال هذا للأمر إذا اشتد.
(٣) الصيلم: الداهية والقطيعة.
(٤) الصلعاء: الداهية والأمر الشديد.
(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (١٢٤٤)، (ص ٣٥٣).
(٦ ، ٧) النسر والعواء: نجمان في السماء.
(٨) السوءة السوآء: الخلة القبيحة.
(٩) فقعة القاع: ضرب من الكمأة وهي البيضاء الرخوة. يشبه به الرجل الذليل.
(١٠) بقية الأبيات من: سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/٣٣٦).

وقد أرسلت قريش امرأة بهذه القصيدة فأنشدتها أمام رسول اللَّه ﷺ تسترحمه (فأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى سعد فنزع اللواء من يده، وجعله إلى ابنه قيس بن سعد، ورأى رسول اللَّه ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه) [١].

وهو مثل قائده خالد، قتل عشرة من المسلمين في أحد، فقد (اختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد، فمر بهم ضرار بن الخطاب، فقالوا: هذا شهدها وهو عالم بها. فبعثوا إليه فتًى منهم فسأله عن ذلك فقال: لا أدري ما أوسكم من خزرجكم، ولكني زوجت يوم أحد منكم أحد عشر رجلًا إلى الحور العين) [٢].

٣ - ضرار بن مقرّن المزني:

وهو عاشر عشرة إخوة كلهم أبطال صناديد مقاتلون في سبيل اللَّه.

وصفهم عبد اللَّه بن مسعود ﷺ بقوله:

(إن للإيمان بيوتًا، وإن للنفاق بيوتًا، وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان) [٣].

كلهم هاجروا إلى اللَّه ورسوله. قال مصعب: (هاجر النعمان بن مقرن ومعه سبعة إخوة له) [٤] وكانوا يعيشون حياة الكفاف والجهاد. يقول سويد بن مقرن:

(لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، فَلَطَمَهَا أصغرنا، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نعتقها) [٥].

(وذكر سيف والطبري أن خالد بن الوليد أمَّرَه لما حاصر الحيرة، وذلك سنة اثنتي عشرة، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة) [٦].

وعودة إلى حصار الحيرة.

الحيرة تستسلم للمسلمين:

(... فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور، ما يقتلنا غيركم.

فنادى أهل القصور: يا معشر العرب، قد قبلنا واحدة من ثلاث، فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالدًا.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/٣٣٦).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (١٢٤٤)، (ص ٣٥٤).

(٣ - ٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (٢٥٨٩).

(٦) المصدر نفسه، وقال فيه المصحح: أخرجه مسلم (١٦٥٨/٣٢).

فخرج إياس بن قبيصة الطائي وأخوه إلى ضرار بن الأزور، وخرج عدي بن عدي وزيد بن عدي إلى ضرار بن الخطاب وعدي الأوسط الذي رثته أمه وقتل يوم ذي قار، وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكال هذا إلى ضرار بن مقرن، وهذا إلى المثنى ابن حارثة، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن أبي عثمان وطلحة عن المغيرة قالا:

كان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح... فأرسلهم الرؤساء إلى خالد، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين، وبدأ بأصحاب عدي وقال: ويحكم! ما أنتم؟! أعرب؟! فما تنقمون من العرب؟! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة.

فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا؟ فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية. فقال: صدقت. وقال:

اختاروا واحدة من ثلاث، إن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة.

فقال: بل نعطيك الجزية.

فقال خالد: تبًّا لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مَضَلَّة، فأحمق العرب من سلكها. فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي.

فصالحوه على مائة ألف وتسعين ألفًا؛ وتتابعوا على ذلك، وأهدوا له هدايا، وبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر رَحِمَهُ اللهُ مع الهذيل الكاهلي، فقبلها أبو بكر من الجزاء، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء، إلا أن تكون من الجزاء، وخذ بقية ما عليهم فَقَوِّ بها أصحابك. وقال ابن بقيلة:

أبعْدَ المنذرين أرى سَوامًا ... تُروِّح بالخورْنَق والسَّدِيرِ
وبعْد فَوارس النُّعمَان أرعَى ... قَلُوصًا بين مِرَّة والحفيرِ
فصِرْنا بعد هُلْكِ أبي قبيسٍ ... كجُرْبِ المعْزِ في اليومِ المطِير
تقَسَّمنا القَبائل مِن مَعدٍّ ... علَانية كأيْسَار الجزور

وكُنـا لا يُـرامُ لَـنـا حـرِيمٌ فنحنُ كضَرَّة الضَّرع الفخُور
نُؤدِّي الخرْجَ بعد خَراجِ كِسرى وخَرْجِ من قُريظة والنَّضير
كـذاَك الدهْر دَوْلَتُهُ سِجَالٌ فَيوم مِـن مَـسَـاءة أَو سُـرور

... وأبى خالد أن يكاتبهم إلا على إسلام كرامة بنت عبد المسيح إلى شُوَيْل، فثقل ذلك عليهم، فقالت: هونوا عليكم وأسلموني، فإني سأفتدي. ففعلوا، وكتب خالد بينه وبينهم كتابًا:

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمرًا ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة، وحيرى بن أكال... وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمَّرُوهم به، وعاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تُقْبَلُ في كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيسًا عن الدنيا، تاركًا لها.

وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ». وكتب في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة ».

ودفع الكتاب إليهم...

وقال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة:

سقى اللّه قتلى بالفراتِ مقيمةً وأخرى بأثْباجِ النِّجَافِ الكَوانِفِ
فنحن وطِئْنَا بالكواظمِ هُرْمُزًا وبالثني قرْنَيْ قارِنٍ بالجوارِفِ
ويومَ أحطْنا بالقصورِ تتابَعَتْ على الحيرةِ الرَّوْحَاءِ إحدَى المصارِفِ
حططْناهم منها وقد كانَ عرشهم يميل بهم فعلُ الجبانِ المخالفِ
رمينا عليهم بالقَبول وقد رأَوْا غَبُوقَ المنايا حول تلكَ المحارِفِ
صَبيحَةَ قالوا نحن قومٌ تنزَّلوا إلى الريفِ من أرضِ العُرَيْبِ المقانِفِ (١)

لقد حرص خالد ﷺ أن يوقظ الحمية العربية لدى العرب ليوظفها لصالح هذا الدين، ولا حرج في ذلك، بل يُنْدَبُ فعله، وكان من عبقريته ﷺ أن خلا بقيادة كل

(١) تاريخ الطبري (٣١٦/٢ - ٣١٨).

حصن على حدة؛ حرصًا على اتخاذ أهل كل حصن ما يقتنعون به، لا ما يتآمرون عليه. ولأول مرة في تاريخ البشرية تكون الخيارات للأمم المفتوحة ثلاثة لا اثنين، الإسلام أو الجزاء أو الحرب، وعرض هذه الخيارات الثلاثة عليهم مؤكدًا لهم أن خيار الإسلام يجعلهم سواءً معهم في كل شيء.

(اختاروا واحدة من ثلاث، أن تدخلوا في ديننا، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم).

فهذا أحب الخيارات إليه؛ لأن هذا الجيش هو جيش الدعاة، لا الغزاة، فراح يشرح لهم آثاره الطيبة، وَيُرَغِّبُهُم فيه، فهذا الجيل الراشد ليس حريصًا على مال الناس ولا على سفك دمائهم، إنما هو حريص على هدايتهم.

وأسوأ الخيارات عند هؤلاء الفاتحين هو الحرب، وبمقدار ما رغبهم وحضهم على الخيار الأول بمقدار ما حَذَّرَهُمْ وَنَفَّرَهُمْ من الخيار الثالث.

(... أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة) وهذا يعني: أن لا فائدة من المناجزة؛ لأن الحرب خاسرة مع مثل هؤلاء المجاهدين الذين يعيشون بين إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة.

وذكر الخيار الثاني بدون تعليق ولا ترغيب ولا ترهيب:

(... أو الجزية...).

فاختاروا الجزية.

فـ (لا إكراه في الدين).

لقد حرص ابتداءً أن يوبخهم على خيار الحرب باسم الحمية العربية.

(ويحكم، ما أنتم؟! أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟! أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟).

ولا إهانة عند العربي مثل الطعن بنسبه، فأكدوا عروبتهم بقولهم:

(ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية).

وَوَبَّخَهُم انتهاءً على ترجيحهم الخيار الثاني على الأول باسم حمية الجاهلية كذلك قائلًا: (تبًا لكم، ويحكم، إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب مَنْ سلكها. فلقيه دليلان:

أحدهما عربي فتركه، واستدل الأعجمي).

لقد قال رسول الله ﷺ لهم قبل ستة عشر عامًا أنه يود اللجوء إليهم لتبليغ دعوة اللّه، فلم يجرؤوا على ذلك خوفًا من كسرى، وها هم اليوم يستسلمون للجيش الإسلامي، وعلى رأسه خالد بن الوليد القرشي المخزومي، وحين جرت تلك المباحثات كان خالد وأبوه يتآمران مع قريش على قتل محمد ﷺ.

(... فقال مفروق: إلام تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول اللّه ﷺ: « **أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأني عبد اللّه ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على اللّه، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق** ».

... فقال المثنى – وأسلم بعد ذلك –: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة والآخر السماوة. فقال له رسول اللّه ﷺ: « **ما هذان الصريان؟** ».

قال: أنهار كسرى ومياه العرب،فَأَمَّا مَا كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وَعُذْرُهُ غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عَهْدٍ أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني لأرى هذا الأمر مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول اللّه ﷺ: « **ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين اللّه ﷻ لن ينصره إلا مَنْ حَاطَهُ من جميع جوانبه، أرأيتم؟ إن تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم اللّه أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون اللّه تعالى وتقدسونه؟** » فقال النعمان: اللّهمَّ فَلَكَ ذلك)[1].

لقد كان المثنى بن حارثة الشيباني هو شيخ شيبان وصاحب حربهم، وهو الذي أبدى الاستعداد للنصرة دون الإسلام على ما يلي مياه العرب لا مياه كسرى.

ومر الزمن، وأسلم المثنى، وقاد النصرة لهذا الدين، وها هو اليوم أحد القادة الأربعة الذين يحاصرون الحيرة، وقائده الأعلى خالد بن الوليد الذي كان ذات يوم جزءًا ممن ظاهر على اللّه وكذب رسوله واستغنى بالباطل عن الحق.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥٩٦/٢، ٥٩٧).

وأسلم خالد، فكان له مثل ما لإخوانه السابقين الأولين، بل صار سيف اللَّه الذي سلّه اللَّه على المشركين.

وأسلم المثنى، وكان أجرأ الناس على غزو فارس، معتزًّا بهذا الدين الذي خالط شغاف قلبه، وهؤلاء القادة الأربعة الذين يستسلمون للمسلمين يصرون على المصالحة دون الدخول في هذا الدين، وهذه الحيرة معقل العرب ومركز عزهم تسقط بين المسلمين، ومنذ هذه اللحظة تصبح معقل العرب الذين يَتَحَدُّون كسرى وإمبراطوريته وجيشه، ولم تعد الحيرة ترتجف أمام وعيد كسرى وغضبه، فتقتل النعمان سيد العرب لخروجه على رأيه.

هذه هي الحيرة الجديدة التي أصبحت بالإسلام تهدد إمبراطورية فارس، وأصبح عز العرب وعز الإسلام صنوان لا يفترقان.

فذاك زرارة بن عمرو النخعي يقول لرسول اللَّه ﷺ: (يا رسول اللَّه، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زِيِّهِ وبهجته** »).

فقد عاد بالحق والإسلام الذي ابتعث اللَّه هذه الأمة به.

لقد بقي عمرو بن عبد المسيح أسير نصرانيته، وأسير جزيته، فلا عجب أن يرى الذل في وضع الجزية عن قومه من العرب لخالد وقومه، ولا يرى ثمة فَرْقًا بينهما:

نَؤدي الخرْج بَعد خَراج كِسرى وخَرجٍ منْ قَريظَة والنَّضير

وهما سواء عنده، كسرى الفرس ومجوسيته، وخالد العرب وإسلامه، وخرج قريظة ويهوديته، ولم يكن يرى العز إلا مع المنذر وابنه النعمان:

أبعْد المنذرين أَرى سوامًا تَروّح بالخورْنَق والسدير
وبعْدَ فَوارِس النعْمان أَرعى قَلوصًا بين مِرَّة والحفير
فصِرْنا بعد هُلك أَبي قبيس كجُرْب المِعْزِ في اليَوْم المطير

أما القعقاع بن عمرو التميمي الذي أبصر الحياة والعزة بالإسلام رأى عز العرب كله في انتصارات هذا الدين وفتوحاته:

سقَى اللَّه قَتْلَى بالفُرات مُقيمةً وأخْرى بأثْباج النجَافِ الكَوانف
فنحنَ وَطِئنا بالكَواظم هُرمزًا وبالثني قَرني قارنٍ بالجوارف
ويوْمَ أحطْنا بالقُصور تتَابعتْ على الحيرةِ الروْحَاء إحَدى المصَارف

وعودة لعمرو بن عبد المسيح:

فقد كان هو المقدم على الجميع عند أهل الحيرة، وهو الوسيط بينهم وبين المسلمين (... فكانوا يختلفون إليه ويقدمونه في حوائجهم (أي: عمرو بن عبد المسيح) فقال له خالد: كم أتت عليك من السنين؟ قال: مئو سنين. قال: فما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفًا. فتبسم خالد وقال:

هل لك من شيخك إلا عمله؟).

خرفت واللَّه يا عمرو. ثم أقبل على أهل الحيرة فقال:

(ألم يبلغني أنكم خُدعة خُبثة مُكرة؟ فما لكم تتناولون حوائجكم بخَرِف لا يدرى من أين جاء؟) لقد أخطأ ظن خالد بهذا المسن الكبير، فلم يقبل عقله ما ادعى من عُمْرٍ، ولم يقبل ما ادعى من شهادة أن القرى منتظمة بين الحيرة ودمشق، وأن هذه الصحراء كانت عامرة بالقرى والحياة والحركة، إنه مثل صاحب القرية التي مر عليها فقال: أنى يحيي هذه اللَّه بعد موتها؟ فراح يعيد شهادته وَعُمْرَهُ إلى كِبَرِ سِنِّهِ، ولكن ابن بقيلة هذا كما يقول المثل: تحت السواهي دواهي. فأراد أن يعلم خالدًا رجاحة عقله، وأجرى معه هذا الحوار:

(فتجاهل له عمرو، وأحب أن يريه من نفسه ما يُعرف به عقله، ويستدل به على صحة ما حدثه به، فقال: وحقك أيها الأمير إني لأعرف من أين جئت.

قال: فمن أين جئت؟

قال: أُقرب أم أُبعد؟ قال: ما شئت.

قال: من بطن أمي. قال: فأين تريد؟ قال: أمامي. قال: وما هو؟ قال: الآخرة. قال: فمن أين أقصى أثرك؟ قال: من صلب أبي. قال: ففيم أنت؟

قال: في ثيابي. قال: أتعقل؟ قال: إي واللَّه وأقيد.

قال: فوجده حين فرَّه [١] عِضًا [٢]، وكان أهل قريته أعلم به.

---

(١) فرَّه: اختبره وكشفه. (٢) عِضًا: خبيثًا، شرسًا.

فقال خالد: قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضًا عالمها، والقوم أعلم بما فيهم.

فقال عمرو: أيها الأمير، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة...).

لقد أدرك خالد بن الوليد خطأه، وأعلن جهله بهذه الداهية الدهياء، فقال المثل السائر: قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضًا عالمها.

وأدرك سيف اللَّه أن اْلمَظْهَرَ لا يدل دومًا على الْمَخْبَرَ، وكان من عبقرية عمرو هذا الجواب:

أيها الأمير، النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة.

وأمام هذا الحوار النظري أدرك خالد أنه أمام رجل لا مثيل له، فأعاد تركيب عقله، وعاد ليتعامل معه بصفته الداهية الماكر الخبيث.

لتملكن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا:

وبسرعة خاطفة وقعت عين خالد على كيس يحمله هذا الدويهية، فلينظر من هذه اللحظة بأعلى مستوًى من سوء الظن، إنه ليس أمام خرِفٍ ذَهَبَ عقله، بل أمام رجل من أدهى ما رأى.

(وكان مع ابن بقيلة منصف [(١)] له، فعلَّق كيسًا في حقوه [(٢)]، فتناول خالد الكيس، ونثر ما فيه في راحته.

فقال: ما هذا يا عمرو؟

قال: هذا أمانة اللَّه سم ساعة.

قال: لم تحتقب السم.

قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أُتيت على أجلي، والموت أحب إليّ من مكروه أُدْخِلُهُ على قومي وأهل قريتي).

وكما أدرك خالد دهاء عمرو، فقد أسقط في يد عمرو أمام حزم خالد ودهائه، وحطَّم كل مؤامرته حين نثر السم بين يدي خالد، وكما يقول المثل:

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا.

---

(١) مِنصف: خادم.

(٢) حِقوه: معقد إزاره.

لقد كشف مؤامرته كاملة واضطره إلى أن يعترف بكل شيء.

لكن هيهات بين عبد المسيح الكاذب، وعبد اللَّه الخالد سيف اللَّه، وحتى يتجلى الفرق بينهما من خلال الموقف المفاجئ لسيف اللَّه.

(فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها. وقال:

بسم اللَّه خير الأسماء، رب الأرض ورب السماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء، بسم اللَّه الرحمن الرحيم.

فأهووا إليه ليمنعوه منه، وبادرهم فابتلعه.

فقال عمرو: واللَّه يا معشر العرب، لتملكن ما أردتم ما دام أحد منكم مثل هذا) (١).

والفضل ما شهدت به الأعداء.

فما دام خالد وأمثاله في هذه الأمة فلتملكن ما تريد.

كرامة أخت عمرو بن عبد المسيح:

(وأبى خالد أن يكاتبهم إلا على إسلام كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل، فثقل ذلك عليهم، فقالت: هَوِّنُوا عليكم وأسلموني فإني سأفتدي. ففعلوا...).

ولِمَ سأل شُويل كرامة بنت عبد المسيح؟

يجيبنا شويل ﷺ عن ذلك بقوله: لما سمعت رسول اللَّه ﷺ يذكر ما رُفِع له من البلدان، فذكر الحيرة فيما رُفِع له، وكأن شُرَفَ قُصُورِها أضراسُ الكلاب - عَرَفْتُ أنْ قَدْ أُرِيَهَا، وأنها ستفتح، فلقَّيْتُه مسألتها.

إنه الأعرابي الذي خالط الإيمان قلبه حتى مَخَّ عظمه، فالإسلام منتصر بلا شك، والحيرة ستسقط، وقد أُرِيَهَا رسول اللَّه ﷺ بعينه، فلِمَ لا يطلب من رسوله أن يهب له سيدة الحيرة بلا منازع أخت عمرو بن عبد المسيح حاكمها الأول ووهبه رسول اللَّه ﷺ إياها؟

ودعا داعي الجهاد، فمضى هذا الأعرابي من قلب صحرائه، لا يدري أين المسير،

---

(١) لقد كانت الجملة مضطربة عند الطبري إذ قال: لتملكن ما أردتم منا ما دام منكم أحد أيها القرن. وقد صححها ابن كثير في البداية والنهاية إلى: لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد. وصححها ابن الأثير إلى الصيغة المذكورة.

وكل الذي يعرفه أن جيش رسول اللَّه ﷺ ماضٍ لفتح هذه الأرض التي لا يشك في فتحها ذرة واحدة، فقد سمع ذلك من رسوله الحبيب صلوات اللَّه عليه، وقد أريها بعينه.

عدي بن حاتم سيد طيئ وابن حاتم العرب سمع بالحيرة ولم يرها، فقال له رسول اللَّه ﷺ أنها ستفتح في موعود اللَّه لنبيه، فكيف بشويل هذا الذي لا يعرف عنه التاريخ سوى اسمه يأمل أن يظفر بسيدة نساء العرب كرامة بنت عبد المسيح؟ وسأل مَنْ حوله من إخوانه من المسلمين أين هم اليوم في معركتهم هذه؟ فأجابوه أنهم محاصرون الحيرة.

أواه إنه موعود رسول اللَّه له قد أصبح على مرمى سهم منه، فمضى يستأذن على قائده خالد، واستقبله القائد الفاتح العظيم بلهفة عما يريد، فأخبره أنه يريد سيدة نساء العرب ملك الحيرة عمرو بن عبد المسيح، ونظر إليه خالد نظرة فاحصة:

ماذا تريد؟ ماذا تقول؟

وليس الأمر عند شويل مقام استفهام أو استفسار، الأمر مفروغ منه؛ لأن رسول اللَّه ﷺ وعده إياها.

وسمعًا وطاعة لأمر رسول اللَّه ﷺ.

وكان أكبر الشروط تعقيدًا وخطورة وكاد أن يفرط الصلح من خلاله هو تسليم كرامة بنت عبد المسيح لا لخالد قائد الجيش نظير ابن بقيلة عمرو في قومه، بل لأحد الأعراب الموغلين في البداوة، لشويل.

واحتدم الأمر وتأزم، وقائد جيش المسلمين مُصِرٌّ على هذا الشرط، على تسليم كرامة لشويل، وهل هانت كرامة عرب الحيرة كلهم حتى يسلموا أسمى شرفهم لهذا الأعرابي؟!

ولتكن الحرب إن لم يستجب القوم لشرط الأعرابي.

وتقدمت السيدة العربية التي حنكتها التجارب ومر الدهور، وقد بلغت ثمانين سنة، وراح القوم يصغون إليها، فقالت:

(وقد اشتد ذلك على أهل بيتها، وأهل قريتها ما وقعت فيه، وأعظموا الخطر...).

فقالت: لا تخطروه، ولكن اصبروا، ماذا تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة؟ فإنما

هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي، فظن أن الشباب يدوم.

فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه.

إنه كما قال عنه عدي بن حاتم: كان يهرف بها دهره. وقد تحققت أمنية العمر، فهذه كرامة بنت عبد المسيح محظية له، وسبية له، وجارية له، لقد ملك القمر.

ونظر، وأغمض عينيه وفتحها، أهذا ما كان ينتظره ما ينوف عن عشر سنين؟ منذ أيام الخندق أو إسلام عدي في سنة تسع للهجرة؟ إنها عجوز مُسِنَّةٌ كبيرة.

توقف مليًّا، وهي تتفحصه جيدًا، وعلمت أن ظنها لا يخيب، فما إربه من هذه العجوز ولو كانت أمل دهره كرامة بنت عبد المسيح؟! وراحت تطرق على الوتر الحساس عنده فتقول:

... ما إربك إلى عجوز كما ترى؟ فادني (أي: خذ مني الفداء) خَيْرٌ لك. فالمال لا يفنى، أما الجمال فقد فني وأحنى عليها الدهر بتجاعيده ونكباته.

قال: لا، إلا على حكمي.

ولم تتردد لحظة واحدة، فهي على استعداد أن تُخَلَّصَ من بين يدي هذا الأعرابي الجلف بمثل ما افتدى به المسلمون الحيرة كلها مائة ألف وتسعين ألفًا، فهي رمز كرامتهم وشرفهم وعزهم، فهو ذل الدهر إن بقيت عند هذا الأعرابي.

قالت: فلك حكمك مرسلًا.

لم تسأله عن الفداء، وَلْيَكُنْ ما يكون، فهو الذي تريد.

قال: لست لأم شويل إن نقصتك عن...

(ترى هل يقول مائة ألف درهم أو أكثر؟ وهي جاهزة).

(... عن ألف درهم).

ترى أيعي ما يقول، أم أن عقله قد ذهب وَجُنَّ لمرآها، أم أنها لم تسمع المائة قبل الألف؟! وأعادت عليه، فأكد:

(... عن ألف درهم).

وعرفت أنها أصابته على مقتل، فراحت تتوسل إليه وترجوه أن يخفف الفداء لتوحي إليه بخطورة ما طلب، وأصر واضطرت إلى التراجع، وقبلت مكرهة بما طلب

(فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها، فدفعت إليه ألف درهم).

ورجعت إلى أهلها.

(وتسامع الناس بذلك، وجاؤوا يعنفونه ويتلكؤونه ويزبرونه، كيف يرضى بذلك).

فقال مَشْدوهًا مندهشًا:

(ما كنت أرى عددًا يزيد على ألف).

فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم، فخاصمهم قائلًا:

كانت غايتي نهاية العدد... وقد ذكروا أن العدد لا يزيد على ألف.

ترى أيفرض القائد مائة ألف أو يعلن الحرب وقد تَبَيَّنَ له جهلُ جنديه؟

معاذ اللَّه، إنهم حملة رسالة النور والهدى في الأرض.

إنه خالد نفسه الذي هدد بالحرب العوان لأخذ شويل لكرامة، مثلما كانت بيعة الرضوان لمقتل عثمان.

خالد نفسه يقول لجنديه:

(أردت أمرًا وأراد اللَّه غيره، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك، كاذبًا كنت أم صادقًا)[1].

ولم يفرض الإتاوة والحرب ويرغم القادة على مائة ألف أو تزيد، إنما حكم لعدوه على جنديه، فأين العدل الذي ملكوا به هذه الأرض إن لم يُطَبِّقْهُ على جنديه الأمين؟ فلمثل هذا جعل اللَّه هذه الأمة هي الوارثة، لإقامة العدل الذي قامت به السموات والأرض، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧].

ولم يقف العدل عند هذا الحد، بل تجاوز ذلك.

(فصالحوه على مائة ألف وتسعين ألفًا، وتتابعوا على ذلك، وأهدوا له هدايا، فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر ﷺ مع الهذيل الكاهلي، فقبلها أبو بكر من الجزاء وكتب إلى خالد: أن احسب لهم هديتهم من الجزاء إلا أن تكون من الجزاء، وخذ بقية ما عليهم فَقَوِّ بها أصحابك).

ومن هذا المدخل الرهيب يُفتك بالأمم بأموالها وشرفها وأرواحها، فنرى الحكام

---

(١) تاريخ الطبري (٣١٩/٢).

ما أن يصلوا إلى السلطة حتى يهابهم الناس، فيغدقون عليهم المال، وتنتشر الرشوة، وينتشر الفساد، وَتُبْتَزُّ الأموال، وتصبح سِمَةَ المجتمع كله.

لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من كل ظلم وطُغيان، فأرضى المقاتل ابتداء حين أعطى لكل بطل حقه في سلب قتيله.

« **مَنْ قتل قتيلًا فله سَلَبُه** » (١).

وخالد ﷺ الذي تربى في مدرسة النبوة قد أقيمت عليه دعوة أحد الأبطال في جيشه يوم غزوة مؤتة، بأنه حرمه حقه من سَلَب قتيله، وحكمت المحكمة النبوية عليه بتسليم السلب كله مهما كان كثيرًا.

ثم أعطى الحق في أربعة أخماس الغنائم لقائد الجيش والمقاتلين جميعًا بحيث يوزع هذا الخُمُس بالسواء عليهم لا فرق بين كبير وصغير ولا قائد وجندي إلا أن الراكب له ضعْفُ الراجل بما يتكلف على فرسه ويتمكن من المساهمة أكثر في حرب عدوه.

ثم أمر بالخمس المتبقي أن تستلمه الدولة.

فقد أغنى الإسلام المجاهدين، وكافأ الأبطال العظام منهم، وحفظ حق الدولة.

ثم أمر بالجزية التي تفرض دينارًا كل عام على الفرد الواحد، ويعفى العاجز والعاطل عنها، بأن تسلَّم للدولة كذلك، وهي التي نراها هنا فيما اتفق عليه خالد ﷺ وقيادات الحيرة إذ اختاروا السلم على الحرب، وهذه من حق الدولة كذلك.

وقد اختار الصديق ﷺ أن يعيدها على المجاهدين.

وأغلق باب الفساد والرشوة تحت أي اسم، ولو كان الهدايا، فحسب هذه الهدايا من الجزية؛ لأنها محرمة على الحاكمين والمجاهدين، كما أعلنت المدرسة النبوية يوم جاء ابن اللتبية، وقد بعثه رسول اللَّه ﷺ مصدقًا، فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فغضب رسول اللَّه ﷺ ووقف خطيبًا في المسلمين يقول: « **ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي. فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أَيُهْدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر** ».

---

(١) البخاري ح (٢٩٧٣).

ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه: (« **ألا هل بلغت؟** » ثلاثًا) [(١)].

وعلمهم رسول الله ﷺ أن: « **هدايا العمال** [(٢)] **غلول** » [(٣)].

وإذا كان سيد البشرية لا يملك هذا الحق فَمِنْ باب أولى لا يملكه أي أمير أو حاكم أو قائد بعده، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

(وكتب خالد بن الوليد بينه وبينهم كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمرًا ابني عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة، وحيرى بن أكال... وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمروهم به، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تُقْبَلُ في كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا، رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيسًا عن الدنيا تاركًا لها، وعلى المَنَعَةِ، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يَمْنَعَهُمْ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة. وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة، ودفع الكتاب إليهم) [(٤)].

والملاحظ في هذا الكتاب ثلاث ملاحظات:

١ - (ورضي بذلك أهل الحيرة): لأن الذي يدفع المال هم أهل الحيرة، فلا بد من رضائهم، ولأول مرة يدخل أمر الرعية في الحسبان، وينص عليه في الكتاب، فقد رضي أهل الحيرة تمثيل قياداتهم لهم، ورضوا دفع الجزية المطلوبة.

٢ - وهذه الجزية ليست بدون مقابل، ليست بهدف الإذلال، إنما هي من أجل حمايتهم من أعدائهم، فإن لم تتم حمايتهم فلا جزية عليهم (... وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم).

٣ - أما رجال الدين الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع للعبادة وَتَخَلَّوا عن الدنيا، فهؤلاء لا تشملهم الجزية، ومع أن الإسلام يرى أن عبادتهم باطلة، إلا أنه لا يحكم

---

(١) البخاري، ح (٧١٧٤).
(٢) العمال: الأمراء.
(٣) مسند أحمد، ح (٢٣٦٤٩).
(٤) تاريخ الطبري (٣١٨/٢).

يحكم عليهم بالسجن، أو يجبرهم على الإسلام، كما فعلت الطغاة مع الأمم المفتوحة، إنما يهيِّئ لهم التفرغ لهذه العبادة، ويحميهم من أي اعتداء.

* * *

ما بعد الحيرة:

لقد كان فتح الحيرة مثل فتح مكة، فهي عاصمة العراق، وحين صالح قادة الحيرة خالدًا ﷺ بدأت المناطق المجاورة تبعث برسلها إلى المصالحة، وامتد ذلك إلى ما بين النهرين، حيث دخل سوادُ العراق كله في هذه المصالحة.

قس الناطف [١]:

(ولما صالح أهل الحيرة خالدًا خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف، حتى دخل على خالد عسكره، فصالحه على بانقيا وبسما، وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطيء الفرات جميعًا، واعتقد [٢] لنفسه وأهله وقومه على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة [٣] خرزة كسرى، وكانت على كُلِّ رأس أربعةَ دراهم، وكتب لهم كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، على كل ذي يد، بانقيا وبسما جميعًا، على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة، القوي على قَدْرِ قُوَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ على قَدْرِ إقلاله، في كل سنة، وإنك قد نُقِّبت على قومك [٤] وإن قومك قد رضوا بك، وقد قبلت ومن معي من المسلمين، ورضيت ورضي قومك، فلك الذمة والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم.

شَهِدَ هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد اللّه الحميري، وحنظلة ابن الربيع، وَكُتِبَ سنة اثنتي عشرة في صفرْ) [٥].

بقية الدهاقين في السواد:

(كان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع أهل الحيرة، فلما استقام ما بين

---

(١) قس الناطف: منطقة شمال الحيرة على الفرات.

(٢) اعتقد: عاقد (من العَقْد).

(٣) الخرزة: ما يدفعه لكسرى.

(٤) نقبت على قومك: صرت نقيبًا ورئيسًا.

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٢١٩).

أهل الحيرة وبين خالد، واستقاموا له، أتته دهاقين الملطاطين [١]، وأتاه ذاذ بن بهيش دهقان فرات سِريا وصلوبا بن نسطونا... فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هُرْمُزْجِرْدَ على ألفي ألف، وأن للمسلمين ما كان لآل كسرى، ومن مال معهم عن المقام في داره فلم يدخل في الصلح، وضرب خالد رواقه في عسكره وكتب لهم كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لذاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا، لكم الذمة وعليكم الجزية، وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البِهقُباذ الأسفل والأوسط على ألفي ألف ثقيل في كل سنة عن كل ذي يد سوى ما على بانقيا وبسما، وإنكم قد أرضيتموني والمسلمين، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل، ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومال ميلهم.

شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد اللّٰه الحميري، وبشير ابن عبد اللّٰه بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع، وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر) [٢].

والملاحظ دائمًا أن القيادات من الصحابة، وقد وَزَّعَ خالد رضي الله عنه القيادة الإدارية والقيادة العسكرية كلًّا على حدة، فأمراء خالد الإداريون والمدنيون هم:

عبد اللّٰه بن وثيمة النصري، وجرير بن عبد اللّٰه، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة ابن الربيع، بينما بقيت القيادات العسكرية هي نفسها التي حاصرت حصون الحيرة وأسقطتها: ضرار بن الأزور، وضرار بن الخطاب، وضرار بن مقرن، والمثنى بن حارثة.

وحيث عرفنا بالقيادات العسكرية من قبل، فلا بد من التعريف بالقيادات الإدارية، والمسؤولة عن جباية الخراج، أما القيادات العسكرية فتحولوا إلى الثغور، فصاروا هم أمراء الثغور:

١ - عبد اللّٰه بن وثيمة النصري: لم أجد ذكرًا بين الصحابة مع أنهم كانوا لا يُوَلُّونَ إلا صحابيًّا.

---

(١) الملطاط: شاطئ الفرات.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٠).

٢ – بشير بن الخصاصية: وهو بشير بن معبد السدوسي، وأمه الخصاصية، أوجَدَّتُه، وهو من بكر بن وائل، قديم الإسلام وله صحبة، وروى أحاديث صالحة.

(قال قتادة: هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال، رجلان من بني سدوس: أسود ابن عبد اللَّه من أهل اليمامة، وبشير بن الخصاصية، وعمرو بن تغلب من النمر ابن قاسط، وفرات بن حيان من بني عجل) (١).

٣ – حنظلة بن الربيع – المعروف بالكاتب –: مِنْ أشراف بني تميم، وهو ابن أخي أكثم بن صيفي حكيم العرب (روى عن النبي ﷺ وكتب له، وأرسله إلى الطائف فيما ذكر ابن إسحاق، وشهد القادسية، ونزل الكوفة، وتخلف عن علي يوم الجمل، ونزل قرقيسياء حتى مات في خلافة معاوية، ويقال: إن الجِنَّ رَثَتْهُ) (٢).

(ولما توفي رَحِمَهُ اللَّهُ جَزِعَتْ عليه امرأته، فَنَهَتْهَا جاراتها، وَقُلْنَ: إن هذا يحبط أجرك. فقالت:

تـعـجَّـبَـت دَعـدُ لمحـزونـة   تَبكِي علَى ذي شْيبة شَاحب
إن تسألِيني اليومَ ما شفَّني   أَخبرك قَولًا ليْسَ بالكَاذب
إن سَـوَاد الـعـيْن أَودَى بِـه   حُزنٌ علَى حنظَلةِ الكَاتب) (٣)

٤ – جرير بن عبد اللَّه البجلي الحميري: وبجيلة أمهم، نسبوا إليها، وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة، واختلف في نسبه إلى أنمار بن إراش بن عمرو ابن الغوث، أو إلى أنمار بن نزار بن معد بن عدنان (قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ: كان إسلامه في العام الذي توفي فيه رسول اللَّه ﷺ، وقال جرير: أسلمت قبل موت رسول اللَّه ﷺ بأربعين يومًا...

وعن جرير قال: ما حجبني رسول اللَّه ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني قط إلا ضحك وتبسم (٤)، وقال فيه رسول اللَّه ﷺ حين أقبل وافدًا عليه: « **يطلع عليكم خير ذي**

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (١٨٩)، (ص ٨٦).
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢١٢٢)، (ص ٢٠٥).
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٣٩٣)، (ص ١٣٨).
(٤) البخاري، ح (٣٨٢٢)، ومسلم، ح (٢٤٧٥).

يمن، كأن على وجهه مسحة ملك ». فطلع جرير [١].

وبعثه رسول الله ﷺ إلى ذي كلاع وذي رعين باليمن.

وفيه فيما روي: فقال رسول الله ﷺ: « **إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه** » [٢].

وروي أنه قال ذلك في صفوان بن أمية الجمحي.

وفي جرير قال الشاعر:

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئس القبيلة

فقال عمر بن الخطاب: ما مُدِح مَنْ هُجِيَ قومه.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول:

جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة (يعني: في حسنه).

وهو الذي قال لعمر حين وجد في مجلسه رائحة من بعض جلسائه، فقال عمر: عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ.

فقال جرير بن عبد الله: علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم.

قال: عليكم كلكم عزمت. ثم قال:

يا جرير، ما زلت سيدًا في الجاهلية، وسيدًا في الإسلام.

ونزل جرير الكوفة، وسكنها، وكان له بها دار، ثم تحول إلى قرقيسياء، ومات بها سنة أربع وخمسين.

وروى البخاري عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: « **ألا تكفيني ذا الخلصة؟** » [٣] قلت: يا رسول الله، إني رجل لا أثبت على الخيل، فصك في صدري.

فقال: « **اللَّهمَّ ثَبِّتْهُ، واجعله هاديًا مهديًا** ».

فخرجت في خمسين من قومي، فأتيناها، فأحرقناها [٤].

وقدم جرير بن عبد الله على عمر بن الخطاب من عند سعد بن أبي وقاص.

---

(١) الطبراني في الكبير، ح (٢٢١٠) وسنده ضعيف.

(٢) المرجع السابق، ح (٣٧١٢).

(٣) ذو الخلصة: صنم كان يعبد في اليمن.

(٤) البخاري، ح (٣٠٢٠)، ومسلم، ح (٢٤٧٦).

فقال له: كيف تركت سعدًا في ولايته؟

فقال: تركته أكرم الناس مقدرة، وأحسنهم معذرة، هو لهم كالأم البرَّة، يجمع لهم كما تجمع الذَّرة مع أنه ميمون الأثر، مرزوق الظفر، أشد الناس عند البأس، وأحب قريش إلى الناس. قال: فَأَخْبِرْني عن حال الناس.

قال: هم كسهام الجعبة، منها القائم الرائش، ومنها العَصْل - أي المعوج - الطائش، وابن أبي وقاص ثقافها [١]، يغمز عَصْلها، وَيُقِيمُ مَيْلَهَا، واللَّه أعلم بالسرائر يا عمر.

قال: أخبرني عن إسلامهم.

قال: يقيمون الصلاة لأوقاتها، وَيُؤْتُون الطاعة لِوُلَاتِهَا.

فقال عمر: الحمد للَّه، إذا كانت الصلاة أوتيت الزكاة، وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة...) [٢].

هذا جرير في سجل هذه الأمة، لكن لجرير قصة في هذه المرحلة أوردها الطبري بسنده رَحِمَهُ اللَّهُ، عن الغصن بن القاسم الكناني، ويونس بن أبي إسحاق، قالا:

(كان جرير بن عبد اللَّه ممن خرج مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، فاستأذن خالدًا إلى أبي بكر ليكلمه في قومه، وليجمعهم له، وكانوا أوزاعًا [٣] في العرب، وليتخلصهم، فأذن له.

فقدم على أبي بكر، فذكر له عِدةً [٤] من النبي ﷺ، وأتاه على العِدة بشهود، وسأله إنجاز ذلك، فغضب أبو بكر وقال له:

ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى للَّه ولرسوله؟!

دعني، وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر اللَّه ما يحكم في هذين الوجهين:

فسار حتى قدم على خالد وهو بالحيرة، ولم يشهد شيئًا مما كان بالعراق إلا ما كان بعد الحيرة، ولا شيئًا مما كان خالد فيه من أهل الردة) [٥].

---

(١) الثِّقاف: أداة من خشب أو حديد تثقَّف بها الرماح والسهام لتعتدل.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (٣٢٢)، (ص ١٢٠، ١٢١).

(٣) أوزاع: متفرقون.

(٤) عِدة: وعدًا.

(٥) تاريخ الطبري (٢/٣١٨).

فنحن مع عظيمٍ من عظماء العرب وسيد من ساداتها، شهد له رسول اللَّه ﷺ أنه من خير ذي يمن، وكان حرصه على جمع شتات قبيلته هَمَّهُ الشاغل ليوظفها في خدمة دين اللَّه، لكن أوامر الصديق له بالتوجه نحو العراق أوقفت مشروعه في هذه المرحلة.

لقد كانت أوامر الصديق ﷺ أن يتجه خالد من أسفل العراق إلى الحيرة، وأن يتجه عياض بن غنم من أعلاها، وأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير عليها، واستطاع خالد أن يحرر أسفل العراق كله، ويصل إلى الحيرة، ولا يزال عياض ﷺ محصورًا في شمال العراق وسورية محاصرًا لعدوٍّ وعدو آخر محاصرٌ له، ولم يتمكن من التقدم خطوة واحدة باتجاه الحيرة، بينما غدت العراق تحت سيطرة المسلمين وحكمهم.

كما يقول ابن الأثير في تاريخه:

(ولم يبق لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر؛ لاختلافهم بموت أردشير، إلا أنهم مجمعون على حرب خالد، وخالد مقيم بالحيرة يصعِّد ويصوِّب سنة قبل خروجه إلى الشام، والفرس يخلعون ويملكون ليس إلا الدفع عن بهرسير، وذلك أن شيرى بن كسرى قَتَلَ كل من كان يناسبه إلى أنوشروان، وقتل أهل فارس بعده وبعد أردشير ابنه من كان بين أنوشروان، وبين مهرام جور، فبقوا لم يقدروا على من يملكونه ممن يجتمعون إليه، فلما وصلهم كتب خالد تكلم نساء آل كسرى، فولى الفرخزاد ابن البنذوان إلى أن يجتمع آل كسرى على من يملكونه إن وجدوه) (٢).

أما كتب خالد فكانت لظىً على الفرس.

(وكانت الثغور في زمن خالد بالسيب (٣)، بعث ضرار بن الأزور، وضرار ابن الخطاب، والمثنى بن حارثة، وضرار بن مقرن، والقعقاع بن عمرو، وبسر بن أبي رهم، وعتيبة بن النهاس، فنزلوا على السيب في عرض سلطانه، فهؤلاء أمراء ثغور خالد، وأمرهم خالد بالغارة والإلحاح، فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطئ دجلة) (٤).

الكتابان:

قالوا: وَلَمَّا غلب خالد على أحد جانبي السواد دعا من أهل الحيرة برجل، وكتب

---

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٤٥). (٣) السيب: مجرى الماء.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٣٢١).

معه إلى أهل فارس وهم بالمدائن مختلفون متساندون لموت أردشير، إلا أن بهمن جاذويه ببهرسير وكأنه على المقدمة، ومع بهمن جاذويه الأزاذبه في أشباه له، ودعا صلوبا برجل، وكتب معهما كتابين، فأما أحدهما فإلى الخاصة، وأما الآخر فإلى العامة، أحدهما حيري والآخر نبطي، ولما قال خالد لرسول أهل الحيرة: ما اسمك؟ قال: مرة. قال: خذ الكتاب فائت به أهل فارس، لعل اللّه أن يُمرَّ عليهم عيشهم، أو يسلموا أو ينيبوا. وقال لرسول صلوبا: ما اسمك؟ قال: هزقيل. قال: فخذ الكتاب. وقال: اللّهمَّ أزهق نفوسهم.

قال أبو جعفر: كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد وغيره، والكتابان:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

(من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد للّه الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس، أما بعد، فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا مني الذمة، وَأَدُّوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر) [1].

الخراج يوزع على المسلمين:

قال الطبري: ... حدثني السري عن شعيب عن سيف... عن ماهان:

(أن الخراج جبي إلى خالد في خمسين ليلة، وكان الذين ضمنوه والذين هم رؤوس الرساتيق رُهُنًا في يده، فأعطى ذلك كله للمسلمين، فقووا به على أمورهم... وكتبوا البراءات لأهل الخراج من نسخة واحدة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد، وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد، وخالد والمسلمون لكم يَدٌ على مَنْ بدَّل صُلْحَ

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٢١).

خالد، وما أقررتم بالجزية وَكَفَفْتُم أمانُكُمْ أمانٌ، وَصُلْحُكُمْ صُلْحٌ، نحن لكم على الوفاء.

وأشهدوا لهم النَّفَرَ من الصحابة الذين كان خالدٌ أشهدهم: هشامًا، والقعقاع، وجابر بن طارق، وبشيرًا، وحنظلة و...

وفي رواية عبيد اللَّه عن عمه عن سيف عن عطية بن الحارث عن عبد خير.

قال: وخرج خالد وقد كتب أهل الحيرة عنه كتابًا:

إنا قد أَدَّيْنَا الجزية التي عَاهَدَنَا عليها خالد العبدُ الصالح، والمسلمون عباد اللَّه الصالحون على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم) [1].

لقد سبق وتحدثنا عن الكتابين في بداية الفصل، **لكن الجديد في الصور الأخرى للبراءة من الخراج تعطي معاني عميقة الدلالة في حركة الفتح الإسلامي:**

١ - فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم.

فحزب اللَّه المنطلق في الأرض بدين اللَّه طالب هداية لا طالب سفك وفتك، فلو أسلم القوم لما مُسَّتْ أراضيهم ولا بلدانهم ولا أهلوهم بسوء (ندعكم وأرضكم ونجوز إلى غيركم).

٢ - وإلا فاعتقدوا مني الذمة وَأَدُّوا الجزية. مصالحةٌ مرهونة بالحماية، ومن أجل هذا وَجَدْنَا الإصرار عليها في عقد الذمة وفي تنفيذ العقد، وأول بغي تطالب أم الأرض برفعه عنهم هو بغي الفاتحين أنفسهم وبغي غيرهم. (على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم).

٣ - والعبودية الكاملة للَّه ﷻ، فلا ألوهية ولا طغيان لأحد. ومثل خالد كان يمكن أن يكون إلهًا عند غير المسلمين.. بل هو في وثائق دولة الإسلام (العبد الصالح) والمسلمون الذين يفتحون الأرض هم كذلك العباد الصالحون، فالجميع عند اللَّه سواء عبيد للَّه رب العالمين.

٤ - الخراج يجمع في خمسين ليلة، فهي دولة جديدة من أغنى دول الأرض تنضم لدولة الإسلام بخراج لم يكن المسلمون ليتصوروه ألفي ألف، ثم يُوَزَّعُ كله اشتراكًا على هؤلاء الجنود.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٢١).

(فأعطى ذلك كله للمسلمين، فَقَوُّوا به على أمورهم) وهي توجيهات الصديق ﷺ في ذلك.

* * *

خالد بن سعيد بن العاص:

وليس الحديث عنه قطعًا للحديث عن خالد، إنما الحديث عنه لأنه مثل بداية جبهة الشام، كما مَثَّلَ خالد بن الوليد ﷺ جبهة العراق.

والذي دعا إلى كتابة هذا الفصل أو هذا الفاصل هو الحديث عن جرير بن عبد اللَّه البجلي، وأنه انضم إلى العراق بعد أن غادر جبهة الشام وحضر بعد فتح الحيرة في السنة الثانية عشرة.

فكيف يستقيم الحديث عن جبهة الشام التي فتحت في السنة الثالثة عشرة مع هذا التوقيت لالتحاق جرير ﷺ بخالد في العراق في بداية السنة الثانية عشرة.

يشير ابن الأثير في كتابه (الكامل) إلى ما يجلي هذا الاضطراب وهذا التناقض.

(قيل: في سنة ثلاث عشرة وَجَّهَ أبو بكر الجنود إلى الشام بعد عودته من الحج، فبعث خالد بن سعيد بن العاص.

وقيل: إنما سَيَّرَهُ لما سيَّر خالد بن الوليد إلى العراق، وكان أول لقاء عقده إلى الشام لواء خالد، ثم عزله قبل أن يسير، وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبي بكر شهرين يقول: قد أمَّرني رسول اللَّه ﷺ، ثم لم يعزلني حتى قبضه اللَّه.

ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال:

يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغُلبتم عليها؟ فقال علي: أمغالبة ترى أم خلافة؟ فأما أبو بكر فلم يحدقها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه، فلما ولاه أبو بكر فأخذ عمر يقول: أَتُؤَمِّرُهُ وقد صنع ما صنع وقال ما قال؟!

ولم يَزَلْ عمر به حتى عزله عن الإمارة وجعله ردءًا للمسلمين بتيماء، وأمره أن لا يفارقها إلا بأمره، وأن يدعو من حوله من العرب إلا من ارتد، وأن لا يقاتل إلا من قاتله، فاجتمع إليه جموع كثيرة.

وبلغ خبره الروم، فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح

وتنوخ وغسان وكلب ولخم وجذام، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن، واستنصر اللَّه. فسار إليهم، فلما دنا منهم تفرقوا، فنزل منزلهم، وكتب إلى أبي بكر بذلك، فأمره بالإقدام بحيث لا يؤتى من خلفه، فسار حتى جازه قليلًا، ونزل فسار إليه بِطْرِيقٌ من بطارقة الروم يدعى باهان، فقاتله فهزمه (أي: هزم خالد بن سعيد) وقتل من جنده، فكتب خالد إلى أبي بكر يستمده، وكان قد قدم على أبي بكر أوائل مستنْفَري اليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقدم عكرمة ابن أبي جهل قافلًا وغازيًا فيمن كان معه من تهامة والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل، فسمي: جيش البدال، وقدموا على خالد بن سعيد، فعند ذلك اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره) [1].

السري عن شعيب عن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه:

ولم يزل أن عمر بن الخطاب يكلم أبا بكر في خالد بن الوليد وفي خالد ابن سعيد، فأبى أن يعطيه في خالد بن الوليد وقال: لا أشيم سيفًا سلَّه اللَّه على الكفار. وأطاعه في خالد بن سعيد بعدما فعل فعلته... [2].

لقد كان خالد بن سعيد ﷺ من الرعيل الأول، وكان إسلامه تحديًا لمعسكر الشرك.

فقد كان أبوه سعيد بن العاص من أشد الناس على الإسلام، وحبسه أبوه، ومنعه القوت، وضربه بمقارع الحديد، فما لانت له قناة، ولا تراجع ولو قيد أُنملة.

قال له أبوه: (اتبعت محمدًا، وأنت ترى خلافه قومه، وما جاء به من عيب آلهتهم، وعيب من مضى من آبائهم؟ فقال خالد: قد صدق واللَّه واتبعته. فغضب أبو أحيحة، ونال من ابنه وشتمه، ثم قال: اذهب يا لكع حيث شئت، فواللَّه، لأمنعنك القوت. فقال خالد: إن منعتني فإن اللَّه يرزقني ما أعيش فيه...) [3].

(... وكان يلزم رسول اللَّه ويصلي في نواحي مكة خاليًا، فبلغ ذلك أبا أحيحة، فدعاه فكلمه أن يدع ما هو عليه، فقال خالد: لا أدع دين محمد حتى أموت عليه. فضربه أبو أحيحة بقراعة في يده حتى كسرها على رأسه، ثم أمر به إلى الحبس، وضيَّق عليه وأجاعه وأعطشه حتى لقد مكث في حر مكة ثلاثًا ما يذوق ماءً، فرأى

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (٢/٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) الطبري (٢/٣٣٣). (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/٩٤).

خالد فرجة فخرج، فتغيب عن أبيه في نواحي مكة حتى حضر خروج أصحاب رسول اللَّه ﷺ إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فَلَهُوَ أَوَّلُ مَنْ هاجر) (١).

وتصفه ابنته فتقول:

(كان أبي خامسًا في الإسلام، قلت: فَمَنْ تَقَدَّمَهُ؟ قالت: ابن أبي طالب وابن أبي قحافة وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص. وأسلم أبي قبل الهجرة الأولى إلى الحبشة، وهاجر في الهجرة الثانية، وأقام بها بضع عشرة سنة، وولدتُ أنا بها، وقدم على رسول اللَّه ﷺ سنة سبع بخيبر، وأسهموا لنا جميعًا، ثم رجعنا إلى المدينة مع رسول اللَّه ﷺ، وأقمنا، وخرج أبي مع رسول اللَّه ﷺ في عمرة القضية، وغزا معه إلى الفتح هو وعمي - يعني عمرًا - وخرجا معًا إلى تبوك. وبعث رسول اللَّه ﷺ أبي عاملًا على صدقات اليمن، فتوفي رسول اللَّه ﷺ وأبي باليمن) (٢).

وأبلى في اليمن بلاء حسنًا، وقاتل المرتدين هناك، وهو الذي أخذ الصمصامة سيف عمرو بن معديكرب منه في الحرب، وهو من أعظم أبطال العرب، وتوفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنه راض، وعاد إلى المدينة بعد شهر، ليرى الأمور والخلافة قد انتظمت للصديق رضي الله عنه، والرواية المقبولة عن مقولته رضي الله عنه هي التي أوردها الطبري بقوله:

(قال أبو جعفر: وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد - فيما ذكر - ما حدثني ابن حميد قال: حدثني سلمة عن ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن أبي بكر ، أن خالد ابن سعيد لما قدم من اليمن بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ تربص ببيعته شهرين، يقول:

قد أمَّرني رسول اللَّه ﷺ، ثم لم يعزلني حتى قبضه اللَّه.

وقد لقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقال:

يا بني عبد مناف، لقد طبتم نفسًا عن أمركم يليه غيركم!

فأما أبو بكر فلم يحفلها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه، ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، وكان أول من استعمل على رُبعٍ منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول:

أَتُؤَمِّرُهُ وقد صنع ما صنع، وقال ما قال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمَّر يزيد ابن أبي سفيان) (٣).

---

(١) الطبقات الكبرى (٤/٩٥).

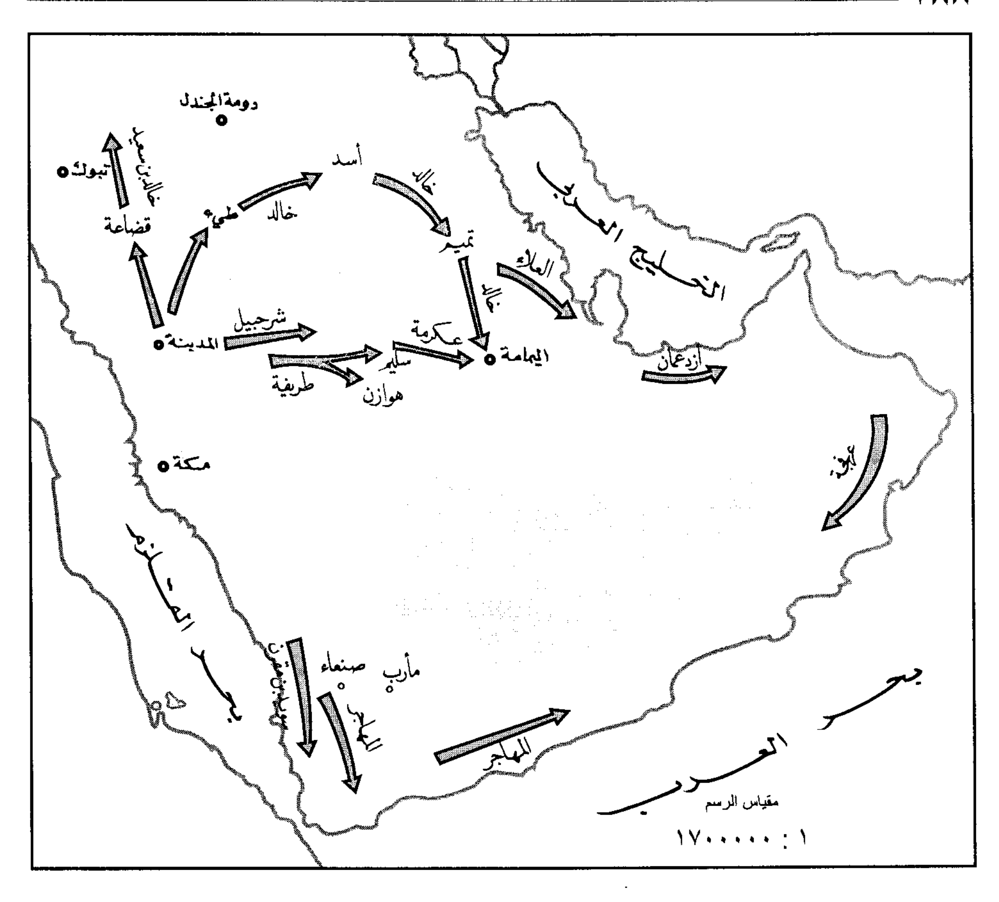
(٢) المصدر نفسه (٤/٩٦).

(٣) الطبري (٢/٣٣١).

لم يكن غريبًا أن يكون بدء الأمر بين القائدين خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد، وخالد بن سعيد أقدم إسلامًا وأعظم جهادًا من خالد، وأثبت كفاءته في اليمن، فرصيده الدعوي والعسكري رصيد جيد، وإن كان خالد ﷺ أثبت تفوقًا عسكريًّا هائلًا لم يبلغ شأوه أحد؛ ولهذا قال عنه الصديق: لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. لكن عمر ﷺ مستشار الخلافة الأول كان ضد الخالِدَيْن، فَشِدَّةُ ابن الوليد وبأسه يراها تتجاوز حدود الجيل الرائد الراشد، وزلة ابن سعيد في التربص شهرين عن البيعة، وفي إثارة الحمية القبلية لدى بني عبد مناف يراها الفاروق تحرم القائد من القيادة، أما الصديق فكان هو الأولى أن يغضب من خالد بن سعيد وَيُهَمِّشَه، فالموقفان التربص بالبيعة وإثارة بني عبد مناف تَمَسُّ الصِّدِّيقِ مباشرة وتمس خلافته، ومع هذا فقد نسي هذين الأمرين لأنهما يعنيان الغضب لنفسه، أما عمر فلم ينسهما، وقد صنع ما صنع وقال ما قال. ووضع الصديق ابن سعيد تحت الاختبار كما وضع ابن الوليد، واختلفت النتائج العسكرية كثيرًا، فقد أنهى ابن الوليد ردة الحجاز واليمامة، كما أنهى فتوح العراق الجنوبي، واحتل الحيرة عاصمته، وهو جاهز للهجوم على المدائن لو أُذن له، بينما خاض خالد بن سعيد حربًا ولم يصغ لنصيحة الصديق حتى أُتي من خلفه وهُزِم المسلمون من باهان. وإزاء هذه التجربة أوقف الصديق قيادة خالد بن سعيد، وأبقاه ردءًا للمسلمين، وأعطى القيادة لشخصيات أخرى أثبتت كفاءتها في الحرب والمواجهة.

الصديق ينسى كل ما يمسه، ويغفر كل ما يسيء إليه، فقد تمت البيعة، وعفي على الماضي، وعمر الفاروق ساهر على هذه القيادات، فلا يجوز أن تنزل عن مستوًى معين يضعه لها، ويبقى الأمر في النهاية للصديق الذي أعطى الثقة كلها لخالد بن الوليد مع نتائج فتوحاته الباهرة، وحجبها عن ابن سعيد بعد هزيمته وتسرعه في الحرب.

* * *
* *
*



حروب الردة

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (من إصدارات دار السلام للطباعة والنشر) خريطة (٢))

الفصل الثاني عشر

خالد بن الوليد يفتح العراق الشمالي

قال أبو جعفر: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن... والمهلب عن سياه، وسفيان عن ماهان، قالوا: كان أبو بكر ﷺ قد عهد إلى خالد أن يأتي العراق من أسفله منها، وإلى عياض أن يأتي العراق من فوقها، وأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة، فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء اللّه، وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس، وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فَلْيَقُمْ بالحيرة أحدكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عما في أيديهم، واستعينوا باللّه واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم، ولا تؤثروا الدنيا فَتُسْلَبُوهُمَا، واحذروا ما حذركم اللّه بترك المعاصي، ومعاجلة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة) [١] لقد أنجز خالد ﷺ مهمته كاملة، وأصبح العراق الجنوبي كله أرضًا إسلامية.

(فأتى خالد على ما كان أمر به، ونزل الحيرة، واستقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السواد، وفرق سواد الحيرة يومئذ على جرير بن عبد اللّه الحميري، وبشير ابن الخصاصية، وخالد بن الواشمة، وابن ذي العنق، وسويد، وضرار، وفرَّق سواد الأبلة على سويد بن مقرن، وحسكة الحبطي، والحصين بن أبي الحر، وربيعة بن عسل، وأقر المسالح على ثغورهم...) [٢].

لقد كانت أوامر الصديق ﷺ واضحة وجلية، فلا يرضى الهجوم على المدائن حتى تتحرر العراق كلها شمالها وجنوبها (فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء اللّه، وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس، وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم...).

ووضوح هذه الأوامر حالت بينه وبين غزو فارس وقلبه يغلي لاستغلال الظروف السيئة التي يعيشها الفرس، لكن التربية التي تلقاها على السمع والطاعة للخليفة حالت بينه وبين الغزو، فهو على عظمة قيادته وعبقرية تخطيطه جنديٌّ سامع مطيعٌ للصديق. وَعَبَّرَ عن رأيه بقوله:

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٢٢/٢).

(لولا ما عهد إليَّ الخليفة لم أتنقذ عياضًا، وكان قد شجي وأشجى بدومة، وما كان دون فتح فارس شيء... إنها لسنة كأنها سنة نساء) (١).

وحيث لم يُنَفِّذْ عياض ﷺ من مهمته شيئًا، ولا يزال يحاصِر ويحاصر في دومة جندل، فقرر خالد ﷺ أن يقوم بمهمة عياض، ويحرر العراق الشمالي.

(وخرج خالد في عمل عياض ليقضي ما بينه وبينه، ولإغاثته، فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء، وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو (التميمي أخو القعقاع) وعلى مقدمة خالد الأقرع بن حابس، لأن المثنى كان على ثغر من الثغور التي تلي المدائن، فكانوا يغادرون فارس، وينتهون إلى شاطئ دجلة قبل خروج خالد إلى الحيرة، وبعد خروجه في إغاثة عياض) (٢).

حديث الأنبار - وهي ذات العيون -:

لقد كانت الأنبار على الفرات شمال الحيرة، وتبعد عنها مسافة شاسعة، لكنها كانت من أهم المراكز في العراق بعد الحيرة، فقد كانت مركز تموين الإمبراطورية الفارسية، يقول عنها ياقوت الحموي في معجمه:

مدينة على الفرات في غربي بغداد تبعد عنها عشرة فراسخ، وكانت الفرس تسميها: فيروز سابور، وكان أول من عَمَّرَهَا سابور بن هرمز ذو الأكتاف، ثم جددها أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس... وقيل: إنما سميت الأنبار لأن بختنصر لما حارب العرب الذين لا خَلَاقَ لهم حبس الأسراء فيها. وقال أبو القاسم: الأنبار حد بابل، سميت به لأنه كان يجمع بها أنابير الحنطة والشعير واللفت والتين. وكانت الأكاسرة ترزق أصحابها منها، وكان يقال لها: الأهراء. فلما دخلتها العرب عربتها فقالت الأنبار) (٣).

وكانت الحيرة والأنبار هما موقع تجمع العرب الأصلي، (وقال أبو المنذر هشام ابن محمد. كان بُدُو نزول العرب أرض العراق وثبوتهم بها واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلًا، أن اللّه ﷻ أوحى إلى يوحنا... من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٢٢/٢).

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢٥٦/١، ٢٥٧).

فمره أن يغزو العرب لكفرهم بي واتخاذهم آلهة دوني... وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فجاؤوا مستأمنين... فأنزلهم السواد على شاطئ الفرات، وابتنوا موضع عسكرهم فسموه: الأنبار، وخلى عن أهل الحيرة، فابتنوا في موضعه وسموه: الحيرة؛ لأنه كان حيرًا مبنيًّا، وما زالوا كذلك خلال حياة بختنصر، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار، وبقي الحير خرابًا زمنًا طويلًا...) (١).

وكانت الحيرة والأنبار تتنافسان الزعامة والحياة زمنًا طويلًا.

(فكان أول عمارة الحيرة في زمن بختنصر، ثم خربت الحيرة بعد موته، وعمرت الأنبار خمسمائة سنة وخمسين سنة، ثم عمرت الحيرة في زمن عمرو بن عدي باتخاذه إياها مسكنًا، فعمرت الحيرة خمسمائة سنة، وبضعًا وثلاثين سنة، إلى أن عمرت الكوفة ونزلها المسلمون) (٢).

قال الطبري: كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة وأصحابهما قالوا:

(خرج خالد بن الوليد في تعبيته التي خرج فيها من الحيرة، وعلى مقدمته الأقرع ابن حابس، فلما نزل الأقرع بن حابس المنزل الذي يسلمه إلى الأنبار أنتج قومٌ من المسلمين إبلهم، فلم يستطيعوا العرجة (٣)، ولم يجدوا بُدًّا من الإقدام، ومعهم بنات مخاض تتبعهم، فلما نودي بالرحيل صَرُّوا الأمهات (٤) واحتقبوا المنتوجات (٥)؛ لأنها لم تُطِقِ السير، فانتهوا ركبانًا إلى الأنبار، وقد تحصن أهل الأنبار وخندقوا عليهم، وأشرفوا من حصنهم، وعلى تلك الجنود شيرزاذ صاحب ساباط، وكان أعقل أعجمي يومئذ وأسوده وأقنعه في الناس العرب والعجم، فتصايح عرب الأنبار يومئذ من السور: صبَّح الأنبار شر، جمل يحمل جميلة وجمل تربه عوذ (٦). فقال شيرزاذ: ما يقولون؟ ففسر له فقال: أما هؤلاء فقد قضوا على أنفسهم، وذلك أن القوم إذا قضوا على أنفسهم قضاء كاد يلزمهم، واللّه، لئن لم يكن خالد مجتازًا لأصالحنه.

فبينما هم كذلك قدم خالد على المقدمة، فأطاف بالخندق، وأنشب القتال، وكان

(١ ، ٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٢٨/٢ - ٣٣١). مقتطفات.
(٣) العرجة: الإقامة. وإنتاج الإبل: ولادتُها. (٤) صروا الأمهات: غلفوا أضراع النوق.
(٥) احتقبوا المنتوجات: حملوا أولادها.
(٦) القصد أنهم سيُهزمون ويحملون كما حملت الجمال الصغيرة.

قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به، وتقدم إلى رُمَاتِهِ فأوصاهم:

إني أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها. فرموا رشقًا واحدًا ثم تابعوا ففقئ ألف عين يومئذ، فسميت تلك الوقعة: ذات العيون، وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار. فقال شيرزاذ: ما يقولون؟ ففسر له، فقال: آباذ آباذ [١]، فراسل خالدًا في الصلح على أمر لم يرضه خالد، فرد رسله، وأتى خالد أضيق مكان في الخندق برذايا الجيش [٢] فنحرها، ثم رمى بها فيه فأفعمه، ثم اقتحم الخندق والرذايا جسورهم فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق، وأرز القوم إلى حصنهم، وراسل شيرزاذ خالدًا في الصلح على ما أراد، فقبل منه على أن يخليه ويلحقه في مأمنه في جريدة خيل، ليس معهم من المتاع والأموال شيء، فخرج شيرزاذ، فلما قدم على بهمن جاذويه فأخبره الخبر لامه، فقال: إني كنت في قوم ليست لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم، ثم قاتلهم الجند ففقؤوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسالمة أسلم.

ولما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون وأمن أهل الأنبار وظهروا، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب، ثم لم تزُل عنها. فقال: ممن تعلمتم الكتاب؟ قالوا: تعلمنا الخط من إياد. وأنشدوه قول الشاعر:

قومي إياد لو أنَّهم أمم ... أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم بساحة العراق إذا ... ساروا جميعًا والخط والقلم

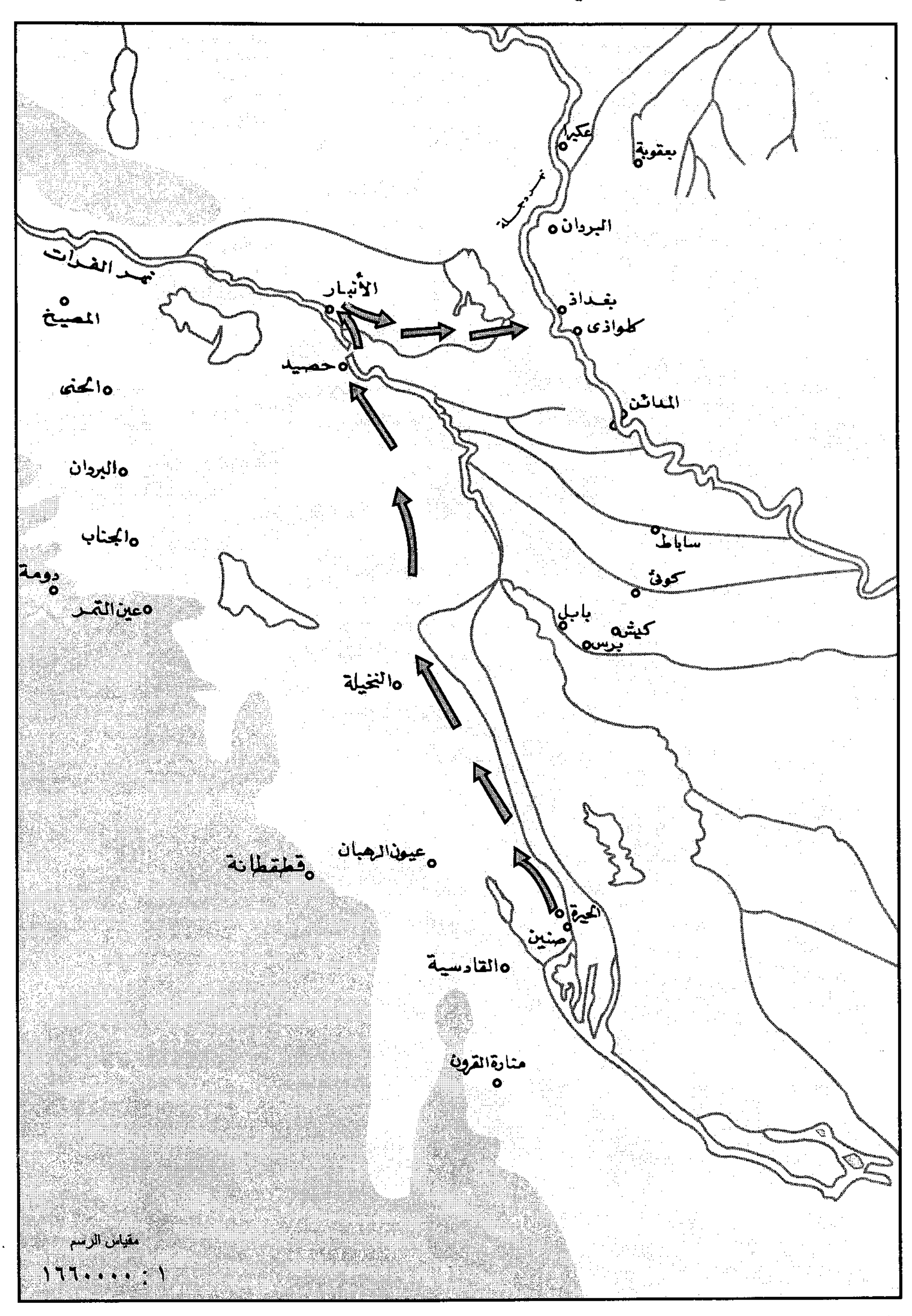
وصالح خالد من حولهم، وبدأ بأهل البوازيج، وبعث إليه أهل كلواذى ليعقد لهم فكاتبهم، فكانوا عيبته من وراء دجلة، ثم إن أهل الأنبار وما حولها نقضوا فيما كان يكون بين المسلمين والمشركين من الدول ما خلا أهل البوازيج، فإنهم ثبتوا كما ثبت أهل بانِقيا) [٣].

---

(١) آباذ آباذ: كلمة ثناء بالفارسية ومعناها: بارك الله.

(٢) رذايا الجيش: النوق الضعيفة أو الخيل التي أثقلها المرض.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٢٣).



فتح الأنبار

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٠) خريطة (٩))

قال أبو جعفر: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن قيس، قال: قلت للشعبي: أُخِذَ السواد عنوة؟ قال: نعم، وكل أرض إلا بعض القلاع والحصون، فإن بعضهم صالح به، وبعضهم غلب. فقلت: فهل لأهل السواد ذمة اعتقدوها قبل الهرب؟ قال: لا، ولكنهم لما دعوا ورضوا بالخراج وأخذ منهم صاروا ذمة).

عجيب أمر هذا القائد، فلقد بعثه اللَّه - تعالى - في أحلك الظروف ليقود هذه المسيرة، لقد كان موضع دراسات المؤرخين والفلاسفة، وأجمعوا على أنه القائد الذي لم ينهزم في معركة قط، ومن أجل ذلك أعطوه لقب: أعظم قواد التاريخ القديم، ولقد ملأ اسمه أسماع الدنيا في الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية، ومثل هذه المعركة الأصل أن يرتد فيها حسيرًا دون تحقيق هدفه، فبينه وبين الحصن خندق لا يستطيع الوصول إليه. لقد هزم الأنبار بالرعب ابتداءً فقالوا لمنظر رؤية حمل ذوات المخاض: (جمل يحمل جميلة، صَبَّحَ الأنبارَ شَرٌّ). ولم يكن خصمه رجلًا عاديًّا، بل كان كما وصفه المؤرخون: (أعقل أعجمي وأسوده، وأقنعه في الناس)، فهو من بيوتات الشرف العليا في فارس، وله من كفاءته وعقله ما يستطيع أن يهزم خالدًا، وهو المتمنِّع بحصونه، لكنه أدرك بخبرته العميقة أن مثل خالد لا يقاوم، فأراد مصالحة، غير أن خالدًا رفض شروط الصلح. ونتساءل: كيف أدرك خالد أن القوم لا علم لهم بالحرب حتى أصدر أمره العسكري للرماة بفقوء عيون المقاتلين، وفي شدة واحدة فقئت ألف عين، وكان هذا كفيلًا بإنزال الرعب والموت في قلوبهم.

في غزوة الخندق - ولم يكن هناك حصون للمسلمين - ارتد كيد قريش كلها، وعادت كليلة حسيرة أمام هذه الحيلة الحربية المستوردة من فارس، وكل ما استطاعه أبطال المشركين أن ينظروا أضيق مكان في الخندق، ويقفزوا فوقه؛ ليتحدُّوا المسلمين، وهاهنا عبقرية فارس في الخندق حول الحصن، فلو نجح في الأولى فلن ينجح في الثانية.

وهل يقف خالد عاجزًا أمام هذه الخطط الحربية الفائقة؟!

أبدًا، فسرعان ما تفتقت عبقريته الحربية عن ذبح الجمال الهزيلة ورميها في أضيق مكان في الخندق حتى ملأته (أفعمته) وتحرك الجيش على جسر من الإبل المذبوحة، حتى وصل إلى حصنهم وأباد حاميته، فتحصن القوم في الحصن، ولم يكن خصم

خالد بالنائم على ما يفعله خالد، ولو استطاع خالد فتح ثغرة في الحصن لأبادهم جميعًا، وهو يدرك أن الذي لم يعجزه الخندق لن يعجزه الحصن، فبعث إلى خالد يصالحه بالشروط التي يريدها، وقد ذكر في معجم البلدان أن خالدًا صالح أهل الأنبار على أربعمائة ألف درهم، وهذا قليل بالنسبة لهم، وطلب سلامته ونجاته بنفسه حتى وصل إلى القائد العام بهمن جاذويه الذي لامه وَبَكَّتَهُ على تفريطه في الأرض والناس، فشرح له مراحل الحرب ودقائقها فعذره.

إنه خالد، وهل جرب أحد خالدًا فنجح في تحديه له؟!! أبدًا، إنه مع جند يحبون الموت كما يحب العدو الحياة، وكما يحب العدو شرب الخمر. وانهارت الأنبار والمواقع المنيعة حولها، وظفر خالد ﷺ بأكبر موقع استراتيجي بأهل كلواذى الذين هم على دجلة ومن جهة فارس، فكانوا عيبة نصح له كما كانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ، ولم ينقضوا عهدهم قط، وراءه، فالقوم عرب أرزوا إلى العرب قبلهم والذين نزلوا فيها عندما أباح العرب، وتعلموا منه الخط والكتابة العربية، وإياد ليست نكرة في العرب.

خبر عين التمر:

(عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربه موضع يقال له: شفاثا، منهما يجلب القسب [1] والتمر إلى تلك البلاد، وهو بها كثير جدًّا، وهي على طرف البرية، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد سنة (١٢) للهجرة).

الهدف عياض.. وبانهيار الأنبار صار بإمكان خالد أن يتجه غربًا ويمعن في البادية شمال الجزيرة العربية ليصل إلى عياض ﷺ المحاصِر والمحاصَر، وهي على الطريق بين دومة والأنبار، فقد تحرك خالد ابتداء جنوبًا نحو الخنافس، وانطلق منها إلى عين التمر، ولم يكن اختيارها عبثًا، فقد كانت من أخطر المواقع على الطريق، إن لم تفتح فقد تطبق على المسلمين في طريقهم إلى دومة، ولن يقع خالد في الخطأ الذي وقع فيه عياض فيحصر، إنه يريد أن ينظف الطريق، ويبقى ظهره محميًّا من الخلف، ولا شك أن استخباراته قد نقلت له قوات العدو وقياداته فيها.

---

(١) القسب: هو التمر اليابس.

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وزياد قالوا:

ولما فرغ خالد من الأنبار واستحكمت له استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر، وقصد لعين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقة ابن أبي عقة في جمع عظيم من العرب عن النمر وإياد ومن لافَّهم، فلما سمعوا بخالد قال عقة لمهران:

إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا.

فقال: صدقت، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم. فخدعه واتقى به وقال: دونكموهم وإن احتجتم إلينا أَعَنَّاكم.

فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم: ما حملك على أن تقول مثل هذا القول لهذا الكلب؟!

قال: دعوني فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلَّ حدكم فاتقيته بهم، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون.

فاعترفوا له بفضل الرأي، فلزم مهران العين، ونزل عقة لخالد على الطريق).

هذه هي نظرة الفرس للعرب، يَدَعونَهم يقتل بعضهم بعضًا، والنصر في النهاية لفارس أو للروم، هم أدوات بيدهم، بينما جاء الإسلام ليقول لهم: إن أسلمتم فأنتم مثل إخوانكم المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وأما إن كانت الثانية - وهي الجزية - فالمقاتل والمدافع والمستشهد هم المسلمون، وما أخذوا المال إلا ليمنعوهم من عدوهم. ليس المنع من العدو فقط، بل المنع من بغي المسلمين وبغي غيرهم، وشتان شتان بين النظرتين والقيمتين والمبدأين.

فما جاء الإسلام إلا بعز الناس كل الناس، واحترامهم والمساواة بينهم، وما كانت الجاهلية أيًّا كان مصدرها عربية أو فارسية أو رومية إلا ليكون الناس أربابًا على بعضهم من دون اللَّه، بينما كان المؤمنون يهتفون بأن (اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه).

ويبلغ الحمق العربي عند عقةَ منتهاه، وبدلًا من أن يمضي لخالد ويضع يده بيده،

ويحرر أرضه من احتلال العجم لأرضهم، وأكلهم ثرواتهم، راح بمن معه من العرب يريد أن يصد خالدًا ويهزمه، فهو عربي صميم يعرف كيف يقاتل العرب، وليس خالد وجيشه إلا عربًا مثلهم، فكيف لا ينتصرون عليهم؟ وبمقدار ما كان عقة مقهورًا متعجرفًا بمقدار ما كان القائد الفارسي مهران أبعد غورًا وأعمق نظرًا من عقة، ولو لم يكن له من عبقريته إلا معرفته لقَدْرِ خالد لكَفَاهُ.

قال لقومه: إنه قد جاءكم مَنْ قتل ملوككم، وفلَّ حدكم.

فكم من الأبطال جندل في ساحة الوغى؟ وكم من الزعماء والأشراف كانوا صرعاه؟ فهل يكون هو أحدهم؟ فليتق بالعرب وليذبح العرب العرب ويبقى وقومه السليم المعافى، وعندئذ (اعترفوا له بفضل الرأي).

(... ونزل عقة لخالد على الطريق وعلى ميمنته بجير بن فلان أحد بني عتبة ابن سعد بن زهير، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران، وبين مهران وعقة روحة أو غدوة، ومهران في الحصن في رابطة فارس، وعقة على طريق الكرخ كالخفير.

فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده، فعبى خالد جنده، وقال لمجنبتيه: اكفونا ما عنده فإني حامل. ووكل بنفسه حوامي، ثم حمل وعقة يقيم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيرًا وانهزم صفه بغير قتال، فأكثروا فيهم الأسر، وهرب بجير والهذيل، واتبعهم المسلمون، ولما جاء الخبر مهران هرب في جنده وتركوا الحصن) [1].

إي واللَّه، إن خالدًا أدرى بقتال العرب والعجم والروم من درايتهم بقتال أقوامهم، إنه يعرف دور القائد في المعركة، وكانت هذه خطته وهدفه دائمًا أن يقتل قائد العدو أو يأسره، فينهي المعركة قبل أن تبدأ، وهكذا فعل هنا، فعقة لا يزال يقيم صفوفه، وانقض عليه خالد فاحتضنه أسيرًا وهو لا يزال مشمئزًا سكرًا بالنصر الذي سيحققه على خالد بن الوليد، وهرب القائدان العربيان اللذان يملكان الخبرة في قتال العرب، فماذا يفعل بهرام أمام هذا القدر الذي يقتل الملوك ويذبح الأبطال؟ فهل يلقى مصير مَنْ سبقه؟ أبدًا، ولا حل إلا الفرار، فلاذ به، ونجا بنفسه وما كاد.

(... ولما انتهت فلال عقة والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به، وأقبل خالد في الناس حتى ينزل على الحصن، ومعه عقة أسير، وعمرو بن الصعق، وهم

---

(١) تاريخ الطبري (٣٢٤/٢).

يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير من العرب، فلما رأوه يحاد لهم سألوه الأمان، فأبى إلا على حكمه فسلسلوا [١] له به، فلما فتحوا دفعهم إلى المسلمين فصاروا مساكًا [٢]، وأمر خالد بعقة - وكان خفير القوم - فضرب عنقه ليبئس الأسراء من الحياة، ولما رآه الأسراء مطروحًا على الجسر يئسوا من الحياة، ثم دعا بعمرو بن الصعق فضرب عنقه، وضرب أعناق أهل الحصن أجمعين، وسبى كل من حوى حصنهم، وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عليهم، وقال: ما أنتم؟

قالوا: رهن.

فقسمهم في أهل البلاد، منهم: أبو زياد مولى ثقيف، ومنهم: نصير أبو موسى ابن نصير، ومنهم: أبو عمرة جد عبد اللَّه بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد ابن سيرين، وحريث، وعلاثة، فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة، وحريث لرجل من بني عباد، وعلاثة للمعنى، وحُمران لعثمان، ومنهم: عمير وأبو قيس، فثبت على نسبه من موالي أهل الشام القدماء، وكان نُصير ينسب إلى بني يشكر، وعمرة إلى بني مرة، ومنهم: ابن أخت النَّمِر).

قال أبو جعفر: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن والمهلب بن عقبة، قالوا:

ولما قدم الوليد بن عقبة من عند خالد على أبي بكر ﷺ بما بعث إليه من الأخماس إلى عياض وأمدَّه به، فقدم عليه الوليد وعياض محاصرهم وهم محاصرونه، وقد أخذوا عليه بالطريق فقال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف. ابعث إلى خالد فاستمده. ففعل، فقدم عليه رسوله غبَّ وقعة العين [٣] مستغيثًا، فعجل إلى عياض بكتابه:

من خالد إلى عياض، إياك أريد.

لَبِّثْ قليلًا تأْتِك الحلائب [٤]　　　يحملْن آسادًا عليها القَاشب [٥]

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد: ٤].

---

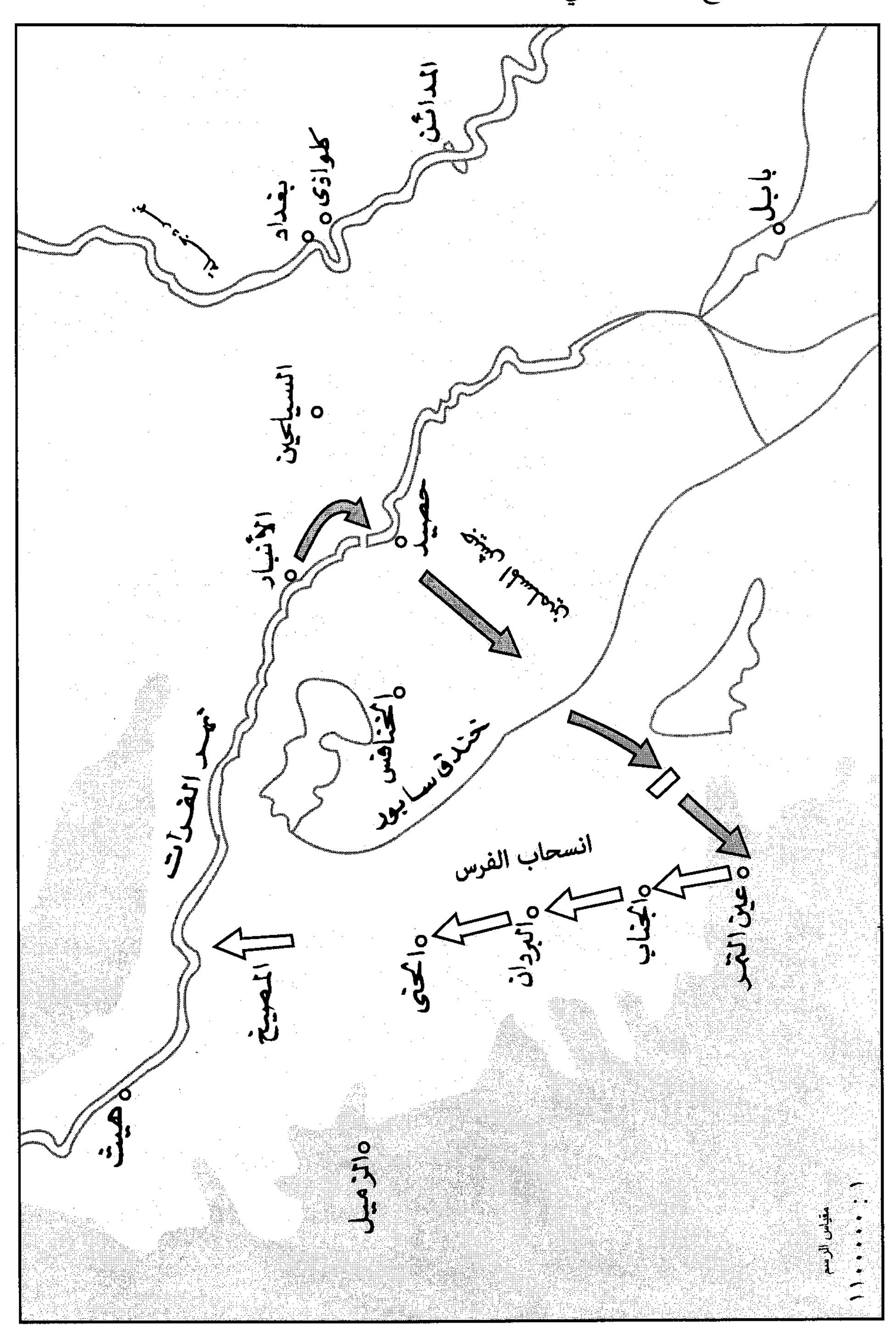
(١) فسلسلوا له: رضوا بحكمه.

(٢) صاروا مِساكًا: صاروا أسرى.

(٣) غب وقعة العين: قريب وقعة عين التمر.

(٤) الحلائب: الأنصار.

(٥) القاشب: ريح السم.



فتح عين التمر

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣١) خريطة (١٠))

كتائب يتبعها كتائب [١]:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ [محمد: ٤]، وَوَليُّ أمر المسلمين أولى بتقدير الأمر المناسب حتى في الأسرى.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وكان رأي عمر ﷺ الذي يأخذ على خالد شدته في الحرب قتل أسرى بدر جميعًا قال: (يا رسول اللَّه، قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فلان حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم اللَّه تعالى أن ليس في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم، فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون) [٢]. فخالد ﷺ يخوض معارك في قلب البداة القساة الجفاة، فلا بد أن يري الرعب والخوف والغلظة ليتوقفوا عن جمع الجموع، والاستعانة بالعجم في حرب هذا الدين.

بينما لم يفعل ذلك مع الرهن من الغلمان الذين كانوا يتعلمون الإنجيل، إنما نقلهم إلى كتاب اللَّه المصدق لما بين يديه والمهيمن عليه، وترعرع هؤلاء الغلمان، وخرج من نسلهم قادة أفذاذ وشعراء كبار وعلماء عظام ساهموا في حمل لواء التغيير في هذا العالم.

ويطالعنا الوليد بن عقبة هذا الشاب الذي حام حوله الضباب كثيرًا، وذكر المفسرون أن الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. ولا يستقيم السياق التاريخي أبدًا فيمن سماه القرآن: (الفاسق) أن يكون أحد القادة الذين يستشيرهم أبو بكر، ويوليه عمر، ويعده لحرب الشام، فالوليد بن عقبة هنا رسول خالد إلى أبي بكر، والمشير عليه أن يمد عياضًا بخالد، ويأخذ الصِّدِّيقُ بمشورته، ويعيده إلى موقعه، فلا بد أن هناك شخصيتين بهذا الاسم، وهو الذي ولاه عثمان ﷺ الكوفة بعد سعيد بن أبي العاص، واتهم بشرب الخمر وجلد، والحقيقة غير ذلك.

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٢٤، ٣٢٥).
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤/٩٤).

ولسنا بصدد التوثيق والتحقيق في هذه الإشكالية، لكننا سنجد هذا الاسم في الصدارة في المرحلة القادمة بين الشخصيات العظيمة في الأمة.

وما أعظمه من كتاب يصل بين الشخصيتين العظيمتين! فلم يكن لخالد أن يشمت بعياض أو ينقص منه ولم يحقق من مهمته شيئًا بل قام خالد ﷺ بتحقيق المهمتين.

هذا الكتاب هو: من خالد إلى عياض: إياك أريد.

لبِّثْ قليلًا تأْتِك الحلائب يَحْمِلْنَ آسادًا علَيْها القَاشب

ولا بد أن نشير أخيرًا إلى عظماء بني تميم الذين ينتدبهم خالد للمهمات العظام، كالقعقاع بن عمرو التميمي، وأخيه عاصم بن عمرو التميمي، وسيدي بني تميم الأقرع ابن حابس، والذي دخل رسول اللَّه ﷺ مكة بينه وبين عيينة بن حصن سيد بني غطفان، فإذا الرفيقان القائدان لقبيلتهما يوم الأحزاب ليستأصلا شأفة النبي ﷺ هما رفيقان اليوم في جيش مكة الإسلامي للفتح المبين في مكة، وهذا الزبرقان بن بدر سيد وفد بني تميم إلى رسول اللَّه ﷺ هو اليوم خليفة خالد على الأنبار، والأقرع ابن حابس فهو قائد مقدمته إلى عين التمر، وهو الذي اختاره الصدِّيق ليكون سيد بني تميم حين اختلف مع عمر ﷺ. لقد صار زعماء العرب وقادتها وسادتها سادة في الجيش الإسلامي الذي انطلق ليغير التاريخ، « **والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » [(١)].

خبر دومة الجندل:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي سفيان طلحة بن عبد الرحمن والمهلب بن عقبة قالوا:

ولما فرغ خالد من عين التمر، خَلَّفَ فيها عويم بن الكاهل الأسلمي، وخرج في تعبئته التي دخل فيها العين، ولما بلغ أهل دومة مسير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم، وقبل ما أتاهم وديعة في كلب وبهراء، ومساندة ابن وبرة بن رومانس، وأتاهم ابن الحدرجان في الضجاعم، وابن الأيهم في طوائف من غسان وتنوخ، فأشجوا عياضًا وشجوا به.

---

(١) البخاري، ح (٣١٧٥).

فلما بلغهم دُنُوُّ خالد وهم على رئيسين أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة اختلفوا، فقال أكيدر:

أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمنُ طائرًا منه، ولا أحَدُّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه. فأطيعوني وصالحوا القوم.

فأبوا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد، فشأنكم.

فخرج لطيته، وبلغ ذلك خالدًا، فبعث عاصم بن عمرو معارضًا له، فأخذه، فقال: إنما تلقيت الأمير خالدًا، فلما أُتي به خالد أمر به فضربت عنقه، وأخذ ما كان معه من شيء) (١).

ويستغرب المرء هذه المعاملة من خالد لأكيدر، وقد جاءه مصالحًا، ومنافرًا قومه، أفلا يضم له حليفًا جديدًا ضد أعدائه؟

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فيستغرب المرء كذلك هذا الوصف لخالد من أكيدر، والفضل ما شهدت به الأعداء.

قال: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمنُ طائرًا منه، ولا أحَدُّ في حرب، ولا يرى قوم وجه خالد قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه.

فخالد عنده البطل الذي لا يُهزَم، فمن أين جاءته هذه المعلومات؟

ولإزالة هذا الاستغراب نعود ثلاث سنوات إلى الخلف، إلى السنة التاسعة للهجرة، وإلى غزوة تبوك.

(بعث رسول اللَّه ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم، وكان نصرانيًا. فقال خالد: يا رسول اللَّه، كيف لي به وسط بلاد كلب، وإنما أنا في أناس يسير؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ستجده يصيد البقر فتأخذه** » (٢).

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت أنيف، وصعد على ظهر الحصن من الحر، وقينته تُغنيه، ثم دعا بشراب فشرب، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن، فأقبلت امرأته

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٢٥).

(٢) السنن الكبري للبيهقى، ح (١٨٤٢٢).

الرباب، فأشرفت على الحصن فرأت البقر، فقالت: ما رأيت كالليلة من اللحم، هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا. ثم قالت: من يترك هذا؟ قال: لا أحد... وركب معه نفر من أهل بيته، معه أخوه حسان ومملوكان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم، فلما فصلوا من الحصن، وخيل خالد تنظرهم، لا يصهل منها فرس، ولا يتحرك، فساعة فصل أخذته الخيل، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان، فقاتل حتى قُتِلَ، وهرب المملوكان ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن...

وقال خالد بن الوليد لأكيدر: هل لك أن أجيرك من القتل، حتى آتي بك رسول اللّه ﷺ على أن تفتح لي دومة؟ قال: نعم، ذلك لك. فلما صالح خالد أكيدر وأكيدر في وثاق انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن، ونادى أكيدر أهله: افتحوا باب الحصن. فرأوا ذلك، فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر، فقال أكيدر لخالد: تعلم واللّه لا يفتحون لي ما رأوني في وثاق، فَخَلِّ عني، فلك اللّه والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتني على أهله. قال خالد: فإني أصالحك...).

ما هي القوة التي يعتد بها خالد ليفرض صلحًا على أكيدر؟ وكيف تكون عبقرية التخطيط عنده فيما لو غدر أكيدر بعد فك وثاقه ودخل إلى الحصن واستنفر أهل دومة ووجهوا هؤلاء الأربعمائة واستنفروا عليهم كلبًا كلها وأبادوهم قتلًا عن بكرة أبيهم؟ ماذا يستفيد خالد من هذه المغامرة إلا إبادة جيشه وفشل مهمته؟ وفي أحسن الأحوال أن ينجو بنفسه دون أكيدر، إن منطق الأشياء كان يقتضي من خالد رضي الله عنه أن يمضي بأكيدر فارًّا بنفسه نحو المدينة أو تبوك، مُيَمِّمًا حيث رسول اللّه ﷺ، لكن منطق البطولة شيء آخر، فاختطاف قائد شيء، وافتتاح حصن شيء آخر. إن اختطاف القائد لا تعني في عالم البطولة إلا أخذه حين غرَّة، وبقاء قوته وفتوته وجيوشه على ما هي عليه مستعدة للموت والمواجهة، أما إنهاء الجيش فلا تُحَلُّ قضيته إلا بفتح الحصن واستسلامه، وخطا خالد - رضوان اللّه عليه - خطواته هذه بحكمة وعبقرية، بعيدة عن منطق التحدي، واستعمل المنطق والحكمة والدهاء والروية، حتى أخذ العهد والميثاق من أكيدر أن يصالحه، ولن تتم المصالحة دون فك وثاقه.

(... فقال أكيدر: إن شئتَ حكَّمْتُكَ وإن شئتَ حَكَّمْتَنِي. فقال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت. فصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة فرس، وأربعمائة درع، وأربعمائة

رمح على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول اللَّه ﷺ فيحكم فيهما حكمه، فلما قاضاه خالد على ذلك خَلَّى سبيله، ففتح الحصن، فدخله خالد، وأوثق أخاه مضادًا أخا أكيدر، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح، ثم خرج قافلًا إلى المدينة، ومعه أكيدر ومضاد، فلما قدم بأكيدر على رسول اللَّه ﷺ صالحه على الجزية، وحقن دمه ودم أخيه وَخَلَّى سبيلهما، وكتب رسول اللَّه ﷺ كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم، وختمه يومئذ بظفره...

وكان عبد اللَّه بن عمرو المزني يقول: كنا أربعين رجلًا من مزينة مع خالد بن الوليد، وكانت سهماننا خمس فرائض كل رجل مع سلاح يقسم علينا درع ورماح...)[(١)].

فأكيدر إذن ليس نكرة عند خالد، وخالد ليس نكرة عند أكيدر، وما كان يخطر ببال خالد أنه بعد أن عاهد أكيدرًا - وأسلم على بعض الروايات - أن يعود إليه بعد خمس سنوات، وقد نكث الوعد، ونقض العهد، وارتد، وَحَسْبُ أكيدر أنها رواية من روايات العرب، ينكث ويغدر، ثم ينكث ويغدر، ثم يستأسر. وقد أذاق عياضًا رضي الله عنه وجيشه الأَمَرَّيْن في حربهما ضد هذا الدين، الأكيدر والجودي بن ربيعة، لكن الرعب الذي حل به منذ وصول خالد دفعه إلى العزوف عن مواجهته، ومضى إليه ليصالحه بعد نكثه وغدره، أو نكثه وغدره وردته، فكان الجواب القتل، ثم تفرغ خالد للقائد الوحيد الآن الجودي بن ربيعة.

(... ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة وعليهم:

- الجودي بن ربيعة.
- ووديعة الكلبي.
- وابن رومانس الكلبي.
- وابن الأيهم.
- وابن الحدرجان...).

وتكاد تكون هذه القيادات العربية الخاضعة لنفوذ الروم والتابعة للإمبراطورية

(١) التربية الجماعية للمؤلف، مقتطفات (٢/٣٩٢، ٣٩٣)، عن الواقدي في المغازي (٣/١٠٢٥ - ١٠٣٠) مقتطفات.

البيزنطية، وخالد يتنقل بين القيادات العملية لإحدى هاتين الإمبراطوريتين، فأنهى أتباع فارس، وها هو دوره مع أتباع بيزنطة.

(... وجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض، وكان النصارى الذين أمَّروا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة، لم يحملهم الحصن، فلما اطمأن خالد، خرج الجودي، فنهض بوديعة، فتزاحفا إلى خالد، وخرج ابن الأيهم وابن الحدرجان إلى عياض، فاقتتلوا، فهزم اللّٰه الجودي ووديعة على يدي خالد، وهزم عياض من يليه، وركبهم المسلمون، فأما خالد فإنه أخذ الجودي أخذًا، وأخذ الأقرعُ بن حابس وديعة، وأرز بقية الناس إلى الحصن، فلم يحملهم، فلما امتلأ الحصن أغلق من في الحصنِ الحصنَ دون أصحابهم، فبقوا حوله حُرَدَاء [١] وقال عاصم بن عمرو: يا بني تميم: حلفاؤكم كلب آسوهم وأجيروهم، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها. ففعلوا، وكان سبب نجاتهم وصية عاصم بني تميم بهم، وأقبل خالد على الذين أرزوا إلى الحصن فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن، ودعا خالد بالجودي، فضرب عنقه، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلا أسارى كلب، فإن عاصمًا والأقرع وبني تميم قالوا: قد أَمَّنَّاهم. فأطلقهم لهم خالد، وقال: ما لي ولكم؟ أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ فقال له عاصم: لا تحسدهم العافية، ولا يحوزهم الشيطان. ثم أطاف خالد بالباب، فلم يزل عنه حتى اقتلعه، واقتحموا عليهم، فقتلوا المقاتلة وسبوا الشَّرْخ [٢]، فأقاموهم فيمن يزيد [٣]، فاشترى خالد ابنة الجودي، وكانت موصوفة، وأقام خالد بدومة، ورد الأقرع إلى الأنبار.

ولما رجع خالد إلى الحيرة - وكان منها قريبًا حيث يصبحها - أخذ القعقاع أهل الحيرة بالتقليس [٤] فخرجوا يتلقونه، وهم يقلسون، وجعل بعضهم يقول لبعض: مروا بنا فهذا فرج الشر...) هؤلاء الذين أشجوا عياضًا ﷺ أشهرًا، قد أصبحوا الآن بين فَكَّي الكماشة، فهم بين خالد من جهة وعياض من جهة أخرى، وطمعوا بالنصر، فخرجت قياداتهم للمواجهة حيث كان القائدان الجودي بن ربيعة ووديعة قبالة خالد، بينما خرج ابن الأيهم والحدرجان إلى عياض.

---

(١) حرداء: منعزلون.

(٢) الشَّرْخ: الصغار من الأطفال والنساء.

(٣) فأقاموهم فيمن يزيد: أي بيعوا بالمزاد العلني.

(٤) قلس: التقليس: الخضوع والانحناء كناية عن الطاعة.

فاقتتلوا، فهزم اللَّه الجودي ووديعة على يدي خالد، وابن الأيهم والحدرجان على يدي عياض، لكن الضربة القاضية في جنب خالد هو أنه أخذ الجودي أسيرًا، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة، فالقيادة العليا دائمًا هي الهدف عند خالدٍ ﷺ قتلًا أو أسرًا، والأسر أولى ابتداء؛ لأن القتل ممكن مع الأسر، أما عكس ذلك فلا، وفي الأسر مجال لمصالحة أو تبادل أو تحقيق تنازلات من العدو، وإن لم يكن إلا بَثّ الرعب به في قلوب العدو، حيث يقتل علنًا على الأشهاد، فيقع الخور في صفوفهم، وتنخلع قلوبهم من ذلك.

وكانت المرحلة الثانية من المعركة، فلم تتسع الحصون للناس جميعًا، حيث قام أهل الحصون بإغلاق أبوابها، وترك الناس عرضة للمواجهة المكشوفة، وكان هذا ما أراده سيف اللَّه ﷺ، حيث قتل هؤلاء المقاتلة وسد بهم باب الحصن، وأتبع الأسرى بالمقاتلة.

وحان عهد الوفاء بين بني تميم وحلفائهم كلب، إذ دعوا رجالات كلب إلى الاستئسار وبنو تميم يقومون بحمايتهم.

وصار خالد ﷺ بين نازعين... بين حرصه على قتل الأسرى حتى يثخن في الأرض، وبين إجارة قيادات جيشه للأسرى من كلب.

وحيث إن المسلمين أجاروا فلا بد أن تقبل إجارتهم، « **ويجير على المسلمين أدناهم** » (١)، فكيف إذا كان المجير أعلاهم؟ وخلى خالد ﷺ عن أسرى كلب بعد حمايتهم من تميم، غير أنه لم يخفها على هذه القيادات قائلًا لهم:

(أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟).

فهذه أحلاف جاهلية، والأصل التبرؤ منها وتولي اللَّه ورسوله، وقتل الأسرى لتثبيت الإسلام في هذه الأرض.

غير أن عاصمًا والزبرقان بني تميم لم يعتبروا ذلك جاهلية، إنما اعتبروه إنقاذًا لهم من الموت على الشرك، لعل اللَّه يهديهم ويكونون سيوفًا مصلتين على أعداء اللَّه، والأصل المصلحة في هذا الموضوع، وذلك كاختلاف موقف الصديق وعمر ﷺ من أسرى المشركين.

---

(١) جزء من حديث في سنن ابن ماجه، ح (٢٦٨٥).

(... قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ: لأبي بكر وعمر: « **ما ترون في هؤلاء الأسارى؟** ».

فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فداء فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: « **ما ترى يا ابن الخطاب؟** ».

قال: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيبٍ لعمر) فأضرب عنقه.

فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت...) [١].

وكانت المرحلة الثالثة من المعركة هي اقتحام الحصن، فهل يعجز خالدًا اقتحامه؟

حيث لم يستطع الصعود على السطح كما فعل في اليرموك فيما بعد، فالباب أضعف ما في الحصن، ووجه الأبطال المسلمين إليه، ولم يزالوا يعالجونه حتى اقتلعوه.

ودخل المسلمون الحصن، فقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية، وعرضوها للبيع ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، وكان قائد الجيش مثل أي جندي من جنوده (فاشترى خالد ابنة الجودي وكانت موصوفة).

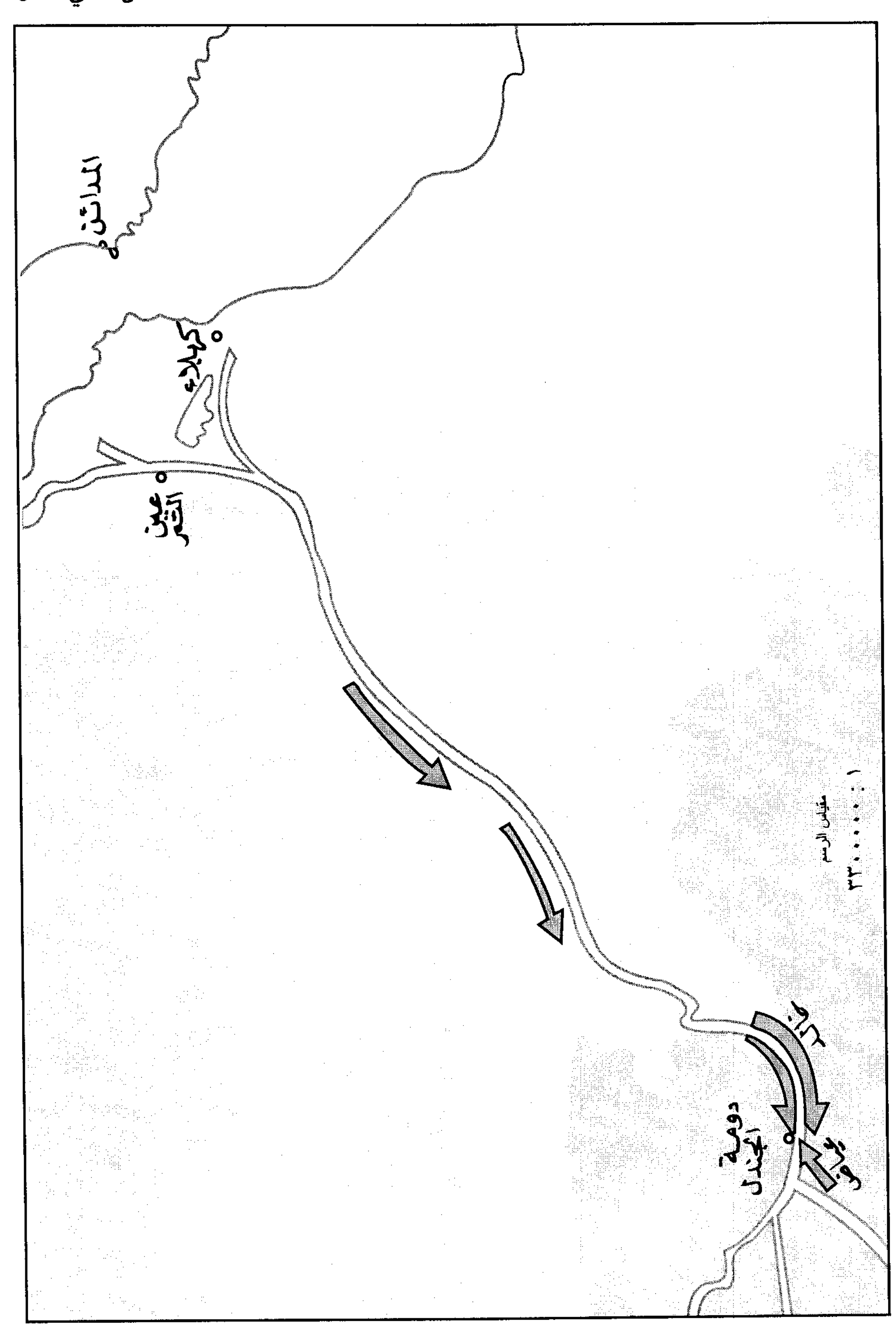
وحيث اطمأن خالد ﷺ إلى فتح دومة الجندل أعاد الأقرع بن حابس إلى الأنبار التي فتحت قبل عين التمر؛ ليكون نائبه هناك، حيث كانت الأنبار معقل العراق الثاني، أما الحيرة ففيها نائبه الأول القعقاع بن عمرو.

وكان التميميون هم غرة قادة جيش المسلمين:

القعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم بن عمرو التميمي، والأقرع بن حابس التميمي، والزبرقان بن بدر التميمي.

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة لابراهيم العلي (ص ١٨٦) وقد أخرجه مسلم في الصحيح، ح (١٧٦٣)، وأحمد في المسند، والطبري في التفسير.



فتح دومة الجندل

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣١) خريطة (١١))

هؤلاء بنو تميم الذين نزل بهم القرآن في جاهليتهم بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فقد أسلموا ووضعوا طاقاتهم للجهاد في سبيل اللَّه، وكان القعقاع رضي الله عنه أعظم هؤلاء الأبطال، فلقد أمد الصِّدِّيق خالدًا به وحده وقال: (لا يهزم جيش فيه القعقاع).

وفي رواية: (لَصَوْتُ القعقاع في الجيش أَشَدُّ من ألف سيف). ثم ساهمت هذه القيادات في الحرب: الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وأخو القعقاع عاصم ابن عمرو رضي الله عنهما.

وحيث أننا لسنا أمام قيادات فقط، إنما نحن أمام جيل كامل يتحرك بمنهج اللَّه في الأرض، فنبحث عن بني تميم كلهم في الميزان النبوي.

(فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ذكرت القبائل عند رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فسألوه عن بني عامر فقال: « **جمل أزهر يأكل من أطراف الشجر** ».

وسألوه عن هوازن فقال: « **زهرة تنبع ماءً** ».

وسألوه عن بني تميم فقال: « **ثبت الأقدام، رجح الأحلام، عظماء الهام، أشد الناس على الدجال في آخر الزمان، هضبة حمراء لا يضرها من ناوأها** »)[1].

لقد كان الأعلام من الصحابة المعروفين بالمئات في جيش يتجاوز عشرات الألوف، فقد أصبحت مسؤولية التربية لهذا الجيل العظيم على يد هذه المئات التي تلقت من رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ونهلت من معين النبوة، وأصبح جيل التابعين هو الذي يحمل مسؤولية التحرك بهذا الدين.

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن جيل الصحابة يتجاوز المائة ألف، لكن المعروف عند علماء التاريخ والتراجم منهم لا يبلغ العشرة آلاف، فقد تكون هذه الطاقات المقاتلة في العراق والشام هي من جيل الصحابة ولا ندري، فليس يعقل أن يكون تسعة أعشار الصحابة بعيدين عن المشاركة في الجهاد في سبيل اللَّه، حتى المائة ألف

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/٤٣) وقال فيه الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه سلام بن صبيح، وَثَّقَهُ ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح.

والثلاثين الذين حجوا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع لا يتجاوز أعداد مَنْ عُرِفَ منهم بضعة آلاف، لكن القيادة بالتأكيد كانت كلها بيد الصحابة، فكانوا لا يُوَلُّون إلا صحابيًّا.

تطهير آخر الجيوب في العراق

وحاولت الإمبراطورية الفارسية أن تتلافى هزائمها المتتابعة في العراق، مستغلةً تَوَجُّهَ خالد رضي الله عنه إلى دومة الجندل.

التعبئة الفارسية العربية للمواجهة:

(كتب إلى السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب قالوا:

وقد كان خالد أقام بدومة، فظن الأعاجم به، وكاتبهم عرب الجزيرة غضبًا لعقة، فخرج (زرمهر) من بغداد ومعه روزبة يريدان الأنبار، واتعدا حصيدًا والخنافس، فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة، فبعث القعقاع أعبد بن فدكي السعدي، وأمره بالحصيد، وبعث عروة بن جعد البارقي، وأمره بالخنافس، فقال: إن رأيتما مقدمًا فأقدما. فخرجا فحالا بينهما وبين الريف وأغلقاهما، وانتظر (روزبة) و (زرمهر) بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة، وقد كانوا تكاتبوا واتعدوا...).

خالد في الحيرة:

(فلما رجع خالد من دومة إلى الحيرة على الظهر، وبلغه ذلك، وعزم على مصادمة أهل المدائن، كره خلاف أبي بكر، وأن يتعلق عليه بشيء).

أربع جبهات جديدة:

(فعجل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فدكي إلى روزبة وزرمهر... وقدم على خالد كتاب امرئ القيس الكلبي أن الهذيل بن عمرو عسكر بالمصيخ، ونزل ربيعة ابن بجير بالثني وبالبشر في عسكرٍ غضبًا لعقة يريدان زرمهر وروزبة).

فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم.

الجبهة الأولى: جبهة حصيد:

أخذ خالد ﷺ طريق القعقاع وأبي ليلى إلى الخنافس حتى قدم عليهما بالعين (عين التمر)، فبعث القعقاع إلى حصيد، وأمَّره على الناس... ولما رأى روزبة أن القعقاع قد قصد له استمد زرمهر، فأمده بنفسه، واستخلف على عسكره (بالخنافس) المهبوذان فالتقوا بحصيد، فاقتتلوا، فقتل اللّٰه العجم مقتلة عظيمة، وقتل القعقاع زرمهر، وقُتل روزبة، قتله عصمة بن عبد اللّٰه من بني ضبة [١]... وغنم المسلمون غنائم كثيرة...) [٢].

الجبهة الثانية: الخنافس [٣] بقيادة المهبوذان:

(وأرز فلال الحصيد إلى الخنافس فاجتمعوا بها، فبعث (خالد) أبا ليلى بن فدكي إلى الخنافس، وسار أبو ليلى بمن معه وبمن قدم عليه نحو الخنافس، وقد أرزت فلال الحصيد إلى المهبوذان، فلما أحس المهبوذان بقدومهم هرب ومن معه وأرزوا إلى المصيخ وبه الهذيل بن عمران، ولم يَلْقَ بالخنافس كيدًا، وبعثوا إلى خالد بالأمر جميعًا.

الجبهة الثالثة: مُصَيَّخ بني البرشاء:

قالوا: ولما انتهى الخبر إلى خالدٍ بمصاب أهل الحصيد وهرب أهل الخنافس كتب إليهم (أبي ليلى والقعقاع)، ووعد القعقاع وأبا ليلى وأعبد وعروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ، وهو بين حوران والقَلْت [٤]،

وخرج خالد من العين قاصدًا المصَيَّخِ على الإبل يجنب الخيل، فنزل الجناب فالبَرَدان فالحني، فلما كان تلك الساعة من ليلة الموعد، التقوا جميعًا بالمصيخ، فأغاروا على الهذيل بن عمران ومن معه ومن أوى إليه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فقتلوهم، وأفلت الهذيل في أناس قليل، وامتلأ الفضاء قتلى، فما شبهوا بهم إلا غنمًا مصرعة، وقد كان حرقوص بن النعمان قد محَّضهم النصح، وأجاد بالرأي، فلم ينتفعوا بتحذيره...).

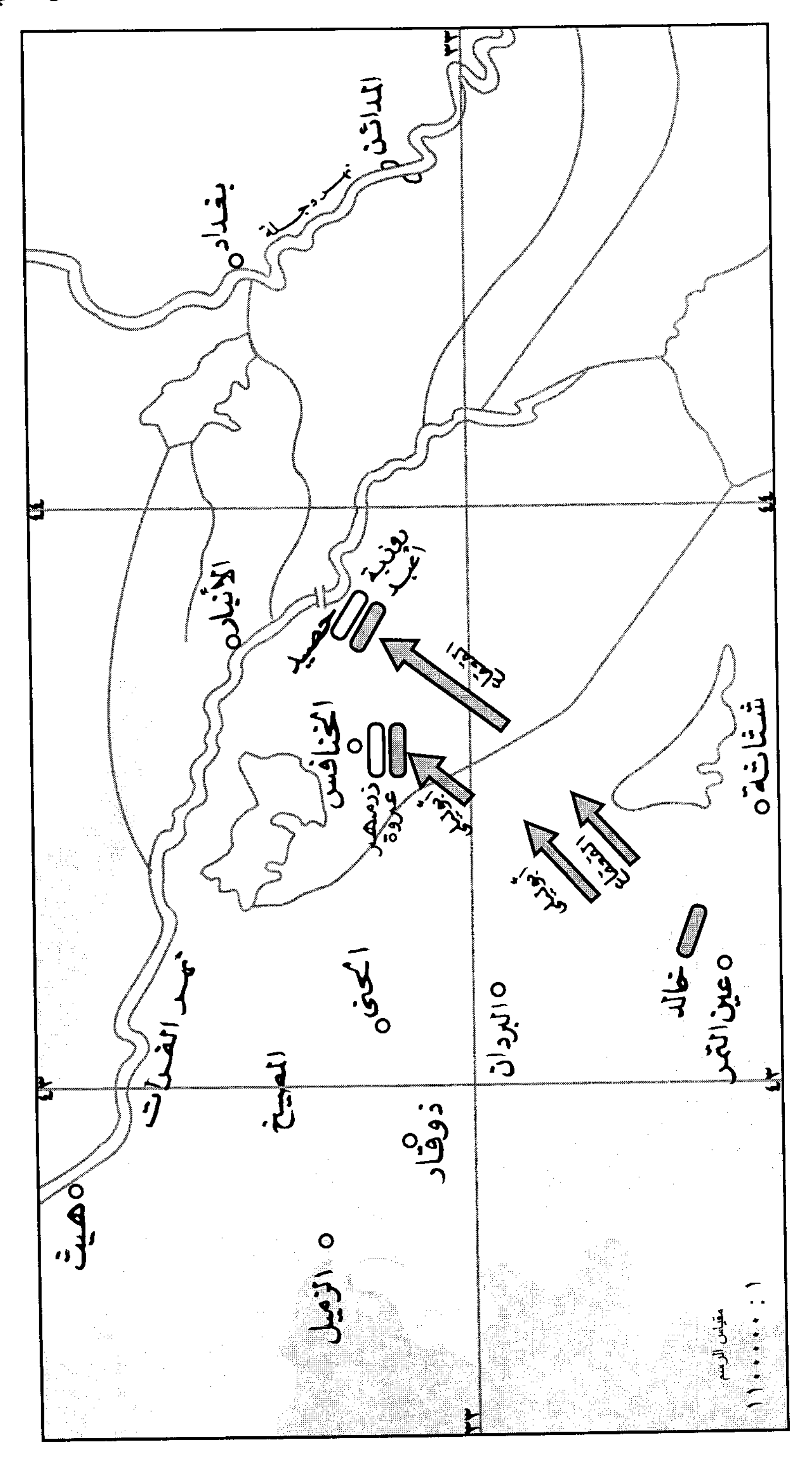
---

(١) كان عصمة من البررة، وكل فخذ هاجرت بأسرها تُدْعَى بررة، وكل قوم هاجروا من بطن يُدعَوْنَ الخيرة، فكان المسلمون خيرة وبررة.

(٢) تاريخ الطبري (٣٢٦/٢).

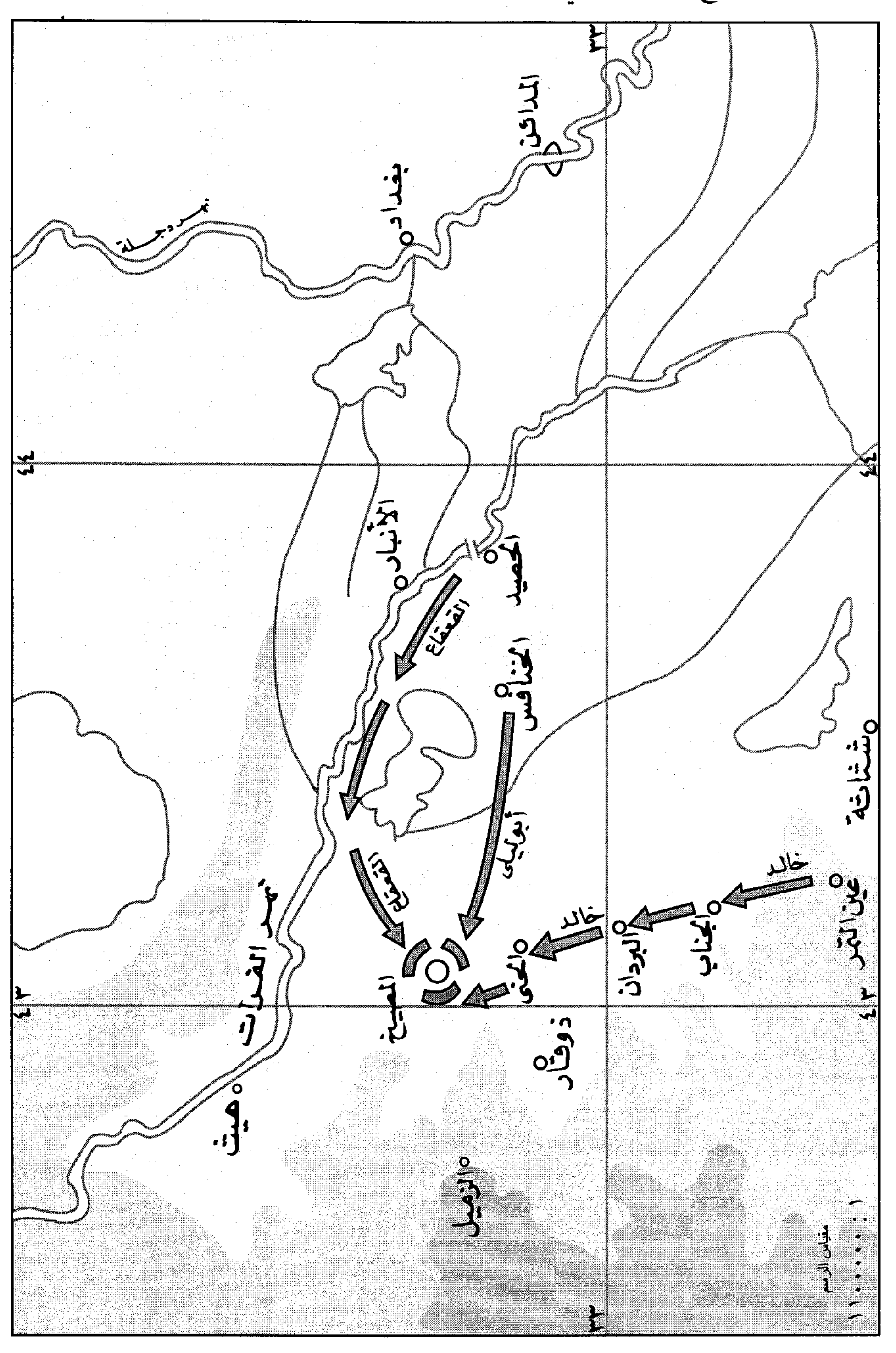
(٣) الخنافس والحصيد: موقعان على نهر الفرات بين الأنبار والحيرة.

(٤) في البادية السورية وتحت النفوذ الروماني.



الحصيد والخنافس

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٢) خريطة (١٢))



معركة المصيَّخ

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٢) خريطة (١٣))

ويصف لنا عدي بن حاتم ﷺ لقطة من تلك المعركة فيقول:

(أَغَرْنَا على أهل المصيخ وإذا رجل يدعى حرقوص بن النعمان من النمر، وإذا حوله بنوه وامرأته، وبينهم جفنة من خمر، وهم عليها عكوف يقولون له: ومن يشرب هذه الساعة وفي أعجاز الليل؟ فقال: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمرًا بعدها، هذا خالد بالعين، وجنوده بالحصيد، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا. ثم قال:

ألا فاشربوا مِنْ قبلِ قاصمَةِ الظَّهرِ — بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَكَرِ [1] الدَّثْرِ

وقبلَ منايانا المصيبة بالقَدْرِ — لحِينِ لعمري لا يزيدُ ولا يَجْرِي

فسبق إليه وهو في ذلك في بعض الخيل، فضرب رأسه، فإذا هو في جفنته، وَأَخَذْنَا بناته وقتلنا بنيه) [2].

وكانت المعركة في التاسع عشر من شعبان من السنة الثانية عشرة من الهجرة [3].

الجبهة الرابعة: الثني والزميل والرضاب:

(... وقد نزل ربيعة بن بجير التغلبي الثني والبِشْر غضبًا لعقة، وواعد روزبة وزِرمَهْر والهذيل، فلما أصاب خالد أهل المصيخ بما أصابهم به، تقدم إلي القعقاع وإلي أبي ليلى بأن يرتحلا أمامه، وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة عليها من ثلاثة أوجه كما فعل بأهل المصيخ، ثم خرج خالد من المصيخ، فنزل حوران ثم الرنق ثم الحماة وهي اليوم لبني جنادة بن زهير من كلب - ثم الزميل، وهو البشر والثني معه - وهما اليوم شرقي الرصافة - فبدأ بالثني، واجتمع هو وأصحابه، فبيته من ثلاثة أوجه بياتًا ومن اجتمع له وإليه ومن تأشب لذلك من الشُّبَّان، فجردوا فيهم السيوف، فلم يفلت من ذلك الجيش مخبر، واستبى الشرخ وبعث بخمس اللَّه إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف بن النعمان الشيباني، وقسم النهب والسبايا، فاشترى علي ابن أبي طالب ﷺ بنت ربيعة بن بجير التغلبي، فولدت له عمر ورقية.

وكان الهذيل بن عمران حين نجا أوى إلى الزميل، إلى عتاب بن فلان، وهو بالبشر في عسكر ضخم، فبيَّتهم بمثلها غارة شعواء من ثلاثة أوجه، سبقت إليهم الخبر

---

(١) العكر: الدثر. (٢) تاريخ الطبري (٣٢٦/٢، ٣٢٧).

(٣) كما في أطلس الخليفة أبي بكر الصديق (ص ٨٦)، معركة المصيخ.

عن ربيعة، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها، وأصابوا منهم ما شاؤوا، وكانت على خالد يمين ليَبْغِتَنَّ تغلب في دارها، وقسم خالد فيأهم في الناس، وبعث بالأخماس إلى أبي بكر مع الصباح بن فلان المزني... ثم عطف خالد من البشر إلى الرضاب، وبها هلال بن عقة، وقد ارفضَّ عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد، وانقشع عنها هلال بن عقة فلم يَلْقَ كيدًا بها) [1].

لقد كانت الخطة واحدة في الجبهات الثلاث، وذلك بتبييت العدو من جهات ثلاث، بحيث يسد عليهم طريق الهرب وفتح جبهات أخرى مع العرب المتربصين، والعدو يعرف أنه مستهدف لكنه لا يدري حتى تنقض عليه صاعقة خالد ومن معه، ويرى نفسه معتدًّا بقوته وبالأحلاف التي تتم بين العرب برعاية الفرس أو الروم، لكن ما يكادون يقومون بالتعبئة حتى يكون خالد بحربه الاختطافية قد بَيَّتَهُم وأنزل بهم بأسه.

وكان عند رؤساء أركانه من القادة العظام وجيشه الحي المعبأ بالإيمان على مستوى التحرك بأي خطة يضعها خالد، من حيث الوعي والانضباط والطاعة وسرعة الحركة.

لقد كانت معركة الثني والزميل بعد أربعة أيام من معركة المصيخ في الثالث والعشرين من شعبان، وهذا يعطينا صورة لسرعة الحركة ودقتها وانضباطها.

ونبحث عن الشعر في المعركة، فنجده أدنى بكثير من المستوى العملي، لقد أصبحت الأمة أمة جهاد تلتذ بالقرآن، وتأخذ روح الحياة منه، ولم تَعُد المعارك لكسب الشهرة والصِّيت والذكر حيث توقع الرعب في صفوف العدو، لقد غَدَتِ الجزيرة والروم والفرس واسم خالد سيف اللّه يَبْعَثُ الرعب في صفوفهم، ولم تَعُدِ القضيةُ عندهم تَغَلُّبَ عنصر أو قبيلة، إنما صار الأمر عندهم قَدَر اللّه الغالب المتمثل بسيفه على الأرض لا يقف له أحد.

إنما كان بعض الشعراء العرب الموغلين في الصحراء لا يجدون مُتَنَفَّسًا إلا من خلال هذا الشعر، وفي وقعة الرضاب بقية الجبهة الرابعة قال أحدهم:

طلَبنا بالرضَاب بَنِي زُهير وبالأكْناف أكْنَافَ الجِبَال

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٢٣).

فلَم تزَل الرضَابُ لَها مقامًا ولم يؤْنِسْهم عِندَ الرمال
فإن تثقّف أسنَّتُنا زُهيرًا يكفّ شرِيدهم أُخرَى الليالي (١)

مقتل مسلمين والقضية المثارة على خالد:

لقد كانت عيون المسلمين في الجيل الراشد ترمق كل حركة فيها خلل عن المنهج الإسلامي، وقصة مالك بن نويرة وما لقي خالد من هجوم من أجلها على أساس أنه مسلم ليست بعيدة عما نحن فيه، وكان أشد الناس وعيًا وملاحقة لهذه الأمور رئيس وزراء الصديق، والشخص الثاني في الدولة بعده وهو عمر ﷺ، فعاد وحرك القضية من جديد بمقتل هذين المسلمين، ولهما إجارة من الصديق رئيس الدولة ﷺ، خاصة وقد أعلن أحدهما إسلامه فقال:

أقُولُ إذَ طرق الصَّباح بغَارةٍ سبحَانك اللّهمَّ رَبِّ محَمد
سبحَان رَبي لَا إله غيرُه رَبّ البلَاد وَربِّ منْ يتورَّد

يحدثنا العلَّامة ابن كثير ﷺ عن هذا الأمر فيقول:

(وقد قُتِلَ في هذه المعركة (معركة المصيخ) رجلان كانا أسلما ومعهما كتاب من الصديق بالأمان ولم يعلم بذلك المسلمون، وهما عبد العزى بن أبي رهم بن قرواش - قتله جرير بن عبد اللَّه البجلي - والآخر لبيد بن جرير - قتله بعض المسلمين - فلما بلغ خبرهما الصديق وَدَاهُمَا، وبعث بالوصاة لأولادهما، وتكلم عمر بن الخطاب في خالد بسببهما، كما تكلم فيه بسبب مالك بن نويرة، فقال له الصِّدِّيقُ:

كذلك يلقى من يساكن أهل الحرب في ديارهم.

أي: الذنب لهما في مجاورتهما المشركين، وهذا كما في الحديث: « **أنا بريء من كل مَنْ ساكن المشرك في داره** » (٢). وفي الحديث الآخر: « **لا ترى نارهما** » (٣). أي: لا يجتمع المسلمون والمشركون في محلة واحدة) (٤).

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٥٠).

(٢، ٣) أبو داود، ح (٢٦٤٧).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير، مجلد (٣)، (٦/٣٥٦).

المعركة الخاتم: وقعة الفراض: نموذج الفتح الإسلامي:

(ثم قصد خالد بعد الرضاب وبغتته تغلب إلى الفراض، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة، فأفطر بها رمضان في تلك السفرة التي اتصلت له فيها الغزوات والأيام، ونظمن نظمًا. كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة...

قالوا: فلما اجتمع المسلمون بالفراض حميت الروم واغتاظت، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا واستمدوا تغلبَ وإيادًا والنمر فأمدوهم، ثم ناهدوا خالدًا حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا: إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم.

قال خالد: بل اعبروا إلينا.

قالوا: فتنحوا حتى نعبر.

قال خالد: لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا. وذلك للنصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة، فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض:

احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم، واللّه ليُنصرن ولتُخذلنّ. فعبروا أسفل من خالد، فلما تَتَامُّوا قالت الروم: تمايزوا حتى نعرف اليوم ما كان من حَسَنٍ أو قبيح مِنْ أَيِّنَا يجيء. ففعلوا فاقتتلوا قتالًا شديدًا طويلًا، ثم إن اللّه هزمهم، وقال خالد للمسلمين:

أَلحُّوْا عليهم ولا تُرَفِّهُوا عنهم. فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه، حتى إذا جمعوهم قتلوهم، فقتل يوم الفراض [1] في المعركة وفي الطلب مائة ألف.

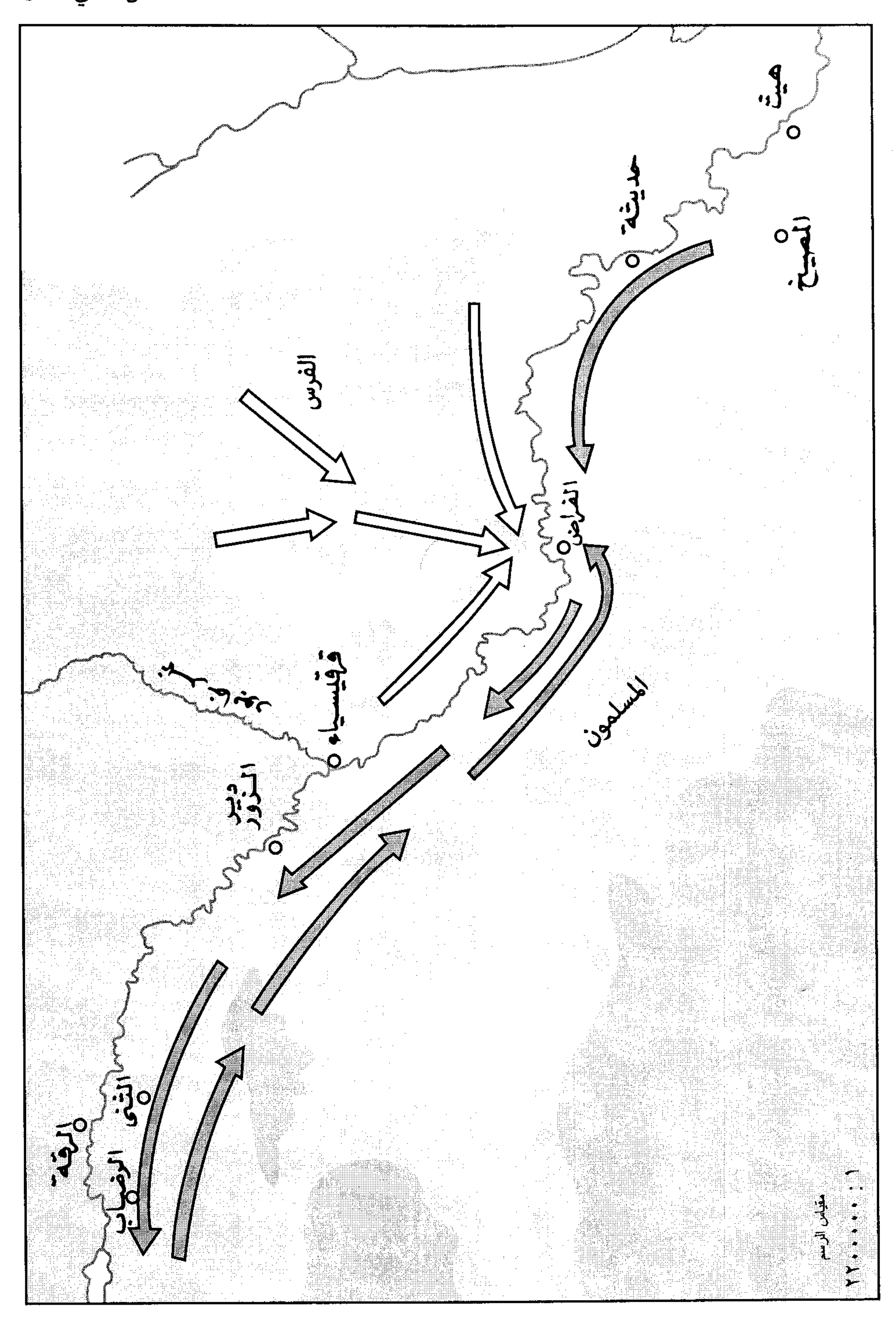
وأقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشرًا، ثم أذن في القفل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم، وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم [2] وأظهر خالد أنه في الساقة) [3].

---

(١) الفراض: تخوم الشام والعراق والجزيرة شرق الفرات.

(٢) أمره شجرة أن يسوقهم، أي: كان شجرة أمير الساقة وهي مؤخرة الجيش.

(٣) تاريخ الطبري (٣٢٨/٢).



الثني والفراض

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٣) خريطة (١٤))

وقال القعقاع في ذلك:

لَقينا بالفِراض جمُوعَ رُوم وفُرسٍ عمَّها طُولُ السّلام
أَبدْنَا جَمْعَهُم لما التقَينا وَبَيَّتْنَا بجَمْع بَنِي رِزام
فمَا فتِئت جُنودُ السِّلم حَتّى رأينا القَوْم كالغنَم السَّوام)[1]

لقد كانت خلاصة التغيير في هذه الأمة التي انطلقت من العقيدة كما حددها قول الروم والفرس والعرب:

احتسبوا مُلْكَكَمْ، هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، ووالله لَيُنْصَرَنَّ وَلَتُخْذَلُنَّ.

إذن قد اجتمعت عند هذه الأمة مقومات النصر كاملة، فالقتال على دين، (لقد أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله). ولقد توفرت القيادة التاريخية وله عقل وعلم.

فالخبرة وهي العلم قد توفرت لديه، وقد خاض غمار الحرب مع العرب والروم والفرس، والعبقرية النادرة قد توفرت لدى هذا القائد العظيم.

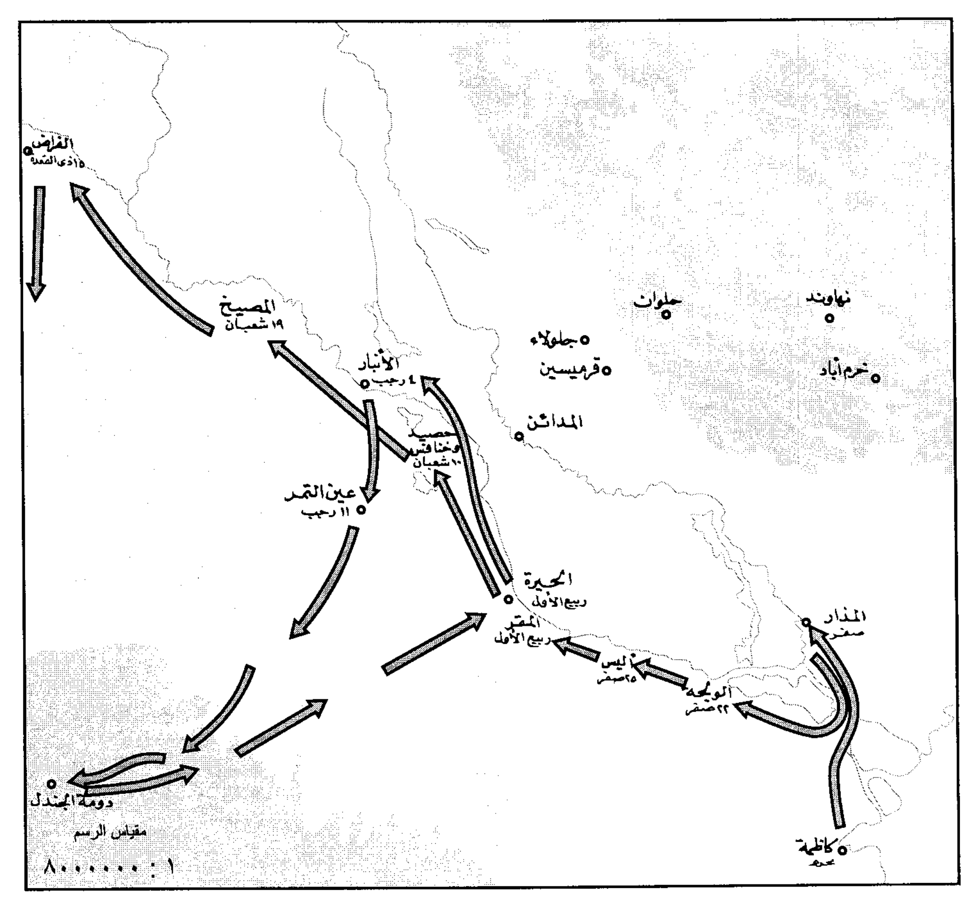
وعندئذ كانت هذه النتائج الباهرة في هذه المدة القصيرة من الزمن، وكان هذا الإنجاز العظيم، ولا ننسى عظمة الخليفة الراشد، والجيل الرائد معه الذي يخطط لهذا الدين، فقد كان الصديق مصرًّا على عدم غزو المدائن، فهو يريد تحرير الأرض العربية ابتداءً، وكان خالد يرى غير هذا الرأي، ويرى أن الفرصة سانحة لغزو المدائن عاصمة الفرس في ظل انهيار قياداتهم وصراعاتهم الداخلية، وكان يرى إمكانية النصر في ذلك، فلم يتفقوا على قائد أو كسرى إلا قتل.

وهنا تبدو عظمة هذا الدين كذلك، فلو كانت القضية أمجادًا حربية فقط ولم تكن فكرة السمع والطاعة هي من أسس هذا الدين الجديد، لتحرك القائد وزحف نحو المدائن، ثم نحو المدينة، وأصبح الخليفة الحقيقي.

لكن الصديق الذي هو خيرة خلق الله بعد النبيين والمرسلين كان يمنعه من ذلك، فيستجيب لأوامر الخليفة، لا عن ضعف، بل وهو في أعلى ذروة قوته. وسمَّى هذا العامَ رغم كل الانتصارات التي حققها بعد فتح الحيرة: « سنة نساء »، وقام بتطهير

---

(١) معجم البلدان لياقوت (٤/٢٤٤).



عمليات خالد بن الوليد بالعراق

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٦) خريطة (١٦))

كل الجيوب في جزيرة العرب وفي العراق، وأصبح مهيأً لخطوة جديدة وعالم جديد لا يعرف أين يكون، ومتى يكون.

وبدلًا من أن يأخذه العجب، ويسوح في جنون العظمة، كان يملأ قلبه وكيانه فكرة الشكر للَّه تعالى على ما والاه من نصر، وما كتب على يديه من عز، ورأى أن من تمام شكره لنعمة اللَّه عليه أن يتجه إلى البيت الحرام محرمًا بالحج من موقعه الذي هو فيه، فقد استبد به الحنين لبيت اللَّه، ولم ير أي عذر في تأخير هذه الطاعة شكرًا للَّه على ما أعطاه وهو على أبواب شهر ذي الحجة.

حجة خالد:

قال أبو جعفر:

وخرج خالد حاجًّا من الفراض لخمس بقين من ذي القعدة، مكتتمًا بحجه، ومعه عدة من أصحابه يعتسف [١] البلاد حتى أتى مكة بالسمت [٢]، فتأتى له من ذلك ما لم يَتَأَتَّ لدليل ولا رئبال [٣] فسار طريقًا من طرق أهل الجزيرة لم يُرَ طريق أعجب منه، ولا أشد على صعوبته منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه، فقدما معًا، وخالد وأصحابه محلقون لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة، ولم يعلم أبو بكر ﷺ بذلك إلا بعد، فعتب عليه، وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام، وكان مسير خالد من الفراض أنه استعرض البلاد متعسفًا متسمتًا، فقطع طريق الفراض ماء العنبري، ثم مِثْقبًا، ثم انتهى إلى ذات عرق فشرَّق منها، فأسلمه إلى عرفات من الفراض، وسمي ذلك الطريق: الصَّدِّ...) [٤].

ختام سنة اثنتي عشرة

- وفيها تزوج عمر ﷺ عاتكة بنت زيد [٥].
- وفيها مات أبو مرثد الغنوي [٦].
- وفيها مات أبو العاص بن الربيع [٧] في ذي الحجة وأوصى له الزبير، وتزوج علي ﷺ ابنته.

---

(١) يعتسف: يأخذ الطرق غير المسلوكة.

(٢) السمت: السير على الطريق بالظن ومن خلال النجم والشمس.

(٣) رئبال: بطل شجاع. وهو اسم للأسد.

(٤) تاريخ الطبري (٣٢٨/٢).

(٥) عاتكة بنت زيد بن عمرو وهي ابنة عم عمر ﷺ وكانت زوجًا لعبد الله بن أبي بكر الصديق، ثم تزوجها الزبير بعد استشهاد عمر ﷺ.

(٦) أبو مرثد الغنوي شهد هو وابنه مرثد بدرًا، وشهد الفتح وحنين، وكان عين رسول الله ﷺ في أوطاس، وهو حليف حمزة بن عبد المطلب.

(٧) أبو العاص بن الربيع: وهو ختن رسول الله ﷺ على ابنته زينب الكبرى، وفارقها بعد بدر التي أُسر فيها، وأصر على شركه، وأسلم قبيل الفتح، وأعاد له رسول الله ﷺ زينب على خلاف في العقد القديم أو عقد جديد وولد له أمامة منها، وقد تزوجها علي ﷺ، كما توفي بشير بن سند أحد سادة الأنصار وأول من بايع الصديق منهم.

- وفيها اشترى عمر أسلم مولاه.

- واختلف فيمن حج بالناس في هذه السنة، فقال بعضهم: حج بهم فيها أبو بكر ﷺ. وقال بعضهم: حج بالناس سنة اثنتي عشرة عمر بن الخطاب... أو عبد الرحمن ابن عوف...).

لقد كانت الحصيلة الكبرى للعام الثاني عشر للهجرة - أي بعد سنتين من وفاة رسول الله ﷺ - هي إنهاء الردة في الجزيرة العربية، وتحرير الجزيرة الفراتية من سيطرة الفرس وتحرير العراق العربية ودخول هذه القبائل من الأمة في هذا الدين الجديد.

لكن لأهمية الفرد المسلم نجد أن الإنسان يبقى هو الهدف، ففي آخر كل عام تستعرض أسماء الشخصيات التي استشهدت أو توفيت؛ لأنها هي جزء من الذين صنعوا هذا التاريخ العظيم مع العظماء الأحياء، فمكانة الإنسان في الإسلام لا يمكن أبدًا أن تتحول إلى أصغار في سجل الطغاة الكبار.

السنة الثالثة عشرة

خالد بن سعيد ثانية

(قال أبو جعفر: كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي إسحاق الشيباني... قالوا: أمر أبو بكر خالدًا بأن ينزل تَيْمَاء، ففصل ردءًا حتى ينزل بتيماء، وقد أمره أبو بكر أن لا يبرحها وأن يدعو مَنْ حوله بالانضمام إليه، وألا يَقْبَلَ إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا مَنْ قاتله حتى يأتيه أمره، فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عِظَمَ ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، وبنزول من استنفرت الروم، ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان من دون زيزاء بثلاث، فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تتحجَّم واستنصر الله. فسار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منازلهم، فنزله، ودخل عامة من كان تجمَّع له في الإسلام).

المرحلة الأولى:

لقد كانت خطة الصديق ابتداءً هي وضع جيش إسلامي في تيماء ليمنع قدوم

الروم إلى المدينة ويحول دون مهاجمتهم المسلمين، ولم يكن قد اتخذ قراره بالزحف نحو الشام أو مواجهة الروم.

وكان أمر الصديق لخالد بن سعيد ﷺ أن لا يغادر تيماء، فهي الخط الفاصل بين المسلمين وبين الروم، غير أن الروم اهتموا لهذا الجيش كثيرًا، واستعدوا لمواجهته، وكان الجيش الإسلامي يكبر ويضخم بانضمام المسلمين إليه وهم المحيطون به، وجواسيس الروم تَرَقُّب هذا التطور الكبير في الجيش، فكان لا بد من خطة مكافئة لهذا التجمع، فاستعمل الروم نفوذهم على العرب الذين هم تحت وصايتهم ونفوذهم، واستجابت قبائل عرب الشمال لهذا الاستنفار وهم من كلب وبهراء وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان.

وكان تَجَمُّعُهُمْ دون زيزاء [1] بثلاث، واستأذن خالد ﷺ أبا بكر في المواجهة، فكان الجواب: (أَقْدِمْ ولا تتحجَّم واستنصر اللَّه).

لم يكن خالد ليدرك أن القوم يمكرون به، وتقدم فتجاوز الحجاز إلى البلقاء في أرض الأردن، وصار بين ظهراني الروم (فسار فيمن كان معه، فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم.

وها هو الآن في الأردن بين زيزاء وآيل [2] والقسطل [3]).

المرحلة الثانية: المواجهة الأولى:

(... فسار إليه بطريق من بطارقة الروم يدعى باهان، فهزمه وقتل جنده، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمده) [4].

ومن أين جاء المدد؟

(يروي أنس بن مالك ما كان من أمر رسالة أبي بكر إلى شعب اليمن فيقول: أتيت أهل اليمن جناحًا جناحًا وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبي بكر، وإذا فَرَغْتُ من قراءته قلت:

---

(١) زيزاء: من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق وفيها بركة عظيمة.

(٢) آيل: في الحديث أن رسول اللَّه ﷺ جهز جيشًا بعد حجة الوداع وقبل وفاته وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ آيل الزيت بالأردن من مشارف الشام.

(٣) القسطل: موقع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة.

(٤) تاريخ الطبري (٣٣٢/٢).

الحمد للَّه، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني رسول خليفة رسول اللَّه ﷺ إليكم، ورسول المسلمين إليكم، ألا وإني قد تركتهم معسكرين، ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم فَعَجِّلوا إلى إخوانكم، رحمة اللَّه عليكم أيها المسلمون.

فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الردَّ عليَّ ويقول:

نحن سائرون...

فنفر عدد كبير من أهل اليمن على أبي بكر ﷺ؛ لذلك فرح فرحًا عظيمًا) (١).

لقد استنفرت الحجاز والقصيم ونجد ومضوا إلى العراق بعد انتهاء حروب الردة، ومضى بعضهم إلى تيماء مع خالد بن سعيد ﷺ، واستنفر شمال الجزيرة، فانضم إلى خالد، وحققوا نصرًا عظيمًا في هزيمة باهان ومن معه وقتل جنوده، لكن أن تكون مهمة الجيش الدفاع فقط شيءٌ وأن تكون مهمته الهجوم والاقتحام والالتحام مع الروم شيء آخر.

لكن اليمن قد تأخرت عن الانضمام تحت اللواء الإسلامي، واستنزفت قوات المسلمين وكبار قادتها حتى أنهوا الردة الثانية، واليمن معدن العرب ومعقلها، وكانت تجربة الصديق في استنفار هذه الطاقات لتؤدي مسؤوليتها في الجهاد في سبيل اللَّه، حيث مضى أنس بن مالك ﷺ خادم رسول اللَّه ﷺ بكتاب أبي بكر إلى المسلمين في اليمن يستحثهم على الالتحاق بالثغور الإسلامية للجهاد في سبيل اللَّه، ورأينا كيف استجاب أهل اليمن لنداء اللَّه ورسوله، ووفدوا على المدينة جندًا جديدًا ورجالات وقيادات، على رأسهم ذو الكلاع الحميري، لقد آن أوان تحقيق موعود رسول اللَّه ﷺ بتحرك كتائب الإسلام من هناك كما وعدهم عليه الصلاة والسلام في تبوك.

يقول عليه الصلاة والسلام: « **ألا أبشركم؟** »، قالوا: بلى يا رسول اللَّه. وهم يسيرون على رواحلهم، فقال: « **إن اللَّه أعطاني الكنزين فارس والروم، وأمدني بالملوك ملوك حمير يجاهدون في سبيل اللَّه، ويأكلون فيء اللَّه...** » (٢).

---

(١) أطلس الخليفة أبي بكر الصديق (ص ٩٢).

(٢) المغاري للواقدي (٣/١٠١١).

وليس هؤلاء فقط الذين قدموا، إنما قدم كذلك كتائب الإيمان من عمان والبحرين وتهامة والسرو تحت إمرة عكرمة بن أبي جهل الذي نفذ أوامر الصديق:

(لا أرينك ولا أسمع بك إلا بعد بلاء، والحق بعمان حتى تقاتل أهل عمان، وتعين حذيفة وعرفجة، وكل واحد منكم على خيله، وحذيفة ما دمتم في عمله على الناس، فإذا فرغتم فامض إلى مهرة، ثم ليكن وجهك منها إلى اليمن حتى تلاقي المهاجر بن أبي أمية في اليمن وبحضرموت، وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد وليبلغني بلاؤك).

نفَّذ عكرمة كل ما طلب منه، وشهدنا قبل بلاءه العظيم، وجاء إلى الصديق بكتائب الإسلام وقد بلغه بلاؤه.

(وقدم عليه عكرمة قافلًا وغازيًا فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل، فسمي ذلك الجيش: جيش البدال، فقدموا على خالد بن سعيد، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره).

وبعد النصر المؤزر على ماهان ومن معه من العرب والروم، أعد الصديق الخطة لفتح الشام.

فكيف كان اختيار هذه القيادات لهذه الجبهة الجديدة مع الروم؟

* * *
* *
*

الفصل الثالث عشر

القيادات الكبرى إلى الشام

(ثم دخلت سنة ثلاث عشرة. ذكر الخبر مما كان فيها من الأحداث.

ففيها وجه أبو بكر ﷺ الجيوش إلي الشام بعد منصرفه من مكة إلي المدينة.

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال:

لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلي الشام فبعث عمرو ابن العاص قبل فلسطين، فأخذ طريق المُعْرِقة على أيلة، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة - وهو أحد الغوث - وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام).

فمن أين برز هؤلاء القادة الأربعة؟

عمرو بن العاص:

لم يكن عمرو بن العاص نكرة في الحرب ولا في السلم. بل كان خصمًا عنيدًا للإسلام منذ الفترة المكية حتى بعثته قريش للنجاشي كي يعيد المسلمين من الحبشة. وشهدنا دهاءه العظيم منذ ذلك الوقت. وشارك في الحروب كلها ضد الإسلام، وبرز قائدًا وزعيمًا بعد وفاة أبيه العاص بن وائل. وأصبح في الصدارة على مستوى خالد بن الوليد بعد أن هلك الملأ الكبار في بدر.

فهو كفرسي رهان مع خالد بن الوليد. ودخلا معًا في الإسلام وثالثهما عثمان بن طلحة حين أسماهم رسول اللّه ﷺ: « **فلذة أكباد مكة** ».

« **لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها** ».

وفي رواية: (... ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: « **قد أعطت مكة المقادة بعد هذين** » [١]. فظننت أنه يعنيني وخالد بن الوليد)، وكان هذا هو رأي أحد قيادات المسلمين ونقف مع عمرو لحظة وهو ينقل لنا لحظة إسلامه:

---

(١) المغازي للواقدي (٢/٧٤٤).

(... ثم تقدمت. فواللَّه، ما هو إلا أن جلست بين يديه، فما استطعت أن أرفع طرفي إليه حياءً منه. فبايعته على أن يُغفَر لي ما تقدم من ذنبي. ولم يحضرني ما تأخر فقال: « **إن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها** ».

قال: فواللَّه، ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة. ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة وكان عمر على خالد كالعاتب) [١].

ولم يمر ثلاثة أشهر على إسلام عمرو حتى كان أميرًا لرسول اللَّه ﷺ على سرية ذات السلاسل.

وكان أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وأبو عبيدة بن الجراح جنودًا في جيشه؛ لقد كانوا مددًا له، ثم صاروا جنودًا في جيشه.

فقد روى الحاكم عن بريدة ﷺ قال:

(بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في سرية فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ﷺ، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو ألا يوقدوا نارًا. فغضب عمر بن الخطاب وَهَمَّ أن يأتيه. فنهاه أبو بكر وأخبره أن رسول اللَّه ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب. فهدأ عنه) [٢].

فرأى الصديق بعمرٍو أنه قد تولى قيادة ذات السلاسل، وأن عليه أن يسمع له ويطيع لعلمه بالحرب. فكيف والآن قد صار أوان الحرب بين المسلمين وبين أم الأرض؟

إن أبا بكر يستعرض الرجال والقيادات، ويرى مكان عمرو بن العاص في غير موقعه المناسب له. لقد توفي رسول اللَّه ﷺ، وعمرو بن العاص، في عمان، داعية إلى اللَّه أولًا، ثم حاكمًا بين يدي ابني الجلندي أميري عمان. وبلغه وفاة رسول اللَّه ﷺ وهو عائد من عمان إلى المدينة، مخترقًا جزيرة العرب كلها في ثلة من أعوانه.

وها هو عمرو بين يدي الصِّدِّيق، فلم لا يبعثه إلى الحرب وأهوالها، والحرب على قدم وساق؟ لم يفعل ذلك ابتداءً لأن رسول اللَّه ﷺ وعده أن يعيده بعد عودته من

---

(١) المغازي للواقدي (٧٤٥/٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢٦٤/٦)، وعند الحاكم (٤٢/٣).

عمان واليًا على صدقات سعد هذيم وعُذرة ومن لفّها من جُذام وحَدَس قبل ذهابه إلى عمان. وصدر أمر الصديق في الأشهر الثلاثة الأولى لعمرو بتنفيذ موعود رسول اللَّه ﷺ له في إعادته إلى هذه الإدارة الاقتصادية.

(وقد كان أبو بكر رد عمرو بن العاص على عمالة كان رسول اللَّه ﷺ ولاها إياه من صدقات سعد هذيم وعذرة ومن لفَّها من جذام وحَدَسَ قبل ذهابه إلى عمان فخرج إلى عمان وهو على عِدَة من عمله إذا هو رجع. فأنجز له ذلك أبو بكر) [١].

أما وقد قرر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يفتح الأرض بالإسلام. وأن يقارع أعظم إمبراطوريات الأرض - الروم - بعد أن فتح الجبهة الفارسية بخالد بن الوليد.

فمن هو قرين خالد ونده ليكون أول قادة الفتح في الشام؟ إنه عمرو وهما اللذان أسلما معًا، وهذا هو موقعه، وليس موقعه على صدقات بعض قبائل العرب، إنه الأمير المجرَّب بالحرب فهذا هو موقعه قائدًا على جبهة الروم.

لقد رافق قراره افتتاح جبهة الروم قراره باختيار عمرو بن العاص قائدًا أولًا لهذا الموقع (فكتب إليه أبو بكر عند اهتياجه للشام إلى عمرو:

إني قد رددتك على العمل الذي كان رسول اللَّه ﷺ ولَّاكه مرة، وسماه لك أخرى؛ مَبْعثَكَ إلى عُمان إنجازًا لمواعيد رسول اللَّه ﷺ، فقد وليته ثم وليته. وقد أحببت - أبا عبد اللَّه - أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك...) [٢].

ترى هل يكون عمرو بن العاص راضيًا أن ينتهي عاملًا على صدقات هذه القبائل العربية، وهو يرى أخاه خالدًا يجوب الأرض العربية ويحرر العراق. وهو مصفَّد بأغلال هذه الولاية الصغيرة. ترى هل هذا موقعه وهذه نهايته؟

أبدًا، لكن هل يعرض نفسه على الصديق، ويطالب بالولاية، وطالب الولاية لا يولَّى. هل يتحدث عن طاقاته القيادية الحربية، ويقاتل من أجل الوصول إليها، أم أنه قد تربى في المدرسة الإسلامية النبوية. بعد أن هجر المدرسة الجاهلية، وأصبح جنديًّا يسمع ويطيع للخليفة؟!

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٣٢/٢).

لقد كانت هذه الهواجس تنتابه كل ما خلا لنفسه ولا يملك إلا أن يكظم ما استطاع. لقد جاءته هذه الرسالة ففجرت كل طاقاته، واغتبط أن يكون موطن اهتمام الخليفة وموطن ثقته. وهزته هذه الجملة الفذة الفريدة:

(وقد أحببت - أبا عبد اللَّه - أن أفرِّغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك. إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك).

ومتى كان عمرو لا يبصر موقعه، ولا يعلم الطاقات المدخرة التي عنده؟ فهو بانتظار هذه الإشارة. فكتب هذا الجواب الخالد:

(فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد اللَّه الرامي بها. والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارمِ به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي) [١].

الوليد بن عقبة:

(... وكتب إلي الوليد بن عقبة بنحو ذلك، فأجابه بإيثار الجهاد) [٢].

لقد كان الوليد بن عقبة مع عمرو بن العاص واليين على صدقات قضاعة؛ لعَمْرٍو أعلاها وللوليد أدناها فـ (كتب أبو بكر إلى عمرٍو وإلى الوليد بن عقبة. وكان على النصف من صدقات قضاعة، وقد كان أبو بكر شيعهما مبعثهما على الصدقة، وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة: اتق اللَّه في السر والعلانية، فإنه من يتقِ اللَّه يجعلْ له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتقِ اللَّه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، فإن تقوى اللَّه خير ما تَوَاصَى بها عبادُ اللَّه. إنك في سبيل من سبيل اللَّه، لا يسعك فيه الإذهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم، وعصمة أمركم...) [٣].

فهذه وصية الولاية على الصدقات حيث تتخلب الأشداق على الخيانة، وحيث تسقط الأمم وتنهار في أكل المال العام؛ فالوصية بتقوى اللَّه لمن يعرف اللَّه ويؤمن به ويخشاه أشد من ألف وصية بالتخويف من القانون والرقابة والتحقيق. أما ما حرص عليه رضي الله عنه بالنسبة لعملهما هو التحذير من الغفلة والتفريط والإذهان، لأن قوام الدول بالدين والمال، أما وقد حضر سوق الجهاد فقد وقع اختيار الخليفة عليهما للقيادة.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣٣٢/٢).

وبعد أن استشارهما وأبدى استعدادهما وإيثارهما للجهاد كتب لهما:

(... استخلفا على أعمالكما، واندبا من يليكما) [١].

(فولى عمرٌو على عُليا قُضاعةَ عمرَو بن فلان العذري، وولى الوليدُ على ضاحية قضاعة مما يلي دومة امرأَ القيس. وندبا الناس فتتام إليهما بشر كثير، وانتظرا أمر أبي بكر) [٢].

فمن أين برز الوليد بن عقبة؟

(لقد كان سجل والده عقبة بن أبي معيط أسوأ سجل في قريش، حتى سماه ابن مسعود: أشقى القوم. فهو الذي جلل تاريخه بالعار والنجس والدنس يوم قام بوضع سلا البعير على ظهر رسول اللَّه ﷺ وعنقه، وهو الذي سماه رسول اللَّه ﷺ: - « **أسوأ جارين** » - « **كنت بين أسوأ جارين** »، وهو الذي تروي كتب السيرة عنه أنه وطئ عنق رسول اللَّه ﷺ، وهو الذي أنزل اللَّه تعالى فيَ هجائه الآيات المتعددة ومنها: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وهو الذي قتله رسول اللَّه ﷺ صبرًا حيث أسر في بدر.

هذا السجل النتن الجاهلي، لم يمنع الصديق ﷺ أن يختار ولده الوليد واليًا له على ضاحية قضاعة، ثم يدفعه للجهاد قائدًا بجوار عمرو بن العاص [٣].

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٢).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٣٢).

(٣) يقول الأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله: (كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ... ﴾ [الحجرات: ٦]، ويسميه اللَّه فاسقًا. ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول اللَّه ﷺ أبي بكر وعمر المكانة التي سجلها له التاريخ... وبعد أن ساورني هذا الشك أعدت النظر في الأخبار التي وردت عن سبب نزول الآية: ﴿ إِن جَآءَكُمْ... ﴾. فلما عكفت على دراستها وجدتها موقوفة على مجاهد أو قتادة أو ابن أبي ليلى أو يزيد بن رومان. ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة... وهناك خبران موصولان أحدهما عن أم سلمة زعم موسى بن عبيدة أنه سمعه من ثابت مولى أم سلمة وموسى ابن سلمة ضعفه النسائي...، وجماعة. وثابت المزعوم مولى أم سلمة ليس له ذكر في كل ما رجعت إليه من كتب العلم... والخبر الثاني الموصول رواه الطبري في التفسير عن ابن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه عن أبيه عن ابن عباس، والطبري لم يلق ابن سعد... وهذه السلسلة من الرواة يجهل علماء الجرح والتعديل أسماء أكثرهم...) العواصم من القواصم هامش (ص ٩١، ٩٢).

(وقام أبو بكر في الناس خطيبًا، فحمد اللَّه وأثنى عليه، وصلى على رسوله، وقال: ألا إن لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمل للَّه كفاه اللَّه. عليكم بالجد والقصد، فإن القصد أبلغ. ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا عمل لمن لا نية له...) [١].

لقد كانت هذه المقدمات جميعها في خطبة الصديق ﷺ، والذي غدا هو محور الأمة بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ - كانت هذه المقدمات للحث على الجهاد في سبيل اللَّه (... ألا وإن في كتاب اللَّه من الثواب على الجهاد في سبيل اللَّه لَمَا ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به، هي التجارة التي دلَّ اللَّه عليها، ونجَّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة) [٢].

(فأمدَّ عَمرًا ببعض من انتدب إليه إلى من اجتمع إليه، وأمَّره على فلسطين، وأمره بطريق سمَّاها له وكتب إلى الوليد بن عقبة، وأمَّره بالأردن، وأمدَّه ببعضهم. ودعا...).

يزيد بن أبي سفيان:

وكان من أبي أن دعا يزيد بن أبي سفيان (فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة، وشيَّعَهُ ماشيًا...) لم يكن ليزيد تاريخ يذكر قبل اختياره. وقد كان الصِّديق أعظم الناس علمًا بالرجال. فقد أسلم يزيد بعد الفتح، حتى في تاريخ الحرب ضد الإسلام لم يسمع ليزيد ذكر. إنما تم اختياره بصفته ابن أبي سفيان، وأبو سفيان الذي قاد الحرب ضد رسول اللَّه ﷺ بكفاءة نادرة.

والذي يملك أن يحارب سيد الخلق، بدهاء خارق، وعبقرية فذة. هذه الطاقات النادرة قد تكون كامنة في ابنه يزيد، وهذا ما دفع الصديق لاختياره لأكبر الجيوش المتجهة إلى الشام. إنه بدون تاريخ وبدون رصيد إلا رصيد بنوَّته لأبي سفيان.

(قيل لمعاوية: أيكم كان أشرف؟ أنتم أو بنو هاشم؟

قال: كنا أكثر أشرافًا وكانوا هم أشرف، فيهم واحد، لم يكن في بني عبد مناف مثل هاشم. فلما هلك كنا أكثر أعدادًا وأكثر أشرافًا، وكان فيهم عبد المطلب،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٣).

(٢) معاوية بن أبي سفيان، للمؤلف (ص ٤١٤).

ولم يكن فينا مثله؛ فلما مات صرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا؛ فلم يكن إلا قرار العين حتى قالوا: منا نبيّ فجاء نبيّ لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد رسول اللَّه. فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف؟؟؟

ويكفينا قول رسول اللَّه ﷺ لهند بعد قولها له:

يا رسول اللَّه، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك. ثم ما أصبح على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزُّوا من أهل خبائك.

قال: « **وأيضًا والذي نفسي بيده** ») [١].

لِمَ لا يكون بيت أبي سفيان بيت العز الأول في مكة بعد أن أصبح بيت الإسلام وداره.

لقد أعطاه رسول اللَّه ﷺ ذلك الشرف حتى قبل أن يدخل في دين اللَّه « **من أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن** » [٢].

ولا يثبت هذا الشرف ما لم يتابع في الإسلام. فوقع اختيار الصِّدِّيق رضي الله عنه على يزيد متابعة لهذا الشرف ولا عجب. فـ « **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » [٣].

ونجد وصف أبي سفيان عند عتبة بن ربيعة الذي رفض أن يذكر الاسم لهند واكتفى بالوصف، وذلك عندما تقدم لخطبة ابنته هند مع زعيم آخر. وكان وصف أبي سفيان هو الوصف الثاني.

(**أما الأول**: ففي الشرف الصميم، والحسب الكريم، تَخَالِين به هَوَجًا من غفلته، وذلك إسجاح من شيمته، حسن الصحابة، حسن الإجابة، إن تابعته تابعك، وإن ملت كان معك، تقضين عليه في ماله، وتكتفين برأيه في ضعفه.

وأما الآخر (أي: أبي سفيان): ففي الحسب الحسيب، والرأي الأريب، بدر أرومته، وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعر بهم، شديد الغيرة، سريع الطيرة، شديد حجاب القبة [٤]. إن جاع فغير منزور، وإن

---

(١) البخاري، ح (٢٨٢٥).

(٢) المغازي للواقدي (٨٢٢/٢).

(٣) مسلم، ح (٢٦٣٨).

(٤) شديد حجاب القبة: حريص على ستر نسائه.

نوزع فغير مقهور...) [(١)]، وعلى الرغم من الحرب الضروس بين أبي سفيان والإسلام، إلا أن أبا بكر لم ينقص قدر أبي سفيان وزعامته شيئًا عنده. الحادثة العجيبة التالية توضح هذا المعنى:

(فعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على صهيب وسلمان وبلال في نفر، فقالوا: والله، ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر:

أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: « **يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك** » [(٢)]. فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه، أأغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي) [(٣)].

فهو شيخ قريش وسيدها قبل أن يسلم، ولعل هذا كان في هدنة الحديبية، حيث تصالح المسلمون والمشركون فإذن فراسة الصديق ﷺ بيزيد. إنما كانت لأنه ابن شيخ قريش وسيدها، فهو يملك مؤهلات أبيه وقدراته، فاختاره لأهم الجيوش المتجهة للشام، وخرج معه شيوخ قريش ورجالاتها. ومن أجل ذلك استدعاه (وأمَّر يزيد ابن أبي سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه فيهم سهيل بن عمرو وفيه أمثاله من أهل مكة، وشيعه ماشيًا، وأوصاه وغيره من الأمراء. فكان مما قال ليزيد: إني قد وليتُك لِأبلوَكَ، وأجربك وأخرجك. فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك. فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك. وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا إليه بعمله...).

لقد كانت هذه الوصية بناءً جديدًا لشخص يزيد بن أبي سفيان ﷺ فليست الولاية حكرًا خاصًّا يتناقلها الأمويون كابرًا عن كابر. إنما هي ولاية تحت المجهر قابلة للنقض في أي لحظة، ولا يريد الصديق لقائده الذي اختاره أن يمضي وفي قلبه من أدران الجاهلية شيء.

- (إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) مسلم، ح (٢٥٠٤).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٣).

وقد يكون النجاح في التجربة، وقد يكون الفشل الذريع، ولا رحمة عند الفشل والسقوط.

- (فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك).

وحيث أن هَمّ الصديق ﷺ هو البناء الداخلي لقائده، فقد أعطاه أثمن ثلاث وصايا أعادت بناء ذراته كلها.

الأولى: (فعليك بتقوى اللَّه فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك).

وشتان بين قائد يغلي قلبه بالرغبة في الشهرة وهو الهدف الأعلى عنده. وبين قائد يعيش مع ربه في كل نَفَسٍ يصدر منه. فظاهره وباطنه عند اللَّه سواء.

الثانية: (وإن أولى الناس باللَّه أشدهم توليًا له).

فالانخلاع من قيم الجاهلية هو الأساس، فأولى الناس باللَّه، ليس القرشي، وليس المتعظم بالآباء، وليس العربي. أولى الناس باللَّه أكثرهم قربًا ونبضًا من قلبه باللَّه وللَّه. حيث لا يرى وليا ولا ناصرًا ولا معينًا له إلا اللَّه. وهو أولى الناس بالإعانة.

لقد قال اللَّه تعالى لنبيه: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فلن يخرج يزيد ليمد أمجاد بني أمية في أرض الشام، إنما يمضي ويخرج. لينشر نور اللَّه في الأرض. هذا النور الذي يعتمر في القلب ويضيء فيه ويزدهر فيه ليزهر في الأرض ويقشع ظُلم الوجود كله.

الثالثة: (وأقرب الناس من اللَّه أشدهم تقربًا إليه بعمله).

فالقربى من اللَّه بالعمل، وليست فقط بنور القلب. إنما التزكية بالعمل الصالح. والعمل هو الدليل فأقرب الناس من اللَّه أشدهم تقربًا إليه بعمله لا بنسبه.

خالد بن سعيد: الهزيمة بعد النصر:

لقد وصلت الأمداد إلى خالد بن سعيد ﷺ. وسُرَّ الخليفة والمسلمون معه بالنصر على ماهان. وجاءه جواب الخليفة الصديق ﷺ:

(أقدم ولا تقتحمنّ حتى لا تؤتى من خلفك).

وكما كانت أوامر رسول اللَّه ﷺ للرماة أن لا يغادروا الجبل في أُحُد سواءً كانت الدائرة للمسلمين أو عليهم. ووقعت المحنة الكبرى بخلاف أوامر النبي ﷺ وقال اللَّه

تعالى لهم: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقعت المحنة الكبرى اليوم بمخالفة أوامر خليفة رسول الله ﷺ، وقد نهاه عن الاقتحام حتى لا يؤتى من خلفه. فماذا فعل؟

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن... قالوا:

ولما قدم الوليد على خالد بن سعيد، فسانده، وقدمت جنود المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسموا جيش البدال. وبلغه عن الأمراء وتوجههم إليه. **اقتحم على الروم** طلب الحُظوة، وأعرى ظهره. وبادر [١] الأمراء بقتال الروم، واستطرد [٢] له باهان، فأَرَزَ هو ومن معه إلى دمشق، واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى ينزل مرج الصفَّر من بين الواقوصة ودمشق، فانطوت مسالح باهان عليه، وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر. وزحف له باهان فوجد ابنه سعيد بن خالد يستمطر [٣] في الناس فقتلوهم، وأتى الخبر خالدًا، فخرج هاربًا في جريدة، فأفلت من أفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل، وقد أجهضوا من عسكرهم، ولم تنته الهزيمة بخالد عن ذي المروة [٤] وأقام عكرمة في الناس ردءًا لهم، فرد عنهم باهان وجنوده أن يطلبوه، وأقام من الشام على قريب. وقد قدم شرحبيل بن حسنة وافدًا من عند خالد بن الوليد فندب معه الناس، ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد [٥]، وخرج معه يوصيه. فأتى شرحبيل على خالد ففصل بأصحابه إلا القليل، واجتمع إلى أبي بكر الناس فأمَّر عليهم معاوية، وأمره باللحاق بيزيد. فخرج معاوية حتى لحق بيزيد، فلما مر بخالد فصل ببقية أصحابه) [٦].

لقد عُزِلَ خالدٌ عن القيادة لاستعجاله النصر قبل أوانه، وأما كونه يريد الحظوة على

---

(١) بادر الأمراء: سبقهم.

(٢) استطرد له باهان: تظاهر أنه منهزمًا أمامه ليتورط في دخول سورية.

(٣) يستمطر في الناس: ينتظر. (٤) ذي المروة: موقع قريب من المدينة المنورة.

(٥) كان الوليد قد استعمله الصديق على الأردن. وحين شارك مع خالد بن سعيد جعل مكانه على الأردن شرحبيل بن حسنة.

(٦) تاريخ الطبري (٢/٣٣٣).

الأمراء. فهذا ما لا نملك دليلًا عليه. وليس مهمتنا أن نفتش عما في القلوب. لكن المهم أن قائدين من أعظم القواد رشحهما الصديق للمواقع الأولى، واستعجلا النصر. فكانت الهزيمة لهما. وهما عكرمة بن أبي جهل وخالد بن سعيد ﭬ، وإذا كان عكرمة من مُسْلِمَةِ الفتح فخالد بن سعيد من الرعيل الأول، وكان يقال له: خُمس الإسلام، أي: خامس من أسلم، وله ماضٍ عظيم وعريق في الجهاد والصبر والتضحية، فكان خريج مدرسة الأرقم، ومدرسة الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة. وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ لكن قيادة الصديق لا تفتر لحظة عن المحاسبة. ورأينا كيف حاسب عكرمة. وها هو يحاسب خالدًا الذي غدا جنديًا عاديًا بلا قيادة. وأصبح كل أمله أن يرضى الصديق عنه ليدخل المدينة. وهو على استعداد أن يمضي جنديًا ملتحقًا بثغر من الثغور. لكن بعد إذن الصديق له.

الحساب الختامي لخالد:

(لما قدم خالد بن سعيد ذا المروة، وأتى أبا بكر الخبر كتب إلى خالد:

أقم مكانك فلعمري إنك مقدام محجام. نجاء من الغمرات لا تخوضها إلا إلى حق، ولا تصبر عليه).

(ولما كان بعد وأذن له في دخوله إلى المدينة قال خالد: اعذرني. قال:

أَخَطَلٌ! أنت امرؤ جبن لدى الحرب فلما خرج من عنده قال:

كان عمرو وعلي أعلم بخالد، ولو أني أطعتهما فيه اختشيته واتقيته) [1].

لم يغفر له فراره من المعركة، ووصمه بالجبن أن يترك جيشه، ويفر بمن حوله حتى يصل ذي المروة، ولولا عبقرية عكرمة ﭬ، لوصل جيش الروم إلى مشارف المدينة زاحفًا خلف خالد ومطاردًا له. لكن صمود عكرمة والوليد أوقفا هجوم الروم، وبقيا ردءًا للمسلمين أن يؤتى المسلمون من قبلهم.

وانتهت القيادة العليا إلى القواد الأربعة بعد عزل خالد والوليد بن عقبة.

(قال أبو جعفر: وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة؛ فسمى

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٣).

لأبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حمص، وليزيد بن أبي سفيان دمشق، ولشرحبيل بن حسنة الأردن، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مجزز فلسطين...) (١).

يزيد وجمهور الناس ووصيته:

انطلق جيش يزيد من المدينة، ومعه قيادات قريش وغيرهم، وانطلق أبو بكر ﷺ وهو خليفة رسول الله ﷺ يشيعهم ماشيًا.

(ثم عقد لواء يزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور الناس، ومعه سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة، وخرج معه ماشيًا يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين) (٢).

وبين يدينا على ما يظهر وصيتان، إحداهما: عامة وكانت للأمراء الأربعة، ووصية خاصة بيزيد.

الوصية العامة:

(يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه. وإذا لقيت العدو فأظفرُكم الله به فلا تغلل ولا تمثل ولا تغدر ولا تجبن، ولا تقتلوا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا، ولا تحرقوا نخلًا ولا تعقروه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلةٍ، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله. فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له. وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رؤوسهم أفاحيص القطا، فاضربوا ما فحصوا من رؤوسهم بالسيوف حتى ينيبوا إلى الإسلام...) (٣).

إنها مبادئ الحرب في الإسلام:

ونحن ننطلق مع هذه الجيوش بهذه المبادئ العظمى التي مثلت أرقى ما وصلَتْ إليه البشرية من احترام الإنسان.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٥/٢).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤)، (٣/٧) والأصح أنها وصية الصديق لأسامة بن زيد ﷺ.

(٣) أطلس الخليفة أبي بكر الصديق (ص ٩٣)، والدعوة في حياة الصديق للدكتور يسري محمد هاني (٣٥٦/١، ٣٥٧).

١ - فهي تنطلق ابتداءً في سبيل اللَّه؛ لا لشخص ولا قبيلة ولا أمَّة ومن أجل هذه الوصية بتقوى اللَّه وطاعته والإيثار له والخوف منه.

٢ - وهناك تعامل مع العدو الشرس المقاتل مهما بلغ الحقد عليه والكراهية له لا يمكن المساس به. فلا يجوز التمثيل به بعد موته وتشويهه أو تقطيعه فتراعى آدميته. ولا يجوز الغدر مع العدو إن تم توقيع ميثاق معه، ولا تجوز الخيانة ولا تجوز السرقة للغنائم، (فلا تغلل ولا تمثل ولا تغدر ولا تجبن).

٣ - والحيوان آمن، والبهائم آمِنة، والشجر آمن، والجماد آمن، والإنسان المسالم غير المقاتل آمن (ولا تقتلوا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلًا ولا تعقروه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلةٍ).

٤ - والعُبّاد والزهاد آمنون على أي دين كانوا باطل أو صحيح.

(وستمرون على قوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم للَّه. فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له). والأصح أنها وصية الصديق لأسامة بن زيد رضي الله عنه.

أما الذين اختصوا بقتال المسلمين وتزيَّوْا بزي خاص يمثل هؤلاء المحاربين. فالسيف هو الحكم معهم.

٥ - (وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رؤوسهم أفاحيص القطا فاضربوا ما فحصوا من رؤوسهم بالسيف حتى ينيبوا إلى الإسلام).

٦ - أما الجيوش النظامية للعدو وقياداتها. فلا يتم القتال معها حتى تدعى إلى اللَّه، ثم تدعى إلى الجزية، وحين ترفض هذين الخيارين، فعندها الخيار الثالث الذي هو السيف.

(فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء اللَّه، فادعوهم إلى ثلاث خصال. فإن أجابوكم فاقبلوا منهم وكفُّوا عنهم:

- ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم.

- ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

- وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم

كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه الذي فرض على المؤمنين، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين...) (١).

فالمسلمون درجات.. المهاجرون والأنصار، وأعراب المسلمين، ولكل منهم حقوق وواجبات. ودار المهاجرين أو دار الإسلام غير ديار الأعراب. والذي يدخل في دين اللَّه مخيرٌ بين هاتين الدارين.

٧ - وأما الذي رفض الإسلام فلا إكراه في الدين، ويدفع الجزية مقابل حمايته من المسلمين (فإن أبوا أن يدخلوا في الإسلام، فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم) (٢).

٨ - ويبقى الحل الأخير بعدها الحرب، حتى يتاح للإسلام أن يصل إلى الناس جميعًا أمام الذين يصدون عن دين اللَّه ويريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، وأن يمنعوا دين اللَّه عن عبيده (فإن هم أبوا فاستعينوا اللَّه عليهم، فقاتلوهم إن شاء اللَّه) (٣).

٩ - ويبقى مفهوم النصر الذي بقي طيلة ألف عام عند العرب وآلاف الأعوام بسبب فلان، وبُطولة فلان وعبقرية فلان الذي يتحول إلى طاغية، ويستثمر النصر لاستعباد الناس وتأليه نفسه من دون اللَّه؛ حزبٍ كان أو قبيلة أو أمة أو فرد.

يبقى مفهوم النصر الذي انتزع أن يكون محققًا من البشر. لينتزع منهم فيكون من عند اللَّه خالق الخلق.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] (٤).

ولأن هذه المبادىء يحتاج كل قائد إليها، وكل جيش إليها.

(وقد أوصى أبو بكر ﷺ بقية الجيوش بهذه الوصية الخالدة...).

الوصية الخاصة: وقد وليتك عمل خالد:

وقد عرضنا جزءًا منها من قبل يمكن إعادة ذكره.

(... فكان مما قال ليزيد: إني قد وليتك لأَبْلُوَكَ وأجربك، وأخرجك فإن أنت أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى اللَّه فإنه يرى مِن باطنِك مثلَ الذي من ظاهرك. وإن أولى الناس باللَّه أشدهم توليًا له، وأقرب الناس

(١ - ٤) أطلس أبي بكر الصديق، د. سامي بن عبد اللَّه المغلوث (ص ٩٣).

من اللَّه أشدهم تقربًا إليه بعمله...)، (... وقد وليتك عمل خالد...).

وكانت الفقرة الثانية هي تحديد مهمته. وليشهد بنفسه عزل خالد ﷺ الذي تجاوز الأوامر تجاوزًا خفيفًا. فعرّض الجيش الإسلامي للدمار، والمسيرة الإسلامية للوهن. ولو لم يكن مثل الصديق ﷺ على رأس هذه الأمة لانهارت الفتوح من البداية، وحصر المسلمون في المدينة. فالدرس البليغ أمامه، وخالد بن سعيد في الفضل يفوق يزيد عشرات المرات؛ لأنه كما ذكرنا من الرعيل الأول للمهاجرين، وخمس الإسلام كما تقول ابنته ﷺ عنه:

(وكان أبي خامسًا في الإسلام. قلت: من تقدمه؟ قالت: ابن أبي طالب وابن أبي قحافة وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص، وأسلم أبي قبل الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وهاجر في المرة الثانية، وأقام بها (بضعَ عشرة سنة)، وولدتُ أنا بها، وقدم على النبي ﷺ بخيبر سنة سبع. فكلم رسولُ اللَّه ﷺ المسلمين فأسهموا لنا ثم رجعنا إلى المدينة مع رسول اللَّه ﷺ، وأقمنا، وخرج أبي مع رسول اللَّه ﷺ في عمرة القضية، وغزا معه إلى الفتح هو وعمي - تعني: عَمْرًا - وخرجا معًا إلى تبوك وبعث رسول اللَّه ﷺ أبي عاملًا على صدقات اليمن، فتوفي رسول اللَّه ﷺ وأبي باليمن)[1].

كل هذا التاريخ، وكل هذا الرصيد لا يملكه يزيد ﷺ. وكل هذا التاريخ لم يشفع له من أن يُعزل عن القيادة. لقد كان من الممكن أن لا يولى لاعتراض عمر ﷺ على كلمة قالها بعد شهرين من خلافة الصديق حين عاد من اليمن:

(فعن السري عن شعيب عن سيف عن مبشر بن فضيل، عن جبير بن صخر حارس النبي ﷺ عن أبيه قال:

كان خالد بن سعيد بن العاص باليمن زمن النبي ﷺ، وتوفي النبي ﷺ وهو بها. وقدم بعد وفاته بشهر، وعليه جبة ديباج. فلقي عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. فصاح عمر بمن يليه: مزقوا عليه جبته؛ أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور؟! فمزقوا جبته. فقال خالد:

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٣).

يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغلبتم عليها؟ فقال علي ﷺ: أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم يا بني عبد مناف. وقال عمر لخالد: فضَّ اللَّه فاك! واللَّه لا يزال كاذب يخوض فيما قلت، ثم لا يضر إلا نفسه. فأبلغ عمر أبا بكر مقالته؛ فلما عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردة، عقد له فيمن عقد فنهاه عنه عمر، وقال: إنه لمخذول، وإنه ضعيف التروية، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدلٍ بها وخافض فيها. فلا تستنصر به. فلم يحتمل أبو بكر عليه، وجعله ردءًا بتيماء. أطاع عمرَ في بعض أمره، وعصاه في بعض) [1].

(ولما كان بعد، وأذن له في دخوله المدينة، قال خالد: اعذرني. قال:

أخَطَلٌ! أنت امرؤ جبن لدى الحرب، فلما خرج من عنده قال: كان عمر وعلي أعلم بخالد، ولو أطعتهما فيه اختشيته واتقيته) [2].

وعودة إلى وصية يزيد:

(... وقد وليتك عمل خالد، فإياك وعُبِّيَّة الجاهلية؛ فإن اللَّه يبغضها ويبغض أهلها...) [3] فأخشى ما يخشى الصديق ﷺ دعاوى الجاهلية في الإسلام. ويزيد من أعرق بيوتات قريش وأشهرها. وأبوه أبو سفيان كان أولى من يزيد لقيادة هذا الجيش لعبقريته الفذة، وخبراته المتراكمة. لكن الجاهلية قد تكون من خلالها، وعقدة الزعامة لا تزال تملأ كيانه ومن الصعب الفصل بين هذين العنصرين، أما يزيد ﷺ فليست لديه هذه العقد، وأمل الصديق أن تكون عنده عبقرية أبيه، فجرده قبل كل شيء من كل أوضار الجاهلية وأوحالها، ثم انتقل به إلى وضع خبراته العظيمة بين يديه.

- **أولًا: في التعامل مع جنده:**

قال له: (وإذا قدمت على جندك، فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه) [4].

- **ثانيًا: وعلَّمه فن الموعظة لهم:**

(وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضُه بعضًا) [5].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣١، ٣٣٢). (٢) المصدر نفسه (٢/٣٣٣، ٣٣٤).

(٣ - ٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٣).

– ثالثًا: ثم عاد به ليصوغه على نور الإسلام وهديه في كل شيء:

(وصل الصلاة لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشُّع فيها).

– رابعًا: في فن التعامل مع رسل العدو:

(وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به) [١].

– خامسًا: أخطار طيلة مكث الرسل:

(ولا تُرِيَنَّهم، فيروا خللك، ويعلموا عِلْمَك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلَكَ من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك) [٢].

– سادسًا: فن المشورة للقيادات:

(وإذا استشرت فاصدق الحديث، تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خَبَرك، فتؤتَى من قبل نفسك) [٣].

– سابعًا: فن التعرف على الأخبار:

(واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار) [٤].

– ثامنًا: فن حراسة الجيش وحفظه:

(وأكثر حرسك، وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه، فأحسن أدبه، وعاقبه من غير إفراط. وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار) [٥].

– تاسعًا: فن العقوبة للمستحق:

(ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجن فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعًا) [٦].

(١ ، ٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٥٣/٢).

(٣ – ٦) المصدر نفسه (٢٥٣/٢، ٢٥٤).

- عاشرًا: فن التعامل مع الجند:

(ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم) (١).

- حادي عشر: فن اختيار الأصدقاء:

(ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء) (٢).

- ثاني عشر: فن الشجاعة في الحرب، وأساس القيادة فيها:

(واصدق اللقاء، ولا تجبُنْ فيجبنَ الناس) (٣).

- ثالث عشر: خطر الغلول:

(واجتنب الغلول، فإنه يقرِّب الفقر) (٤).

- رابع عشر: احترام العابدين والزهاد:

(وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع. فدعهم وما حبسوا أنفسهم له) (٥).

يقول ابن الأثير رَحِمَهُ الله: (وهذه من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا لولاة الأمر) (٦).

والأصل أن تكون هذه الوصية منطلقًا لدراسات في كليات الأركان العسكرية وهي لأعظم القادة الناجحين في التاريخ، والذي استطاع خلال سنتين أن يفتح ثلاث جبهات، إحداها داخلية شملت معظم جزيرة العرب والاثنتان مع أكبر إمبراطوريتين في الأرض، وتحقق الانتصار العظيم عليهما.

الجيوش الأربعة تتجه إلى الشام:

قال أبو جعفر: (حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال: لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلى الشام. فبعث عمرو بن العاص قِبَل فلسطين، فأخذ طريق المعرِقة على إيلة، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة - وهو أحد الغوث - وأمَرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام) (٧).

(١ - ٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٣، ٢٥٤).

(٧) تاريخ الطبري (٢/٢٣١).

(فأمَدَّ عَمرًا ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه، وأمّره على فلسطين، وأَمَره بطريق سماها له. وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن، وأمده ببعضهم. ودعا يزيد ابن أبي سفيان فأمَّرَه على جند عظيم هم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل ابن عمرو وأشباهه من أهل مكة، وشيعه ماشيًا. واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمّره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس خلفهما ومعهما. وأوصى كل واحد منهما... وقد قدم شرحبيل بن حسنة وافدًا من عند خالد بن الوليد فندب معه الناس، ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد، وخرج معه يوصيه. فأتى شرحبيل على خالد (بن سعيد) ففعل بأصحابه إلا القليل، واجتمع إلى أبي بكر أناس، فأمَّر عليهم معاوية، وأمره باللحاق بيزيد فخرج معاوية حتى لحق بيزيد. فلما مر بخالد فصل ببقية أصحابه)[1].

لقد كانت الجيوش الثلاثة المتجهة إلى الأردن وحمص ودمشق تمضي من طريق واحد هو التبوكية أو تبوك. أما الجيش الرابع المتجه إلى فلسطين بقيادة عمرو بن العاص فقد سلك طريقًا مستقلًّا ساحليًّا وهو طريق الـمُعْرِقة على أيلة. وتحت إمرة كل قائد سبعة آلاف جندي.

هرقل يبعث جيوشه:

(وبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل - وكان بالقدس - فقال:

أرى أن تصالحوا المسلمين، فواللّه لأَنْ تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحبُّ إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم. فتفرقوا عنه وعصَوْه، فجمعهم وسار بهم إلى حمص فنزلها. وأعد الجنود والعساكر، وأراد إشغال كل طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده، لتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها.

- فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأمه في تسعين ألفًا إلى عمرو.
- وأرسل جرجة بن توذرا إلى يزيد بن أبي سفيان.
- وأرسل الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا إلى أبي عبيدة بن الجراح.
- وبعث الدراقص نحو شرحبيل.

---

(١) تاريخ الطبري: (٢/٣٣٣).

فهابهم المسلمون، وكاتبوا عَمْرًا: ما الرأي؟ فأجابهم: إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلة. فإن تفرقنا لا تقوم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا وكتبوا إلى أبي بكر، فأجابهم مثل جواب عمرو...) (١).

هرقل إمبراطور الروم:

ندع الحديث عنه للأستاذ محمد أحمد باشميل رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول:

(وهرقل المحارب الممتاز المحترف. لم يكن من الأسرة المالكة في القسطنطينية، ولكنه كان قائدًا ممتازًا محترفًا في الجيش الروماني. وكان قائد القطاعات الرومانية العاملة في الشمال الإفريقي، وكان طموحًا وذكي الفؤاد راجح العقل شجاعًا متفوقًا، بالإضافة إلى دهاء ومكر واستقامة يمتاز بها لأنه نشأ نشأة دينية، وكان متضلعًا في علم النصرانية إلى درجة اطلاعه على التحريفات التي لحقت بهذه الديانة؛ الأمر الذي مكنه من الاطلاع على الوثائق السرية التي تؤكد في المصادر النصرانية غير المحرفة أن نبيًا من العرب سيبعث، ويملك أتباعه الشام؛ لذلك كان كثير التسامح مع كل من يجتمع به من المسلمين.

كيف استولى هرقل على الحكم؟

وعندما كان يقود الأرتال الرومانية في شمالي أفريقية، كان التفكك والانهيار بدا واضحًا على إمبراطورية بيزنطة. ولم يعد أباطرتها قادرين على ضبط شؤونها الداخلية، فضلًا عن تصديهم لما يتهددهم من أخطار خارجية.

وكان الفُرس العدوُّ التقليدي يطمع في ابتلاع بيزنطة كلها. وأخذت جيوش الفرس بالفعل تنتقص الأراضي البيزنطية من أطرافها.

وهنا سنحت الفرصة للضابط الكبير المحترف هرقل، فاتفق مع فئة من أعوانه وخلصائه وهو بأفريقية على إنقاذ الإمبراطورية. ولم يكن ذلك إلا باستيلائه على السلطة العليا أولًا في القسطنطينية. فأبحر في الحال بالجيش من أفريقية على ظهر الأساطيل إلى مقر الإمبراطورية لانتزاع السلطة من الإمبراطور الهزيل. وتم له ما أراد بدون عناء يذكر، لأنه لقي تجاوبًا من عقلاء المملكة إذ رأَوا فيه مُنقذًا للإمبراطورية من الزوال.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٥).

استلم هرقل دفّة الملك، والإمبراطورية البيزنطية في أسوأ حال، حيث سيطر الفرس على الشام ومصر وآسيا الصغرى، وتولى كسرى نفسه محاصرة القسطنطينية العاصمة بقصد احتلالها وشطب خريطة إمبراطورية بيزنطة من الوجود.

فقام هرقل وهو المحارب العملي المجرب المحترف بالاستعدادات لإعادة بيزنطة إلى سابق مجدها. فرسم خطة بارعة، أضاع بها جميع ما اكتسبته جيوش الفرس من مكاسب عسكرية.

ذلك أنه كون أسطولًا في البحر الأسود، وشحنه بعدة آلاف من المقاتلين الأشداء، وقام بإنزالهم في غربي أرمينيا. وذلك في الوقت الذي كان فيه الفرس في البر الآسيوي يفرضون الحصار على القسطنطينية. فترك كسرى وشأنه. ثم انحدر زاحفًا بجيشه جنوبًا نحو فارس قاصدًا احتلال العاصمة الفارسية المدائن.

وهنا ارتاع كسرى، وأُسقط في يده، ففك الحصار عن القسطنطينية. وسارع بجيشه عبر آسية الصغرة متخليًا عنها، ليسارع للدفاع عن عاصمة ملكه التي قرر هرقل مهاجمتها. ثم انبعثت الحياة في القوات البيزنطية المسلحة في كل من مصر والشام وآسيا الصغرى وقام هرقل بتنظيمها حتى تم له طرد الفرس من كل هذه الأقطار الثلاثة وأعادهم مهزومين إلى بلادهم. ومن هنا رسخت أقدام هرقل في الملك، واعتبره البيزنطيون منقذ الإمبراطورية وأحبوه ملكًا رغم أنه ليس من الأسرة المالكة في القسطنطينية.

صعوبة مهمة القوات الإسلامية الغازية:

وهكذا وبالنسبة لوجود هرقل على رأس بيزنطة، فإن مهمة الجيوش الإسلامية الغازية لم تكن سهلة، لأن أمامها رجلًا جمع بين مهارة الحرب، وعمق السياسة والحنكة وبعد النظر. فقد كان هرقل - الذي تولى بنفسه مواجهة المسلمين - محاربًا ممتازًا، كان قبل أن يكون ملكًا، ضابطًا كبيرًا يقود الجيوش، ويخوض أعنف المعارك. وكان أفراد الجيش معجبين به قبل أن يكون ملكًا. فكيف وقد أصبح إمبراطورًا) (١).

الجانب الآخر من هرقل:

لا شك أن تحليل الأستاذ باشميل، كان تحليلًا ممتازًا لعبقرية هرقل وقدراته وكفاءته

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٧٢ - ٧٤).

الحربية، لكن الجانب الذي لم يشر إليه الأستاذ باشميل يكافئ تمامًا كل ما ذكره من ميزات.

هذا الجانب هو الجانب الإيماني عند هرقل، أو الجانب الديني. فهو يقاتل وهو غير واثق بالنصر بل متأكد من الهزيمة. لأنه في أعماقه يؤمن أنه يقاتل على باطل، ويقاتل نبيًا مبعوثًا من عند اللّه. ويحارب دين اللّه الذي كان عليه أن ينضم إليه، إنما الذي حال بينه وبين الانضمام لهذا الدين هو خوفه على ملكه، وحرصه عليه؛ لأن قومه سوف يحاربونه لو انضم لهذا الدين.

ولا بد أن نعرض لثلاثة مواقف تُجلِّي هذه الصورة النفسية لقيصر في حربه ومواجهته لهذا الدين:

الموقف الأول: وكان يوم أن وصلته رسالة الرسول ﷺ. وكيف شهد للرسول بالرسالة والنبوة. وعرف أنه سيملك الأرض كلها بهذا الدين.

نعود إلى رواية البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه حين رد على أبي سفيان بعد إجاباته على أسئلته:

(... فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه... فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي... فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص. ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم اطَّلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم. فتبايعوا هذا النبي؟؟! فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلّقت فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان قال:

ردوهم عليَّ، وقال: إنما قلت مقالتي هذه إنما أختبر بها شدتكم على دينكم. فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه...) [1].

ولو أن القوم استجابوا للّه ورسوله لوفروا على البشرية الأهوال وعشرات الألوف من الأرواح التي أزهقت في الصد عن سبيل اللّه.

---

(١) البخاري، ح (٧).

لقد أيقن هرقل أن محمدًا ﷺ سيملك ما تحت قدميه، وخلال سبع سنوات ملك المسلمون ما تحت قدمي هرقل. لكن القضية الأخطر هي أن هرقل يعلم أن ملكه آجلًا سيزول كله من أتباع هذا النبي. وبلغ من قناعته ويقينه بذلك أن يتمنى أن يكون عنده ليغسل قدميه. وسارع وجمع أتباعه ليكونوا أول المؤمنين من أقوامهم، فرفضوا ذلك وحاصوا حيصة الوحش وصار بين خيارين؛ أن يفقد ملكه عاجلًا لرفض ملئه الإيمان معه، أو يفقده آجلًا على يده أو يد غيره. فاختار العاجلة على الأولى، وآثر دنياه على دينه. فقال عليه الصلاة والسلام عنه: « **باد وباد ملكه** ».

الموقف الثاني: (روى أبو يعلى وعبد اللّه بن الإمام أحمد في زوائد المسند وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن أبي راشد قال:

لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول اللّه ﷺ بحمص، وكان جارًا لي شيخًا كبيرًا قد بلغ المائة أو قرب فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي ﷺ ورسالة رسول اللّه ﷺ إلى هرقل فقال: بلى،قدم رسول اللّه ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل. فلما أن جاءه كتاب رسول اللّه ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: إن هذا الرجل أرسل إليَّ يدعوني ... واللّه لقد قرأتم فيما تقرؤون من الكتب، إنه ليأخذَنّ ما تحت قدمي هاتين، فهلم إليّ أن نَتَّبِعَهُ ... فنخروا نخرة رجل واحد. فلما ظنّ أنهم إن خرجوا أفسدوا عليهم الروم قال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم في دينكم...) (١).

الموقف الثالث: (فلما وصل الأمر إلى الشام نزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء، ونزل شرحبيل الأردن - وقيل: بصرى - ونزل عمرو بن العاص العربة. فبلغ الروم ذلك، فكتبوا إلى هرقل - وكان بالقدس - فقال:

أرى أن تصالحوا المسلمين، فواللّه لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم. فتفرقوا عنه وعصوه فجمعهم وسار بهم إلى حمص فنزلها...) (٢).

إذن لم يكن هرقل مؤمنًا أنه على حق، ولم يكن واثقًا بالنصر، ولم يكن يرى

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٣٥٣/١٢).
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٥٥/٢).

الحرب أصلًا مع المسلمين وقائد بهذه النفسية مهما كانت عبقريته، ومهما كانت خبراته وتجاربه. لا يمكن أن يحقق النصر على عدوه.

لقد بلغ بهرقل الأمر من اليقين بهذا الدين أن بعث رجلًا من عنده خصيصًا ليراقب مواقف رسول الله ﷺ، ويرقبه عن كثب، ويمتحن أمورًا معينة عنده ليقطع دابر الشك إلى النهاية (ثم دعا رجلًا من عرب تجيب كان على نصارى العرب. قال: ادع لي رجلًا حافظًا للحديث، عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه. فجاء بي، فدفع إليَّ هرقل كتابًا فقال:

اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل فما سمعته من حديث فاحفظ لي منه ثلاث خصال: هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي هذا هل يذكر الليل؟ وانظر إلى ظهره هل فيه شيء يريبك؟ قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكًا فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبيًا على الماء. فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا. فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه. فناولته كتابي، فوضعه في حجره ثم قال:

« **ممن أنت؟** »، فقلت: أنا أخو تنوخ. فقال « **هل لك في الإسلام، الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟** »، فقلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك وقال: « ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦] »).

قال: « **يا أخا تنوخ، إنّي كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه. وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فمزَّقها، والله ممزقه وممزق ملكه. وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام في العيش خير** ». قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي فأخذت سهمًا من جعبتي فكتبتها في جفن سيفي. ثم ناول الصحيفة رجلًا عن يساره... فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: « **سبحان الله فأين النهار إذا جاء الليل؟** »، قال: فأخذت سهمًا من جعبتي فكتبته في جفن سيفي.

فلما فرغ من قراءة كتابي قال: « **إن لك حقًّا، وإنك لرسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها. إنا سفر مرملون** »، قال قتادة: فناداه رجل من طائفة الناس. فقال: أنا أجوزه. ففتح رحله، فإذا هو بحلة صفورية، فوضعها في حجري. قلت: من صاحب

الجائزة؟ قالوا: عثمان. ثم قال رسول اللّه ﷺ: « **أيكم ينزل هذا الرجل؟** »، فقال فتًى من الأنصار: أنا. فقام الأنصاري، وقمت معه، حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول اللّه ﷺ فقال:

« **تعال يا أخا تنوخ** ». فأقبلت أهوي حتى كنتُ قائمًا في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحل حبوته وقال: « **هاهنا امض لما أمرت له** ».

فجلت في ظهره. فإذا أنا بخاتم النبوة في غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة)[1].

(قال محمد بن عمر:

فانصرف الرجل إلى هرقل. فذكر ذلك له. فدعا قومه إلى التصديق بالنبي ﷺ، فأبوا حتى خافهم على ملكه. وهو في موضعه في حمص لم يتحرك ولم يزحف وكان الذي خُبِّر النبي ﷺ من بعثته أصحابه، ودنوه إلى أدنى الشام باطلًا، ولم يُرِد ذلك ولم يهم به)[2].

أما وقد وصلت الجيوش الإسلامية إلى الشام، وقد رفض قومه طاعته. فلا خيار له في المواجهة، **وكانت خطته العبقرية معتمدة على ثلاثة عناصر:**

العنصر الأول: استدراج الجيوش الإسلامية إلى داخل سورية.

العنصر الثاني: إبادة هذه الجيوش كلٍ على حدة. لقلة أعدادها، وجهلها في مواقعها.

العنصر الثالث: القضاء على جيش فلسطين الذي يقوده عمرو بن العاص في الجنوب، وقطع طريق الإمدادات من الصحراء العربية القادمة من المدينة.

ومن أجل ذلك:

(وأعد الجنود والعساكر، وأراد إشغال كل طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده لتصنيف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها. فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأمه في تسعين ألفًا إلى عمرو، وأرسل جرجة بن توذرا إلى يزيد بن أبي سفيان. وبعث القيقار بن ناسطوس في ستين ألفًا إلى أبي عبيدة بن الجراح، وبعث الدارقص نحو شرحبيل) وهكذا وضع حظر خطته. وكان عدد المسلمين قرابة ثمانية وعشرين ألفًا.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/٦٥٨) وما بعدها.

(٢) المغازي للواقدي.

مع كل قائد سبعة آلاف، من الممكن إبادتهم في ساعات... كل فريقٍ على حدة.

عمرو بن العاص ثانية:

لقد شهدنا كيف عرض الصِّدِّيق على عمرو التحرك نحو الفتوح فكان جوابه:

(إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد اللَّه الرامي بها والجامع لها. فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها).

وفعلًا رماه بأخطر المواقع وأشدها، وبعثه إلى فلسطين من طريق منفرد عن إخوانه الثلاثة بحيث لا يستطيعون مدده لو وقع في أزمة.. وكانت الأزمة! وندع وصف معاناته للأستاذ أحمد باشميل رَحِمَهُ اللَّهُ:

(والمتفحص في خرائط حروب الإسلام في الشام يتضح له من وجهة النظر العسكرية أن تصفية الحساب مع الجيش الروماني الأول بأجنادين في الجنوب بفلسطين، قبل الالتحام بالجيش الثاني جيش إنطاكية أمر ضروري بالنسبة لوضع القبائل الإسلامية. **وذلك لسببين اثنين:**

الأول: هو أن وضع الفيلق الرابع بقيادة عمرو في فلسطين حرج للغاية، فهو يقود جيشًا قوامه سبعة آلاف مقاتل، تلاحقه بقيادة سرجيوس قوات رومانية قوامها مائة ألف مقاتل، من المؤكد أن عمرًا وحده ليس في استطاعته مواجهة هذه القوة الرومانية الهائلة منفردًا.

ولذلك اعتصم عمرو بصحراء النقب، حيث يستطيع جيشه الـمُكوَّنُ أكثره من البدو، القيام بحرب الصاعقة التي يخشاها الرومان؛ ولذلك يتهيبون دائمًا التصادم مع العرب في الصحراء المكشوفة ولولا أن عمرًا اعتصم بالصحراء لأوقع به سرجيوس وأباد فيلقه، ومع ذلك فقد ظل سرجيوس يتتبع القائد عمرًا ويضايقه. ولكن بحذر، وذلك لاعتصام عمرٍو بالصحراء، وقد ظل عمرٌو يناور في مناوشات سرجيوس متجنبًا الدخول معه في معركة حاسمة حتى يصله مدد يمكنه من مصادمة سرجيوس.

وكان سرجيوس حريصًا كل الحرص على الاشتباك في معركة فاصلة مع عمرو ليحقق رغبة الملك هرقل في تطهير جنوب الشام من أي وجود عسكري للإسلام هناك.

ولو نجح في تدمير جيش عمرو بن العاص لتحرجت حال الفيالق الثلاثة التي تولى خالد قيادتها، ولكان احتمال انتصاراتهم في اليرموك احتمالًا ضعيفًا لأنهم سيكونون بين فكي الكماشة التي أقامها هرقل؛ الجيش الأول في الجنوب بفلسطين، والجيش الثاني في الشمال ومقره أنطاكية، وقوة المسلمين الرئيسة بينهما) (١).

عمرو يشير بالاجتماع:

وحيث إن عمرو بن العاص هو أعلم القادة الأربعة بالحرب، وبعثوا يستشيرونه في الموقف أمام هذه الزحوف الهائلة التي تواجه كل جيش على حدة.

(وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا، سوى عكرمة في ستة آلاف. ففزعوا جميعًا بالكتب والرسل إلى عمرو بن العاص يسألونه: ما الرأي؟

فكاتبهم وراسلهم: أن الرأي الاجتماع. وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة: وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه مما استقبلنا، وأعدَّ لنا لكل طائفة منا. فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به. وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرًا فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو: بأن اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين...) (٢).

لقد كان عمرو بن العاص ﷺ في الشام مثل خالد في العراق، غير أن مدرسة خالد العسكرية تختلف عن مدرسة عمرو العسكرية. فخالد تقوم مدرسته على الانقضاض السريع على العدو بالضربة القاضية. بينما تقوم المدرسة العسكرية العَمْرية على إنهاك العدو قبل الاشتباك معه.

لقد نفَّذَ خالد خطته منذ أُحُد ثم مؤتة، ثم جميع حروبه حيث لا يكاد العدو يتجمع إلا ويجد خالدًا بإزائه. ولا يصبر حتى يهاجمه.

أما مدرسة عمرو ﷺ، فقد رأينا عبقريته في الذروة حين بقي أشهرًا يراوغ مع القائد الروماني، ويفر من الاشتباك المباشر معه، لأن في ذلك هلاكًا لجيشه. لكنه لا يدع حرب العصابات. .. على منوال مبدأ اضرب واهرب. وبقي بصبره الطويل يفر من

---

(١) حروب الإسلام في الشام، محمد أحمد باشميل (ص ١١٤، ١١٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٣٤).

المواجهة حتى جاءه مدد خالد، وخططا للمواجهة المباشرة والتي توجت بالنصر الأغر في أجنادين والذي سنتناوله فيما بعد.

وقد فوَّت على هرقل النصر، وأفسد عليه كل خططه. (ولقد أشار الجنرال جلوب في كتابه « الفتوحات العربية الكبرى » إلى هذه الحقيقة بقوله: (اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربي على دمشق، ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيد في منطقة بئر السبع. فراح يبعث بجيشه الرئيسي إلى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا، فالناصرة، فقيسارية التي يستطيع أن يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية. وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر وفي وسعهم تموين جيوشهم في فلسطين... وكان الهدف من العملية كلها الانتصار على جيش عمرو بن العاص في منطقة بئر السبع في الوقت الذي تنشغل فيه قوات المسلمين الرئيسة في اليرموك. واعتقد هرقل أنه إذا حقق هذه الغاية فإنه يصبح قادرًا على الزحف إلى أيلة (العقبة) ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغمًا بذلك قواتهم على التراجع عن اليرموك) [١].

* * *
* *
*

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١١٥، ١١٦).

الفصل الرابع عشر

خالد بن الوليد في الشام

تركنا خالدًا في العراق، القائد المتوج فيها، قد بلغه عتب الصديق عليه لأنه لم يستأذنه في الحج، وبعث له رسالته المتوازنة ثناءً ونصحًا وعتبًا وتكليفًا في كلٍّ واحد..

قال أبو جعفر: (فوافى خالدًا كتاب أبي بكر بالحيرة، منصرفه من حجه.

١ - أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا.

٢ - وإياك أن تعود لما فعلت.

٣ - فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللّه شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك.

٤ - فليهنك أبا سليمان النية والحظوة. فأتمم يتمم اللّه لك.

٥ - ولا يدخلنك عُجْب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن اللّه له المن وهو ولي الجزاء).

نحن نقف في دراستنا حيث يمضي الناس، فالدارسون يتتبعون آثار البناء من نصر وفتح وقوة حيث تتشابه كثيرًا الآثار بين الكفار والمسلمين، إنما نتتبع نحن عملية البناء وأساسه الذي يختلف في تركيبه عن أساس الأمم الأخرى.

فقائدان ينتصران في معركة. كيف تكون نفسيتهما بعد النصر:

أحدهما: يستعلي ويستكبر، ويُعْجَب، ويريد ثمنًا لهذا النصر من استعباد الناس له.

وآخر: يتواضع ويعلم بأعماقه أن النصر من عند اللّه. فيزيد شكرًا لهذا النصر، ويقدمه عبودية وتذللًا له.

الدارسون يقفون عند أمر أبي بكر لخالد بالتوجه إلى الشام. ويتابعون عظمة خالد في هذا التوجه. لكننا نحن نعلم عظمة صياغة خالد من هذه الرسالة. التي يتلقاها من الخليفة الصِّدِّيق يقبل العتب، ويشكر اللّه تعالى على توفيق اللّه له برضاء الخليفة،

وتحقيق النصر، لكنه يتوقف كثيرًا فيعيد مراجعة قلبه. (فلْيَهنِكَ أبا سليمان النية والحظوة). فيا خسارة الحظوة إن لم ترافقها النية أو أفسدتها. وتتابع عملية البناء في الخوف من اللّه. (فأتمم يتمم اللّه لك) وأكثر ما يعمل في صياغة خالد وبنائه (إياك...) تلك التي يتلقاها خالد ﷺ بقلب يقظ وأعصاب مشدودة، لينفذها تنفيذ الجندي في المعركة. وتاريخ خالد ﷺ مع الرسائل عجيب. قد أسلم من خلال رسالة لا تعدو ثلاثة أسطر، وغُيِّر مجرى حياته كلها حين قرأها بجد ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] وهو القوي الذي يتعامل مع كل شيء في حياته من خلال قوة الحق الذي يدين به؛ ولهذا قال الصديق ﷺ عندما بعثه إلى الشام: (لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد).

وهذا كتاب آخر أكثر تفصيلًا وتحديدًا للمهمة المكلف بها ملك العراق غير المتوج، خالد بن الوليد.

قال أبو جعفر: (كتب إليّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب. قال: لما رجع خالد من حجه وافاه كتاب أبي بكر بالخروج بشطر الناس، وأن يخلف على الشطر الباقي المثنّى بن حارثة. وقال:

لا تأخذن نجدًا [١] إلا خلفت له نجدًا. فإذا فتح اللّه عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك).

(وأحضر خالد أصحاب رسول اللّه ﷺ، واستأثر بهم على المثنى. وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة. ثم نظر فيمن بقي. فاختلج [٢] من كان قدم على النبي ﷺ وافدًا أو غير وافد، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة. ثم قسم الجند نصفين. فقال المثنّى:

واللّه، لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف. وباللّه ما أرجو النصر إلا بهم، فأنّى تُعرِّيني منهم؟!

فلما رأى خالدٌ ذلك بعد ما تلكأ عليه أعاضه منهم حتى رضي) [٣].

لقد كان أمر أبي بكر صريحًا في المسير بنصف الناس، وبأن لا يأخذ نجدًا

---

(١) النجد: صاحب النجدة والبأس من الرجال. (٢) اختلج: اختار.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٤٣).

إلا ويخلف نجدًا فليست جبهة العراق بأقل أهمية من جبهة الشام.

وكان هذا الخلاف الحاد على صحابة رسول اللَّه ﷺ ورضي اللَّه عنهم حيث استأثر خالد بهم. وهنا تفترق كذلك القيم بيننا وبين الآخرين، فالأمة كلها تقاتل، وصار الصحابة هم قيادة الأمة المادية والمعنوية. ومن كان مثل خالد يحب أن تكون الشهرة كلها له، وأن تتجه الأنظار نحوه لا نحو غيره.. أما خالد ﷺ فلا، فهو يرى أن هؤلاء الصحابة هم عنصر القوة الأعلى في الجيش، ولم يبخل على المثنى بأمثالهم من أهل النجدة والرأي. أما في هذا الجيل الرائد، وحيث أصبح الصحابة هم كهف الأمة عند الشدائد، فَيُقْسِم المثنى أنه لن يرضى إلا أن يُقَسّم الصحابة بالنصف. منهم الذين يحملون النور النبوي، وهم أعلام الهدى .. أقسم المثنى وهو الصادق (وباللَّه ما أرجو النصر إلا بهم). والصحابة كلهم درجات، كما ذكر القرآن الكريم. ولن يرضى المثنى إلا بالمساواة بين الدرجات. فلا يكتفي بالصحابي الوافد على رسول اللَّه ﷺ، بل يريد المساواة في الصاحب الوافد والصاحب المصاحب. وصار هذا التوزيع بعد وفاة المصطفى ﷺ هوالخط العام في الحركة الجهادية. فصاحب النبي ﷺ هو المنظور له علمًا ودينًا، وسلوكًا، والقيادة العليا له، وتحتدم المعركة الـحُبِّية بين الحبيبين، يقتتلون على أصحاب رسول اللَّه ﷺ. ويتنازل خالد لأخيه المثنى. ويعيد له من الأصحاب حتى يرضى.

ويفرح المثنى بهذا التوزيع، وتهدأ نفسه. فيمضي مودعًا خالدًا ﷺ وجيشه.

ويذكر لنا راوي الحديث بعض هذه الأسماء من الصحابة حوالي سبعة أسماء. ونصفهم من العراق. والنصف الآخر من غيرها:

١ - **فرات بن حيان العجلي**: وهو أَخبرُ العرب بطريق العراق والشام. وخالد هو أحوج ما يكون إليه، وهو الذي اختارته قريش ليكون دليل تجارتها عن طريق العراق. ولم ينس حسان بن ثابت أن يذكره بالاسم:

فإن نلق في تطوافنا والتماسنا فرات بن حيانٍ يكن رهن هالك (١)

وأخذ أسيرًا قبيل الخندق فأسلم وحضر الخندق (مسلمًا).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٦٠).

(وقال ابن حيان: كان من أهدى الناس في الطريق، وأسند ابن السكن عن... عدي بن حاتم أن فرات بن حيان أسلم، وفقه في الدين، وأقطعه النبي ﷺ أرضًا باليمامة...) [١]، (وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن منكم رجالًا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان** ») [٢].

٢ - **بشير ابن الخصاصية السدوسي**: (والخصاصية أمه... روى عن النبي ﷺ أحاديث صالحة... قال قتادة: هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال: أسود ابن عبد اللَّه من أهل اليمامة، وبشير بن الخصاصية، وعمرو بن تغلب بن الغر بن قاسط، وفرات بن حيان من بني عجل) [٣].

٣ - **الحارث بن حسان**: (البكري الذهلي، روى له أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه... وروى الطبراني من طريق سِماك بن حرب قال: تزوج الحارث ابن حسان، وكانت له صحبة، وكان الرجل إذا عرَّس تخدَّر أيامًا. فقيل له في ذلك، قال: واللَّه، إن امرأة تمنعني صلاة الغداة في جمع لامرأة سوء. وفي حديثه أن قدومه كان أيام بعث رسول اللَّه ﷺ عمرَو بنَ العاص في غزوة ذات السلاسل...) [٤] هؤلاء أبناء العراق، أما الأربعة الآخرون فهم:

٤ - **معبد بن أبي معبد الأسلمي**: (... ذكر سيف في الفتوح والطبري من طريق أن المثنَّى بن حارثة لما توجه خالد بن الوليد إلى الشام قاسمه العساكر، فكان معبد ابن أبي معبد ممن بقي مع المثنَّى من الصحابة [٥].

وقال أبو عبيدٍ البكري في الكلام على ضجنان في غزوة ذات الرقاع يشير إلى ناقته:

قد نفرت من رفقتيْ محمدِ وعجوة من يثرب كالعسجد
وجَعَلَتْ ماء قديرِ موعدي وماء ضجنان لها ضحى الغد

٥ - **وعبد اللَّه بن أبي أوفى الأسلمي**: ذكره المرزباني في معجم الشعراء... وله ولولده عبد اللَّه صحبة به) [٦].

(١ ، ٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٧١٩١) مجلد واحد.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (١٨٩) مجلد واحد.
(٤) الإصابة للعسقلاني، ت (١٤٤٣). (٥) المصدر نفسه، ت (٨٦٣٠).
(٦) المصدر نفسه، ت (٥١١١).

(... شهد الحديبية وخيبر وما بعدها ثم تحول إلى الكوفة وهو آخر من بقي بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ) [١].

٦ - **والحارث بن بلال المزني:** ذكر سيف في الفتوح أن خالد بن الوليد تركه مع المثنى... وذكر في موضع آخر أنه كان عامل رسول الله ﷺ على نصف جديلة من طيئ) [٢].

٧ - **وعاصم بن عمرو التميمي:** (أحد الشعراء الفرسان أخو القعقاع بن عمرو، وبعث عمر ألوية مع من ولي مع سهيل بن عدي فدفع لواء سجستان إلى عاصم ابن عمرو) [٣].

لَأُنسِيَنَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد:

(لقد انتفشت الروم بعد هزيمتها لخالد بن سعيد. وقالوا: والله، لنشغلن أبا بكر في نفسه عن تورد بلادنا بخيوله) وهم لا يدرون مَن الصِّدِّيق. وعوضًا عن أن ينثنيَ أبو بكر ﷺ عن المغامرة في الشام، صمم أن يفتحها ويغزوَ الروم في عقر دارهم.

(فكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص - وكان على بلاد قضاعة - بالسير إلى اليرموك. ففعل، وبعث أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وأمر كل واحد منهما بالغارة، وألا توغلوا حتى لا يكون وراءكم أحد من عدوكم. وقدم عليه شرحبيل بن حسنة بفتح من فتوح خالد، فسرحه نحو الشام بجند وسمى لكل رجل من أمراء الأجناد كورة من كور الشام، فتوافوا باليرموك. فلما رأت الروم توافيَهم، ندموا على الذي ظهر منهم، ونسوا الذي كانوا يتوعدون به أبا بكر، واهتموا وهمتهم أنفسهم وأشجوهم وشجوا بهم. ثم نزلوا الواقوصة. وقال أبو بكر:

والله؛ لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. فكتب إليه بهذا الكتاب... وأمره أن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق في نصف الناس، فإذا فتح الله على المسلمين الشام. فارجع إلى عملك بالعراق. وبعث خالد بالأخماس - إلا ما نفل منها - مع عمير بن سعد الأنصاري، وبمسيره إلى الشام. ودعا خالد الأدلة. فارتحل من الحيرة

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ت (١٣٠٩). (٢) الإصابة للعسقلاني، ت (١٤٢٠).
(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٤٢).

سائرًا إلى دومة...) [١]. ولا غرو فهذا الطريق سهل على ابن الوليد، ألم يسلكه لإنقاذ عياض بن غنم ﷺ من الحصار وفتح دومة مع الأسد من جيشه. إنما الجديد على الساحة هو المسير إلى الشام.

مع خالد في أجرإ مسارات التاريخ:

(ثم طعن في البر إلى قُراقر [٢] ثم قال:

كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين. فكلهم قال: لا نعرف إلا طريقًا لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذ الراكب، فإياك أن تغرر بالمسلمين. فعزم عليهم، ولم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيُّب شديد.

فقام فيهم فقال:

لا يختلفَنَّ هديكم، ولا يضعفَنَّ تعيينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر علىقدر الحسبة. وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللَّه له.

فقالوا له: أنت رجل قد جمع اللَّه لك الخير. فشأنك.

فطابقوه ونووا واحتسبوا، واشتهوا مثل الذي اشتهى خالد.

فأمرهم خالد:

١ - فترووا للشفة لخمس.

٢ - وأمر كل صاحب خيل بقدر ما يسقيها.

تنفيذ الخطة:

١ - فظمَّأَ كلُّ قائد من الإبل الشُرُف [٣] الجلال [٤] ما يكتفي به.

٢ - ثم سقوها العَلَلَ [٥] بعد النَّهَل [٦].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٢/٢).

(٢) قراقر: واد لكلب بالسماوة من ناحية العراق نزله خالد بن الوليد عند قصده الشام.

(٣) الشُرُف: الإبل المسنّة.

(٤) الجلال: الكبار.

(٥) العلل: إعادة السقاية.

(٦) النهل: الورود للشرب المرة الأولى.

٣ - ثم صَرَوْا آذان الإبل وكعموها (١).

٤ - وخلوا أدبارها.

٥ - ثم ركبوا من قراقر مفوِّزين (٢) إلى سُوى (٣)، وهي على جانبها الآخر مما يلي الشام.

٦ - فلما ساروا يومًا افتظوا (٤) لكل عدة من الخيل عشرًا من تلك الإبل.

٧ - فمزجوا ما في كروشها بما كان من الألبان.

٨ - ثم سقوا الخيل.

٩ - وشربوا للشفة جرعًا (٥).

١٠ - ففعلوا ذلك أربعة أيام) (٦).

كان من الممكن أن نتحدث اليوم عن القائد الذي غرته نفسه، فغامر بجيشه، وأهلكه في الصحراء، رغم نصح أهل الخبرة له أن لا يفعل ذلك، وأن تنتهي حياة خالد وتاريخه بهذه النهاية المأساوية كما كانت نهاية خالد بن سعيد ﷺ حيث هزم جيشه وفر إلى ذي المروة.

لقد تحطم نابليون بونابرت. في آخر مغامراته وأهلك جيشه.

وتحطم هتلر وانتحر حين هلك جيشه على أبواب جليد موسكو.

لكن نجاح خطته رفعته لمصاف أعظم قادة التاريخ العسكريين في الأرض، ولم يبلغ شأوه أحد. ترى - ونحن نتحدث عن المنهج التربوي لجيل الخلافة الراشدة - ألا يمكن أن يقع استعصاء في الجيش، ويرفض أن يتحرك وهو يرى مصيره الهلاك البين؟ فتصبح نهاية خالد أضحوكة في التاريخ؟؟!

ألا يمكن أن ينقضَّ أحد فيقتله ويأخذ مكانه وينأى بالجيش عن هذه المفازة المهلكة؟؟!

ألا يمكن أن يوجد طابور خامس يثني قسمًا كبيرًا من الجيش عن متابعة المسيرة. فينهار القسم الآخر؟؟!

---

(١) كعموها: شدوا فمها عند الهياج.

(٢) مفوزين: قاطعين المفازة، أي: الصحراء.

(٣) سُوى: ماء لبهراء من ناحية السماوة.

(٤) افتظوا: عصروا.

(٥) جرعًا: حسوًا منه.

(٦) تاريخ الطبري (٣٤٢/٢).

ألا يمكن أن يوجد متفلسفون ومتفيهقون يقولون له: إنما الطاعة بالمعروف، ولا طاعة لك بهلاكنا؟؟!

ألا يمكن أن يقع التطبيق الأسوأ، فيشربون ويرتوون، وينقطع الماء منذ اليومين الأولين؟؟!

كل هذا يمكن أن يقع، واحتمال وقوعه أكبر بكثير من الواقع، لكن الجيل المسلم الرائد هو أكبر من الواقع، بل هو يبني الواقع ويصوغه كما يريد؛ لعظمة التربية التي تلقاها من معين النبوة ورجالات الفيض النوراني النبوي.

لقد كانت أوامر القائد خالد إلى جنده أن عليهم خلال خمسة أيام أن يكون شرابهم جرعة واحدة تبل الشفة وهو مسؤول عن سقاية خيله خلال هذه الأيام الخمس. حيث لا ماء خلالها أبدًا على الطريق. ومن خلال خبرتهم بالصحراء، وخبرة رافع بن عميرة الطائي، نفذوا الخطة بدقة. فكان لهم الجرعة الواحدة. أما سقاية خيلهم، فقد اعتمدت على تعطيش الإبل المسنة ثم سوقها للشرب بعد العطش الشديد، وإعادة شربها مرة وثانية وثالثة. ثم قطع مشافرها حتى لا تجتر وتستهلك الماء، حتى أنهم صَرَوْا آذان الإبل على الماء. وفي كل يوم تذبح هذه الإبل المسنة (لكل عدة من الخيل عشر من الإبل يُخلط فيها لبن الإبل بالماء، وتشرب الخيل منها. وذلك خلال أربعة أيام، علىأمل الوصول للماء بعدها).

وعودة إلى قصة طالوت ﷺ الذي أعلن لهم: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ... ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

لقد سقط قوم طالوت بالامتحان، إلا القليل القليل الذين نفذوا الأوامر، واغترف غرفة بيده. أما هذا الجيل المؤمن الرائد، فلم نسمع عن مخالفة واحدة في هذا الجيش العظيم.

لقد نفذوا الأوامر حرفيًا وشربوا الجرعة الواحدة، في هذه الصحراء اللاهبة، التي تبل الفم فقط. وليس لمرة واحدة، ولكن لخمسة أيام.

لقد تربى هذا الجيل العظيم، على يد صحابة رسول اللّه ﷺ الذين لم يبلغوا المئات في هذا الجيش المكون من سبعة آلاف.

طالوتنا اليوم حين فوجئ بإجماع الأدلة الخبراء بالصحراء أن هذا الطريق الذي يريد أن يخترق الصحراء فيه، لا يصلح إلا للفرد الواحد، الفذّ الراكب، لكنه لا يحتمل جيشًا قوامه بضعة آلاف. غير أن القائد العظيم يريد أن ينقذ أمة من الهزيمة. ولن يتوانى لحظة واحد عن إغاثة جيش الشام المحاصر من هرقل بمئات الألوف. والزمن له وقته فما معنى وصوله وقد وقعت الواقعة، ونزلت الهزيمة؟! إن الزمن جزء رئيس من نجاح الخطة. فكيف يواجه أشد معضلة واجهته في حياته. إنه لم تشغله نفسه التي بين جنبيه، فهو مطمئن إلى نفسه! فلقد قطع الصحراء. ومضى إلى الحج وعاد وحده، ولم يصل الجيش بعد إلى الحيرة.. إنما هنا ستتحرك أمة، وسيتحرك جيش، فما قدرة هذا الجيش على الصبر؟ وهل يتساقط في الصحراء وتبتلعه كما ابتلعت المئات والألوف من غيره. فكانت تلك الخطبة الفذة الجامعة الخالدة، التي حدد فيها للجيش مهمته، وربطه برب العزة جل جلاله.

(فقام فيهم فقال: لا يختلفن هديكم، ولا يضعُفَنَّ يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية والأجر على قدر الحسبة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللَّه له). إنها المدرسة الربانية النبوية.

لقد كانت الصياغة البكرية لخالد في الرسالة التي بعثها له:

(فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النية والحظوة، فأَتِمْ يتممِ اللَّه لك، ولا يَدْخُلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتخذل).

وتنتقل هذه الروح من خالد إلى جيشه.

فمعونة اللَّه على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، ولا يحق للمسلم أن يكترث بشيء من معونة اللَّه.

لا يدرك هذه المعاني إلا أولياء اللَّه المقربون، المتَّصلون باللَّه بكل نَأْمَةٍ وبكل لحظة.

وأدرك الجيش، أنه مع قائد حباه اللَّه من الإيمان والعبقرية، ما لم يصل له أحد من القادة فقالوا:

أنت امرؤ قد جمع اللَّه لك الخير، فشأنك!!

فطابقوه ونَوَوْا واحتسبوا.

وكم الفرق بين هذه وتلك: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وكل ما يملكونه هو التنفيذ والطاعة، على شرط جرعة الماء في الصحراء، وعلى شرط تأمين سقاية الخيل، سلاح المدرعات اليوم الذي يجب أن يكون مَصُونًا من كل عَطَب.

إن عقولهم لن تتحمل مسؤولية اتخاذ قرار خطير كهذا القرار لكنهم (اشتهوا مثل الذي اشتهى خالدٌ، وما كان عندهم ظنًّا فهو عند القائد العظيم يقين.

(لا يختلفَنّ هديُكم، ولا يضعفَنّ يقينُكم).

والمعونة على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة.

وهذا هو الفرق بين القائد البصير المستشرف للساحة كلها، وبين الجندي في جاهزيته الكاملة لطاعة قائدة. وهذا هو سر حرص خالد ﷺ على الاستكثار من الصحابة، فهؤلاء هم القدوات الحية أمام الجند، ويستحون وهم الشباب أن يروا شيوخهم من الصحابة ينفذون الأوامر بدقة وهم لا ينفذونها.

ولا يفوتنا تلك الخبرة العظيمة لدى أدِلَّاء الرَّكب. فهذا محرز بن حريش المحاربي يقول لخالد: (اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن، ثم أُمَّهُ تفضِ إلى سُوى. فكان أدلّهم).

المفاجأة القاتلة:

(فلما خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمد: ويحك يا رافع! ما عندك! قال: أدركت الري إن شاء اللَّه. فلما دنا من العَلَمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها؟ قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون هلكتم إذن واللَّه وهلكت...).

إنه دليل الأدلاء. وخبير الصحراء الأول، ويعلم أن بين العلمين شجرة عوسج، فيما يذكر من ذكرياته القديمة، وهو اليوم أرمد، لا يستطيع أن يبصر. ويبحثون عن أصل الشجيرة فلا يجدونها، وخالد والمسلمون ينتظرون الفرج من اللَّه بأسباب رافع.

وحين يبحثون فلا يجدون الشجرة يعلن رافع أنه الهلاك.

(هلكتم واللَّه إذن وهلكت).

ويتحرك الأمل الأخير في نفسه، فهو واثق من خبرته، واثق من معرفته بالطريق فيقول:

(لا أبا لكم، انظروا).

وجاء الفرج:

(فطلبوا فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية. فلما رآها المسلمون كبروا وكبّر رافع بن عميرة، ثم قال: احفروا في أصلها. فحفروا، فاستخرجوا عينًا، فشربوا حتى رَوِيَ الناس. فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل، فقال رافع:

واللَّه، ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام) (١).

ترى لو أدلى رافع بهذه المعلومات قبل اكتشاف العين. ألا يمكن أن يغيّر المسلمون مسارهم كله؟! إنه قدر اللَّه اللطيف بهذه الأمة، أن تُكتم هذه المعلومة حتى يصل المسلمون إلى سوى، وحُقَّ لشاعر المسلمين أن يقول:

(للَّه عينا رَافع أنَّى اهتَدَى — فـوَّز مـن قُـراقـرٍ إلـى سُـوى
خَمسًا إذا ما سَارها الجيشُ بكى (٢) — ما سَارها قبلَك إنسيٌّ يرى) (٣)

لقد انتهى خالد ﷺ من الصحراء التي لا طيرَ فيها ولا إنسيٌّ يرى كما قال شاعرنا، ووصل إلى المنازل التي ينزلها سكان الشام. فسُوى بُعَيْدَ القريتين، وأهل سُوى من قبيلة بهراء. طالما خاضت قبيلتهم حربًا مع المسلمين، فهم جزء من العدو المقاتل.

(فلما انتهى خالد إلى سُوى أغار على أهله وهم - بهراء - قبيل الصبح، وناس منهم يشربون خمرًا لهم على جفنة قد اجتمعوا عليها، ومغنيهم يقول:

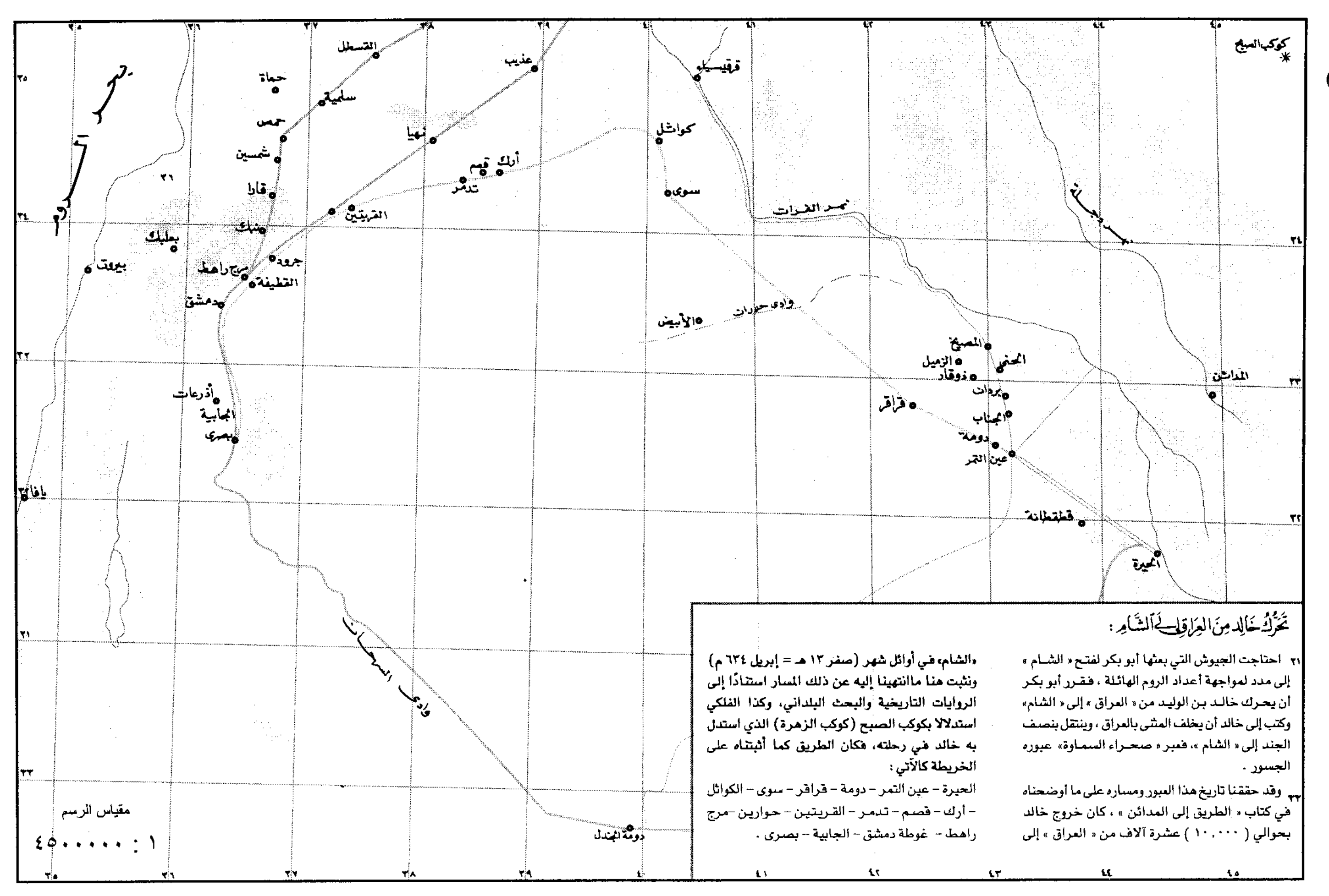
ألَا عللَاني قبَل جيش أبي بكر — لعلَّ منايانا قَريبٌ ومَا ندْري
ألا عـللَانـي بـالزجَـاج وكـرِّرا — عَليَّ كُميت اللَّونِ صَافية تجْرِي
ألا عللاني مِنَ سلَافة قـهْوة — تسلِّي همُومَ النفْس من جَيِّد الخَمْر
أظنُّ خيولَ المسلمِين وخالـدًا — ستَطرقُكم قبلَ الصَباح من البشر
فهل لكم في السَير قبلَ قِتالهم — وقبلَ خُروج المِعْصرات من الخِدْر

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٦/٢).

(٢) بكى: اكتفى واستغنى.

(٣) المصدر نفسه (٣٤٦/٢).



عبور السماوة

وتعليق الأستاذ أحمد عادل كمال على مسار العبور

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٤، ٣٥) خريطة (١٥))

فيزعمون أن مغنيهم ذلك قتل تحت الغارة. فسال دمه في تلك الجفنة. ثم سار خالد على وجهه ذلك حتى أغار على غسان بمرج راهط، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى. وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان. فاجتمعوا عليها) [١] وحقق بذلك هدفه العظيم بإغاثته المسلمين بالشام تنفيذًا لأوامر الخليفة الصِّدِّيق ولئن سمعنا من رواة الطبري عن هذه الرحلة. فسماعها من باشميل بلغتها السهلة. وخبرته المعاصرة. تجلي هذه الرحلة أكثر وأكثر.

يقول الأستاذ باشميل:

(خلال الأيام الخمسة الصعبة التي قضاها خالد في عبور صحراء السماوة المفزعة لم يلق من الأعداء أحداً سواءً كانوا رومًا أو فرسًا الذين تقع الصحراء على حدودهما المشتركة. وهذا أمر طبيعي لأنه لا توجد لأي من الإمبراطوريتين أية قواعد حربية وحتى أي وجود مدني فيها. لأن تلك الصحراء لا يجرؤ أحد من الفرس ولا من الرومان، ولا من بادية العرب... على المرور فيها فضلًا عن التمركز فيها.

وهكذا كان خالد بن الوليد أول قائد عسكري في التاريخ يغامر بالعبور في صحراء السماوة الخالية تمامًا من الماء والغذاء والكلإ، والمشتعلة طوال النهار بلهب الشمس المحرقة. لقد كان الطريق الطبيعي الذي تسلكه الجيوش سواءً كانت فارسية تريد غزو الشام أو رومانية تريد غزو الفرس هو الطريق الذي يمر بِسالكه ما بين النهرين انحدارًا من الشمال إلى الجنوب... أو العكس...

وطريق ما بين النهرين (دجلة والفرات) مسلوك دائمًا في حالة الحرب والسلم سواءً للقوافل التجارية أو الجيوش الحربية لأن كل ما حوله مأهول وعامر. وبه كل متطلبات الحياة للإنسان والحيوان لأنها منطقة خصبة معطاء.

ولكن خالدًا عزف عن سلوك هذا الطريق المعبَّد المسلوك السهل، وفضَّل عليه سلوك السماوة... وفضَّل تجنب المرور بمسالح الأعداء، لأن مهمته التي تحرك من أجلها هي أن يعجل بالاتصال بالفيالق الإسلامية المتحرج وضعها في اليرموك من الجولان لدعمها وتولي قيادتها كي يصادم بها جيوش الروم الجرارة التي وضعت خطة مخيفة لإبادة تلك الفيالق قبل أن يصلها أي مدد إسلامي جديد) [٢].

(١، ٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٠٣، ١٠٤).

ونتابع معه المسيرة من سُوى والمصيخ [١] حتى يصل إلى الجيوش الإسلامية.

(... ثم واصل خالد مسرعًا، تقدمه حتى أتى قرية تسمى أراك. فتخاذل أهلها ولم يبدوا أي مقاومة. بل سارعوا رغبة في حقن دمائهم والإبقاء على ممتلكاتهم إلى طلب الصلح مع خالد فصالحهم علىأن يدفعوا الجزية ويكونوا في ذمة وأمان المسلمين.

وفي الحال غادر خالد (أراك) حتى أتى تدمر عاصمة آل أذينة التاريخية المحصنة والتي تبعد عن دمشق حوالي (٢٣٠) كيلو مترًا نحو الشرق. فتحصن فيها أهلها، وظنوا أنهم قادرون على مقاومة خالد وإعاقة تقدمه. ولكن خالدًا [١] شنَّ عليهم هجومًا كاسحًا، فخافوا أن يحتل مدينتهم فيفنيهم، ويستولي على أموالها غنيمة. ولما تأكد لديهم أنهم غير قادرين على مقاومة خالد وإعاقة تقدمه، سارعوا إلى إعلان استسلامهم علىأساس الصلح، فأوقف خالد هجومه وقبل منهم وصالحهم على الجزية، بعد أن احتل مدينتهم، ثم غادرها بعد إبرام معاهدة الصلح وتركهم أحرارًا في ذمة المسلمين. فكانت تدمر أول مدينة يحتلها خالد في الشام عقب عبوره صحراء السماوة.

ثم واصل تحركه بسرعة حتى وصل بلدة يقال لها: - القريتين - وكان سكانها من نصارى العرب أتباع الروم، فحاولوا مقاومته، وإعاقة تقدمه، فشنّ عليهم هجومًا صاعقًا، وانتصر عليهم في الحال، وبعد أن فرغ منهم واصل تقدمه حتى وصل مدينة يقال لها: - حوارين - وتقع بين حمص وأراك وهي من قرى حلب، فحاول أهلها محاربته، ولكنه هزم جيشهم في الحال، ثم تقدم بجيشه نحو هدفه فمر ببلدة يقال لها: قصم [٢]، وأهلها من نصارى قضاعة، فلم يعترضوه، بل صالحوه على أساس دفع الجزية والاعتراف بسلطان الإسلام. وبعد هذه السلسلة السَّريعة من الانتصارات، تحرك بسرعة جنوبًا قاصدًا غوطة دمشق، وقبل أن يصل إلى الغوطة، وفي بلدة يقال لها: (القطيفة) [٣] وهي دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص، وجد جمعًا من قبائل غسان مستعدين لمقاتلته بإيعاز من الروم، بقصد

(١) المصيخ: ماء لقبيلة بهراء وهي المعركة التي تحدثنا عنها آنفًا.

(٢) قصم: موضع بالبادية قرب الشام من ناحية العراق.

(٣) القطيفة: بلدة تابعة لدمشق تبعد عنها حوالي سبعين كيلو مترًا ولا تزال قائمة للآن بالاسم نفسه.

عرقلة سيره نحو بُصْرَى واليرموك. فشن عليهم هجومًا صاعقًا، فلم يقْوَوْا على الصمود له فانسحبوا مفسحين له الطريق نحو الجولان [١] حيث عاصمتها بصرى والتي بالقرب منها ترابط فيالق الإسلام التي كانت في انتظار وصوله، وكان ذلك في شهر صفر سنة (١٢هـ)) [٢].

المسير خلف الخطوط الرئيسة للروم:

(ثم عجل بتحركه حتى بلغ الثنية المشرفة على غوطة دمشق، وهناك رفع راية رسول اللَّه ﷺ المسماة بالعُقاب. ومنذ ذلك اليوم سمي: التل بثنية العقاب، ثم واصل تقدمه مسرعًا حتى أتى مرج راهط الذي يسكنه الغساسنة النصارى، فداهمهم على حين غرة وهم في يوم عيد فصح، فأنزل بهم الهزيمة، ثم اخترق غوطة دمشق من الشمال إلى الجنوب حتى وصل قناة بصرى.

وهناك حقق هدفه الذي من أجله خرج من العراق وركب الأهوال، فقد التقى الركبان بالفيالق الإسلامية الثلاثة التي يقودها أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة والتي يبلغ تعدادها حوال واحدًا وعشرين ألفًا...

لقد كان ظهور القائد خالد بن الوليد في قناة بصرى على تلك الصورة غير المتوقعة من ناحية الشمال مفاجأة كبرى مذهلة لا للرومان وحدهم، بل لقادة الفيالق الإسلامية التي هي على علم بتحركه من العراق، ولكنهم ما كانوا مطلقًا يتوقعون وصوله بهذه السرعة التي لا تكاد العقول تصدقها. ولكنه خالد عاشق المفاجآت وذو الإرادة الحديدية الصلبة عندما يكون في مهمة حربية...

لقد كان وصول خالد إلى الجولان في وقت كان فيه حوالي ربع مليون جندي روماني وعربي متنصر يتأهبون للإطباق على فيالق الإسلام المجتمعة والتي لا يزيد عددها عن واحد وعشرين ألفًا. وكانت فرائص قادة الجيوش الرومانية ترتعد لمجرد سماع ذكر هذا القائد العربي المسلم خالد الذين وصلتهم التقارير بأنه بعشرين ألف مقاتل دوخ مئات الألوف من جنود الفرس الذين لا يجهل الرومان شجاعتهم وصبرهم على القتال...

---

(١) الجولان ليست عاصمتها بصرى؛ إنما بصرى عاصمة حوران.

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٠٥، ١٠٦).

وهكذا وبعد وصول خالد بن الوليد بنجدته تكامل جيش الإسلام في الجولان حيث اليرموك فصار ثمانية وعشرين ألفًا، فإذا أضفنا إليه فيلق عمرو بن العاص المواجه لجيش سرجيوس بفلسطين. ويبلغ ذلك الفيلق حوالي سبعة آلاف صارت جميع القوات العاملة في الشام، والتي اصطدمت فيما بعد بالجيش الروماني على اليرموك حوالي خمسة وثلاثين ألفًا، وقيل: إنهم بلغوا أربعين ألفًا بنجدات أخرى وصلت من الجزيرة) [1].

لقد حقق خالد بن الوليد ﷺ هدفه، فأتى من خلف خطوط الروم، وترك الطريق التي تسلكها كل جيوش الأرض ما بين النهرين إلى الحاميات الكبرى في حلب وحماة وحمص ودمشق. فلم تعلم بتحركه هذه القوات إلا وقد وصل إلى الشام من خلف هذه القوات الكبرى دون أي اشتباك معها على الإطلاق.

تجمع الفريقين في اليرموك:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن مبشر وسهل وأبي عثمان عن خالد وعبادة وأبي حارثة، قالوا: وأوعب القواد بالناس نحو الشام، وعكرمة ردء للناس، وبلغ الروم ذلك. فكتبوا إلى هرقل، وخرج هرقل حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود، وعبأ لهم العساكر، وأراد اشتغال بعضهم ببعض لكثرة جنده، وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه، فخرج نحوهم في تسعين ألفًا، وبعث من يسوقهم، حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه. وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا، سوى عكرمة في ستة آلاف. ففزعوا جميعًا بالكتب وبالرسل إلى عمرو: أن ما الرأي؟ فكاتبهم وراسلهم: إن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لن يغلب عن قلة، وإذا تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأُعِدَّ لنا لكل طائفة منا. فاتَّعَدوا اليرموك ليجتمعوا به، وقد كتب إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عَمْرًا. فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرٍو بأن: اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا، والقَوْا زحوف المشركين

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٠٧ - ١١١) مقتطفات.

بزحف المسلمين، فإنكم أعوان اللّه. واللّه ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتَى مثلُكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة علىالعشرة آلافِ إذا أُتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب. واجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصَلِّ كلُّ رجل منكم بأصحابه) (١).

انسحاب المسلمين من أجل التجمع:

وكانت خطة فيالق الإسلام للتراجع والتجمع في مكان واحد للامتزاج في جيش واحد. وخطة هرقل لتصفية هذه الفيالق بالتقسيط (إن صح هذا التعبير) الواحد بعد الآخر.

وذلك بسحق فيلق أبي عبيدة المرابط في حمص، ثم يُثَنِّي بيزيد بن أبي سفيان المرابط جيشه حول دمشق. ثم يكمل عملية التصفية في الوسط والشمال بشرحبيل ابن حسنة الذي يتمركز جيشه في الجولان حول بصرى قريبًا من دمشق (٢).

(لقد كان المسلمون أسرع بالانسحاب والتراجع حسب الخطة المرسومة، ففوتوا بنجاحهم في الانسحاب على هرقل تحقيق هدفه الرئيس... وقد اغتاظ هرقل لإفساد خطته المحكمة التي لو نجحت لحلت الكارثة بمجموع الجيش الإسلامي كله في الشام وقد اضطر هرقل الملك والقائد أن يغير من خططه للحرب. فرسم خطة جديدة بموجبها خاضت جيوشه معركة اليرموك التي تم فيها تقريبًا فناء جيشه على يد خالد ابن الوليد ويدل سياق المؤرخين (وخاصة المحدثين منهم الذين تفقدوا مكان معركة اليرموك في هذا العصر على الطبيعة) يدل سياقهم على أن الفرق الإسلامية الثلاثة بعد نجاحها في الانسحاب المنظم، تجمعت في منطقة الجولان حيث بصرى عاصمة الجولان، وقريبًا جدًا من اليرموك الذي يقع تمامًا غربي بصرى. وهناك ظلت مرابطة وفي حالة دفاع حتى وصل خالد إليها بنصف جيش العراق. فانحازوا إلى اليرموك حيث دارت المعركة الفاصلة) (٣).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٤).
(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٧٩).
(٣) المصدر نفسه (ص ٨٠).

أبو عبيدة يعيد الجزية لأهل حمص عند انسحابه:

(وقد ذكر البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » أن القائد أبا عبيدة بن الجراح لما قرر الانسحاب من حمص (وكان قد سيطر عليها وأخذ من أهلها الجزية) استدعى وجهاء وأعيان حمص النصارى وأبلغهم أن جيشه - لظروف قاهرة - مضطر للانسحاب من حمص. وهذا يعني أنه أصبح غير مسؤول عن الدفاع عنهم وحمايتهم، وحيث أنه أصبح بحكم تركه المنطقة، غير قادر على الدفاع عنهم وحمايتهم. فإنه يعيد إليهم ما أخذ منهم من أموال (الجزية).

فأكبر النصارى هذا التصرف النبيل الذي لم يسمعوا مثله في قاموس العدل والإنصاف والشهامة الإنسانية.. حاكم عسكري في ظروف استثنائية يعامل أناسًا مخالفين لمعتقده ودينه هذه المعاملة الإنسانية العادلة الرحيمة فيعيد إليه بملء إرادته بل بوازع من دينه كل ما أخذ منهم من أموال دفعوها إليه مختارين فرحين!! في حين أنه من المتبع في ظروف الحرب التي سمع عنها النصارى عبر العصور، يلجأ المضطر للانسحاب من مدينة ما إلى نهب هذه المدينة وسلب أهلها كل ما يقدر على سلبه ونهبه؛ تلك شرعة الحرب الغالب اتباعها بين المتحاربين قبل ظهور الإسلام الذي وضع ضمن قوانينه أرقى قواعد المعاملة الإنسانية في السلم والحرب على السواء، وللمرة الأولى منذ فجر التاريخ أخذت عن الإسلام ووضعت في قواميس الحرب كلمة (الحرب العادلة)) [1].

وهكذا فإن العدل الذي هو أهم القواعد التي أقام عليها الإسلام بنيان تعامله مع الناس مسلمين وغير مسلمين - كان من أبرز أسباب الانتصارات الأسطورية المذهلة التي حققها الإسلام في حروبه العادلة التي خاضها أتباعه لإعلاء كلمة اللَّه، ونشر العدل، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. أولئك الأتباع الصادقون الذين حرروا وفتحوا من الأقطار والمماليك خلال تسعين سنة ما عجز الرومان من تحقيق نصفه خلال خمسمائة عام) [2].

(١ ، ٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٧٧ - ٧٩) مقتطفات.

فتح بصرى:

(ثم سار خالد على وجهه ذلك حتى أغار على غسان بمرج راهط، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صالحت بصرى على الجزية، وفتحها اللَّه على المسلمين. فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر. ثم ساروا جميعًا إلى فلسطين مددًا لعمرو بن العاص، وعمرو مقيم بالعربات من غور فلسطين، وسمعت الروم بهم، فانكشفوا عن جلَّق إلى أجنادين، وعليهم تذارق أخو هرقل لأبيه وأمه - وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين - وسار عمرو ابن العاص حين سمع بأبي عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان حتى لقيهم، فاجتمعوا بأجنادين، حتى عسكروا عليهم)[١].

مخابرات قبل معركة أجنادين:

(حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر ابن الزبير عن عروة بن الزبير قال: كان على الروم رجل منهم يقال له: القُبقُلار، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية، وإليه انصرف تذارق ومن معه من الروم. فأما علماء الشام فيزعمون أنما كان على الروم تذارق، واللَّه أعلم.

... قال: لما تدانى العسكران بعث القُبقُلار رجلًا عربيا قال: - فحدثت أن ذلك الرجل رجل من قضاعة، من تزيد بن حيدان، يقال له: ابن هزارف - فقال:

ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في الناس - رجل عربي لا ينكر - فأقام فيهم يومًا وليلة. ثم أتاه فقال له: ما وراءك. قال:

بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم لإقامة الحق فيهم.

فقال له القُبقُلار: لئن صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها. ولوددت أن حظي من اللَّه أن يخلي بيني وبينهم. فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم علي. قال:

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٦/٢، ٣٤٧).

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا. فلما رأى القُبقُلار ما رأى من قتال المسلمين؛ قال للروم: لفوا رأسي بثوب. قالوا له: لم؟ قال: يوم بئيس لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يومًا أشد من هذا. فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفف) (١).

هذه هي مواصفات الأمة العادلة في صفها، والعادلة مع أمم الأرض. وبالعدل تقوم السموات والأرض بالعدل تستقر الممالك. وتحيا الأمم. وهذه هي الرسالة التي يحملونها للعالمين. لكن هذا في مجال القيم المعنوية فماذا في مجال الأسباب المادية. وما هي خفايا وأبعاد معركة أجنادين قبل الدخول فيها؟؟

أجنادين وتحطيم الجيش الأول للروم:

(وكانت خطة الملك هرقل (قبل وصول خالد إلى العراق) لتصفية التجمع الإسلامي في اليرموك تقضي بتعزيز الجيش الأول في فلسطين ثم صدرت إليه الأوامر (وقد بلغ مائة ألف مقاتل) أن يتتبع الفيلق الرابع الذي يقوده عمرو بن العاص، ويقضي عليه بسرعة. وبعد ذلك يتجه بجيشه نحو مؤته خلف خطوط المسلمين في اليرموك، وكلفه بالسيطرة على جميع الطرق والممرات المؤدية من جزيرة العرب إلى الشام، كي يقطع على الجيش المحتشد في اليرموك خطة الرجعة. ويمنع وصول أي إمدادات إليه من الجزيرة...) (٢).

خالد ينقذ جيش عمرو فتفشل خطة هرقل:

(وهكذا وللأسباب التي ذكرنا فضل خالد اتباع الخطة الثانية، فقرر الانسحاب بالجيش الرئيس من بصرى واليرموك، وكل المناطق الوسطى التي احتلتها جيوش الإسلام. وأخذ يزحف بسرعة جنوبًا واضعًا نصب عينيه؛ **أولًا**: التخلص من الجيش الروماني الأول في فلسطين. وكل الحاميات الرومانية المتواجدة في بئر السبع وغور الأردن، لينقذ جيش عمرو وليجعل خطوط مواصلاته مع جزيرة العرب مأمونة... **ثانيًا**: إنقاذ الفيلق الرابع الذي يطارده القائد الروماني سرجيوس للإيقاع به...) (٣).

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٧/٢).

(٢) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١١٣، ١١٤).

(٣) المصدر نفسه (ص ١١٦، ١١٧).

(لقد سلك خالد بجيشه الرئيس الطريق الطويل، وظل يتحرك بهذا الطريق دون أن يلقى أي مقاومة تعترضه للروم، حتى إذا ما تخطى مضيق الكرك والبحر الميت ووصل وادي عربة، صعد من هناك نحو بئر السبع، وهناك التقى بقائد الفيلق الرابع عمرو بن العاص فضم فيلقه إلى جيشه الرئيس، ثم أخذ في التحرك بسرعة ليباغت الجيش الروماني الأول المرابط في أجنادين، والبالغ مائة ألف مقاتل) [١].

معركة أجنادين:

ومن أجل هذا لم يتحرك عمرو للمواجهة الشاملة مع الجيش الروماني إلا بعد أن وصل مدد المسلمين بفيالقهم الثلاثة. وكانت هذه المواجهة الشاملة خطة للإيقاع بجيش العدو رسمها عمرو وخالد معًا بعد وصول خالد مع القوات الإسلامية كافة.

(وحسب الخطة المرسومة وبموجب تعليمات خالد اشتبك عمرو بن العاص مع جيش سرجيوس، والملقب عند بعض المؤرخين بالتذارق، اشتبك مع جيشه متظاهرًا بأنه وحيد في الميدان ففرح التذارق، وظن أنه حصل على بغيته، وهو انفراده بفيلق عمرو والبالغ سبعة آلاف فقط فلم يكترث كثيرًا بالأمر لأن لديه مائة ألف مقاتل. وماذا يمكن أن تفعل معها قوة سبعة آلاف مقاتل؟؟ وبينما القتال ناشب بين فيلق عمرو، وبعض وحدات سرجيوس ظهر خالد فجأة بقواته الرئيسة ودارت رحى معركة من أعنف المعارك في الشام انتهت بتدمير الجيش الروماني الأول تدميرًا كاملًا حيث لم ينج منه إلا الشريد. وقد قتل في المعركة عدد كبير من قادة الرومان، وحكام المقاطعات بفلسطين على رأسهم القائد العام لجيش الروم في المعركة قتله خالد بيده) [٢]

وقد أراد تذارق نصب كمين لخالد بن الوليد، فطلب إليه التقدم للتفاوض معه في موقع حدده. واستطاع خالد بن الوليد الحصول على المعلومات عن مكان الكمين وقوته، فأرسل في الليل عشرة من أشجع قادته، وتمكنوا من قتل أفراد قوة الكمين العشرة، واحتلال مواضعهم، وتقدم تذارق في اليوم التالي إلى موضع الكمين وحده، وهو يعتقد أنه محاط بجنده، وتقدم خالد، وبعد حوار قصير أمسك تذارق بخالد، وطلب إلى قوة الكمين الخروج لأخذه، وانطلقت قوة الكمين فقتلت تذارق، وحملت

---

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١٢٠).

(٢) فن الحرب الإسلامي لبسام العسلي (ص ١٠٨).

رأسه، وألقته في مقدمة صفوف الخصم. وبدأت على الفور معركة كانت فيها الروح المعنوية لدى الروم متدهورة. بقدر ما كانت إرادة القتال والروح المعنوية للمسلمين عالية. وأمكن تمزيق جيش الروم، وهربت فلوله من المعركة فتلقتها قوات الدعم التي كانت تتقدم من الجزيرة العربية، ولم ينج من جيش الروم سوى أعداد قليلة) (١).

ترى هل كان يدور بخَلَدِ عمرو وخالد وهما يتسامران تحت ضوء القمر الساطع في طريقهما إلى المدينة ليعلنا إسلامهما بعد حرب عشرين عامًا لمحمد ﷺ، هل كان يدور بخَلَدِهِما أنهما بعد ست سنوات سيحطمان في الشام وفي فلسطين جيشًا للروم قوامه مائة ألف مقاتل في سبيل إعلاء كلمة التوحيد في تلك الأرض؟! أم كانت كل آمالهما أن يمضيا عمرهما قبل الموت بين يدي قائدهم الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وهل كان يدور بخلدهما أنهما سيمسكان بِمِقْوَدِ تاريخ الأرض، ويغيّران حركته من الظلمات إلى النور، وأن هرقل ملك بني الأصفر سوف ينهار من عبقريتهما وكفاءتهما الحربية عندما دُمِّر جيشه؟؟

(وبتحطيم خالد الجيش الروماني الأول في أجنادين طاش سهم الملك هرقل وبدا على ما يشبه اليقين بأن هزيمة جيشه في اليرموك أمر لا مفر منه) (٢).

وهذا القول قاله الجنرال غلوب تعقيبًا على أجنادين.

(وهكذا طاش سهم هرقل في معركة أجنادين. وتحطمت خطته السوقية لشن الهجوم المعاكس، وعادت قوات المسلمين الرئيسة إلى اليرموك حيث كانت حصون الروم الدفاعية سدًّا أمام الزحف العربي على دمشق).

وكانت معركة أجنادين في (يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ويقال: لليلتين خلتا من جمادى الآخرة) (٣).

* * *
* *
*

(١) فن الحرب الإسلامي لبسام العسلي (ص ١٠٨).
(٢) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١٢٧)، عن الفتوحات العربية للجنرال غلوب باشا.
(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢١).

الفصل الخامس عشر

معركة اليرموك

ساحة المعركة وقيادات الفريقين:

(... وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى بطارقته: أن اجتمعوا لهم، وانزلوا بالروم منزلًا واسع العطن [١]، واسع المطرد [٢]، ضيق المهرب، وعلى الناس التذارق، وعلى المقدمة جرجة، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص، وعلى الحرب الفيقار، وأبشروا فإن ماهان في الأثر مدد لكم. ففعلوا فنزلوا الواقوصة، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم، وهو لهيب لا يدرك، وإنما أراد باهان وأصحابه أن تستفيق الروم، ويأنسوا بالمسلمين وترجع لهم أفئدتهم عن طيرتها.

وانتقل المسلمون من عسكرهم الذي اجتمعوا به. فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم. فقال عمرو: أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير. فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم، ومخرجهم صفر من سنة ثلاث عشرة وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء، ولا يخلصون إليهم، اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم، حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول، وقد استمدوا أبا بكر، وأعلموه الشأن في صفر، فكتب إلى خالد ليلحق بهم، وأمره أن يخلف على العراق المثنى، فوافاهم في ربيع) [٣].

اليرموك الصغرى:

(ولما نزل المسلمون اليرموك، واستمدوا أبا بكر قال: خالد لها. فبعث إليه وهو بالعراق، وعزم عليه، واستحثه بالسير. فنفذ خالد لذلك. فطلع عليهم خالد، وطلع باهان على الروم، وقد قدَّم أمامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم، ويحضضونهم على القتال ووافق قدوم خالد قدوم باهان. فخرج بهم باهان كالمقتدر.

---

(١) واسع العطن: واسع التحرك والماء. والعطن: مبرك الإبل حول الماء.

(٢) واسع المطرد: واسع المواجهة مع العدو.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٣٤).

فولي خالد قتاله، وقاتل الأمراء مَنْ بإزائهم فهُزِم باهان، وتتابع الروم على الهزيمة، واقتحموا خندقهم، وتيمنت الروم بباهان، وفرح المسلمون بخالد، وحَرِد [١] المسلمون، وحَرِبَ [٢] المشركون وهم أربعون ومائتا ألف. منهم ثمانون ألفًا مقيد وأربعون ألفًا مسلسل للموت، وأربعون ألفًا مربطون بالعمائم، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل والمسلمون سبعة وعشرون ألفًا ممن كان مقيمًا إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفًا...) [٣].

وهكذا ثأر خالد بن الوليد ﷺ والمسلمون لخالد بن سعيد الذي استدرجه باهان وهزمه وانضم إلى الجيش الإسلامي ثلاثة آلاف من بقية جيش خالد بن سعيد ﷺ. وخالد اليوم جندي في الجيش الإسلامي بعد أن عزل عن القيادة.

توحيد قيادة المسلمين على يد خالد:

توافى إليها الأمراء، والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفًا، وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد أمَّر عليهم أبو بكر معاوية وشرحبيل، وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق، مع خالد بن الوليد سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءًا بعد خالد بن سعيد. فكانوا ستة وأربعين ألفًا، وكل قتالهم كان على تساند، كلٌّ جُنْدٍ وأميره، لا يجمعهم أحد حتى قدم عليهم خالد من العراق وكان عسكر أبي عبيدة باليرموك مجاورًا لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شرحبيل مجاورًا لعسكر يزيد ووافق خالد بن الوليد المسلمين وهم متضايقون بمدد الروم عليهم باهان، ووافق الروم وهم نشاط بمددهم فالتقوا، فهزمهم اللَّه تعالى حتى ألجأهم وأمدادهم إلى الخنادق - والواقوصة أحد حدوده - فلزموا خندقهم عامةَ شهرٍ، يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى استبصروا، فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله في جمادى الآخرة. فلما أحس المسلمون خروجهم، وأرادوا الخروج متساندين [٤]، سار فيهم خالد بن الوليد فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال:

(إن هذا يوم من أيام اللَّه، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا

---

(١) حرِد المسلمون: غضبوا.

(٢) حرب الروم: غضبوا كذلك.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٣٤).

(٤) متساندين: متفرقين.

اللَّه بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته.

قالوا: هات، فما الرأي؟

قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون، لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم. فاللَّه اللَّه. فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له.

إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند اللَّه ولا عند خليفة رسول اللَّه. هلموا فإن هؤلاء تهيؤوا. وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم. وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإمارة. فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا. والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم. ودعوني إليكم اليوم. فأمَّروه، وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه. فخرجت الروم في تعبئة لم يَرَ الراؤون مثلها قط، وخرج العرب في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك).

تُرى لو أن قادة هذه الأمة لم يتنازلوا عن مواقعهم ومراكزهم. كيف يمكن أن يذكروا في التاريخ حين يحطمهم الرومان واحدًا تلو الآخر. وينهوا الوجود الإسلامي في الشام، ويتحدث التاريخ عن هرقل الذي هزم الفرس والعرب بعبقريته الفذة.

الوحدة العربية ليست شعارات تقال، وقد دخلت الجيوش العربية الحرب في فلسطين. فكانت أضحوكة في التاريخ. سبعُ جيوش لسبعِ دول، يقودها جنرال إنكليزي هو الجنرال جلوب قائد الجيش الأردني! ألم يكن الغساسنة والمناذرة نموذجًا لهذه التبعية المذلة في ذلك الوقت؟؟ لكن الأمة التي انبثقت من الإسلام وتربَّتْ على يد سيد الخلق، أصبحت شيئًا آخر، وخطبة واحدة لخالد ﷺ أنهت التجزئة كلها. ولم ينفخ الشيطان في مناخرهم ليقول لهم: أن خالد بن الوليد فعل ذلك ليؤمر نفسه. دعونا فلنتعاور الإمارة. (فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكلم ودعوني إليكم اليوم).

لقد جاءتهم آيات الرحمن. وذكروا أن خالد بن الوليد، وعلى هذه الأرض. هو الذي أنقذ المسلمين من الإبادة وانتصر على الروم وفاز بلقب سيف اللَّه.

حين قال النبي ﷺ (**ثم أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه، سله اللَّه على المشركين جعل اللَّه الفتح على يديه**) لقد كانوا أربعة آلاف مقابل مائتي ألف. وانكسر في يده تسعة أسياف، وقتل قائد جيش العدو.

تُرى هل كانت معركة مؤتة تدريبًا ميدانيًّا في عهد رسول اللَّه ﷺ مع الروم أنفسهم؟ وقبل: سبعِ سنوات فقط بمثل هذه المواجهة الفاصلة الحاسمة، ها هو سيف اللَّه نفسه، والذي كتب اللَّه النصر على يديه في مؤتة، فَلِمَ لا يكون هذا السيف هو اليوم القائد العام في التعبئة المباشرة للمعركة؟

لا شك أن هذه المعاني هي التي جالت في نفوسهم، فتسارعوا إلى التنفيذ، وتسارعوا إلى التنازل عن القيادات التي أخذوها عن عهدة الصِّدِّيق ﷺ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف القائد العظيم الذي حرر الجزيرة، وحرر العراق، وها هو يقود المعركة الفاصلة مع الروم لتحرير الشام. وكان القادة يدركون خطر هذا اليوم.

(وإن هذا يوم من أيام اللَّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي.

أخلصوا جهادكم، وأريدوا اللَّه بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده...).

(إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم. وإن هزمونا لم نفلح بعدها). ولكي تطيب نفس القادة العظام كان طرح خالد ﷺ تعاور الإمارة وتبادلها يومًا بعد يوم وليس تسليم القيادة له إلى الأبد.

ولا ندري ففي بعض الروايات أن الصِّدِّيق هو الذي أَمَّرَ خالدًا على هؤلاء القادة وعلى القوات الإسلامية في الشام كلها. ويرجح هذا المعنى أن عمر ﷺ بعث الكتاب بعزل خالد عن القيادة العامة وتولية أبي عبيدة. ولو كان الأمر مجرد تعاور لما احتاج إلى كتاب من أمير المؤمنين عمر ﷺ بعزل قائد القوات الإسلامية كلها، وتولية بديل عنه.

وهذا ما يرفع خالدًا في قلوبنا أضعاف أضعاف ما ذكرنا. فلم يعتد بولاية الصِّدِّيق له القيادة العامة إنما طرحها بأسلوب يريح نفوس هؤلاء القادة العظام ويمنيهم بالقيادة كلهم

حسب التسلسل المطلوب (فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد.

التعبئة العامة:

(وخرج خالد في تعبئة لم تَرَ العرب مثلها قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين.

إن رتبة (اللواء) عادة في الجيش تكون لمن يقود (اللواء) المدرع المكون من ألف مقاتل بجميع أنواع الأسلحة. فإذا أردنا أن نتحدث بالرتب العسكرية المعهودة عندنا فالمشير قائد الجيش العام هو خالد بن الوليد. والفريق الركن، الذي هو أحد قادة الأركان، هم الأربعة الكبار:

الفريق الركن: أبو عبيدة بن الجراح.

والفريق الركن: عمرو بن العاص.

والفريق الركن: يزيد بن أبي سفيان.

والفريق الركن: شرحبيل بن حسنة.

ويكون في الجيش حوالي أربعين (لواء) كل واحد منهم يقود (لواءً مدرعًا) من ألف مقاتل ونيف بجميع الأسلحة الهجومية والدفاعية.

فمن هم هؤلاء الأربعون؟

لقد توزع كل (فريق ركن) على قيادة تسعة ألوية مدرعة.

فكان القلب كراديس وأقام عليه أبا عبيدة.

وجعل الميمنة كراديس وأقام عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة.

وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان.

أما قيادة الألوية، فكلهم من صحابة رسول الله ﷺ، وهم موزعون على آفاق الجزيرة العربية. وقد قام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر أسمائهم جميعًا، حتى كأننا معهم في ساحة المعركة). **وهم:**

الفرقة الأولى:

١ - (وكان على كردوس من كراديس أهل العراق، القعقاع بن عمرو) التميمي.

(كان من الشجعان الفرسان، قيل: إن أبا بكر الصديق كان يقول: (لَصَوْتُ

القعقاع في الجيش خير من ألف رجل)، وذكر سيف عن محمد وطلحة أنه كان من أصحاب النبي ﷺ وأنه كان على كردوس في فتح اليرموك وهو القائل:

يدعون قعقاعًا لكل كريهة فيجيب قعقاع دعاة الهاتف) [١]

٢ - (وعلى كردوس مذعور بن عدي) العجلي.

(شهد اليرموك بالشام وفتح العراق وكان المثنى ومذعور وَفَدَا على النبي ﷺ) [٢].

٣ - (وعياض بن غنم على كردوس) الفهري... القرشي.

قال ابن سعد: (كان في الطبقة الأولى، وهاجر الهجرتين الأولى والثانية إلى أرض الحبشة وشهد المشاهد كلها) [٣].

٤ - (وهاشم بن عتبة على كردوس) الزهري... القرشي.

الشجاع المشهور المعروف بالمرقال ابن أخي سعد بن أبي وقاص... وعنه (سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **يظهر المسلمون على جزيرة العرب، وعلى فارس والروم وعلى الأعور الدجال** ») [٤].

٥ - (وزياد بن حنظلة على كردوس) التميمي، حليف بني عدي.

(بعثه النبي ﷺ إلى الزبرقان بن بدرٍ ليتعاونا على قتل مسيلمة...) [٥].

٦ - (وخالد في كردوس (ابن الوليد).

٧ - (وعلى فالةِ خالدِ بنِ سعيدٍ، دحيةُ بنُ خليفَة (الكلبُّي)).

(صحابي مشهور... وكان يضرب به المثل في حسن الصورة... وكان جبرائيل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي. وهو رسول النبي ﷺ إلى قيصر...) [٦].

٨ - (وامرؤ القيس على كردوس) ابن عابس الكندي.

(وكان ممن ثبت على الإسلام، وأنكر على الأشعث ارتداده، وحضر حصار حصن النجير...) [٧].

---

(١) الإصابة للعسقلاني، ت (٨٢٥).
(٢) المصدر نفسه، ت (٨٢٥٠).
(٣) المصدر نفسه، ت (٧١٠٧).
(٤) المصدر نفسه، ت (٩٢٠٥).
(٥) المصدر نفسه، ت (٢٩٨٩).
(٦) المصدر نفسه، ت (٢٤٧٤).
(٧) المصدر نفسه، ت (٣٨٩).

٩ - (ويزيد بن يحنس على كردوس) الكوفي أبو الحسن.

(ذكره ابن عساكر، وقال: أدرك النبي ﷺ، ولا أعلم له رؤية) [(١)].

الفرقة الثانية:

١٠ - (وأبو عبيدة على كردوس) ابن الجراح.

أحد القادة الكبارة وأمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

١١ - (وعكرمة بن أبي جهل على كردوس).

(كان كأبيه من أشد الناس على الإسلام، ثم أسلم عكرمة عام الفتح، وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة، وجهه أبو بكر الصديق إلى جيش بعمان فظهر عليهم، ثم إلى أهل اليمن، ثم رجع، فخرج إلى الجهاد عام وفاته واستشهد...) [(٢)].

١٢ - (وسهيل بن عمرو على كردوس).

(ذكره ابن إسحاق فيمن أعطاه رسول اللَّه ﷺ مائة من الإبل... وأخرج عن ابن سعد عن ابن أبي فضالة وله صحبة قال: اصطحبت أنا وسهيل بن عمرو إلى الشام فسمعته يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **مقام أحدكم في سبيل اللَّه ساعة من عمره خير من عمله وعمره في أهله** »، فإنما أرابط حتى أموت، ولا أرجع إلى مكة. قال: فلم يزل مقيمًا بالشام حتى مات في طاعون عمواس) [(٣)].

١٣ - (وعبد الرحمن بن خالد على كردوس، وهو ابن ثمانيَ عشرة سنة).

(قال ابن منده: له رؤية، وقال ابن السكن: يقال له: صحبة. وزعم سيف أنه شهد فتوح الشام مع أبيه) [(٤)].

١٤ - (وحبيب بن مسلمة على كردوس) الفهري القرشي الحجازي.

(نزل بالشام، قال البخاري: له صحبة. وقال مصعب الزبيري: كان يقال له: حبيب الروم لكثرة جهاده فيهم...) [(٥)].

١٥ - (وصفوان بن أمية على كردوس) الجمحي القرشي.

---

(١) الإصابة للعسقلاني، ت (٩٦٩٩).
(٢) المصدر نفسه، ت (٦٣٦٠).
(٣) المصدر نفسه، ت (٣٨٦٥).
(٤) المصدر نفسه، ت (٤٨٢٥).
(٥) المصدر نفسه، ت (١٧٣٥).

(إنه هرب يوم فتح مكة وأسلمت امرأته... وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم... وروى له مسلم والترمذي عنه قال: لقد أعطاني رسول اللَّه ﷺ وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي... وحكى سيف أنه كان حينئذ أميرًا على كردوس) (١).

١٦ - (وسعيد بن خالد على كردوس) الأُموي القرشي.

(ابن سعيد بن العاص... ذكره العسكري في الصحابة... وذكر سيف قصة قتله بالمرج مطولة. وذكر موسى بن عقبة: أنه ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبوه إليها. وأنه استشهد بمرج الصفر) (٢).

١٧ - (وأبو الأعور بن سفيان على كردوس) السلمي.

(قال مسلم وأبو أحمد الحاكم في الكُنَى: له صحبة. وذكره البغوي وابن قانع وابن منده في الصحابة) (٣).

١٨ - (وابن ذي الخمار على كردوس).

الفرقة الثالثة:

١٩ - وفي الميمنة:

(عمارة بن مخشي على كردوس).

(شهد اليرموك، وكان من أمراء الجيش كذا في التجريد رقم (٥٧٤٥)) (٤).

٢٠ - (وشرحبيل على كردوس) وهو أحد القادة الأربعة الكبار.

(وأسلم جابر وأخوه وأخوهما لأمهما شرحبيل بن حسنة، وهاجروا إلى الحبشة، ثم إلى المدينة وكان شرحبيل ممن سيره أبو بكر في فتوح الشام، وولاه عمر على ربع من أرباع الشام) (٥).

٢١ - (ومعه خالد بن سعيد).

وسبق أن تحدثنا طويلًا عنه.

---

(١) الإصابة، للعسقلاني ت (٤٢٤٦).
(٢) المصدر نفسه، ت (٣٤٤٢).
(٣) المصدر نفسه، ت (٦٦٩٣).
(٤) المصدر نفسه، ت (٦٤٩٧).
(٥) المصدر نفسه، ت (٤٠٣٣).

٢٢ - (وعبد اللّٰه بن قيس على كردوس (الهمداني الحمصي).

(ذكره سيف في الفتوح وقال: كان على كردوس يوم اليرموك. وقال العجلي: تابعي ثقة) (١).

٢٣ - (وعمرو بن عبسة على كردوس).

(أسلم قديمًا بمكة ثم رجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن هاجر بعد خيبر... وسكن عمرو بن عبسة الشام) (٢).

٢٤ - (والسمط بن الأسود على كردوس) الكندي والد شرحبيل.

(ذكره سيف في الفتوح: أنه شهد اليرموك... واستعمله عمر على المدائن) (٣).

٢٥ - (وذو الكلاع على كردوس) الحميري.

وقال الهمداني: اسمه يزيد، وبعث إليه النبي ﷺ جرير بن عبد اللّٰه فأسلم وأعتق لذلك أربعة آلاف ثم قدم المدينة ومعه أربعة آلاف أيضًا فسأله عمر في بيعهم فأعتقهم) (٤).

٢٦ - (ومعاوية بن حديج على كردوس) السكوني اليمني.

(وذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة وقال ابن يونس: يكنى أبا نعيم وفد على رسول اللّٰه ﷺ) (٥).

٢٧ - (وجندب بن عمرو بن حممة على كردوس) الدوسي حليف بني أمية.

(ذكره موسى بن عقبة عن ابن شهاب وأبو الأسود عن عروة فيمن قتل بأجنادين من الصحابة) (٦).

٢٨ - (وعمرو بن فلان على كردوس) الدوسي.

(ذكره ابن الكلبي في الجمهرة فقال بعد ذكر الطفيل، وقُتِل عمه عمرو يوم اليرموك) (٧).

---

(١) الإصابة للعسقلاني، ت (٥٥٨٦).
(٢) المصدر نفسه، ت (٦٧٧٢).
(٣) المصدر نفسه، ت (٣٧٤٥).
(٤) المصدر نفسه، ت (٢٥٧٥).
(٥) المصدر نفسه، ت (٨٥٦٤).
(٦) المصدر نفسه، ت (١٣٣٧).
(٧) المصدر نفسه، ت (٦٨١٣).

٢٩ - (ولقيط بن عبد القيس في كردوس) الفزاري.

(حليف بني ظفر من الأنصار، ذكره سيف ابن عمر في الفتوح وقال: إنه كان أميرًا على بعض الكراديس) (١).

الفرقة الرابعة:

٣٠ - وفي الميسرة:

(يزيد بن أبي سفيان على كردوس) الأموي وهو أحد الأربعة القادة الكبار.

٣١ - (والزبير بن العوام على كردوس) الأسدي القرشي.

وهو حوارِيُّ رسولِ اللَّه ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

٣٢ - (وحوشب ذو ظليم على كردوس).

(هو ابن طخية. روى سيف في الفتوح قال: بعث رسول اللَّه ﷺ جرير بن عبد اللَّه إلى ذي الكلاع وذي ظليم، وهاجر حوشب بعد النبي ﷺ وشهد اليرموك) (٢).

٣٣ - (وقيس بن عمرو بن زيد... بن صعصعة من هوازن حليف لبني النجار على كردوس).

(المازني الأنصاري وذكر الطبراني: أنه من هوازن، ذكر سيف في الفتوح: أنه شهد اليرموك مع خالد بن الوليد، وأنه أمَّرَه على الكراديس، وقد تقدم مرارًا أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة) (٣).

٣٤ - (وعصمة بن عبد اللَّه حليف لبني النجار على كردوس) البخاري الأنصاري.

(حضر قتال الفرس مع خالد بن الوليد وقتل روزبة أحدَ ملوكهم، وأمره خالد على أحد الكراديس) (٤).

٣٥ - (وضرار بن الأزور على كردوس) الأسدي.

(قال البخاري وأبو حاتم وابن حبان: له صحبة. وقال البغوي: سكن الكوفة. ويقال: شهد اليرموك وفتح دمشق، ويقال: مات بدمشق) (٥).

---

(١) الإصابة للعسقلاني، ت (٧٧٩٣).
(٢) المصدر نفسه، ت (٢١٥٣).
(٣) المصدر نفسه، ت (٧٥٠٧).
(٤) المصدر نفسه، ت (٦٢٢٨).
(٥) المصدر نفسه، ت (٤٣٣٣).

٣٦ - (ومسروق بن فلان على كردوس).

(ذكره ابن عساكر وقال: أدرك النبي ﷺ. ثم ذكر أنه شهد اليرموك أميرًا على بعض الكراديس) (١).

٣٧ - (وعتبة بن ربيعة بن بهز - حليف لبني عصمة - على كردوس).

(شهد اليرموك أميرًا - قاله سيف في الفتوح - قال: وأمّره خالد على بعض الكراديس) (٢).

٣٨ - وجارية بن عبد اللّه الأشجعي - حليف لبني سلمة - على كردوس.

(استدركه ابن فتحون. ونقل عن سيف بن عمر أنه كان على الميسرة يوم اليرموك مع خالد بن الوليد) (٣).

٣٩ - (وقباث بن أشْيَم على كردوس).

(ذكره بعض من ألَّف في الصحابة وخطأه البخاري لأنه صحف اسم أبيه وصوابه أشْيَم) (٤).

والفرق الأربعة تحتوي كل فرقة على عشرة ألَوية تقريبًا.

وعلى اللواء (لواء) وعلى الفرقة (فريق).

مهمات أخرى:

(ثم قام خالد (ضمن تنظيمه الجديد المبتكر) بتقسيم الفرسان وعددهم عشرة آلاف فارس إلى قسمين، وأمر كل مجموعة من الخيالة هؤلاء بالتمركز خلف جناحي الجيش وهما: الميمنة والميسرة، تمامًا كما فعل الرومان في تعبئتهم.

ثم قام ضمن التنظيم الجديد المبتكر بإحداث ما يلي:

١ - عين قاضي الجيش (وهو الحاكم العسكري حسب تعبيرنا المعاصر) وكان هذا القاضي أبا الدرداء.

٢ - عيّن ضابطًا للتوجيه المعنوي (قارئًا للقرآن على الجيش) وكان المقداد ابن الأسود، وكان يركز على تلاوة سورة الأنفال لما تتضمنه من حث على الجهاد.

---

(١) الإصابة للعسقلاني، ت (٨٣٧٢).
(٢) المصدر نفسه، ت (٦٠١٠).
(٣) المصدر نفسه، ت (١٠٨٤).
(٤) المصدر نفسه، ت (٢٧٨٥).

٣ - عيَّن خطيبًا للجيش (وهو الواعظ) وكان ذلك أبو سفيان بن حرب.

٤ - عيَّن رئيسًا للتموين وهو ما يسمى (ضابط الإدارة) وكان عبد اللَّه ابن مسعود.

٥ - كلف النساء اللواتي جُعِلْنَ في الساقة (مؤخرة الجيش) القيام بمهمة البوليس الحربي الذي يرابط في العصر الحديث وراء الخطوط، وصدرت الأوامر لهؤلاء النساء برد وتوبيخ من يحاول الفرار من المسلمين ساعة القتال، بل وقتله إن أصر على الهرب) [١].

(والمعركة ناشبة. فقد روى ابن عساكر في تاريخه: يا نساء المسلمين، أي رجل أقبل إليكنَّ منهزمًا فاقتلنه.

ثم بالإضافة إلى مهمة تكليف النساء الحيلولة بين ضعاف النساء وبين الهرب ولو بالقتل إذا لم يكن منه بد، أسند القائد العام إلى هؤلاء النساء أمورًا أخرى غاية في الأهمية.

وهذه الأدوار كما يلي:

١ - العناية بالجرحى والمرضى.

٢ - سقاية المجاهدين أثناء القتال.

٣ - التجوال بين المحاربين وإثارة الحماس في نفوسهم.

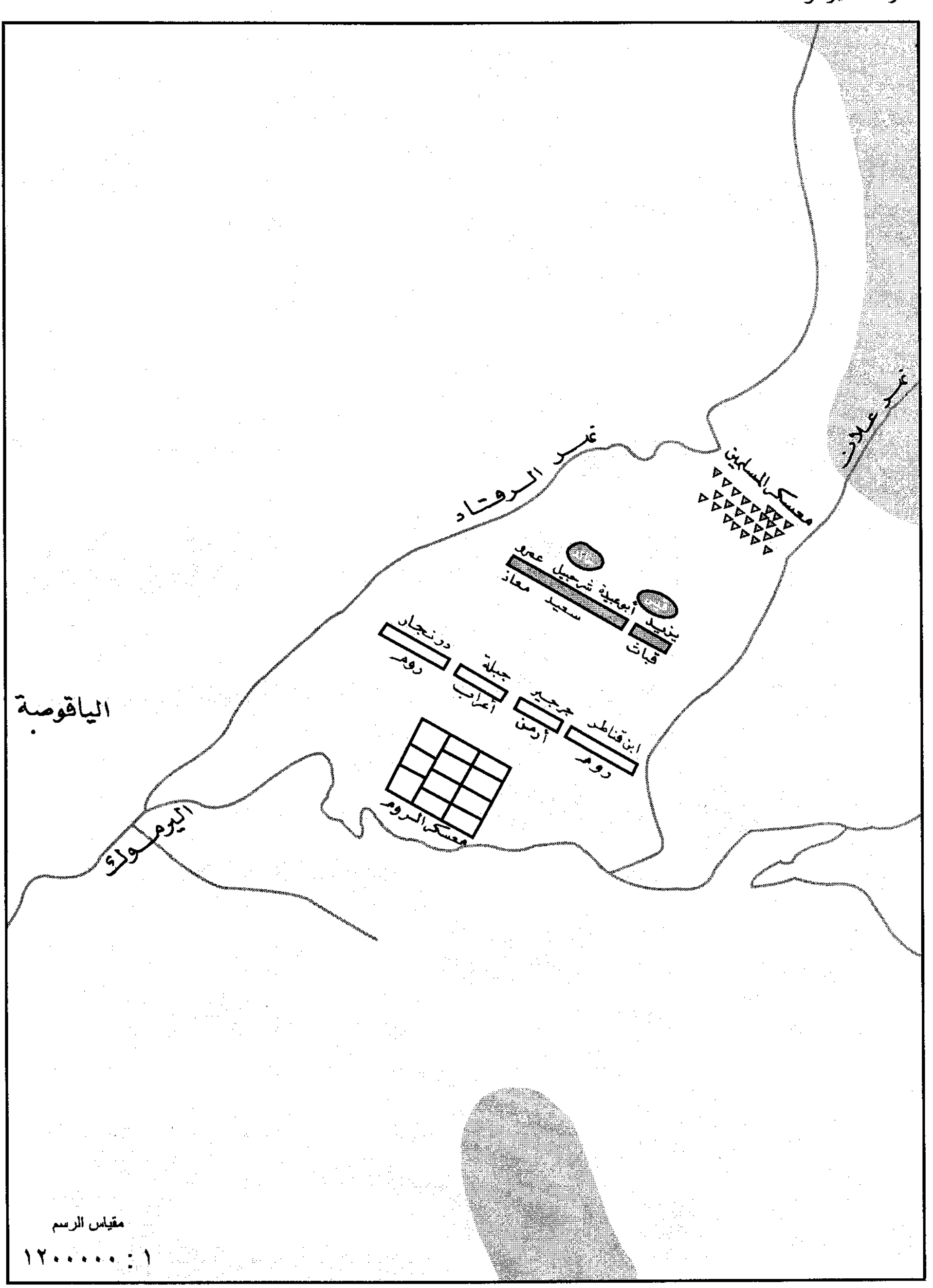
٤ - الاشتراك بالقتال عندما لا يكون بَدٌّ من ذلك.

ولم يمنع أحدًا منهن من الاشتراك في القتال اختياريًّا إذا أرادت ذلك مع الرجال) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٦).

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٥٩، ١٦٠).



اليرموك (التأهب للقتال)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٣٩) خريطة (٨٥))

عدد القيادات العليا من الصحابة:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن عبادة وخالد قالا:

شهد اليرموك ألفٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فيهم نحو من مِائة من أهل بدر.

قالا: وكان أبو سفيان بن حرب يسير فيقف على الكراديس فيقول:

اللَّه. اللَّه. إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللَّهمَّ هذا يوم من أيامك؛ اللَّهمَّ أنزل نصرك على عبادك) [١].

لقد كانت كلمات أبي سفيان ﷺ. في غاية الأهمية والتأثير والعمق. لقد لبت أعماق العربي المسلم الذي ينتمي إلى قومه وينطلق من دينه.

(ذادة العرب، وأنصار الإسلام).

فلا بد من توظيف حب القوم والقبيلة والعشيرة في إطار الذود عن دين اللَّه، والجهاد في سبيله ثم الالتجاء إلى اللَّه تعالى واهب النصر لجنده:

(اللَّهمَّ إن هذا يوم من أيامك، اللَّهمَّ أنزل نصرك على عبادك).

الفئة القليلة، والفئة الكثيرة:

تباين الأعداد:

(قالا: وقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين؟!

فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين.

إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال.

واللَّه، لوددت أن الأشقر [٢] براء [٣] من توجيه [٤]. وأنهم أضعفوا في العدد وكان فرسه قد حفي في مسيره) [٥].

هذا هو القائد البصير الواثق من نفسه والمستشرف لساحته. فالكثرة والقلة ليست بالعدد. (إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال).

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٦/٢).

(٢) الأشقر: فرس خالد.

(٣) براء: معافى.

(٤) توجيه: مرضه.

(٥) المصدر نفسه (٣٣٧/٢).

وكأنما فرسه الأشقر قنبلة ذرية، تتهيأ للانطلاق بعد معالجة عوائقها. وهي قادرة على القضاء على كل تجمعات العدو.

إنه أخطر تصريح لخالد ﷺ؛ فقد يكون تصريحًا عنتريًّا هوائيًّا. أو تصريحًا يجعل الحقيقة فوق الخيال. إن مرض فرسه، وما عاناه في رحلته الطويلة من العراق للشام أحد المحن التي يعاني منها. وعافية هذا الفرس الصاعقة تفوق عنده أمدادًا جديدة من العدو.

* * *

الالتحام مع العدو والجولة الأولى:

(قالا: فأمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبتي القلب، فأنشبا القتال، وارتجز القعقاع وقال:

يا لَيتني ألقَاك في الطِّرادِ قَبل اعتِرَام الجُحفَل الورَّادِ
وأنتَ في حلبَتِك الوِرادِ

وقال عكرمة:

قد علمَتْ بهكنة الجَوارِي أنّي علَى عكْرِمة أُحامي

فنشب القتال. والتحم الناس، وتطارد الفرسان؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن أمداد، وإنما جاءت بموت أبي بكر رحمه الله وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالدًا، فأخبره خبر أبي بكر أسرَّه إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند. قال: أحسنت فقف. وأخذ الكتاب وجعله في كنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند، فوقف محمية ابن زنيم مع خالد وهو الرسول).

حوار بين القائدين في ساحة المعركة:

لقد كان جرجة بن توذرا وهو قائد مقدمة الروم وهو الشخص الثاني في الجيش الروماني بعد القائد العام.

(وخرج جرجة حتى كان بين الصفين. ونادى: ليخرج إليَّ خالد.

فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه. فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دوابهما، وقد أمن أحدهما صاحبه.

فقال جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تسُلُّهُ على قوم إلَّا هزمتهم؟؟

قال: لا.

قال: فبِمَ سميت سيف الله؟

قال: إن الله ﷻ بعث فينا نبيه ﷺ. فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعًا. ثم إن بعضنا صدق وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه، فقال: « **أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين** ». ودعا لي بالنصر، فسُميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

قال: صدقتني.

ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد، أخبرني إلامَ تدعوني؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله.

قال: فمن لم يجبكم؟

قال: الجزية ونمنعهم.

قال: فإن لم يعطها.

قال: نؤذنه بحرب، ثم نقاتله.

قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم، ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم.

قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال: نعم، وأفضل.

قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ، وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، أن

يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجة: باللَّه لقد صدقتني، ولم تخادعني ولم تألَّفني؟؟

قال: باللَّه لقد صدقتك، وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة. وإن اللَّه لولي ما سألت عنه. فقال: صدقتني.

وقلب الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام.

فمال به خالد إلى فسطاطه، فشنَّ عليه قربة من ماء، ثم صلَّى ركعتين...).

ها نحن هنا مع خالد الداعية العظيم، والذي بعثه رسول اللَّه ﷺ في دورة تدريبية على الدعوة لبضعة أشهر في اليمن، وليس مطلوبًا منه غير الدعوة.

لكن أن تأتي هذه الدعوة في قلب لهيب المعركة، وفي التحام الفرسان، ومطاردة الأبطال، فهذا هو الغريب فيها، وأن تكون المبادرة من قائد جيش الروم فهذا هو الأغرب والأعجب.

لكن الذي يعرف مداولات القيادات مع قيصر حول الإسلام ورسول الإسلام، ودعوته لهم للإسلام - والتي عرضنا جزءًا منها - تزول هذه الغرابة عنه، والأصل أن يكون هرقل وقياداته وبطارقته وقسيسيه كلهم جزءًا من الجيش الإسلامي، فقد جاءهم النبي المنتظر، النبي الخاتم. غير أن الحقد، والطمع في المنصب وخوف الجماهير حال بينهم وبين ذلك، واختار اللَّه تعالى مصدقًا من النصارى هو جرجة، وفي ساحة المعركة كما اختار عبد اللَّه بن سلام مصدقًا من اليهود. وكان هذا الحوار العظيم الذي يُكتَبُ بمداد من ذهب ويوضع في كل بيت مسلم، وذلك حين يتحاور العظماء والقادة وهم يبغون الوصول إلى الحق، رغم الدماء والدمار والموت. وهو حجة على كل قائد وداعية مسلم أن يكون على تمام الجاهزية للدعوة إلى اللَّه، مثلما هو على تمام الجاهزية للجهاد في سبيل اللَّه.

لقد توثق جرجة من خالد. كما توثق ضمام بن ثعلبة من رسول اللَّه ﷺ أن يقسم له باللَّه على أن يصدقه وكفى.

كما يدلنا هذا الحوار من جهة ثانية على مدى الرعب والخوف عند قيادات الجيش

الروماني وهم يرون أنهم مع قائد لا يُقهَر، وبطل لا يُغلَب، سبقته سمعته قبل وصوله للشام. وكأن هذا السؤال الذي وجهه جرجة هو سؤال كل قيادات الروم بلا استثناء:

(يا خالد، اصدقني، ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله. هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه. فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟) ألم ينزل الله على المسيح ابن مريم مائدة من السماء، فكانت عيدًا للنصارى أولهم وآخرهم. وحيث لا إيمان إلا بالحس الغليظ، فلا عجب أن ينزل الله سيفًا خارقًا للقتل، كما أنزل مائدة للطعام. فلا يسل على قوم إلا هزمهم. وهم مقتنعون أن الهزيمة هي مصيرهم. لأنهم مؤمنون بالدين بالأصل ويعرفون في أعماقهم أنه الحق كما يعرفون أبناءهم. كما أن الواقع صدَّقهم، فلم يسمعوا عن خالدٍ أنه هزم في معركة قط.

ويقول قائل: لِم لم يصدق خالد مقولة جرجة. فبث الرعب في قلوب الجيش الروماني، ويؤكد لهم ما يعتقدونه في سيف الله، وقد يدعو بعضَهم إلى الإيمان بجوار جرجة.

ولكن الجواب: أن هذا الدين إلى قيام الساعة، وليس لساعة معركة أو ساعة حرب، والصدق هو الأساس فيه، والحر لا يكذب، والأمانة هي الحق فيه، فالكريم لا يخادع.

ولتعلم البشرية كلها أن هذا الدين دين فكر وعقل، وليس دين حسٍّ ومادة.

ومن أجل هذا أوضح له أمورًا كان بغنًى عن التفصيل فيها. فلئن كان هدف جرجة الاستفسار عن السيف فقط - كما بدا لأول وهلة - فهدف خالدٍ أبعد؛ هدف خالد قلبُ جرجة لا عنقه المُقط عن جسده. فإذا كان الوقت مناسبًا لحديث القلب. فلينحَّ السيف جانبًا، وليعد الدفء للمتحاورين لا المتصارعين. وفي بلاغة خالد العظيمة. نقل له تاريخ الإسلام كله، في أسطر ثلاثة. مستمدًّا من رحيق النبوة يوم أسلم على رسالة من أسطر ثلاثة. فهو يريد أن يغوص في أعماق جرجة. ويؤكد له أنه كان مثله عدوًّا للإسلام، عدوًّا للدين، من أشد المشركين على المسلمين. كما هو وضع جرجة الآن. وانضم خالد بعد أن فقه مبادئ هذا الدين إلى الصف الإسلامي، حيث يمكن لجرجة أن يفعل مثله لو أراد، إنها الدعوة بالقدوة، وبأسلوب محبب غير مباشر. وبتسمية من هذا النبي المبارك. (فقال: « **أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين** ») وبدعوة منه: (ودعا لي بالنصر) فسميت سيف الله بذلك.

ولم يمض خالد فيصدق الخوارق التي اعتقدها العدو فيؤكد ما قاله جرجة: (فلا تسله على قوم إلا هزمتهم) ولم يتابع هذه الخارقة. فقد يُهزم مرة. ويكذب الدين كله. فاكتفى بالحد الطبيعي لهذه التسمية، ولهذه الدعوة (فأنا من أشد المسلمين على المشركين).

فهل يعقل الدعاة هذه المدرسة الخالدية. ولا يقدموا الإسلام على أن الرفاه والخير والتقدم وحل كل مشاكل الدنيا حين يحكم الإسلام. هلا يصغي الدعاة إلى هذه المادة في جامعة الدعوة الخالدية، وننظر من جهة ثالثة إلى مواد المنهج الخالدي في الدعوة وسط التحام السيوف.

المادة الثانية: ما نعرض من الدين؟

نعرض عقيدته التي لا يعتبر المسلم مسلمًا إلا بها.

(قال: إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله). هذا مقرر الفصل الأول.

ولا يُعرض الكذب والتزوير حتى يرضى عنا اليهود والنصارى، ونقول لهم: ديننا ودينكم واحد، وعقيدتنا وعقيدتكم واحدة. فكلنا مؤمنون، واللَّه قال بصريح كتابه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣].

صحيح ليس من الضروري أن نتحدث عن الكفر ونبدؤهم بقولنا: أنتم كفرة. لكن ليس صحيحًا كذلك أن نقول لهم: نحن وأنتم شيء واحد. وكلنا مؤمنون.

فلن يكون المسلم مسلمًا، حتى يشهد أن لا إله إلا اللَّه، ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

والغرب اليوم يدعونا إلى إلغاء هذه المادة. ووضع المادة الآنفة الذكر بديلًا عنها. يريد أن يغير مناهجنا واللَّه تعالى قال: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

أما مقرر الفصل الثاني: وهو شرح الشهادتين والإقرار بما جاء به من عند اللَّه.

فما ثبت عن اللَّه ورسوله ليس محط مساومة أو نقاش. بل هو محط اتباع وطاعة. سواءً خضنا بتفصيلاته أو عشنا مع كلياته.

ولقد أعطى خالد ﷺ مقرر الفصلين في سطر واحد.

ثم كان الحوار من جهة ثالثة منصبًّا على من رفض الدخول في هذا الدين، **وهذا مقرر الفصل الأول والثاني من السنة الثانية:** حكم من لم يؤمن باللَّه ورسوله.

وكان الجواب واضحًا شافيًا بلا تلجلج: الجزية ونمنعه.

وهو التعايش التام معه، وحمايته وحماية مقدساته من العدو مقابل هذه الجزية.

لقد كان هذا الكلام قبل خمسة عشر قرنًا من قوانين محاربة الإرهاب المعاصرة، والتي تفرض القتلَ أو الإيمانَ على المخالفين، والتي تعلن أنه من لم يكن معنا فهو ضدنا. ثم تحوَّل الأرض على إثر ذلك إلى ساحة إرهاب برعاية دولية.

أما مقرر الفصل الثاني من السنة الثانية فهو: (فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب).

ولها قوانينها وآدابها وتفصيلاتها. لكن خالدًا ﷺ قدمها بسطرٍ واحد.

ثم كان الحوار يتركز في الفصل الأخير على فضل المتأخر الذي ينضم إلى هذا الدين. والانضمام أحب من الجزية، والجزية أحب من القتال.

وهو مقرر السنة الثالثة بفصليها الأول والثاني.

والتي استغرق تفصيلها وشرح أبعادها شطر الحوار تقريبًا.

ونجح الحوار، وأسلم قائد الجيش الروماني وجاهد حتى ليقول الراوي:

(فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما)[1].

وعودة إلى المعركة:

(... ثم صلَّى ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها منه حملة. فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، وعليهم عكرمة والحارث بن هشام...).

هل ترون يا أهل الأرض من الذي ثبت وحمى الإسلام حين تراجعت الصفوف كلها أمام الزحف الروماني الماحق.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٦/٢).

إنه ابن أبي جهل.

وأخو أبي جهل.

وهل يصمد الكلام والتعليق، أمام هذه الظاهرة. لا شك أنها في غنًى عن أي تعليق. والظاهرة الثانية: من يقود الهجوم المضاد ضد كتائب الجيش الروماني وزحوفه خالد بن الوليد وجرجة بن توذرا قائد مقدمة الجيش الروماني.

(... عليهم عكرمة والحارث بن هشام وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين. فتنادى الناس، فثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم) [١].

القيادات الإسلامية تعلن خطة المعركة:

(... وذكر ابن إسحاق بإسناده: أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة أبو عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وخرج الناس على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد وهو المشير [٢] في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه.

ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها، وقد سدت أقطار تلك البقعة كلها سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثون على القتال. وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش فساق بفرسه إلى أبي عبيدة. فقال له: إني مشير بأمر. فقال:

قل ما أمرك اللّٰه أسمع لك وأطيع. فقال خالد: إن هؤلاء القوم لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين، وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءًا. فنأتيهم من ورائهم. فقال له: نعم ما رأيت.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٩/٢).

(٢) سبق أن استعملنا كلمة المشير لأعلى رتبة عسكرية في الجيش. وقد استُعمل بهذا المعنى والحمد للّٰه عند الجيل الأول.

فكان خالد في إحدى الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله، لكي إذا رآه المنهزم استحيا منه ورجع إلى القتال.

فجعل أبو عبيدة مكانه (أي: مكان خالد) في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة ﷺ وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعه عدد من السيوف وغيرها فقال لهن: من رأيتموه موليًا فاقتلنه. ثم رجع إلى موقفه ﷺ.

خطب القادة قبيل المعركة:

أولًا: (ولما تراءى الجمعان، وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال:

١ - يا عباد اللّٰه، انصروا اللّٰه ينصركم ويثبت أقدامكم.

٢ - يا معشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب ومدحضة للعار.

٣ - ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدؤوهم بقتال.

٤ - وشرِّعوا الرماح، واستتروا بالدُّرُق.

٥ - والزموا الصمت إلا من ذكر اللّٰه في أنفسكم حتى آمركم إن شاء اللّٰه تعالى) (١).

هذه هي الخطة الحربية التي أعلنها وتلاها نائب القائد العام (الفريق) أبو عبيدة.

ثانيًا: خطيب الصحابة الأنصار معاذ بن جبل:

(قالوا: وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول:

يا أهل القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة اللّٰه لا تنال، وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يؤتي اللّٰه المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق والمصدق، ألم تسمعوا لقول اللّٰه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [النور: ٥٥]، فاستحيوا رحمكم اللّٰه من ربكم أن يراكم فُرَّارًا من عدوكم، وأنتم في قبضته، وليس لكم مُلتحدٌ من دونه ولا عز بغيره) (٢).

ومعاذ بن جبل أمير العلماء، وها هو يقرن الأقوال بالفعال، ولقد سبقت له شهادة

(١، ٢) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤)، (٧/١٠).

رسول اللَّه ﷺ أنه يتقدم أمام العلماء برتوة، وهو الذي سبق أن أقسم رسول اللَّه ﷺ أنه يحبه، ولم يقسم لأحد من الخلق غيره: « **يا معاذ، واللَّه إني لأحبك...** ». وهو الذي خاض الأهوال في اليمن، وها هو يعود ليتابع مسيرته الجهادية في الشام.

ثالثًا: خطبة عمرو بن العاص:

ولا شك أن خطبته تعليمات حربية مثل تعليمات أخيه أبي عبيدة، فهو أحد الأربعة الكبار (وقال عمرو بن العاص:

١ - يا أيها المسلمون، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح.

٢ - فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم.

٣ - حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد.

٤ - فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحسانًا.

٥ - لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرًا كفرًا وقصرًا قصرًا.

٦ - فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم.

٧ - فإنهم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل) (١).

اقتحام الروم على المسلمين:

(وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الديرجان وكان عدو اللَّه متنسكًا فيهم، فحمل على الميمنة التي يقودها عمرو بن العاص) وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان، فثبتوا حتى صدوا أعداء اللَّه، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فزال المسلمون عن الميمنة إلى القلب، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، وانكشفت زبيد ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا مَنْ أمامهم من الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس. واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول:

يا هاربًا عن نسوة تقيَّات   عما قليلٍ ما تُرى سبيَّات

لا حَصِيَّات ولا رَضِيَّات

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤)، (٧/١٠).

وثبت كل قوم تحت راياتهم، حتى صارت الروم تدور كأنها الرحى فلم تر يوم اليرموك إلا مخًّا ساقطًا، ومعصمًا نادرًا وكفًّا طائرة من ذلك الموطن) [١].

صورة أوضح من ساحة المعركة:

والذي يستطيع رسم هذه الصورة هو الأستاذ باشميل ﷺ. فلنقف مع هذه الصورة التي تلقي الأضواء أكثر على قائد الميمنة عمرو بن العاص الذي سمعناه يقول في بداية المعركة:

(فإنهم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل).

فهل كان الواقع في قلب المعركة، على مستوى الخطاب الناطق؟

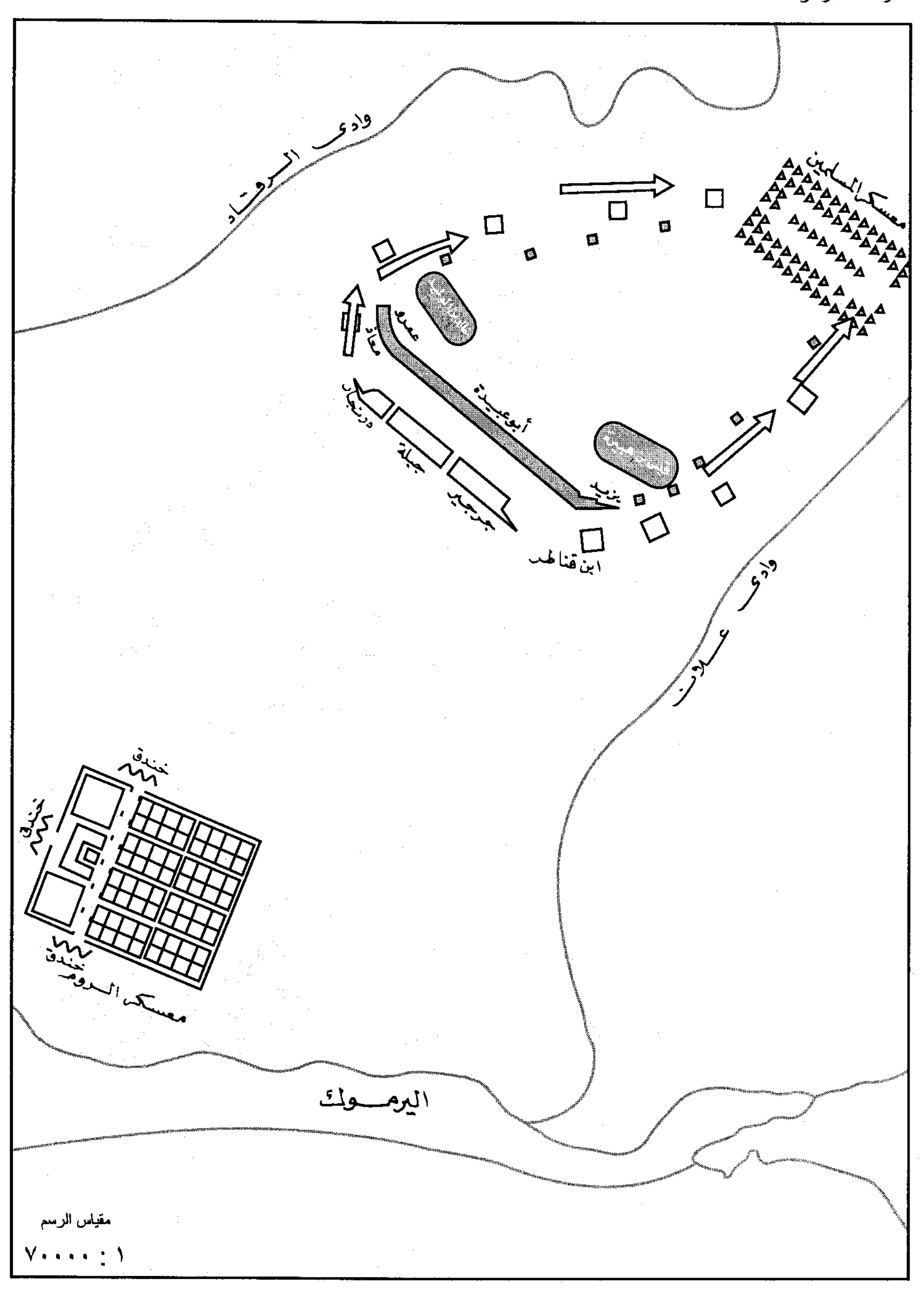
الزحف الروماني:

(قام القائد ماهان بهجوم كاسح عنيف، فتخلخلت صفوف المسلمين، وكان الهجوم الأول من ماهان على ميمنة المسلمين التي تضعضعت بعد مقاومة عنيدة شرسة. ولكن التفوق العددي الهائل في ميسرة الروم التي يقودها ماهان، أجبرت المسلمين على التراجع حتى خالط الروم المسلمين ودخلوا معسكرهم. وكانت ميمنة المسلمين التي تلقت الهجوم الأول فيها قبائل شتى من الأزد وحضرموت ومذحج وحمير وخولان وزبيد، وهؤلاء معروفون في التاريخ القديم والحديث بالشجاعة النادرة، فقاوموا الهجوم الروماني مقاومة شرسة عنيدة. ولكنهم لم يستطيعوا الثبات الدائم للكثرة الرومانية الهائلة الغامرة. فأخذ بعضهم ينفد صبره. فتركوا مواقعهم منهزمين، وكان قائد الميمنة عمرو بن العاص، ومعه أصحاب الرايات والصبر. فصبر عمرو بن العاص وصبر أصحاب الرايات مكانهم لم يتزحزحوا. وكما ثبت عمرو وأصحاب الرايات في الميمنة، ثبت قائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وأصحاب الرايات، لم يتزحزحوا، وجالدوا الرومان بثبات منقطع النظير... غير أن الذي خفف من وقع الكارثة أن قلب الجيش الإسلامي - رغم انكشافه بانهزام الميمنة والميسرة من الجانبين - ظل بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة صامدًا لم يصل الخلل إلى صفوفه رغم الهجوم الشرس الضاري الذي شنته قوات الرومان) [٢].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤)، (٧/١٠).

(٢) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ١٧٢، ١٧٣).



اليرموك (اختراق الروم أجناب المسلمين)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤١) خريطة (٨٧))

كتيبة الموت:

(قال: فتراجع الناس إلى مواقفهم. وقال سيف بن عمر عن أبي عثمان الغساني عن أبيه، قال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلت رسول اللَّه ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم؟!

ثم نادى: من يبايعني على الموت؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا، وقتل منهم خلق، منهم: ضرار بن الأزور ﷺ. وقد ذكر الواقدي وغيره: أنهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماءً فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر. فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه، نظر إليه الآخر. فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا. ولم يشربها أحد منهم رضي اللَّه عنهم أجمعين) [1].

الهجوم المعاكس:

(وتمكن عمرو بن العاص من تنظيم قوات الميمنة وهي التي (بعد القلب) تعرضت لأشد أنواع الهجوم وتمزقت لأنها كانت تقوم بسد الثغرة التي بين جيش الروم، وبين طريق إمدادتهم من دمشق، وتمكن عمرو من إعادة تنظيم قواته، وعاد المنهزمون إلى مواقفهم، وأخذوا في شن هجوم معاكس على الرومان فاستعادوا مواقعهم في الميمنة التي فقدوا ثم بدؤوا في مطاردة الروم. وكذلك فعل يزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة إذ عاد إليه المنهزمون، فأعاد تنظيم قوات الميسرة، وشنَّ بهم على الروم هجومًا عنيفًا. فاشتد ساعد القلب، وأدرك الروم الذين يحاولون تحطيم القلب، واحتلال مقر القائد العام، أدركوا تغيير الوضع. والهجوم العنيف المعاكس الذي قامت به قوات ميمنة وميسرة المسلمين فسادهم الاضطراب، وتوقف هجومهم، فأخذوا بالتراجع بحثًا عن السلامة. واغتنم القائد خالد الذي كان في أشد الصراع مع الروم الفرصة عندما رأى الميمنة والميسرة تعودان إلى حالتهما من الثبات.

---

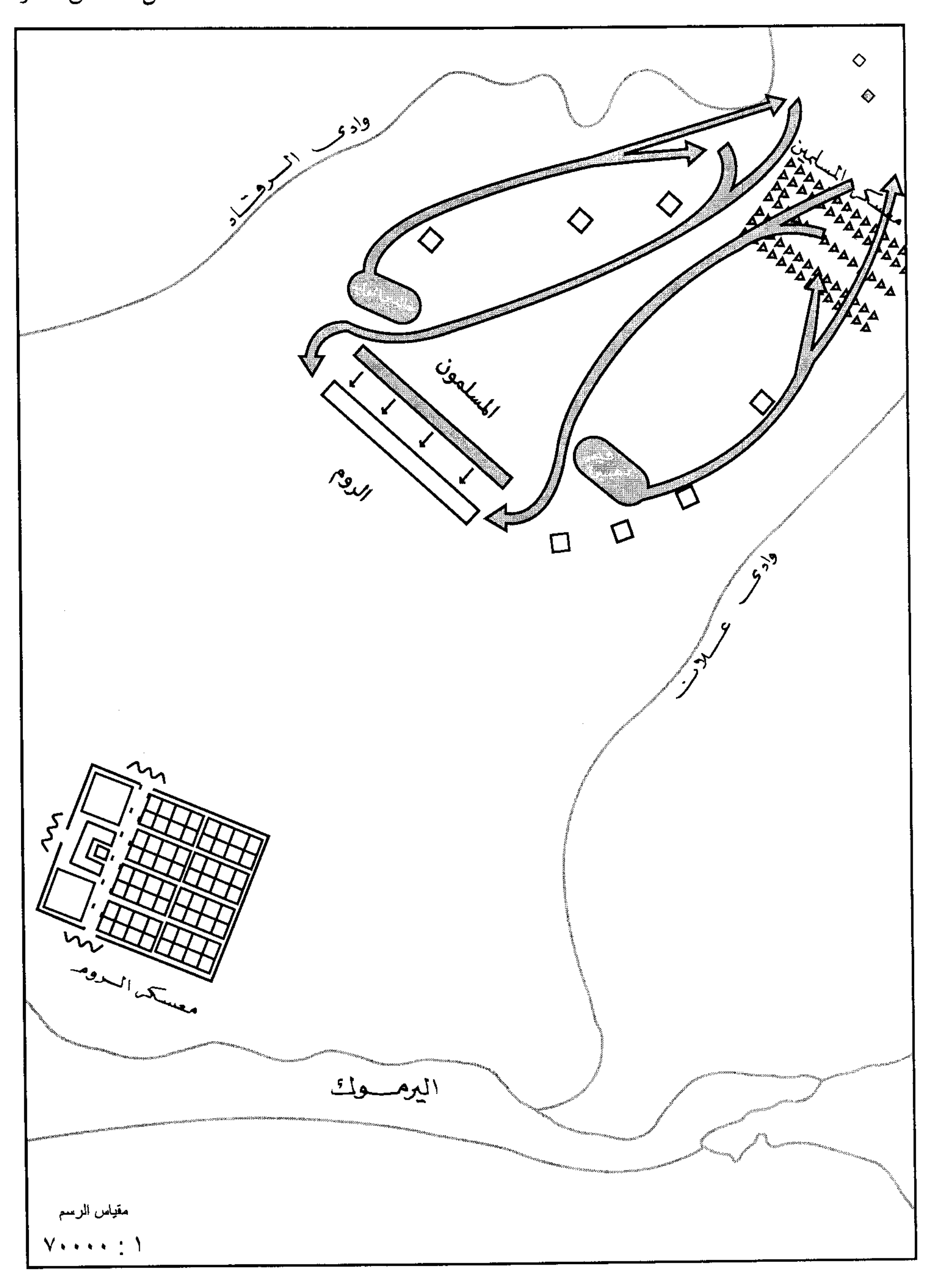
(١) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤)، (٧/١١).

الهجوم العام الشامل:

فأمر بالهجوم العام على الرومان، فاستجاب المسلمون، وقام الجيش الإسلامي كله بهجوم شامل معاكس على الروم، وبالتنسيق مع الميمنة والميسرة نجح هذا الهجوم المعاكس. فقد تحول إلى مطاردة للرومان، وهكذا تحول الوضع، وتغير لصالح المعسكر الإسلامي، وبدأت علائم النصر الحاسم تلمع في الأفق. ولولا ثبات أصحاب الرايات، وقادة الفرق والكتائب، وأهل النجدة بصفة خاصة ووحدة الفدائيين التي قادها عكرمة وأبيدت عن آخرها حين تصديها لهجوم الروم على قلب الجيش الإسلامي، ومقر القيادة العامة، لكانت هزيمة الجيش الإسلامي كاملة ومنكرة... وأخذ جيش الإسلام يضغط بشراسة على الجيش الروماني الذي قد نال منه التعب حد الإعياء، لمباشرته الهجوم العنيف على المسلمين دون جدوى طول النهار، ولم يستطع الجيش الروماني المرهق الصمود في وجه هجوم المسلمين المعاكس. فاضطربت قواته، وانفرط عقد نظامها.

خالد يأمر بفتح الثغرة لهروب خيل الروم:

وكان أقوى ما في الجيش الروماني سلاح الفرسان وهو ثمانون ألفًا. وهذا السلاح أيضًا ناله الفتور. وكان خالد يخشاه، وكان عمرو بن العاص عندما أعاد تنظيم الميمنة التي تمزقت طوابيرها رجع فقفل الثغرة التي تركها الرومان مفتوحة نحو دمشق لتكون خطًّا للتموين. ومنفذًا للانسحاب نحو دمشق إذا ساءت الحالة بالنسبة لهم. وهنا وعندما لاحظ خالد أن فرسان الروم يبحثون عن مخرج يهربون منه بعد أن يئسوا من النصر أصدر أمره السريع إلى قائد الميمنة عمرو بن العاص بأن لا يقاتل فرسان الروم، وأن يأمر وحداته بفتح الثغرة بين الميمنة والميسرة ليذهبوا عبرها سليمين حيث شاؤوا... وسارع عمرو إلى تنفيذ أمر القائد خالد، ففتح الثغرة نحو دمشق، فتدفق عبرها حوالي ثمانين ألف فارس من الروم تاركين الميدان، وتاركين القوات الرومانية الضاربة المشاة دونما حماية، وتحول الوضع لصالح المسلمين مائة بالمائة لأنهم انفردوا بالمشاة الرومان الذي تركوا دون حماية بعد انسحاب فرسانهم من الميدان. وزادت حالة الروم سوءًا أن كان لدى المسلمين في الميدان عشرة آلاف فارس، ليس في الميدان فارس روماني واحد يواجههم.

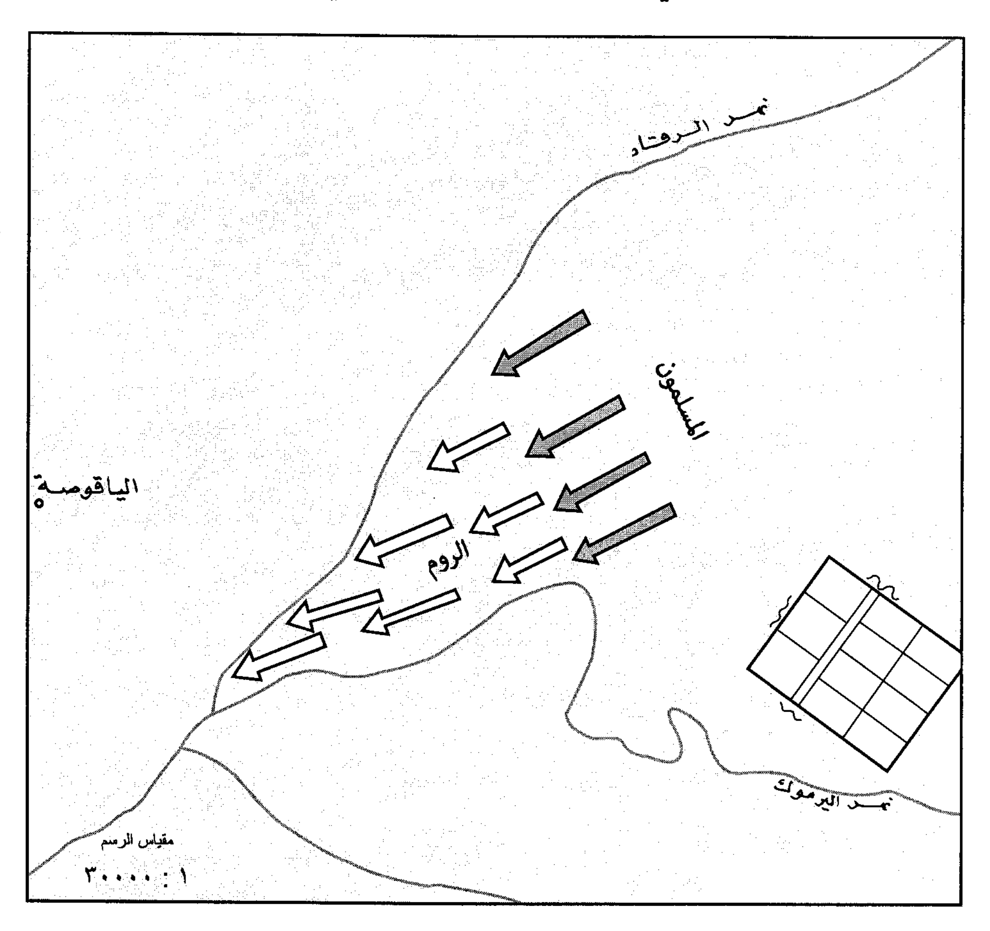


اليرموك (الهجوم المضاد من خالد)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٢) خريطة (٨٨))

الروم يتجللون بعار الهزيمة:

(وزادت حالة الروم سوءًا أكثر فأكثر أن ثمانين ألفًا من مشاتهم كانوا مترابطين في السلاسل مما سهل على جند الإسلام إبادتهم عن بكرة أبيهم، إما ضربًا بالسيف أو دفعًا إلى الواقوصة، وهي هاوية سحيقة بين جبلين في اليرموك.



اليرموك (انهيار جبهة الروم)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٣) خريطة (٨٩))

لقد سيطرت القوات الإسلامية بعد فرار فرسان الروم على ميدان المعركة، وصاروا يضعون السيف حيث شاؤوا، وصار المقرنون في السلاسل من الرومان يهوي بعضهم ببعض في الواقوصة، حتى أبيد الجميع عن بكرة أبيهم. فكانت هزيمة منكرة لم يشهد الرومان مثلها في تاريخهم. ولم ينج إلا قلة قليلة من المشاة تمكنوا من الهرب. ويقدر

الأستاذ بسام العسلي في كتابه « فن الحرب » قتلى الرومان بمائة وعشرين ألفًا، وقتلى المسلمين بثلاثة آلاف، وقد اعترفت المصادر الأجنبية بالانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الروم في اليرموك، كما اعترفت بإبادة الجيش البيزنطي ومحوه من الوجود.

عمرو بن العاص وما عاناه في الحرب:

(وفي الواقع أن عمرو بن العاص كان باستثناء القلب أكثر الجبهات تعرضًا لشراسة الهجوم الروماني لأنه يواجه ميسرتهم التي تحمي خطوط إمداداتهم من دمشق، ولأنه تمكن من قطع هذه الخطوط. لهذا صار عرضة لثقل الهجوم الروماني، فعانى الأهوال منهم بدليل أن الروم هدموا صفوف ميمنته مرتين ففي المرة الأولى اخترقوها فصابر وجاهد حتى أعاد تنظيمها وسد ثغراتها، فكروا عليه من جديد، واخترقوا ميمنته. فاشتد عليه الأمر. ولكن موقف عمرو بن معديكرب وأبي هريرة وقبيلتيهما، وعملية الفدائيين الأربعمائة بقيادة عكرمة خففا عليه الوطأة. فتمكن للمرة الثالثة من تنظيم صفوف ميمنته، ثم شارك بفعالية في الهجوم المعاكس على الروم الذي انتهى بهزيمتهم الساحقة) (١).

وكان أهم ما غامر به أن أخذ الراية من صاحبها الذي بدأ يتراجع، وتقدم زاحفًا أمام المسلمين، فاستحيا الأبطال من ذلك، ومضوا خلفه، رغم جبال الروم التي أمامهم كما يقول موسى بن عمران بن متاح:

(لما رأى عمرو بن العاص يوم اليرموك صاحب الراية ينكشف بها أخذها منه، ثم جعل يتقدم وهو يصيح: إليَّ يا معاشر المسلمين. فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول:

اصنعوا كما أصنع.

وهو يرفعها وكأن عليها المطر من العلق والدم) (٢).

وللنساء دورهن:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عميس عن

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل مقتطفات (ص ٢٠٢ - ٢٢٠).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١١/١٣).

القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة: قال - وكان شهد اليرموك هو وعبادة ابن الصامت -: إن النساء قاتلن يوم اليرموك في جولة فخرجت جويرية بنت أبي سفيان في جولة، وكانت مع زوجها. وأصيبت بعد قتال شديد. وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان. فأخرج السهم من عينه أبو حثمة) (١).

هرقل يتلقى نبأ الهزيمة:

ولما نزلت جنود المسلمين اليرموك، بعثوا إلى الروم: إنا نريد كلام أميركم وملاقاته، فدعونا نأتِ ونكلِّمْه. فأبلغوه فأذن لهم. فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان كالرسول، والحارث بن هشام وضرار بن الأزور، وأبو جندل بن سهيل. ومع أخي الملك يومئذ ثلاثون رواقًا في عسكره، وثلاثون سرادقًا، كلها من ديباج. فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها. وقالوا: لا نستحل الحرير فابرز لنا. فبرز إلى فرش ممهدة. وبلغ ذلك هرقل فقال:

ألم أقل لكم؟ هذا أول الذل، أما الشأم فلا شأم، وويل للروم من المولود المشؤوم.

ولم يتأتَّ بينهم وبين المسلمين صلح، فرجع أبو عبيدة، وأصحابه واتَّعدوا، فكان القتال حتى جاء الفتح (٢).

ولما كان اليوم الذي تأمَّر فيه خالد، هزم اللَّه الروم مع الليل، وصعد المسلمون العقبة. وأصابوا ما في العسكر، وقتل اللَّه صناديدهم ورؤوسهم وفرسانهم، وقتل اللَّه أخا هرقل، وأُخِذ التذارق وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون مدينة حمص. فارتحل، فجعل حمص بينه وبينهم، وأمّر عليها أميرًا وخلَّفه فيها، كما كان أمَّرَ على دمشق (٣).

ولذلك وبمجرد علم الملك هرقل بتدمير المسلمين لجيشه في اليرموك اتخذ القرار الحاسم بمغادرة الشام إلى القسطنطينية وغادرها فعلًا مودعًا الشام بتلك الكلمة التاريخية. وداعًا يا سوريا لا لقاء بعده (٤).

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٣٨، ٣٣٩).

(٤) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ٢٤٤).

ويعلن خالد ﷺ نبأ العزل:

انتهت المعركة، وخالد في ذروة انتصاراته العسكرية. وقد هزم أعظم إمبراطورية في الأرض تحت قيادته يتقدم من أخيه أبي عبيدة، ويعطيه خطاب توليته القيادة العامة بعد أن احتفظ به في كنانته حتى انتهت المعركة وتحقق الظفر.

وكان يمكن لهذا العزل - مع غير خالد - وهو في أعلى قمة من قمم مجده أن يجعله يرفض الأوامر، ويمضي بجيشه لاحتلال المدينة. غير أن المدرسة النبوية الربانية التي تربَّى بها خالد بن الوليد ﷺ اكتفى فيها بالقول حيث أعلم الناس بوفاة الصديق واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة ﷺ اكتفى بالقول: (الحمد للَّه الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحب إلي من عمر، والحمد للَّه الذي ولى عمر، وكان أبغض إلي من أبي بكر وألزمني حبه).

ونبحث في تاريخ الأرض وتاريخ الرجال عن مثيل لهذا الموقف فلا نجده. ونستمع إلى ول ديورنت في كتابه « قصة الحضارة » يلخص المعركة ويعلق على العزل بقوله:

(ولما أن وصل خالد وجنوده (أي: من العراق) إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلًا إلى الجنوب الشرقي من دمشق، كانت تلك المؤن قد نفدت... وهناك هزم أربعون ألفًا من العرب مائتين وأربعين ألفًا من الروم في المعارك الفاصلة التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤م) وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام في معركة واحدة. فلما خسرها أصبحت البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة في الاتساع) [١].

ويقول ديورانت:

(وبينما كان خالد يقود جيشه إلى النصر في هذه المعركة إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر، ويأمره الخليفة عمر الجديد فيها أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة. وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة) [٢].

ثم يقول ديورانت:

(ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة ملؤها الشهامة، وما هو أجمل من

(١ - ٢) قصة الحضارة لول. ديورانت (ج ١٢).

الشهامة فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط. وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد في شؤون الحرب، ويعارض قسوته بعد النصر) [١].

أما (ولز) في كتابه « تاريخ الإنسانية » فيقول:

(والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك من ألمع ما خلد تاريخ العالم. فقد أصبحت بلاد العرب على الفجأة بستانًا من رجال ممتازين، ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء، فحيثما حل قائدًا لجيش انتصر. ولما أن خلعته غيرة الخليفة عمر ظلمًا منه [٢] لا يغتفر. لم يحدث أي ضجة، بل خدم اللّه في سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيرًا عليهم... وكانوا في كل مكان يخيرون الناس أشياء ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تسلم للّه بالحق وتنضم إلينا، وإما أن تقاتل) [٣].

* * *

* *

*

---

(١) قصة الحضارة لول. ديورانت (ج ١٢).

(٢) ونحن لا نُقِر (ولز) باتهام الفاروق فمثل هؤلاء القمم إنما يحركهم الإيمان والنصح للمسلمين، ويبدو ذلك جليًا عندما أرسل عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن اللّه هو الصانع. انظر: الكامل في التاريخ (٤٤١/١).

(٣) هـ. جـ. ولز معالم تاريخ الإنسانية (٦٤٥/٣).

الفصل السادس عشر

الصديق وختام المسيرة

لا بد أن نعرض الخليفة والخلافة في هاتين السنتين المباركتين من عمْر البشرية.

القضاء والمال والولاة:

١ - (أخرج البيهقي بسند قوي أن أبا بكر لما ولي الخلافة ولى عمر القضاء) [١].

٢ - حدثنا محمد بن عبد اللّه المخرمي قال: حدثنا أبو الفتح نصر بن المغيرة قال سفيان، وذكره (عن مسعر: لما ولي أبو بكر، قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال - يعني: الجزاء - وقال عمر: أنا أكفيك القضاء.

وقال علي بن محمد عن الذين سميت قال بعضهم: جعل أبو بكر عمر قاضيًا في خلافته. فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد قال: وقالوا: كان يكتب له زيد بن ثابت، ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ﷺ. وكان يكتب له من حضر).

وقالوا: كان عامله على مكة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية، وعلى حضرموت زياد بن لبيد، وعلى خولان يعلى ابن أمية، وعلى زبيد ورِمَع أبو موسى الأشعري، وعلى الجند معاذ بن جبل، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي وبعث جرير بن عبد اللّه إلى نجران، وبعث بعبد اللّه ابن نور أحد بني الغوث إلى ناحية جُرَش، وبعث عياض بن غنم إلى دومة الجندل، وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص كل رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد) [٢].

أما الولاة فمعظمهم ولاة رسول اللّه ﷺ إلا من استعفى منهم أو انتدب للجهاد في سبيل اللّه. فهم امتداد للعهد النبوي والذين كانوا موطن ثقة النبي ﷺ.

وحين يكون على رأس جهاز القضاء فاروق الأمة ﷺ الذي لا يراه الشيطان سالكًا

---

(١) فتح الباري (١٢٩/١٣)، والسنن الكبرى للبيهقي (٨٧/١٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣٥٢/٢).

فجًا إلا هرب منه. والذي لو كان في الأمة نبي لكان عمر، فمن حقنا أن نطمئن إلى العدالة في الأمة، والعدل أساس الملك. فهل في الدنيا من يستطيع تحقيقه أكثر من (الفاروق) الذي فرّق اللَّه به بين الحق والباطل، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، هذا العدل الذي حدد منهجه الصديق ﷺ: (الشريف فيكم عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم عندي قوي حتى آخذ الحق له...).

والمال عندما يوضع بيد أبي عبيدة ﷺ. فهو الذي أخذ لقب – أمين الأمة – إلى قيام الساعة. وهو الذي رشحه رسول اللَّه ﷺ ليحكم بين نصارى أهل نجران بناءً على طلبهم (... وابعث معنا رجلًا أمينًا. ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: « **لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين** »، فاستشرف له أصحاب رسول اللَّه ﷺ. فقال: « **قم يا أبا عبيدة ابن الجراح** ». فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ: « **هذا أمين هذه الأمة** ») [1].

والطريف في الأمر وفي عافية هذه الأمة.

(جعل أبو بكر عمر قاضيًا في خلافته، فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد، وهذا من معالم هذه الخلافة الراشدة التي لا مثيل لها في التاريخ).

حياة ويوميات خليفة:

(قال أبو جعفر: وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرًا، وكان منزله بالسنح ثم تحول إلى المدينة فحدثني... وأخبرنا محمد بن عبد اللَّه عن الزهري عن عروة عن عائشة... فدخل حديث بعضهم ببعض قالوا: قالت عائشة:

(كان منزل أبي بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة... من بني الحارث ابن الخزرج وكان:

* **قصره:** (وكان قد حُجِّر عليه حجرة من سَعَف [2] فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله في المدينة...).

* **سياراته:** (فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر. يغدو على رجليه إلى المدينة وربما ركب على فرس له).

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة، ح (٣٧٤٥). (٢) السعف: جذوع النخل.

* **أثوابه ولباسه:** (وعليه إزار ورداء ممشق) [(١)].

* **قصره في المدينة:** (فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلَّى العشاء رجع إلى أهله بالسنح).

* **عطلته الرسمية:** (فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب قال: فكان يقيم يوم الجمعة، صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لقدر الجمعة، فيجمِّع بالناس).

* **عمله خارج دوامه الرسمي:** (وكان رجلًا تاجرًا، فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع).

– **العمل الثاني:** (وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كفيها فرعيت له).

– **العمل الثالث:** (وكان يحلب للحي أغنامهم. فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي:

الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى؛ لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه، فكان يحلب لهم).

– **العمل الرابع:** (فربما قال للجارية من الحي: يا جارية، أتحبين أن أرعى لك أو أصرِّح [(٢)]؟ فربما قالت: ارع، وربما قالت: صرح. فأي ذلك قالته فعل فمكث كذلك في السنح ستة أشهر).

مطالبته بالراتب ومنعه من الأعمال الإضافية:

(ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره فقال:

لا والله، ما تصلح أمور الناس التجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم. ولا بد لعيالي مما يصلحهم، فترك التجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يومًا بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم).

---

(١) ثوبًا ممشوقًا: ممزقًا.

(٢) أصرح: أحلب.

رفضه للراتب عند وفاته:

(فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئًا، وإنَّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم؛ فدفع ذلك إلى عمر).

إحصاء ممتلكاته وثرواته التي حصلها من الخلافة واسترجاعها:

(فدفع ذلك إلى عمر، ولقوحًا [١] وعبدًا صيقلًا [٢]، وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم).

الخليفة النموذج في التاريخ:

(فقال عمر: لقد أتعب من بعده) [٣].

(وروى ابن سعد وابن المنذر بإسناد صحيح عن مسروق عن عائشة قالت:

لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ماذا في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة بعدي. قالت: فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقي بستانًا له. فبعثنا بهما إلى عمر فقال: رحمة اللَّه على أبي بكر، لقد أتعب من بعده) [٤].

الفاروق والأمين يحددان راتبه:

(روى ابن سعد بإسناد مرسل رجاله ثقات قال:

لما استُخلف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق على رأسه أثواب يتجر بها، فلقيه عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح. فقالا: كيف تصنع هذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟

قال: فمن أين أطعم عيالي؟

قالوا: نفرض لك.

ففرضوا له كل يوم شطر شاة) [٥].

---

(١) لقوح: ناقة غزيرة اللبن.
(٢) صيقلًا: كان يصقل السيوف.
(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٥٢).
(٤) فتح الباري شرح البخاري (٤/٣٥٦)، وهو في الطبقات (٣/١٩٢).
(٥) المصدر نفسه (٤/٣٥٧).

الشورى عنده:

(أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب اللّه، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم وإن علمه من سنَّة رسول اللّه ﷺ قضى به. وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنَّة. فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم) (١).

إقرار مجلس الشورى لراتبه:

(... عن حميد بن هلال قال: لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول اللّه: أفرضوا لخليفة رسول اللّه ما يعينه؟ قالوا: نعم، برداءين إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما، وظهره إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف. قال أبو بكر: رضيت) (٢).

سياسته المالية - بيت المال بلا حراسة:

(قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه عن جده قال: أخبرنا عبد الملك بن وهب عن ابن صبيحة التيمي عن آبائه عن جده صبيحة قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر عن أبيه عن حنظلة ابن قيس الزرقي عن جبير بن الحويرث، قال: وأخبرنا محمد بن هلال عن أبيه، دخل حديث بعضهم في حديث بعض:

(أن أبا بكر الصديق كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد، فقيل له: يا خليفة رسول اللّه، ألا تجعل على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يُخاف عليه، قلت: لم؟ قال: عليه قفل).

بيت المال فارغ:

(وكان يعطي ما فيه حتى لا يبقى فيه شيء).

---

(١) فتح الباري شرح البخاري (٣٥٤/١٣)، وفي السنن الكبرى (١١٤/١٠).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٨٤/٣، ١٨٥) من طريق عفان بن مسلم عن سليمان بن المغيرة. وصفَة الصفوة لابن الجوزي (٢٥٨/١).

تحويل مكان بيت المال وانتقاله مع الخليفة:

(فلما تحول أبو بكر إلى المدينة حوّلهُ فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها).

مصادر بيت المال:

(وكان قدم عليه مال من معدن القبلية، ومن معادن جهينة كثير، وانفتح معدن بني سليم في خلافة أبي بكر، فقدم عليه منه بصدقته، فكان يوضع ذلك في بيت المال).

توزيع أموال بيت المال على الناس:

(فكان أبو بكر يقسمه بين الناس نُقَرًا نُقَرًا (١). فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا).

التسوية في العطاء:

(وكان يسوي بين الناس في القَسْمِ الحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير فيه سواء).

تهيئَتُه عدة الجهاد بالشراء:

(وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل اللَّه).

توزيع الثياب على الفقراء:

(واشترى عامًا قطائف أتى بها من البادية، ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء).

إحصائية الخزينة: درهم واحد:

فلما توفي أبو بكر ودفن، دعا عمر بن الخطاب الأمناء، ودخل بهم بيت مال أبي بكر ومعه عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما، ففتحوا بيت المال، فلم يجدوا فيه دينارًا ولا درهمًا، ووجدوا خيشة (٢) للمال، فنقضت فوجدوا فيها درهمًا، فرحَّمُوا على أبي بكر.

أرقام الميزانية:

(وكان بالمدينة وزان على عهد رسول اللَّه ﷺ. وكان يزن ما كان عند أبي بكر

---

(١) نقرا نقرًا: القطعة المذابة من الذهب أو الفضة.

(٢) الخيشة: الكيس الكبير الذي يوضع فيه المال.

من مال، فسئل الوزان كم بلغ ذلك المال الذي ورد على أبي بكر؟ قال: مائتي ألف)[١].

مرضه:

عن عائشة قالت:

(أول ما بدئ مرض أبي بكر أنه اغتسل، وكان يومًا باردًا، فحُمَّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه. وكان عثمان ألزمهم له في مرضه...)[٢].

استشارات الخلافة
والانعقاد الدائم لمجلس الشورى

دعوة رئيس المجلس، عبد الرحمن بن عوف وترشيح عمر للخلافة:

وهذا أوسع نص لهذه المشاورات، وقد جمع من العديد من الرواة قدمه لنا ابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (إن أبا بكر الصديق لما استعز عليه المرض[٣] دعا عبد الرحمن ابن عوف. فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال عبد الرحمن: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر: وإن. فقال عبد الرحمن: هو واللَّه أفضل من رأيك فيه).

وفي وثيقة أخرى عند الطبري قال:

(هو واللَّه، أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه، ويا أبا محمد، قد رمقته، فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه. وإذا لنت له أراني الشدة عليه. لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا. قال: نعم).

إعلام عثمان بن عفان المرشح الثاني واستشارته:

(ثم دعا عثمان بن عفان. فقال: يا أبا عبد اللَّه، أخبرني عن عمر. قال: أنت أخبر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢١٢، ٢١٣).

ملاحظة: كل العناوين الجانبية للمؤلف وما دونها فمن النص المأخوذ من مصدره.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/١١٥).

(٣) استعز عليه المرض: اشتد عليه.

به فقال أبو بكر: عليَّ ذلك يا أبا عبد اللَّه. قال: اللَّهمَّ علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثلُه. قال أبو بكر ﷺ:

رحمك اللَّه يا أبا عبد اللَّه لا تذكر مما ذكرت لك شيئًا. قال: أفعل.

فقال له أبو بكر: لو تركته ما عدوتك. وما أدري لعله تاركه والخيرة له، ألا يَليَ من أموركم شيئًا. ولوددت أني خلوًا من أموركم، وأني كنت فيمن مضى من سلفكم، يا أبا عبد اللَّه لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر، ولا مما دعوتك له شيئًا).

وعودة إلى الوثيقة الأولى؛ وثيقة ابن سعد.

دعوة مجلس الشورى الانعقاد الرسمي:

(وشاور معهما سعيد بن زيد أبا الأعور، وأسيد بن الحضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار).

زعيم المعارضة يقر ترشيح عمر:

فقال أسيد (زعيم الأنصار):

اللَّهمَّ أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضى ويسخط للسخط، الذي يُسِرُّ خير من الذي يُعلِن، ولم يَلِ هذا الأمر أحدٌ أقوى عليه منه.

اعتراضات على ترشيح عمر، وحوارات حادة:

(وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به فدخلوا على أبي بكر. فقال له قائل منهم:

ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك عن استخلافك لعمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني. أباللَّه تخوفوني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم.

أقول: اللَّهمَّ استخلفت عليهم خير أهلك. أبلغ عني ما قلتُ لك مَنْ وراءَك ثم اضطجع).

جيل الشباب يقود الاعتراض:

وفي وثيقة ثانية عند ابن سعد نذكرها هنا:

(أخبرنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل قال: أخبرنا عبيد اللَّه بن أبي زياد عن يوسف بن ماهك عن عائشة قالت:

لما حضرت أبا بكر الوفاة استخلف عمر، فدخل عليه علي وطلحة. فقالا: من استخلفت؟ قال: عمر. قالا: فما أنت قائل لربك؟ قال: أباللَّه تفرقاني [١]؟ لأنا أعلم باللَّه وبعمر منكما. أقول: استخلفت عليهم خير أهلك) [٢].

حدة الحوار بين الخليفة والمعارضين:

وعودة إلى وثيقة عند الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا يحيى بن عبد اللَّه بن بكير. قال: حدثنا الليث بن سعد. قال: حدثنا علوان عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبد الرحمن ابن عوف عن أبيه: أنه دخل على أبي بكر الصديق - رضي اللَّه تعالى عنه في مرضه الذي توفي فيه. فأصابه مهتمًّا فقال له عبد الرحمن: أصبحت والحمد للَّه بارئًا. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتراه؟ قال: نعم، قال: إني وليت أمركم خيرَكم في نفسي. فكلكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون له الأمر دونه ورأيتم الدنيا أقبلت ولما تقبل، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذري كما يألم أحدكم أن ينام على حسك. واللَّه لئن يُقَدَّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا، وأنتم أول ضال بالناس غدًا فتصدونهم عن الطريق يمينًا وشمالًا. يا هادي الطريق إنما هو الفجر أو البجر) [٣].

رئيس المجلس يعلن الإجماع على الترشيح:

(فقلت له: خفِّض عليك رحمك اللَّه فإن هذا يهيضك [٤] في أمرك. إنما الناس في أمرك بين رجلين، إما رجل يرى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك كما تحب. ولا نعلمُكَ أردتَ إلا خيرًا، ولم تزل صالحًا مصلحًا) [٥].

الخليفة يكتب وثيقة الترشيح:

وعودة إلى الوثيقة الأولى لابن سعد.

---

(١) تفرقاني: تخوفاني.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٧٤).
(٣) الفجر أو البجر: الخير والنور أو الشر العظيم.
(٤) يهيضك: يزيد مرضك وألمك.
(٥) تاريخ الطبري (٢/٣٥٣).

(ودعا عثمان بن عفان فقال:

اكتب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلًا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويَصدُق الكاذب.

إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل اللَّه ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّلَ فلكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة اللَّه. ثم أمر بالكتاب فختمه).

المرشح الثاني يغامر فيضع اسم المرشح الأول في الكتاب:

(قال بعضهم: لما أملى أبو بكر صدر هذا الكتاب: بقي ذكر عمر فَذُهِب به [1] قبل أن يسمِّي أحدًا. فكتب عثمان: إني قد استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب. ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليَّ ما كتبت، فقرأ عليه ذكر عمر. فكبر أبو بكر وقال:

أراك خفت إن أقبلت نفسي في غشيتي تلك يختلف الناس. فجزاك اللَّه عن الإسلام وأهله خيرًا. واللَّه إن كنتَ لها أهلًا).

عرض ترشيح الخليفة والمجلس على الأمة:

(ثم أمره فخرج بالكتاب مختومًا ومعه عمر بن الخطاب، وأسيد بن سعيد القرظي. فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ قالوا: نعم.

وقال بعضهم: قد علمنا به وهو عمر.

قال ابن سعد: القائل علي).

الفوز لعمر في الخلافة ببيعة الأمة له:

(فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به وبايعوا).

---

(١) ذهب به: أغمي عليه.

وفي وثيقة عند الطبري قال:

(حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح قال: حدثنا يونس بن عمرو عن أبي السفر قال: أشرف أبو بكر على الناس من كنيفه، وأسماء ابنة عميس ممسكته موشومة اليدين وهو يقول: أترضون بمن أستخلف عليكم، فإني واللّه ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا) (١).

تعليمات سرية للخليفة الجديد:

(ثم دعا أبو بكر عمر خاليًا وأوصاه بما أوصاه به. ثم خرج من عنده).

آخر لقاء الأمة مع خليفة رسول اللّه:

(فرفع أبو بكر يديه مدًّا فقال:

اللّهمَّ إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به. واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك، أصلح لهم واليهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدى نبيّ الرحمة وهدى الصالحين بعده، وأصلح له رعيته) (٢).

لقد اطمأن الصديق إلى تجاوز فتنة لا يعلم إلّا اللّه مداها حين رشح الفاروق للأمة، وعرضه على أهل العقد فيها، فأقرته أكثريتهم، ثم تبنوه بالإجماع، وعرضه على الأمة كلها للبيعة العامة فبايعوه ورضوا باختيار الخليفة لهم، واجتهاده في ترشيح عمر رضي الله عنه وهو الذي أعز اللّه تعالى به الإسلام، وكان خير هذه الأمة بعد نبيها وبعد الصديق، وها هو يمضي مطمئنًا إلى لقاء ربه بعد هذه البيعة.

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٢/٢، ٣٥٣).
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٩٩/٣، ٢٠٠).

الصديق في جوار اللَّه

وها نحن نعرض اللقطات السريعة للحظات الأخيرة في حياته ﷺ.

رأي آخر في سبب وفاته:

حدثني أبو زيد عن علي بن محمد بإسناده الذي قد مضى ذكره قالوا:

توفي أبو بكر وهو ابن ثلاث وستين سنة في جمادى الآخرة يوم الإثنين لثمانٍ بقين منه قالوا: وكان سبب وفاته أن اليهود سمته في أرزة ويقال: في جذيذة، وتناول معه الحارث بن كلدة منها، ثم كفَّ وقال لأبي بكر: أكلت طعامًا مسمومًا سم سنة. فمات بعد سنة ومرض خمسة عشر يومًا فقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب؟ فقال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال: إني أفعل ما أشاء) [(١)].

اعترافاته:

عندما قال له عبد الرحمن بن عوف: وإنك لا تأسى على شيء من الدنيا لم يجد حرجًا أن يفصح لنا عما في نفسه **فيقول:**

ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن:

- (وددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا قد غلقوه على الحرب.

- ووددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السلمي وأني كنت قتلته سريحًا أو خليته نجيحًا.

- ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد هذين الرجلين. فكان أحدهما أميرًا وكنت وزيرًا.

وأما اللاتي تركتهن:

- فوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرًا كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلي لا يرى شرًا إلا أعان عليه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٥٤).

- وودت أني حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذي القصة، فإن ظفر المسلمون ظفروا، وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مددًا.

- وودت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر ابن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل اللَّه - ومد يديه -).

وثلاث وددت أني سألت عنهن:

(وودت أني كنت سألت رسول اللَّه ﷺ لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد.

وودت أني كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟

وودت أني كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة، فإن في نفسي منها شيئًا) [(١)].

وكل هذه الأمور التي ذكرها لا تمس مسلك أمير المؤمنين بشيء، إنما الثلاثة التي فعلْهن وكان يود أن لم يفعلهن، فالثالثة نحمد اللَّه ﷻ أنه لم يقذف الأمر بعنق عمر أو أبي عبيدة. وما أعطى اللَّه تعالى الأمة بخلافته، لم تُعطَها أمة أخرى، وأما تحريق الفجاءة فقد حرّق الكثير من المسلمين وعومل بالمثل ولا شك لو أنه كان يعلم حديث رسول اللَّه ﷺ: « **لا يعذب بالنار إلا رب النار** » [(٢)] لما فعل ذلك، ولكنه هُدِيَ بالفطرة إلى أن القتل أولى من الحرق.

ولا ندري ما قصده في أنه لم يكشف بيت فاطمة عن شيء ولو غلق على الحرب عليه [(٣)].

أما ما ثبت في النصوص الصحيحة، فليس فيه كشفٌ لبيت فاطمة رضي الله عنها، وكل ما فيها خلاف حول ميراث النبي ﷺ.

أخرج البخاري عن عائشة: (أن فاطمة رضي الله عنها أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/٦٤د).
(٢) أبو داود، ح (٢٦٧٥).
(٣) علق الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٤٤) على هذا الأثر بقوله: (رواه الطبراني وفيه علوان بن داود البجلي وهو ضعيف وهذا الأثر مما أنكر عليه) اهـ. وفي ترجمة داود البجلي قال ابن حجر في لسان الميزان (٤/١٨٨): علوان بن داود البجلي، ويقال: علوان بن صالح: منكر الحديث. وقال العقيلي: له حديث لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به، وقال أبو سعيد بن يونس: منكر الحديث. اهـ. وبرغم ضعف الأثر وأنه منسوب إلى راوٍ منكر الحديث ولا يتابع عليه إلا أن أولئك الذين يفترون على صحابة رسول الله قد تلقفوه ليكون عونًا لهم في كيل الاتهامات للخليفة الأول الصديق أبي بكر، ومن هؤلاء: المجلسي في بحار الأنوار (٣٠/٣٥٢) حيث صدَّر كلامه قبل الأثر بقوله: « وقد رووا بغير خلاف »ثم أتبعه بسيل من الافتراءات والأكاذيب حول الصديق رضي الله عنه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من النبي ﷺ مما أفاء الله على رسوله ﷺ، تطلب صدقة النبي ﷺ التي في المدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر. فقال أبو بكر:

إن رسول الله ﷺ قال: « **لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال** – يعني: مال الله – **ليس لهم أن يزيدوا على المأكل** ». وإني والله لا أغير شيئًا من صدقات رسول الله ﷺ التي كانت في عهد النبي، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ فتشهَّد علي ثم قال: إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك. وذكر قرابتهم من رسول الله ﷺ. فتكلم أبو بكر فقال:

والذي نفسي بيده؛ لقرابة رسول الله ﷺ أحبّ إليَّ أن أصل من قرابتي).

(... فأبى أبو بكر أن يدفع لفاطمة منها شيئًا. فوجدت فاطمة على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها أبو بكر ليلًا... وصلَّى عليها) (٢).

غير أن هناك رواية أخرى صحيحة تؤكد أن هذا الهجران قد زال يقول ابن حجر رحمه الله:

(نعم، روى البيهقي عن طريق الشعبي: أن أبا بكر عاد فاطمة فقال لها علي:

هذا أبو بكر يستأذن عليك، قالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم. فأذنت له. فدخل عليها فترضَّاها حتى رضيت) (٣).

وهو وإن كان مرسلًا فإسناده إلى الشعبي صحيح. وبه يزول الإشكال في جواز تمادي فاطمة عليها السلام على هجر أبي بكر.

وهذه النصوص الحديثية الصحيحة ليس فيها ما يشير إلى كشف بيت فاطمة رضي الله عنها لكن هناك روايات تاريخية معتلة السند غير مقبولة، تشير إلى هذا المعنى وقد تلقفها أولئك الذين يكيلون العداء للصحابة الكرام:.

– **الرواية الأولى:**

(حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن زياد بن كليب أبي معشر قال:

---

(٢) فتح الباري شرح البخاري (٦/٢٣٣). (٣) وهو في السنن الكبرى (٦/٣٠١).

أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله؛ لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة. فخرج عليه الزبير، مصلتًا بالسيف، فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه) [٢].

ولا شك أن بيت علي هو بيت فاطمة رضوان الله عليهما.

- **الرواية الثانية:**

(حدثنا زكريا بن يحيى الضرير قال: حدثنا أبو عوانة، قال: حدثنا دواد بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن الحميري قال:

توفي رسول الله ﷺ... فبايع الناس واستثبتوا للبيعة، وتخلف علي والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى يبايَع علي. فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير. فاضربوا به الحجر قال: فانطلق إليهم عمر فجاء بهما تعبًا، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان فبايعا) [٣] ومنهما يمكن أن يفهم كشف بيت فاطمة ولو أغلق على حرب. لكن الأصح من هاتين الروايتين وهنا رد، **روايتان اثنتان هما أصح تاريخيًّا هما:**

الأولى: (حدثنا عبيد الله بن سعد، قال: أخبرني عمي، قال: أخبرني سيف، عن عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال: كان علي في بيته إذ أُتي فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه رداء ولا إزار عجلًا كراهة أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه) [٤].

الثانية: (... عن زيد بن أسلم عن أبيه قال:

لما بويع لأبي بكر بعد النبي ﷺ، كان عليٌّ والزبير بن العوام يدخلان على فاطمة رضي الله عنها ويشاورانها، فبلغ عمر، فدخل على فاطمة فقال:

يا بنت رسول الله، ما أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك، وما أحد من الخلق بعد أبيك أحب إلينا منك، وكلمها، ودخل علي والزبير على فاطمة فقالت: انصرفا راشدين. فما رجعا إليها حتى بايعا) [٥].

---

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٣٥).
(٣) تاريخ الطبري (٢/٢٢٣).
(٤) تاريخ الطبري (٢/٢٣٦).
(٥) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/٣٤٦)، ح (٥٣٢).

لحظات احتضاره:

قال ابن سعد (أخبرنا يعلى ومحمد ابنا عبيد قالا: أخبرنا موسى الجهني عن أبي بكر بن حفص بن عمر قال: جاءت عائشة إلى أبي بكر وهو يعالج ما يعالج الميت، ونفسه في صدره فتمثلتُ هذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراءُ عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان ثم قال: ليس كذاك يا أم المؤمنين ولكن: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

إعادة ثروته من مال المسلمين:

ثم قال: (إني قد كنت نحلتك [١] حائطًا وإن في نفسي منه شيئًا، فرديه إلى الميراث، فردَدْتُه).

فقال: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجَرْد هذه القطيفة. فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وابرئي منهم، ففعلْتُ).

الخليفة الجديد يتلقى ذروة الخليفة القديم:

(فلما جاء الرسول عمر بكى، حتى جعلت دموعه تسيل على الأرض ويقول: رحم اللَّه أبا بكر لقد أتعب من عنده، يا غلام ارفعهن...) [٢].

غسله:

(حدثنا ابن حميد قال: حدثنا يحيى بن واضح عن محمد بن عبد اللَّه عن عطاء وابن أبي مليكة: أن أسماء بنت عميس قالت: قال لي أبو بكر: غسليني، قلت: لا أطيق ذلك قال: يعينك عبد الرحمن بن أبي بكر يصب الماء).

(قال: أخبرنا عبد اللَّه بن نمير قال: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد... عن أبي بكر ابن حفص بن عمر أن أبا بكر أوصى أسماء بنت عميس أن تغسله إذا مات وعزم عليها لما أفطرت لأنه أقوى لك.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٩٦/٣).   (٢) المصدر نفسه (٢٠٢/٣، ٢٠٣).

فذكرت يمينه في آخر النهار، فدعت بماء فشربت وقالت: واللّه لا أُتْبِعُهُ اليوم حنثًا) (١).

أكفانه:

(قال: أخبرنا مَعْنُ بن عيسى قال: أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر ﷺ قال لعائشة وهو مريض: في كم كفن رسول اللّه ﷺ. قالت: في ثلاثة أثواب سحولية. فقال أبو بكر: خذوا هذا الثوب لثوب عليه قد أصابه مشق أو زعفران فاغسلوه ثم كفنوني فيه مع ثوبين آخرين، فقالت عائشة: وما هذا؟ قال أبو بكر: الحي أحوج إلى الجديد من الميت. وإنما هو للمهلة) (٢).

وفاته:

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على أبي بكر رضي الله عنه فقال: في كم كفنتم النبي ﷺ قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة. وقال لها: فأي يوم هذا؟ قالت: يوم الإثنين. قال: أرجو فيما بيني وبين الليل. فنظر إلى ثوب عليه كان يمرض فيه، به ردع زعفران. فقال: اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنوني فيهما، قلت: هذا خلق (٣). قال: إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة. فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء ودفن قبل أن يصبح) (٤).

الصلاة عليه:

روى ابن أبي شيبة وغيره: (أن عمر صلى على أبي بكر في المسجد. وأن صهيبًا صلى على عمر في المسجد) (٥).

دفنه:

أثرُ المصنفِ وصله ابنُ أبي شيبة من حديث القاسم بن محمد قال: دفن أبو بكر ليلًا. ومن حديث عبيد من السياق: (أن عمر دفن أبا بكر بعد العشاء الآخرة).

ورأت عائشة رضي الله عنها رؤيا قصتها على أبيها رضي الله عنه:

(أن ثلاثة أقمار وقعن في بيتها فقال:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٠٤).

(٢) المهلة: الانتقال إلى القبر.

(٣) الفتح لابن حجر (٣/٢٩٧).

(٤) المصدر نفسه (٣/٢١٧).

(٥) المصدر نفسه (٣/٢٤٧).

إن صدقت رؤياك دفن في بيتك خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قبض النبي ﷺ قال: يا عائشة: هذا خير أقمارك) [١].

ودفن في بيتها خير أهل الأرض. وكان الصديق ثاني أقمارها بعد رسول اللّه ﷺ.

* * *
* *
*

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن طريق يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب (٢٣/٤٨).

الفصل السابع عشر

الخطوط العريضة
للمسيرة التاريخية للجيل الرائد

١ - الشورى عماد الحكم في الإسلام:

(قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول اللّه ﷺ؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع لأبي بكر؟ قال: يوم مات رسول اللّه ﷺ. كرهوا أن يبقَوْا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال: فخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلا مرتد أو من كاد أن يرتد لولا أن اللّه ﷻ ينقذهم من الأنصار. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم).

لقد تم الأمر بعد مداولات واسعة بين زعماء الأحزاب. وكانت البيعة الخاصة منهم، ثم كانت البيعة العامة من الأفراد لأميرهم الجديد كما هي الحال في الدولة التعاقدية. حيث يختار أعضاء البرلمان الأمير ابتداءً، ثم يعرض على الاستفتاء العام.

٢ - البيعة في السمع والطاعة على كتاب اللّه وسنّة رسوله:

فدستور الدولة هو الإسلام المتمثل بكتاب اللّه تعالى وسنَّة رسوله ﷺ. وليست البيعة عامة للشخص القائد؛ (بالروح بالدم نفديك يا صِدِّيق). لم يكن الأمر كذلك، إنما كانت البيعة على الإسلام. ومهمة الأمير أن يقوم بتنفيذ تعاليمه. ولا قدسية للشخص إلا بمقدار ما ينفذ الدستور الذي اختارته الأمة دينًا لها. وحين ينحرف عن التنفيذ فلا طاعة له. وقد أقر بهذا الأمر الخليفة الصديق في خطاب العرش...

فهي دولة دستورية تعاقدية، شورية، ودولة إسلامية نابعة من الاختيار النزيه الحر.

٣ - المرشح الثاني للخلافة يقوم بالدعاية للمرشح الأول:

فعمر رضي الله عنه هو الذي قاد الحملة الإعلامية للصديق في مقر حزب الأنصار.

(... ففي حديث ابن مسعود عند أحمد والنسائي من طريق عاصم عن زر ابن حبيش أن عمر قال:

يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر) وسنده حسن.

(ووقع في حديث سالم بن عبيد عند البزار في قصة الوفاة، فقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال عمر، وأخذ بيدي أبي بكر: أسيفان في غمد؟ لا يصطلحان. وأخذ بيد أبي بكر فقال: من له هؤلاء الثلاثة، ﴿ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة: ٤٠] من هما؟ ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ ﴾ [التوبة: ٤٠]: (من صاحبه؟)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] مع من؟ ثم بسط يده فبايعه. فقال: بايعوه. فبايعه الناس) [(١)].

٤ - الخليفة أعلم الناس بشعبه:

فقد كان الصديق ﷺ نسابة العرب، يعرف قبائلهم في أقصى الجزيرة، ومن جميع اتجاهاتها الأربعة؛ ولذلك كان يقود الفتوح من المدينة. وكأنه مقيم في قلب الحدث. وهذا نموذج يبرز ثقافة الصديق ببطون وقبائل العرب:

(... فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأي ربيعة أنتم؟ أنتم من هامها أمن لهازمها قالوا: بل من هامها العظمى. قال أبو بكر: فمن أي هامتها العظمى؟ فقال: ذهل الأكبر؟ قال لهم أبو بكر: منكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال فمنكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جساس بن مرة بن ذهل حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا.

قال لهم أبو بكر ﷺ: فلستم بذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر...) [(٢)].

٥ - الالتزام الكامل بالأوامر النبوية:

(أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم).

---

(١) فتح الباري (٣٨٣/٧، ٣٨٤).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٩/٣/٢، ١٤٠).

فكما يقسم الرئيس في العصر الحاضر على الولاء للدستور والوفاء له. كانت خطبة الولاية عند الصديق تتضمن أن المصدر الوحيد الملزم للطاعة هو كتاب اللّه وسنَّة رسوله، وطاعة الأمير طاعة فتكون للّه. وحين يخرج الأمير على دين اللّه. فالطاعة للّه لا له، والناس لا يطيعون أمر الأمير إذا دعاهم إلى معصية، « **فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** ».

٦ - العدل أساس الملك:

(الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء اللّه، والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّه).

٧ - الحاكم مسؤول عن أخلاق شعبه، ولا فصل بين الأخلاق والسياسة:

الصدق أمانة، والكذب خيانة، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم اللّه بالبلاء.

٨ - الدولة مسؤولة عن حماية حدودها، والحاكم هو القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة:

لا يَدَع أحد منكم الجهاد في سبيل اللّه، فإنه لا يَدَعه قوم إلا ضربهم اللّه بالذل.

٩ - محاسبة الحاكم أساس في الخلافة الراشدة:

(إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني). فليس هناك حاكم فوق المحاسبة، وفوق النقد وفوق النصح. وحق المحاسبة والنصح والنقد لكل فرد في الشعب، فلا يحرم منه أحد. ولنتابع تنفيذ مبادئ هذا الإعلان.

١٠ - تنفيذ الأوامر النبوية: إنفاذ جيش أسامة:

(لقد برز تيار عقب وفاة النبي ﷺ، استطاع أن يضم الأكثرية له، يطالب بإيقاف إرسال جيش أسامة، والمدينة في خطر، وإن كان لا بد من التنفيذ فليتم تغيير القائد، وإن كان لا بد من التنفيذ فلْيبقَ القادة الكبار ويعاد تشكيل الجيش. ورفض الصديق كل مطالب هذا التيار المطالب: إنك لا تستطيع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئًا. اجعلهم عدة لأهل الردة، ترمي بهم في نحورهم. وأخرى لا نأمن على أهل المدينة أن يغار عليها وفيها الذراري والنساء. فلو استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه، وتعود الردة إلى ما خرجوا منه، أو يغنيهم السيف، ثم تبعث أسامة حينئذ. فنحن نأمن الروم أن يزحفوا إلينا.

الصديق: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئًا. قالوا: لا، قد سمعتَ مقالتنا. قال: والذي نفسي بيده، لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث ولا بدأت بأول منه، ورسول اللّه ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: « **أنفذوا جيش أسامة** » (١).

١١ - التدريب على احترام القيادات، تدريب على تنفيذ أوامرها:

(ثم خرج حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم، وهو ماش وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر. فقال له أسامة: يا خليفة رسول اللّه، واللّه لتركبن أو لأنزلن. فقال: واللّه لا تنزل، وواللّه لا أركب. ما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل اللّه ساعة... حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل. فأذن له.

ولو لم يفعل الصِّدِّيق ذلك لأمكن الانقضاض على القائد أسامة؛ الصغير، الأسود، الأفطس، ولقضي على البعث كله. وأمام الناس يستأذن خليفة رسول اللّه قائده أسامة أن يأذن له ببقاء عُمَرَ بجواره ففعل).

فهل حوى تاريخ الإنسانية مثل هذا الإنسان.

١٢ - دستور الحرب الإسلامية؛ وصية الصديق:

(قفوا أيها الناس. أوصيكم بِعشرٍ فاحفظوها عني:

لا تخونوا، ولا تَغُلّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تُـمَثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم اللّه عليها، وتلقون أقوامًا وقد فحصوا رؤوسهم وتركوا عليها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا. اندفعوا باسم اللّه، أفناكم اللّه بالطعن والطاعون) (٢).

١٣ - وضع الخطط الحربية للقادة والمشاركة فيها:

(اصنع ما أمرك به رسول اللّه ﷺ. ابدأ ببلاد قضاعة، ثم إيت آبل، ولا تُقَصِّرنَّ في شيء من أمر رسول اللّه ﷺ ولا تَعْجَلنَّ لما خلفت من عهده) (٣).

---

(١) مغازي الواقدي (٣/١١٢٠، ١١٢١).

(٢ ، ٣) تاريخ الطبري (٢/٢٤٦).

١٤ - مخالفة رأي الأكثرية من الأمير لوجود النص؛ فقال مانعي الزكاة:

(لما توفي رسول اللَّه ﷺ. وكان أبو بكر ﷺ، وكفر من كفر من العرب فقال عمر ﷺ: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول اللَّه ﷺ: « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه؛ فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على اللَّه** ». فقال: واللَّه لأقاتلَنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. واللَّه، لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعها...).

١٥ - عودة الأكثرية لرأي الأمير واقتناعهم به:

(قال عمر ﷺ: فواللَّه ما هو إلا أن شرح اللَّه صدر أبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق)[١].

١٦ - وعي القيادة لمخططات العدو:

(قال لهم: إن الأرض كافرة. وقد رأى وفدهم منكم قلة. وإنكم لا تدرون أليلًا يأتون أو نهارًا، وأدناهم منكم على بريد... فاستعدوا وأعدوا)[٢].

١٧ - هزيمة الجيش الإسلامي، وسرعة المبادرة بالثأر:

كانت أول معركة للإسلام بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ، ووضع العدو خطة لم يحسبها المسلمون ولم يحسبوا حساب الردء في ذي حسى. فخسروا المعركة، وعادت إبلهم نافرة إلى المدينة، لقد هزم الصديق نفسه. والذي ينظر إلى بدء الطريق بين الإسلام والشرك يرى أن الإسلام على وشك الانتهاء وبالطبيعة الأعرابية التي مثلتها غطفان وأسد، وأمام هذا النصر الهزيل، راح شعراؤهم يطلقون الأشعار، ويزغردون بالنصر، ويرون أن الأوان قد آن للإجهاز على الإسلام. لكن العزيمة الصديقية التي لا مثيل لها في الأرض أجهضت أحلامهم.

(وظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا إليها اعتمادًا على الذين أخبروهم، فبات أبو بكر ليلته يتهيأ فعبى الناس، ثم خرج على تعبيته من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن المزني، وعلى ميسرته عبد اللَّه بن مقرن أخوه، وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد. فما سمعوا للمسلمين حسًّا ولا همسًا حتى وضعوا

---

(١) البخاري، ح (١٣٩٩، ١٤٠٠).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٥).

فيهم السيوف. واقتتلوا أعجاز الليل، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل حبال، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد، ورجع إلى المدينة. فذل بها المشركون) [١].

١٨ - خارطة الردة في الساحة العربية:

بعد أن رأينا حزب اللَّه ومعسكر الإيمان يستعد للمواجهة، **نعرض معسكرات الشرك التي ملأت الساحة العربية:**

(وقال محمد بن إسحاق:

- ارتدت العرب عند وفاة رسول اللَّه ﷺ ما خلا أهل المسجدين، مكة والمدينة.
- وارتدت أسد وغطفان وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن.
- وارتدت كِنْدة ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيسٍ الكندي.
- وارتدت مذحج ومن يليها وعليهم الأسود بن كعبٍ العنسي الكاهن.
- وارتدت ربيعة مع المغرور بن النعمان بن المنذر.
- وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب.
- وارتدت سُليم مع الفجاءة - واسمه أنس بن عبد ياليل.
- وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة) [٢].

١٩ - اختيار القيادات العظمى وعقد الألوية:

(لما أراح أسامة وجنده ظهرهم (بعد أن عادوا منتصرين إلى المدينة) وقد جاءت صدقات كثيرة قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً:

- لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة بن خويلد. فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له.
- ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة.
- وللمهاجر بن أبي أمية، وأمره بجنود العنسي، ومعونة الأبناء على قيس ابن المكشوح، ثم يمضي لكِنْدة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٦).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦/٣١٦).

- ولخالد بن سعيد بن العاص... وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام.
- ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث.
- ولحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا.
- ولعرفجة بن هرثمة، وأمره بمهرة...
- وبعث شرحبيل بن حسنة في إثر عكرمة... وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة.
- ولطريفة بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن.
- ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن.
- وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين.

ففصلت الأمراء من ذي القصة، ونزلوا على قصدهم، ولحق بكل أمير جنده، وقد عهد إليهم عهده)[١].

٢٠ - الدعوة الأساس والحرب الضرورة:

(لقد كانت الرسالة من خليفة رسول اللَّه إلى كل فرد من الأمة بلا استثناء:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أبي بكر خليفة رسول اللَّه ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.

- سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى. فإني أحمد إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. نقر بما جاء ونكفِّر من أبى ونجاهده.

- أما بعد؛ فإن اللَّه تعالى أرسل محمدًا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللَّه بإذنه وسراجًا منيرًا، لينذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين. فهدى اللَّه بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول اللَّه ﷺ بإذنه من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعًا او كرهًا. ثم تَوفَّى اللَّه رسوله ﷺ، وقد نَفَذَ لأمر اللَّه، ونصح لأمته، وقضى الذي عليه، وكان اللَّه قد بيَّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٧).

أنزل. فقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فمن كان إنما يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان إنما يعبد اللَّه وحده لا شريك له. فإن اللَّه له بالمرصاد، حي قيوم لا يموت، لا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه.

- وإني أوصيكم بتقوى اللَّه، وحظكم ونصيبكم من اللَّه، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين اللَّه. فإن كل من لم يهده اللَّه ضال، وكل من لم يعافه مبتلًى، وكل من لم يعنه اللَّه فهو مخذول... قال اللَّه تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، ولم يقبل اللَّه منه في الآخرة صرفًا ولا عدلًا...).

- (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغترارًا باللَّه وجهالة بأمره وإجابة للشيطان. قال اللَّه تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

- وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

- وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يَقْتُلَهُ حتى يدعوَه إلى داعية اللَّه. فمن استجاب له وأقر، وكفَّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه.

- ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبقي على أحد منهم قَدَرَ عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي الذراري والنساء، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له. ومن تركه فلن يعجز اللَّه.

- وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجتمع لكم.

- والداعية الأذان، فإن أذَّن المسلمون فأذَّنوا فكفوا عنهم. وإن لم يؤذنوا فعاجلوهم.

- فإن أذنوا فاسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرُّوا اقبلوا منهم، وَحَمَلَهم على ما ينبغي لهم) فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود) (١).

٢١ - الدعوة أثمرت إسلام قبيلة كاملة:

(... فاستقبل عدي خالدًا وهو في السنح فقال: يا خالد، أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوَّك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار، وتشاغل بهم. ففعل، فعاد عدي إليهم... فعاد عدي بإسلامهم إلى خالد، وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة (الفرع الثاني من طيِّئ) فقال له عدي: إن طيئًا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحي طيئ، فأجلني أيامًا لعل اللَّه أن ينقذ جديلة كما انتقذ الغوث. ففعل، فأتاهم عدي، فلم يزل بهم حتى بايعوه. فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان خير مولود ولد في طيئ، وأعظمه عليهم بركة) (٢).

٢٢ - هروب قيادات العدو في اللحظة الحاسمة:

لم يكن عيينة بن حصن وطليحة بن خويلد سيدا غطفان وأسد بأقل خبرة حربية من خالد. وحياتهما كلها حرب في الجاهلية والإسلام، ولولا هذا الدين العظيم لانتهى خالد كما انتهى هذان البطلان في أول مواجهة فرارًا أو أسرًا أو قتلًا. ولكننا لسنا أمام قائد حواليه أرقام تنتهي بانتهائه. إنما نحن أمام جيل يحمل عقيدة ودينًا إلى أهل الأرض.

(... حدثت أن الناس لما اقتتلوا قاتل عيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالًا شديدًا، وطليحة متلفف في كساء له بفناء بيت له من شعر. يتنبأ لهم، والناس يقتتلون، فلما هزت عيينة الحرب وضرس القتال - كرَّ على طليحة فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا. قال: فرجع فقاتل، حتى إذا ضرس القتال وهزته الحرب كرَّ عليه فقال: لا أبا لك أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا واللَّه، يقول عيينة حلفًا: حتى متى، قد واللَّه بلغ منا. قال: ثم رجع فقاتل. حتى إذا بلغ كرَّ عليه فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم، قال: ماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحًا كرحاه وحديثًا لا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٨).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٦٠).

تنساه، قال: يقول عيينة: أظن أن قد علم اللَّه أنه سيكون حديث لا تنساه. يا بني فزارة، هكذا فانصرفوا فهذا - والله - كذاب. فانهزم الناس. فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعد فرسه عنده، وهيأ بعيرًا لامرأته النوار. فلما أن غشوه يقولون: ماذا تأمرنا؟ قام فوثب على فرسه، وحمل امرأته ونجا بها وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت، وينجو بأهله فليفعل. ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام وارفض جمعه، وقتل اللَّه من قتل منهم. وبنو عامر قريبًا منهم على سادتهم وقادتهم. وتلك القبائل من سليم وهوازن على تلك الحال. فلما أوقع اللَّه بطليحة وفزارة ما أوقع، أقبل أولئك يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن باللَّه ورسوله. ونسلم لحكمه في أموالنا ونفوسنا)[1].

٢٣ - القسوة في الحرب: الفجاءة السلمي:

(... كتب (أبو بكر) إلى طريفة بن حاجز: إن عدو اللَّه (الفجاءة) أتاني يزعم أنه مسلم، ويسألني أن أقويه على من ارتد على الإسلام، فحملته فسلَّحته، ثم انتهى إلي من يقين الخبر أن عدو اللَّه قد استعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم، ويقتل من خالفه منهم. فسر إليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله أو تأخذه فتأتيني به. فسار طريفة بن حاجز. فلما التقى الناس كانت بينهم الرميا بالنبل... فلما رأى الفجاءة من المسلمين الجد، قال لطريفة: واللَّه، ما أنت بأولى بالأمر مني، أنت أمير لأبي بكر، وأنا أميره. فقال له طريفة: إن كنت صادقًا فضع السلاح، وانطلق معي إلى أبي بكر. فخرج معه، فلما قدما عليه أمر أبو بكر طريفة بن حاجز، فقال: اخرج به إلى هذا البقيع فحرقه فيه بالنار، فخرج به طريفة إلى المصلى فأوقد له نارًا فقذفه فيها).

فلا بد من الغلظة المناسبة مع مجرم الحرب هذا الذي قتل وسفك وسرق وغدر وارتد وخان حتى لا يتحول إلى ظاهرة في الدولة الإسلامية، فيتجرأ هؤلاء الخسيسون الغادرون على أمثالها، ويستخفون بالإسلام والمسلمين وقادة الدولة المسلمة لتحقيق أمجادهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٦٢).

٢٤ - قتال من كفر من القبيلة بمن آمن منها؛ بنو تميم وبنو عامر وبنو سليم:

وذلك مع أكبر قبائل الحجاز بنو تميم وبنو عامر فقد انتهت قيادات بني تميم إلى سبعة رجال عظام هم:

١ - الزبرقان بن بدر.
٢ - قيس بن عاصم.
٣ - سهم بن بنجاب.
٤ - صفوان بن صفوان.
٥ - سبرة بن عمرو.
٦ - وكيع بن مالك.
٧ - مالك بن نويرة.

وكانوا على ثلاثة فرق:

الفريق الأول: الزبرقان وصفوان وسبرة، وقد أعلنوا ثباتهم على الإسلام.

الفريق الثاني: قيس بن عاصم وسهم بن بنجاب، وكانا مترددين حائرين بين الإسلام ومنع الزكاة.

الفريق الثالث: وكيع بن مالك، ومالك بن نويرة، وهما على رأس الفريق المانع للزكاة. وبثبات الفريق المؤمن انحاز الفريق المتردد إليه بعد هزيمة سجاح بنت الحارث التغلبية الكاهنة، والفريق الثالث انضم إليها، وبهزيمة سجاح صالح مالك ووكيع قومهما. فأما وكيع فانضم إلىالمسلمين. وقتل مالك بن نويرة. وأما سليم (فلما سار خالد إلى طليحة وأصحابه كتب إلى معن بن حاجز (السلمي المسلم) أن يسير بمن ثبت معه على الإسلام في بني سليم مع خالد، واستخلف على عمله أخاه طريفة ابن حاجز) وطريفة هو الذي قاد المواجهة ضد الفجاءة السلمي، وقاد الفجاءة إلى الصديق رضي الله عنه.

وأما عامر (وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه. فبايعهم على ما بايع به أهل بزاخة... وأعطوه بأيديهم على الإسلام... فقبل إسلامهم دون تردد).

٢٥ - القيادة التاريخية: خالد بن الوليد:

وقد حدد خالد رضي الله عنه معالم هذه القيادة في أول أزمة داخلية معه حين قرر الأنصار الانسحاب من الجيش وهم يمثلون نصف الجيش تقريبًا.

وحدد مسؤولية القائد التاريخي الذي يقود التغيير **بثلاثة خطوط رئيسة:**

الخط الأول: تنفيذ الأوامر بالتشاور مع القيادة السياسية:

(إن يكن عهد إليكم هذا، فقد عهد إليّ (أي: الخليفة) أن أمضي وأنا الأمير، وإلي تنتهي الأخبار).

الخط الثاني: حيث لا يكون هناك كتاب ولا أمر، فساحة المعركة هي الحَكَم. إذ يرى القائد أن الفرص لا تسنح دائمًا. وإذا كان إعلام القيادة السياسية سوف يفوِّت الفرصة. فالأصل المضي للمواجهة واهتبال الفرصة وتحقيق النصر: (ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة فكنت إذا أعلمته فاتتني، لم أعلمه حتى أنتهزها).

الخط الثالث: البحث عن الأفضل دائمًا هو الأساس. فالقائد البصير هو الذي يحدد ساحة المعركة وزمانها ومكانها: (كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به).

الخط الرابع: بث القناعة في جنوده في خطته دون إكراه:

(وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه، ومن معي من المهاجرين، والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم).

(ومضى خالد وندمت الأنصار وتذامروا وقالوا: إن أصاب القوم خير إنه لخير حرمتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس. فأجمعوا اللحاق بخالد، وجردوا إليه رسولًا، فأقام عليهم حتى لحقوا به).

٢٦ - القيادة التاريخية تخطئ وتحاسب ولكن لا تحطم؛ خالد:

فقد كان مقتل مالك بن نويرة نتيجة خطإٍ في فهم الأوامر الصادرة من خالد (فلما اختلفوا فيهم (الأسرى) أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة، لا يقوم لها شيء. وجعلت تزداد بردًا فأمر خالد مناديًا فنادى: أدفئوا أسراكم، وكانت في لغة كِنانة إذا قالوا: دثروا الرجل فأدفئوه [كان دفؤه] قتله، وفي لغة غيرهم: أدفه: اقتله، فظن القوم - وهي في لغتهم القتل - أنه أراد القتل فقتلوهم، فقتل ضرار بن الأزور مالكًا، وسمع خالد الواعية. فخرج وقد فَرَغوا منهم. فقال: إذا أراد اللّه أمرًا أصابه. وقد اختلف القوم فيهم. فقال أبو قتادة: هذا عملك. فزبره خالد، فغضب ومضى

حتى أتى أبا بكر. فغضب عليه أبو بكر، حتى كلَّمه عمر فيه، فلم يرض إلا أن يرجع إليه، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة).

(فقد كان غضب أبي بكر من أبي قتادة الذي فارق قائدة لمخالفته الهدي النبوي أكبر من غضبه من خالد، ورفض هذه الطريقة من الاحتجاج، وأعاده إلى موقعه جنديًا في الجيش. حيث خرج بدون إذن قائده (وقد تزوج أم تميم بنت المنهال (زوجة مالك) وتركها لينقضي طهرها. وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره، وقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقًا، فإن لم يكن هذا حقًّا، حق عليه أن تقيده، وأكثر عليه في ذلك. وكان أبو بكر لا يقيد من عماله، ولا من وزعته. فقال: هيه يا عمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد. وودى مالكًا (دفع ديته) وكتب إلى خالد أن يقدم عليه، ففعل، فأخبره خبره فعذره وقبل منه، وعنَّفَهُ في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك) [١].

٢٧ - عقوبة القائد المخالف لأوامر القيادة السياسية:

فقد قام عكرمة بن أبي جهل بالهجوم على جيش مسيلمة قبل وصول المدد إليه حسب تعليمات الصديق، ومني بهزيمة كبيرة. وأخبر الصديق بنتائج المعركة. فبعث إليه بالرسالة القاسية التالية:

(يا ابن أم عكرمة لا أرينك، ولا تراني على حالها، ولا ترجع فتوهِّن الناس. امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة. فإن شغلا فامض أنت، ثم تسير وتسيِّر جندك تستبرئون من مررتم به؛ حتى تلتقوا أنتم والمهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت) [٢].

لقد عزله عن الجبهة ووجهه إلى أقاصي الجزيرة شرقًا وجنوبًا، إلى مهرة وعمان ثم اليمن وحضرموت.

٢٨ - الهزيمة الكبرى للجيش الإسلامي في بداية المعركة: بنو حنيفة والمسلمون:

(ثم التقى الناس، ولم يلقهم حرب قط مثلها من حرب العرب، فاقتتل الناس قتالًا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٧٥).

شديدًا حتى انهزم المسلمون، وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة (أحد أسرى بني حنيفة لدى خالد) وإلى خالد، فزال خالد عن فسطاطه، ودخل أناس الفسطاط، فرعبلوا الفسطاط بالسيوف) لكن زيد بن الخطاب ﷺ قتل أحد القادة الكبار الثلاثة عند بني حنيفة، الرَّجال بن عنفوة. وكثير من الأبطال والقيادات سقطوا وانتهوا في مثل هذه الجولة. لكن القادة التاريخيين، لا ينتهون، وجيوش العقيدة لا تنهار. ولو تم ذلك فلا لوم فبنو حنيفة أربعون ألفًا يقابلهم سبعة عشر ألفًا من المسلمين.

٢٩ - القيادة التاريخية والقاعدة التاريخية، تصمد وترد الهجوم:

(قال ثابت بن قيس خطيب رسول اللّه ﷺ: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين. ثم جالد بسيفه حتى قُتِل). ووثب البراء بن مالك الأنصاري فقال: أين يا معشر المسلمين، أنا البراء بن مالك، هلموا إليَّ).

(... وتذامر زيد (ابن الخطاب) وخالد وأبو حذيفة (ابن عتبة) أحد السابقين الأولين، وتكلم الناس وكان يوم جنوب له غبار، فقال زيد: لا واللّه، لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم، أو ألقى اللّه فأكلمه بحجتي، عضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا. ففعلوا فردوهم إلى مصافهم، حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم) [١].

٣٠ - تفجير الطاقات العربية:

(لما اشتد القتال، وكانت يومئذ سجالًا، إنما تكون مرة على المسلمين، ومرة على الكافرين، فقال خالد: امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى. فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر. فوقف كل بنو أب تحت رايتهم. فقاتلوا جميعًا فقال أهل البوادي يومئذ: الآن يستحر القتل في الأجزع منا... فاستحر القتل في أهل القرى).

٣١ - القيادة والقاعدة تنتقل من الدفاع إلى الهجوم:

(وحمل خالد بن الوليد، وقال لحماته: لا أوتين من خلفي، حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة، ثم برز خالد ودعا إلى البراز وانتمى:

---

(١) تاريخ الطبري (٢٧٩/٢).

أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد. ونادى بشعارهم يومئذ: يا محمداه. وركب خالد مسيلمة فأرهقه فأدبر (أي: مسيلمة). وذمر خالد الناس وقال: دونكم لا تقيلوهم. واركبوهم. فكانت هزيمتهم... وتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى بلغوا بهم إلى حديقة الموت... فدخلوها وأغلقوها عليهم)[١].

٣٢ - دور الأبطال العظام في اللحظة الحاسمة:

(وصرخ البراء بن مالك فقال: يا معشر المسلمين؛ أحملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه. ففعلوا حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وأُرعد، فنادى: أنزلوني. ثم قال: احملوني. ففعل ذلك مرارًا ثم قال: أفٍّ لهذا خشعًا. ثم قال: احملوني. فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم. فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين، وهم على الباب من خارج فدخلوا. فأغلق الباب ثم رمى بالمفتاح من وراء الجدار فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يروا مثله، وأُبِيرَ من في الحديقة منهم، وقد قتل اللَّه مسيلمة... يقول وحشي قاتل حمزة: فرميته بحربتي، وأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته. فربك أعلم أيّنا قتله... وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان، ثلاثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء... وقتل من بني حنيفة في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموت سبعة آلاف، وفي الطلب نحو منها)[٢].

٣٣ - جمع القرآن الكريم أعظم عمل قامت به القيادة السياسية على الإطلاق:

(عن زيد بن ثابت وكان ممن يكتب الوحي قال: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه. وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول اللَّه؟ فقال عمر: هو واللَّه خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح اللَّه لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعمر عنده جالس لا يتكلم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨١).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٨٣).

فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وكنت تكتب الوحي لرسول اللَّه ﷺ، فَتَتَبَّعِ القرآن فاجمعه. فواللَّه، لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ. فقال أبو بكر: هو واللَّه خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح اللَّه صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة آيتين عند خزيمة بن ثابت الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ... ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر، حتى توفاه اللَّه ثم عند عمر، ثم عند حفصة) (١).

٣٤ - رعاية اللَّه لجنده وإنقاذهم من الهلاك؛ العلاء وجيشه:

أ - كرامة البرّ:

(... ونزل وأمر الناس بالنزول. فنفرت الإبل في جوف الليل. فما بقي عندنا بعير ولا زاد ولا مزاد ولا بناء، إلا ذُهب عليها في عرض الإبل، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطوا فما عَلمْتُ جمْعًا هجم عليهم من الغم ما هجم علينا، وأوصى بعضنا إلى بعض. ونادى منادي العلاء: اجتمعوا. فاجتمعنا إليه فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غدًا لم تحم شمسه حتى نصير حديثًا. فقال: يا أيها الناس، لا تراعوا، ألستم مسلمين؟ ألستم في سبيل اللَّه؟ ألستم أنصار اللَّه؟ قالوا: بلى، قال: فأبشروا، فواللَّه لا يخذل اللَّه من كان في مثل حالكم. ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بنا، ومنا المتيمم، ومنا من لم يزل على طهوره. فلما قضى صلاته جثا على ركبتيه، وجثا الناس، ونصب في الدعاء، ونصبوا معه. ولمع لهم سراب الشمس، فالتفت إلى الصف، فقال رائد ينظر: ما هذا؟ فقفل ثم رجع. فقال: سراب. فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر كذلك، ثم لمع لهم آخر. فقال: ماء فقام، وقام الناس معه، فمشينا حتى نزلنا عليه، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تكرد من كل وجه. فأناخت إلينا. فقام كل رجل إلى ظهره فأخذه، فما فقدنا سلكًا، فأرويناها، وأسقيناها العلل بعد النهل، وتروينا، ثم تروحناها) (٢).

---

(١) البخاري، ح (٤٩٨٦).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٨٧، ٢٨٨).

ب - كرامة البَحْر:

(... وندب الناس (أي: العلاء بن الحضرمي) إلى دارين، ثم جمعهم فخطبهم وقال:

إن اللّٰه جمع لكم أحزاب الشياطين، وشرَّد الحرب في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر، لتعتبروا بها في البحر، فامضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن اللّٰه قد جمعهم.

فقالوا: نفعل ولا نهاب واللّٰهِ بعد الدهناء هولًا ما بقينا.

فارتحل وارتحلوا، حتى إذا أتى ساحل البحر، اقتحموا على الصاهل والجامل والشاحج، والناهق (الخيل والإبل والبغال والحمير) والراكب والراجل ودعا ودعوا وكان دعاؤهم:

يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت ربنا. فأجازوا ذلك الخليج بإذن اللّٰه جميعًا يمشون على مثل رملة ميثاء وفوقها ماء، يغمر أخفاف الإبل، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات. فالتقوا بها واقتتلوا قتالًا شديدًا، فما تركوا بها مُخبِرًا، وسَبَوا الذراري والنساء، واستاقوا الأموال، فبلغ نَفلُ الفارس ستة آلاف، ونفل الراجل ألفين، قطعوا ليلهم وساروا يومهم. فلما فرغوا، رجعوا عدوهم على بَدئهم حتى عَبَروا. وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

ألم تر أن اللّٰه ذلل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دَعَوْنا الذي شقَّ البحار فجاءنا ... بأعجبَ من فلق البحار الأوائل) [1]

٣٥ - النصر لِأَصْبرِ الفريقين؛ رِدَّة عمان:

(... فاقتتلوا بدبا قتالًا شديدًا، وكاد لقيط يستعلي الناس. فبينا هم كذلك - وقد رأى المسلمون الخلل ورأى المشركون الظفر - جاءت المسلمين موادُهم العظمى من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان... فقوى اللّٰه بهم أهل الإسلام، ووهَّن أهل الشرك فولى المشركون الأدبار، فقتلوا منهم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٩، ٢٩٠).

في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم وسَبَوُا الذراري، وقسموا الأموال على المسلمين... وغنموا السوق بحذافيرها) (١).

٣٦ - التفريق بين صفوف العدو؛ ردة مَهَرَة بالنَجَد:

(... خرج عكرمة في جنده نحو مهرة... فوافق بها جمعين؛ أما **أحدهما**: فبمكانٍ من أرض مهرة... عليهم شخريت... وأما **الآخر**: فبالنجد. وقد انقادت مهرة جميعًا لصاحب هذا المجمع عليهم المصبِّح أحد بني محارب، والناس كلهم معه إلا ما كان من شخريت. فكانا مختلفين... ولما رأى عكرمةُ قِلة مَنْ مع شخريت، دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام. فكان لأول الدعاء فأجابه، ووهَّن اللَّه بذلك المصبح... فاقتتلوا أشد من قتال دبا، ثم إن اللَّه كشف جنود المرتدين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون فقتلوا ما شاؤوا... وقدم شخريت بعده بالأخماس) (٢).

وعرف العدو أن الفرقة هي التي ذبحته فقال شاعرهم:

جزى اللَّه شخريتًا وأفناءَ هيسم وفرْضِمَ إذ سارتْ إلينا الحلائبُ
جزاءَ مُسيءٍ لم يراقب ذمةً ولم يَرْجُها فيما يرجّي الأقاربُ
أعكرمَ لولا جمعُ قومي وفعلُهم لضاقت عليك بالفضاءِ المذاهبُ
وكنا كمن اقتاد كفًّا بأختها وحلَّت علينا في الدهورِ النوائبُ

٣٧ - الاستفادة من العصبية القبلية؛ لجوء فيروز في اليمن إلى أخواله خولان:

لقد كان فيروز ﷺ بطل المواجهة. فمنذ أن أدرك خيانة قيس بن مكشوح وقتله لداذويه، عرف أن النجاة الآن هي أكبر إنجاز يقوم به، فإن لم يفلت من قبضة قيس. فهذا يعني انتهاء دوره ودور الإسلام في اليمن، فأسرع ينهب الأرض فرارًا إلى أخواله في خولان هو وجشيش، وأشرع قيس الخيل تلحق به، فكان أسرع من الخيل، ووصل إلى المكان الآمن الذي يطمئن إليه بل استغل الفكرة القائلة: أن الديلم أبوهم باسل ابن ضَبَّةَ بن أد، وأحد أجداد النبي ﷺ، فأطلق شعره بالانتماء إليهم:

وإنا وإن كانت بصنعاءَ دارُنا لنا نسلُ قومٍ من عرانينهم نَسْلِي
وللديلم الرَّزَّام من بعد باسل أبَى الخفضَ واختار الحَرور على الظلِّ

---

(١) تاريخ الطبري (٢٩٢/٢).

(٢) المصدر نفسه (٢٩٣/٢).

وباسل أصلي إن نَـميْتُ ومنصبي كما كل عود منتهاه إلى الأصل

(وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال... فناهد قيسًا فالتقوا دون صنعاء. فاقتتلوا، فهزم اللّه قيسًا في قومه، فخرج هاربًا في جنده...).

٣٨ - استغلال الصراع والتنافس بين الأعداء؛ ردة اليمن وصراع قيس وعمرو ابن معديكرب:

(بعد وصول الجيوش الإسلامية إلى اليمن كان القائدان الكبيران اللذان يمثلان الشرك والردة هما عمرو بن معديكرب، وقيس بن عبد يغوث بن مكشوح، وكلاهما زعيم كبير في قومه. وبعد أن انضم فروة بن مسيك المرادي (من قبيلة قيس) إلى الجيوش الإسلامية لم يكن لدى قيس وعمرو إلا توحيد كلمتهما لمهاجمة ومواجهة هذه الجيوش. فسرعان ما انضما إلى بعضهما. ولكن سرعان ما افترقا... وفارق عمرو ابن معديكرب قيسًا وأقبل مستجيبًا حتى دخل على المهاجر بن أبي أمية بغير أمان).

٣٩ - عبقرية التعامل مع العدو، عمرو بن معديكرب الزبيدي، قيس بن مكشوح المرادي، الأشعث بن قيس الكندي:

(... وفارق عمرو بن معديكرب قيسًا، وأقبل مستجيبًا حتى دخل على المهاجر ابن أبي أميَّة (قائد الجيش الإسلامي) بغير أمان، فأوثقه المهاجر... وقُتِل الشرداء بكل سبيل، فقُدم بقيس وعمرو على أبي بكر فقال: يا قيس، أَغَدَوْتَ على عباد اللّه تَقتُلهم، وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين. وهمَّ بقتله لو وجد أمرًا جليًّا. وانتفى قيس من أن يكون قارف من أمر داذويه شيئًا. وكان ذلك عملًا عمل بسر لم يكن به بَيِّنة، فتجافى له عن دمه. وقال لعمرو بن معديكرب: أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور، لو نصرتَ هذا الدين لرفعك اللّه. ثم خلى سبيله، ورَدَّهما إلى عشائرهما. وقال عمرو: لا جَرَمَ لأقيلنَّ ولا أَعُود).

(... فدعا بالأشعث فقال (أي: الصديق): استزلك بنو وليعة ولم تكن لتستزل لهم ولا يرونك لذلك، وهلكوا وأهلكوك، أما تخشى أن تكون دعوة رسول اللّه ﷺ قد وصل إليك منها طرف؟ قال: إني لا علم لي برأيك، وأنت أعلم برأيك قال: إني أرى قتلك. قال: فإني أنا الذي راوضت عن القوم في عشرة، فما يحل دمي. قال:

أفوضوا إليك؟ قال: نعم. قال: فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من في الصحيفة وإنما كنت قبل ذلك مراوضًا.

فلما خشي أن يوقع به.

قال: أو تحْتَسِبَ في خيرًا فتطلق إساري، وتقيلني عثرتي، وتقبل إسلامي، وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي، وتردَّ عليَّ زوجتي... تجدني خير أهل بلادي لدين اللّه.

فتجافى له عن دمه، وقبل منه، وردَّ عليه أهله، وقال له: انطلق فليبلغنِّي عنك خير. لقد حاكم الصديق عمرًا وقيسًا. وكان بإمكانه قتل قيس بن عبد يغوث بداذويه الذي فتك به، وغدر به غيلة، لكن البينة لم تكن كافية على ذلك، غير أنه قاد الجيوش وحارب الإسلام وأهله، فيمكن أن يقتل بذلك. واكتفى بتبكيتهما وتذكيرهما بهذا الدين، والموقع الأنسب لهما، والأليق بهما أن يقودا اليمن إلى خير، وأطلق سبيلهما. فهو يعرف فقه النفوس، ويعرف كيف يحتفظ بالطاقات ويحولها إلى الخير قائدة بعد أن كانت للشر قائدة. وانتهت ردة اليمن، وصارا من أعظم أركان الإسلام فيها فيما بعد. وانتهت ردة اليمن إلى الأبد، وتحول هذان الزعيمان العظيمان إلى دعاة للّه ﷻ. وانقلب العدو اللدود، سيد حضرموت الأشعث بن قيس من قائد الردة والخيانة والغدر إلى أعظم ركائز الإسلام في حضرموت. وسنرى بلاء هؤلاء الثلاثة العظام فيما بعد في الجهاد في سبيل اللّه).

٤٠ - توافر القيادات العظيمة في الصف الإسلامي:

لقد كانت السنة الحادية عشرة من أصعب السنوات في تاريخ الإسلام كله، ولولا عظمة الصديق، والرجال العظام الذين كانوا حوله، والقاعدة الصلبة التي تربت في مهد النبوة، لولا هذه الأمور كلها لكنا اليوم في الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء، ولبقيت البشرية تائهة في الظلمات. لكنهم جند الرحمن الذين صاغتهم يد النبوة فساروا بهذا الدين، وقاموا على تربية الوافدين الجدد من القيادات العربية التي تحمل كل عقد الزعامة. إنها حرب تحمل التربية والقدوة والنور في آن واحد. استطاعت أن تغيِّر مجرى التاريخ من الظلمات إلى النور بإذن ربها العزيز الحميد.

٤١ - من تحرير قلب الجزيرة إلى تحرير الجزيرة كلها:

(لما فرغ خالد من اليمامة كتب إليه أبو بكر ﷺ: إن اللّه فتح عليك، فعارق

(أقصد العراق) حتى تلقى عياضًا. وكتب إلى عياض بن غنم وهو بين النباج والحجاز: أن سر حتى تأتي العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالدًا، وائذن لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره. ولما قدم الكتاب على خالد وعياض، وأذنا في القُفل عن أمْر أبي بكر، قفل أهل المدينة وما حولها وأعروهما فاستمدا أبا بكر. فأمد أبو بكر خالدًا بالقعقاع بن عمرٍو التميمي. فقيل له: أتمد رجلًا قد ارفض عنه جنوده برجل؟ قال: لا يهزم جيش فيه مثل هذا. وأمد عياضًا بعبد بن عوف الحميري. وكتب إليهما: أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول اللَّه ﷺ، ولا يغزُوَنَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي، فلم يشهد الأيام مرتد)[1].

لقد عاد أهل المدينة وكلهم من الصحابة إلى المدينة، وأصبح عبء المعركة على الجيل الثاني من التابعين لهم بإحسان. وتوجه النظر إلى التركيز على الطاقات القيادية أمثال القعقاع وعبد بن عوف.

٤٢ - كتاب يمثل الروح الجديدة التي حلت في العالم؛ كتاب خالد لمرازبة الفرس:

(... من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس:

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فالحمد للَّه الذي فضَّ خَدَمتكم (حلقتكم واجتماعكم)، وسلب ملككم، ووهن كيدكم، وإنه من صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا. أما بعد؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله غيره، لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة).

فلما قرأوا الكتاب أخذوا يتعجبون.

٤٣ - الظاهرة التي لا تتخلف انتصار القلة المسلمة على الكثرة الكافرة:

ففي كل المعارك التي خاضها المسلمون كان عددهم دون ثلث عدد عدوهم. ومع ذلك كان النصر دائمًا للمسلمين مصداقًا لقول اللَّه ﷻ:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٠٩).

وهذه معارك خالد الكبرى التي خاضها الولجة وأليس والمذار. حتى أن عدد القتلى يفوقون عدد الجيش الإسلامي. (فقتل ليلة المذار ثلاثون ألفًا)، (وبلغت قتلاهم من أليس سبعين ألفًا جلهم من أمغشيا.

٤٤ - الترغيب في الدنيا بجوار الآخرة:

(خطب خالد فقال: ألا ترون إلى الطعام كوقع التراب، وباللَّه لو لم يلزمنا الجهاد في اللَّه، والدعاء للَّه ﷻ، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به. ونُولّي الجوع والإقلال من تَوَلّاه ممن أثاقل عما أنتم عليه).

٤٥ - أول من أعاد الأرض للفلاحين:

(وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دعوا، وكل ذلك أخذ عنوة. ولكن دعوا إلى الجزاء فأجابوا، وتراجعوا وصاروا ذمة، وصارت أرضهم لهم).

فنحن إذن أمام حرب تحرير لشعوب الأرض، والمستضعفين من كل مكان. هؤلاء الفلاحون الذي تحولوا إلى أُجَرَاءَ من مستعمريهم القدامى الفرس، ها هم تعود أرضهم لهم ويكفون الدفاع عنها بالجزية والخراج، لكن يحسون بإنسانيتهم من جديد، وبعودة أراضيهم لهم بعد حرمان. إنها حرب تحرير من العبودية. وكان من الممكن أن يتحول المسلمون إلى طبقة إقطاعية تخلد إلى الأرض، وتفرز الظلم والاستبداد من جديد. ولكنه الإسلام الذي جاء لتحرير البشرية كلها من الظلم والاستبداد.

٤٦ - الأهوال التي لاقاها المسلمون في الحروب:

(فاقتتلوا قتالًا شديدًا، والمشركون يزيدهم كلَبًا وشدة ما يتوقعون من قدوم بهمن جاذويه عليهم، فصابروا المسلمين للذي كان في علم اللَّه أن يصيرهم إليه. وحرب المسلمون عليهم وقال خالد: اللَّهمَّ إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم).

٤٧ - العرب والفرس يتكالبون على المسلمين:

(واجتمعت إليه (جابان) المسالح التي كانت بإزاء العرب، وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وكان جابر بن بجير نصرانيًا، فساند عبد الأسود، وقد كان خالد بلغه تجمع

عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشب إليهم، فنهد لهم ولا يشعرون بدنو جابان، وليست لخالد همة إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم).

٤٨ - شدة البأس التي تقابل عنف المواجهة وأهوالها:

(ثم إن اللَّه كشفهم للمسلمين، ومنحهم أكتافهم، فأمر خالد مناديه، فنادى في الناس الأسر الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع. فأقبلت الخيول بهم أفواجًا مستأسرين يساقون سوقًا وقد وكل بهم أقوامًا يضربون أعناقهم في النهر. ففعل ذلك يومًا وليلة. وقال له القعقاع وأشباه له: إنك لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق... فأرسل عليها الماء تبر بيمينك. وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده، فجرى دمًا عبيطًا فسمي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم) (١).

(وعن الشعبي قال: بارز خالد يوم الولجة رجلًا من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله. فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه) (٢).

٤٩ - القائد التاريخي الذي لا يتكرر إلا نادرًا؛ عجزت النساء أن ينسلن مثل خالد:

(لم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغشيا مثل شيء أصابوه في أمغشيا. بلغ سهم الفارس ألفًا وخمسمائة، سوى النفل الذي نفله أهل البلاء. قال أبو بكر ﷺ حين بلغه ذلك: يا معشر قريش - يخبرهم بالذي أتاهم - عدا أَسَدُكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد) (٣). أما الأسد الذي عدا عليه خالد فهو جابان، الرجل الثالث في القيادة الفارسية. وكان على رأس جيش أليس، معركة الثأر، في تعبئة فارسية وعربية لم يُرَ مثلها من قبل قط. (قال جابان: ألم أقل لكم يا قوم، أما واللَّه ما دخلتني من رئيس وَحْشة قط حتى كان اليوم) (٤).

٥٠ - موعود اللَّه تعالى ورسوله في فتح هذه الأرض:

في حوار رسول اللَّه ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي: (... « **وإني أرى مما يمنعك خصاصة من ترى من حولي. وأن الناس علينا إلبًا واحدًا. هل تعرف مكان الحيرة؟** »، قلت: سمعت بها ولم آتها. قال: « **لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة** »...).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣١٤).

(٢ - ٤) المصدر نفسه (٢/٣١٣ - ٣١٥).

ولم يمض على موعود رسول اللَّه ﷺ أربع سنوات. إلا وكان عديّ ممن يحاصر الحيرة.

٥١ - ﴿ ... أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ **فتح الحيرة:**

(... يا رسول اللَّه، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زيه وبهجته** ».

وقال خالد وهو يخير زعماء الحيرة:

(اختاروا واحدة من ثلاث؛ أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو المنابذة والمناجزة فقد واللَّه أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم علىالحياة، أو الجزية. فاختاروا الجزية).

٥٢ - ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾:

لقد حرص خالد رضي الله عنه ابتداءً أن يوبخهم على خيار الحرب، باسم الحمية العربية. ويحكم، ما أنتم؟ أعرب، فما تنقمون من العرب؟!! أوعجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟؟!!

ولا إهانة عند العربي مثل الطعن في نسبه، فأكدوا عروبتهم بقولهم: (وليدلك على ما نقول أن ليس لنا لسان إلا بالعربية) ولكنهم يرفضون الدخول في دين اللَّه. فلم يملك إلا التحسر على رفضهم لهذا الدين فقال: (تبا لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها) [١]. فَلَقِيَهُ دليلان أحدهما عربي فتركه، واستدل الأعجمي.

أما القعقاع بن عمرو التميمي. فقد استدل [٢] العربي، وأبصر العزة بالإسلام فقال يفخر بالانتصار على قادة الكفر من الفرس:

سَقَى اللَّه قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأَثباج النّجاف الكَوانف
فنحن وَطِئنا بالكَواظم هرمزًا وبالثني قرنَيْ قَارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقُصور تَتابعَتْ علَى الحيرة الروحَاء إحْدَى المصارف

(١) استدل: ارتضاه دليلًا، كناية عن رسول اللَّه ﷺ.
(٢) الطبري (٢/٣١٦).

٥٣ - لتملكن ما أردتم ما دام أحد منكم مثل هذا:

وهي شهادة عبقري الحيرة وداهيتها عمرو بن عبد المسيح الذي كان سيدها بلا منازع. وقد خطط لقتل نفسه بالسم إن فرض عليه شيء يكرهه، هذا إن صدق. وإن كذب فهو يخطط لقتل خالد بالسم (... وكان مع ابن بقيلة (ابن عبد المسيح) منصف له (مولى) فعلّق كيسًا في حقوه. فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته. فقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا أمانة اللّه سم ساعة قال: لم تحتقب السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيت على أجلي والموت أحب إليَّ من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي) وكانت المفاجأة الصاعقة.

فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، وقال: بسم اللّه خير الأسماء، رب الأرض ورب السماء، الذي ليس يضر مع اسمه داء بسم اللّه الرحمن الرحيم. فأهووا إليه ليمنعوه منه، وبادرهم فابتلعه. فقال عمرو: واللّه يا معشر العرب، لتملكن ما أردتم ما دام أحد منكم مثل هذا.

٥٤ - نموذج من الوارثين:

فهو أعرابي وعده رسول اللّه ﷺ إن فتحت الحيرة أن يهب له كرامة بنت عبد المسيح أخت سيد الحيرة.

(وأبى خالد أن يكاتبهم إلا على إسلام كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل. فثقل ذلك عليهم فقالت: هونوا عليكم وأسلموني فإني سأفتدي. ففعلوا).

فالصلح يوقف كله ما لم يسملوا بنت عبد المسيح لهذا الأعرابي. واحتدم الأمر وتأزم. وقائد جيش المسلمين يصر على هذا الشرط، على تسليم كرامة لشويل، وهل هانت كرامة عرب الحيرة حتى يسلموا أشرفهم لهذا الأعرابي. ولو كانت المساومة أن تسلم كرامة لقائد الجيش خالد لهان الأمر، أما لهذا الأعرابي (وقد اشتد ذلك على أهل بيتها، وأعظموا الخطر، فقالت: لا تخطروه، ولكن اصبروا، ماذا تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة؛ فإنما هو رجل أحمق رآني في شبيبتي، فظن أن الشباب يدوم. فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه).

٥٥ - واللَّه لا أرضى إلا ألف درهم:

إنه كما قال عنه عدي بن حاتم: كان يهرف بها دهره. وقد تحققت أمنية العمر. فهذه كرامة بنت عبد المسيح، وكرامة العرب كلهم، محظيَّة عنده، وجارية له، لقد ملك القمر. ونظر، وأغمض عينيه وفتحها، أهذا ما كان ينتظره منذ قرابة عشر سنين؟!! إنها عجوز مسنة كبيرة توقف مليًّا، وهي تتفحصه جيدًا، وعلمت أن ظنها لا يخيب، فما إربه من هذه العجوز، والتي كانت أمل حياته، ورغبة دهره، وراحت تطرق على الوتر الحساس عنده فتقول: ما إربك إلى عجوز كما ترى؟ فادِني (أي: خذ مني الفداء).

قال: لا، إلا على حكمي.

(ولم تتردد لحظة واحدة فهي على استعداد أن تخلص من بين يدي هذا الأعرابي الجلف بمثل ما افتدى به المسلمون الحيرة كلها مائة ألف وتسعون ألفًا. فهي رمز كرامتهم وشرفهم وعزهم).

(قال: فلك حكمك مرسلًا.

قال: لست لأم شويل إن نقصتك عن...).

ترى، هل يقول مائة ألف درهم، أم أكثر، وهي جاهزة.

(إن نقصتك عن ألف درهم).

تُرى أيعي ما يقول، أم أن عقله ذهب وجُنَّ لمرآها، أم أنها لم تسمع المائة قبل الألف.

وأعادت عليه فأكد: (واللَّه، لا أرضى إلا ألف درهم).

(فاستكثرت ذلك لتخدعه، ثم أتته بها. فدفعت إليه ألف درهم، ورجعت إلى أهلها).

٥٦ - العدل أساس الملك:

(وتسامع الناس بذلك وجاؤوا يعنفونه ويتلتلونه ويزبرونه، كيف يرضى بذلك فقال مشدوهًا مندهشًا: (ما كنت أرى عددًا يزيد على ألف)).

فأبوا عليه إلا أن يخاصموه فخاصمهم قائلًا: (كانت غايتي نهاية العدد، وقد ذكروا أن العدد لا يزيد على ألف).

ترى أيفرض القائد مائة ألف أو يعلن الحرب، وقد تبين له جهل جنديه، وأن كرامة بنت عبد المسيح استغلت هذا الجهل.

إنه خالد نفسه الذي هدد بالحرب العوان لأخذ كرامة بنت عبد المسيح لشويل.

ها هو خالد ﷺ يحكم على جنديه لصالح بنت عبد المسيح.

(أردت أمرًا وأراد اللَّه غيره. نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك، كاذبًا كنت أم صادقًا) [١].

ولم يقف العدل عند هذا الحد.

(فصالحوه على مائة ألف وتسعين ألفًا، وتتابعوا على ذلك، وأهدوا له هدايا، فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر ﷺ مع الهذيل الكاهلي، فقبلها أبو بكر من الجزاء. وكتب إلى خالد: أن احسب لهم هديتهم من الجزاء، وخذ بقية ما عليهم فقوٍّ بها أصحابك) [٢]. نذكر هذا، ونذكر مصاصي دماء الأمم الذين يأخذون العلاوة والإتاوة على كل تجارة أو رزق لفردٍ من شعوبهم بحكم موقعهم وسلطاتهم، ورفض الصديق الهدية. إلا بحسابها من الجزية وأغلق بذلك باب الفساد والرشوة تحت أي اسم. إنها المدرسة النبوية التي علمت البشرية أن (هدايا الأمراء غُلول) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ... ﴾ [آل عمران: ١٦١].

٥٧ - الجزية، مقابل منع البغي من المسلمين وغيرهم:

(وخرج خالد وقد كتب أهل الحيرة عنه كتابًا: إنا قد أدينا الجزية التي عاهدَنا عليها خالد العبد الصالح، والمسلمون عباد اللَّه الصالحون على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم) [٣].

٥٨ - الخراج يجمع في خمسين ليلة:

فهي دولة جديدة من أغنى دول الأرض، تنضم لدولة الإسلام بخراج لم يكن المسلمون ليتصوروه (ألفي ألف). ثم يوزع كله اشتراكًا على هؤلاء الجنود بعد حق الدولة.

---

(١) الطبري (٣١٩/٢).
(٢) الطبري (٣١٦/٢).
(٣) الطبري (٣٢١/٢).

(فأعطى ذلك كله للمسلمين فقووا به على أمورهم).

٥٩ - سنة بلا فتوح، سنة نساء:

(لقد كانت أوامر الصديق واضحة كل الوضوح، فلا يرضى الهجوم على المدائن عاصمة الفرس حتى تتحرر العراق كلها... ووضوح هذه الأوامر حالت بين خالد ﷺ وبين فتح فارس. وقلبه يغلي لاستغلال الظروف السيئة التي يعيشها الفرس. لكن التربية التي تلقاها على السمع والطاعة للخليفة حالت بينه وبين غزو المدائن. وعبر عن رأيه بقوله:

لولا ما عهد إلي الخليفة لم أتنقذ عياضًا، وكان قد شجي وأشجى بدومة. وما كان دون فتح فارس شيء. إنها لسنة كأنها سنة نساء.

٦٠ - الناس معادن؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا؛ بنو تميم:

(وخرج خالد في عمل عياض ليقضي ما بينه وبينه، ولإغاثته، فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء، وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو التميمي (أخو القعقاع بن عمرو التميمي) وعلى مقدمة خالد الأقرع بن حابس التميمي؛ لأن المثنى كان على ثغر من الثغور التي تلي المدائن)... (ولما فرغ خالد من الأنبار استخلف على الأنبار الزبرقان ابن بدر التميمي).

٦١ - توزيع المسؤوليات على القيادات وتربيتها؛ كتاب الصديق للقائدين:

لقد وزع الصديق ﷺ المسؤولية مناصفة بين القائدين.

(كان أبو بكر ﷺ قد عهد إلى خالد أن يأتي العراق من أسفل منها، وإلى عياض أن يأتي العراق من فوقها، وأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة. فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء اللّه... وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس، وأمِنْتُم أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليقم بالحيرة أحدكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عما في أيديهم. واستعينوا باللّه واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما. واحذروا ما حذركم اللّه بترك المعاصي. ومعالجة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة) (١).

---

(١) الطبري (٢/٣٢٢).

فالصديق قد وزع المسؤوليات، عرف أن مسؤوليته تربية هذه القيادات. على الإيثار والتنافس في أمور الآخرة. فهذا هو البنيان الذي يحتاجون إليه. وببلاغة الصديق العظيمة حضهما على أن يكون همهما الآخرة لينالا الدنيا والآخرة. وأن خسارة الدارين في إيثار الدنيا وأن يكون الخوف من المعاصي نذيرًا مستمرا للتوبة.

٦٢ - النجاح الفائق في التربية، عظمة الإيثار بديلاً عن التنافس على الدنيا؛ رسالتنا خالد وعياض:

لقد نفَّذ خالد مهمته بنجاح ووصل إلى الحيرة، وأدى مسؤوليته كاملة. بينما بقي عياض في موقعه. محاصَرٌ ومحاصِر، وكما قال خالد ﷺ: (وكان قد شجى وأشجى في دومة الجندل) ولم ينفذ شيئًا من مسؤولياته. وكانت فرصة سانحة لخالد أن يثير الأرض تحت عياض وينال منه، بل وصل الحد عند عياض أن يستغيث بخالد.

(ولما قدم الوليد بن عقبة من عند خالد على أبي بكر ﷺ بما بعث إليه من الأخماس بعثه إلى عياض، وأمدَّه به، فقدم عليه الوليد، وعياض محاصرهم، وهم محاصروه، وقد أخذوا عليه بالطريق. فقال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد فاستمده. ففعل، فقدم عليه رسوله غِبَّ (بعد) وقعة العين مستغيثًا فعجل إلى عياض بكتابه:

من خالد إلى عياض: إياك أريد.

لبِّث قليلاً تأتِكَ الحلائب ... يحمِلْن آسادًا عليْها القاشب

كتائبٌ يتبعُها كتائِب

فلقد كتب خالد الجواب لعياض رضوان اللّه عليهما، بعد أن قام بكل مسؤوليات عياض في فتح العراق الشمالي الذي كلف به. ولم يستغل هذه الانتصارات، أو ينقص من قدر عياض، بل كان هذا الجواب الأخوي الخالد من خالد:

من خالد إلى عياض: إياك أريد.

أي روح سمحة، وإيثار عظيم، وترفع عن هوى النفس يملكه هذا القائد العظيم، الذي نعتبر أعظم ما فيه أن لم يدخله الغرور إلى قلبه قط، ولم يمسَّهُ الكبرياء قط. إنما كان قلبه عامرًا باللّه وبحبه، وبإيثار ما عنده؟

٦٣ - أعقل الأعاجم وأسوؤهم ينهزم أمام جحافل الإسلام؛ شيرزاذ وخالد:

(لقد كانت الحيرة والأنبار تتنافسان الحياة زمنًا طويلًا (فكان أول عمارة الحيرة في زمن بختنصر ثم خَرِبَتِ الحيرة بعد موته. وعمرت الأنبار خمسمائة سنة... إلى أن عمرت الكوفة ونزل بها المسلمون) وها هو شيرزاذ يقدم تقريره إلى بهمن جاذويه القائد العام لجيش الإمبراطورية الفارسية، ويبرر فيه هربه من لقاء خالد، ومصالحته على تسليم الأنبار له، قال: إني كنت عند قوم ليس لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم مقدمهم (أي: المسلمين) علينا يقضون على أنفسهم، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاءً إلا وجب عليهم، ثم قاتلهم الجند ففقؤوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين، فعرفت أن المسالمة أسلم) [1].

٦٤ - قادة الفرس يقدمون القيادات العربية قرابين للذبح؛ عين التمر:

ولما فرغ خالد من الأنبار... وقصد لعين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام في جمع عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب؛ من النمر وإياد ومن لافهم. فلما سمعوا بخالد، قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا، قال: صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم لمثلنا في قتال العجم. فخدعه واتقى به وقال: دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعناكم. فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم: ما حملك على أن تقول مثل هذا القول لهذا الكلب؟

قال: دعوني فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفلَّ حدكم فاتقيته بهم. فإن كانت لهم على خالد فهي لكم... وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يَهِنُوا فتقاتلوهم وأنتم أقوياء وهم مضعفون.

٦٥ - إجماع عربي في شمالي الجزيرة على حرب الإسلام ومواجهته؛ دومة الجندل:

(ولما بلغ أهل دومة مسير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم، وقبلُ ما أتاهم من وديعة في كلب وبهراء، ومساندة ابن وبرة ابن رومانوس، وأتاهم ابن الحدرجان في الضجاعم، وابن الأيهم في طوائف من

---

(١) الطبري (٢/٣٣٣).

غسان، وتنوخ فأشجوا عياضًا وشجوا به).

٦٦ - سيف من سيوف اللّه سلّه اللّه على المشركين:

(فلما بلغهم دنو خالد وهو على رئيسين أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة اختلفوا فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أحدَّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم). ولا عجب أن يقول أكيدر ذلك وهو الذي أخذه خالد ﷺ أسيرًا من دومة الجندل إلى تبوك حيث بعث رسول اللّه ﷺ بعثًا على رأسه خالد بن الوليد لإحضاره وقد بايع رسول اللّه ﷺ على الجزية وفي بعض الروايات أنه أسلم، ثم نكث وغدر وخان وقاد الحرب ضد عياض بن غنم مع الجودي بن ربيعة. لكن خوفه ورعبه من خالد دفعه أن يهرب من المعركة ولا يحارب، فتلقته خيل خالد ﷺ، وضَرَب عنقَه جزاء نكثه وخيانته.

٦٧ - تحرير دومة وإنقاذ عياض وإنهاء القيادات العربية العملية:

(ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة وعليهم:

١ - الجودي بن ربيعة. ٢ - وديعة الكلبي.

٣ - ابن رومانس الكلبي. ٤ - ابن الأيهم الغساني.

٥ - ابن الحدرجان رئيس الضجاعم.

وتكاد تكون هذه القيادات العربية خاضعة لنفوذ الروم، والتابعة للإمبرطورية البيزنطية وخالد يتنقل بين القيادات العملية لإحدى هاتين الإمبراطوريتين. فأنهى أتباع فارس وها هو دوره مع أتباع بيزنطة).

(وجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض. وكانت النصارى الذين أمدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة، لم يحملهم الحصن. فلما اطمأن خالد، خرج الجودي فنهض بوديعة فتزاحفا إلى خالد، وخرج ابن الأيهم وابن الحدرجان إلى عياض. فاقتتلوا فهزم اللّه الجودي ووديعة على يدي خالد، وهزم عياض من يليه، وركبهم المسلمون. وأما خالد فإنه أخذ ابن الجودي أخذًا. وأخذ الأقرع بن حابس وديعة. وأَرِزَ بقية الناس إلى الحصن، فلم يحملهم، فلما امتلأ الحصن، أغلق من في

الحصن الحصنَ دون أصحابهم. وأقبل خالد على الذين أرزوا إلى الحصن فقتلهم حتى سد باب الحصن. ودعا خالد بالجودي فضرب عنقه، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم. ثم أطاف خالد بالباب، فلم يزل به حتى اقتلعه، واقتحموا عليهم، فقتلوا المقاتلة وسبوا الشرخ (النساء والأطفال)... وأقام خالد بدومة، ورد الأقرع إلى الأنبار) (١)

٦٨ - تجمع الثالوث الدنس (كفرة العرب والروم والفرس) لمواجهة زحف الإسلام:

(ثم قصد خالد بَعدُ الرضاب، وبَغَتَتْهُ تغلب إلى الفراض. والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة. فأفطر بها رمضان في تلك السفرة التي اتصلت فيها الغزوات والأيام، ونُظِمْنَ نَظْمًا) (٢).

قالوا: فلما اجتمع المسلمون بالفراض حميت الروم واغتاظت، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس، وقد حموا واغتاظوا، واستمدوا تغلبًا وإيادًا والنمر فأمدوهم، ثم ناهدوا خالدًا حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا: إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم. قال خالد: بل اعبروه إلينا...

فاقتتلوا قتالًا شديدًا طويلًا، ثم إن اللَّه هزمهم وقال خالد للمسلمين:

ألحوا عليهم، ولا ترفهوا عنهم. فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه حتى إذا جمعوهم قتلوهم. فقتل يوم الفراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف وأقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشرًا، ثم أذن بالقفل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة...) (٣).

وقال القعقاع في ذلك:

لقينا بالفراض جُموعَ رُوم ... وفُرس عمَّها طُولُ السلام
أبدْنا جمْعَهم لما التَقَينا ... وبيَّتنا بجَمْع مِن رزَام
فما فَتِئَت جُنودُ السِّلم حتى ... رأينا القوْمَ كَالغَنَم السّوام

---

(١) الطبري (٣٢٥/٢).

(٢ ، ٣) الطبري (٣٢٨/٢).

٦٩ - احتنسبوا مُلْكَكُم، هذا رجل يقاتل عن دين:

(قال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحوا حتى نعبر. قال خالد: لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا. وذلك للنصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة).

فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض:

(احتسبوا مُلْكَكم هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم، واللَّه ليُنصرَنّ ولنُخذَلنَّ. فعبروا أسفل من خالد. فلما تتاموا قالت الروم: تمايزوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أينا يجيء ففعلوا).

لقد كانت خلاصة التغيير الجديد في الأرض، والتي قادتها هذه الأمة بهذه العقيدة كما حددها قول الروم والفرس والعرب. إذن قد اجتمعت عند هذه الأمة مقومات النصر كاملة فالقتال على دين.

(نحن قوم أعزنا اللَّه بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا اللَّه) هكذا أعلنها عمر ﷺ.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

(وله عقل وعلم).

فالخبرة: وهي العلم قد توفرت لديه، وقد خاض غمار الحرب مع العرب والروم والفرس. والعقل: وهو العبقرية النادرة التي توفرت لدى هذا القائد العظيم.

وعندئذ كانت هذه النتائج الباهرة في هذه المدة القصيرة من الزمن، وكان هذا الإنجاز العظيم.

٧٠ - احتفالات النصر عند المجرمين بالخمر والنساء. واحتفالات النصر عند المسلمين بالحج إلى بيت اللَّه العتيق:

قال أبو جعفر: (وخرج خالد حاجًّا من الفراض لخمس بقين من ذي القعدة. مكتتمًا بحجه، ومعه عِدَّةٌ من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت. فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال. فسار طريقًا من طرق أهل الجزيرة، لم يُرَ طريق أعجب منه، ولا أشد على صعوبته منه. فكانت غيبته عن الجند يسيرة. فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه، فقدما معًا،

وخالد وأصحابه محلقون، لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة، ولم يعلم أبو بكر ﷺ بذلك إلا بعدُ. فعتب عليه، وكانت عقوبته أن صرفه إلى الشام) [(١)].

٧١ - العقوبة والمكافأة في آن واحد، تربية القادة:

وداوني بالتي كانت هي الداء.. عقوبة وتهنئة وتكليف جديد جاء من الصديق بهذا الكتاب العظيم.

(فوافى خالدًا كتاب أبي بكر بالحيرة، منصرفه من حجه:

أن سِرْ حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. فإنهم قد شجوا وأشجوا. وإياك أن تعود لمثل ما فعلت (من الحج بالسر دون علم الخليفة) فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللَّه شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك. فليهنك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم اللَّه لك، ولا يدخلنك عُجْب، فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل. فإن اللَّه له المن، وهو ولي الجزاء) [(٢)].

نحن نقف في دراستنا حيث يمضي الناس. فالدارسون يتتبعون آثار البناء من نصر وفتح وقوة حيث تتشابه كثيرًا الآثار بين الكفار والمسلمين، إنما نتتبع عملية البناء وأساسه الذي يختلف في تركيبه عن أساس الأمم الأخرى.

فقائدان ينتصران في معركة، كيف تكون نفسيتهما بعد النصر؛ **أحدهما**: يستعلي ويستكبر ويُعْجَبُ ويريد ثمنًا لهذا النصر من استعباد الناس له. وآخر يتواضع ويعلم بأعماقه أن النصر من عند اللَّه فيزيد شكرًا لهذا النصر، ويقدمه عبودية وتذللًا للَّه.

الناس يقفون عند أمر أبي بكر لخالد بالتوجه إلى الشام، ويتابعون عظمة خالد في هذا التوجه، لكننا نحن ننظر إلى عظمة صياغة خالد من هذه الرسالة التي يتلقاها من الخليفة الصديق، يقبل العتب، ويشكر اللَّه تعالى على توفيق اللَّه له برضا الخليفة، وتحقيق النصر، لكنه يتوقف كثيرًا فيعيد مراجعة قلبه (فليهنك أبا سليمان النية والحظوة) فيا خسارة الحظوة إن لم ترافقها النية أو أفسدتها، ونتابع عملية البناء كذلك في الخوف من اللَّه (فأتمم يتمم اللَّه لك) وأكثر ما يؤثر في صياغة خالد (وإياك) تلك التي يتلقاها ابن الوليد ﷺ بقلب يقظ، وأعصاب مشدودة، لينفذها

(١ ، ٢) الطبري (٣٢٩/٢).

تنفيذ الجندي في المعركة. وتاريخ خالد ﷺ في الرسائل عجيب فقد أسلم من خلال رسالة لا تعدو ثلاثة أسطر، وغيَّر مجرى حياته كلها حين قرأها بجد، وكأنه يُقْبلُ ممتثلًا لقوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهو القوي الذي يتعامل مع كل شيء في حياته من خلال قوة الحق الذي يدين به. وتلك رسالته إلى عياض. كلمات قلائل. تحولت عملًا إلى حرب ضروس رهيبة امتدت إلى تخوم العرب والروم والفرس.

من خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم: إياك أريد.

لبِّث قليلًا تأتِك الحلائب يحمِلْن آسادًا علَيها القَاشب

كتائِبُ يتبَعُها كتَائِب

٧٢ - عبقرية الخليفة في اكتشاف القيادات:

فعندما قرر أن يفتح جبهة الشام وجَّه إليها أربعة قادة لم يكونوا بارزين على الساحة. وكانوا في الظل. ولم يخطر ببال أحد أن يصبحوا المحور الرئيس للعملية العسكرية في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية.

(وكتب أبو بكر عند اهتياجه للشام إلى عمرو:

إني قد رددتك على العمل الذي كان رسول اللَّه ﷺ ولاك مرة، وسماه لك أخرى مبعثك إلى عُمان، إنجازًا لمواعيد رسول اللَّه ﷺ، قد وليته ثم وليته، وقد أحببت أبا عبد اللَّه أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعدَ اللَّه الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي... وكتب إلى الوليد بن عقبة بنحو ذلك، فأجابه بإيثار الجهاد).

ولا عجب أن يطلق الصديق طاقات عمرو، فهو أدرى به، وكان جنديًّا عنده في سرية ذات السلاسل، وهو الذي أجاب عمر ﷺ يوم همَّ أن يرد عليه أمره. أن رسول اللَّه ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب!

فلا عجب أن يفتتح جبهة فارس بخالد، وأن يفتتح جبهة الروم بعمْرو، وهما قرينان أسلما معًا وقال فيهم رسول اللَّه ﷺ: « **لقد أعطتكم قريش المقادة بعد هذين** ».

وأبو عبيدة أمين الأمة، وكان تحت إمرته حين مضى مددًا لعمرٍو في ذات السلاسل.

وشرحبيل بن حسنة كان أحد القادة الأحد عشر الذين كُلِّفُوا بفتح الجزيرة، غير أن أغرب تكليف هو تكليف يزيد بن أبي سفيان، والذي لم يجرب مرة واحدة قبل هذا التكليف، وكان من مسلمة الفتح. لكن: أليس هو ابن أبي سفيان شيخ قريش وداهيتها وصاحب خربها. فهو ابن البيئة العسكرية القيادية. وحيث إنه كان أحد الأركان الأربعة المكلفين بمواجهة الروم، كان تكليفه على حذر (... فأمَّرَه على جند عظيم هو جمهور من انتدب له، وفي جنده ولأول مرة سهيل بن عمرو وأشباهه وقال له: إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك - فإن أنت أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك...).

٧٣ - المواد الثلاثون منهج متكامل لقادة الجيوش والأمم؛ وصية الصديق لقائده يزيد:

(... فكان مما قال ليزيد:

١ - إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك.

٢ - فعليك بتقوى اللّه فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك.

٣ - وإن أولى الناس باللّه أشدهم توليًا له.

٤ - وأقرب الناس من اللّه أشدهم تقربًا إليه بعمله.

٥ - وقد وليتك عمل خالد، فإياك وعُبِّيَّة الجاهلية، فإن اللّه يبغضها ويبغض أهلها.

٦ - وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه.

٧ - وإذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا.

٨ - وأصلح نفسك يَصْلُحْ لك الناس.

٩ - وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

١٠ - وإذا قدم عليك رسل عدوك، فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به.

١١ - ولا ترينَّهم، فيروا خللك ويعلموا علمك.

١٢ - وأنزلهم في ثروة عسكرك.

١٣ - وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم.

١٤ - ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك.

١٥ - وإذا استشرت فاصدُق الحديث تُصدَق المشورة.

١٦ - ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك.

١٧ - واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشفْ عندك الأستار.

١٨ - وأكثر حرسك، وبددهم في عسكرك.

١٩ - وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علمٍ منهم بك.

٢٠ - فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط.

٢١ - وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار.

٢٢ - ولا تخف من عقوبة المستحق.

٢٣ - ولا تلجن فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعًا.

٢٤ - ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده.

٢٥ - ولا تجسس عليهم فتفضحهم.

٢٦ - ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم.

٢٧ - ولا تجالس العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء.

٢٨ - واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس.

٢٩ - واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر.

٣٠ - وستجد أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له) [1].

وعَلَّق ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليها بقوله:

وهذه من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا لولاة الأمر.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٥٣، ٢٥٤).

٧٤ - ثلاث جبهات عالمية، وانتصار على الجبهات الثلاث:

فلقد فتح الصديق ﷺ ثلاث جبهات عالمية؛ مع العرب المرتدين، ومع أكبر إمبراطوريتين في الأرض آنذاك، وقدَّم القادة الأكفاء يقاتلهم بقوم يحبون الموت، كما يحب الآخرون الحياة، وأعداد لا تصل إلى ربع أعداد العدو. وواجه أكبر وأعظم القيادات التاريخية هرقل (الذي استلم دفة الملك والإمبراطورية البيزنطية في أسوإِ حال، حيث سيطر الفرس على الشام ومصر وآسيا الصغرى. وتولى كسرى نفسه محاصرة القسطنطينية العاصمة بقصد احتلالها وشطب خريطة إمبراطورية بيزنطة من الوجود. فقام هرقل وهو المحارب العملي المجرب المحترف بالاستعدادات لإعادة بيزنطة إلى سابق مجدها. فرسم خطة بارعة أضاع بها جميع ما اكتسبته جيوش الفرس من مكاسب عسكرية... فلم تكن مهمة الجيوش الإسلامية سهلة لأن أمامها رجلًا جمع بين مهارة الحرب، وعمق السياسة والحنكة وبعد النظر...).

لكنه كان يقاتل الإسلام وجيوش الإسلام وهو منهزم نفسيًّا، حيث يعرف أنه على باطل، وهو الذي قال لأبي سفيان بعد أن وصلته رسالة الرسول ﷺ: لئن كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضع قدمي هاتين.

٧٥ - فرسان في النهار رهبان في الليل:

(لما تدانى العسكران بعث القبقلار (قائد الروم) رجلًا عربيًّا. فقال: ادخل في هؤلاء القوم، فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر فأقام فيهم يومًا وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك. قال:

بالليل رهبان وبالنهار فرسان. ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم لإقامة الحد فيهم. فقال له القبقلار: لئن صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها. ولوددت أن حظِّي من اللّٰه أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم علي... ثم تزاحف الناس فاقتتلوا. فلما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم: (لفوا رأسي بثوب. قالوا له: لِمَ؟ قال: يوم لبئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يومًا أشد من هذا. فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفف) [١].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٤٧).

٧٦ - داهية المسلمين يُفشل خطة هرقل:

(وكان سرجيوس حريصًا كل الحرص على الاشتباك في معركة فاصلة مع عمرو ليحقق رغبة الملك هرقل في تطهير جنوب الشام من أي وجود عسكري للإسلام هناك. ولو نجح في تدمير جيش عمرو بن العاص لتحرجت حال الفيالق الثلاثة، ولكان احتمال انتصارهم في اليرموك ضعيفًا لأنهم سيكونون بين فكي الكماشة التي أقامها هرقل؛ الجيش الأول الرومي في الجنوب بفلسطين، والجيش الثاني في الشمال ومقره إنطاكية، وقوة المسلمين الرئيسية بينهما) (١).

٧٧ - وباللَّه ما أرجو النصر إلا بِهِمْ (أي: الصحابة):

لقد قالها المثنى بن حارثة ﵁، يوم تحرك خالد بنصف الجيش نحو الشام تنفيذًا لأمر الصديق ﵁ (وأحضر خالد أصحاب رسول اللَّه ﷺ، واستأثر بهم على المثنى وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة... فقال المثنى: واللَّه، لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة، وباللَّه ما أرجو النصر إلا بهم، فأنَّى تعريني منهم؟ فلما رأى ذلك خالد بعدما تلكأ عليه أعاضه منهم حتى رضي) (٢).

٧٨ - لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد:

(وقال أبو بكر: واللَّه؛ لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. فكتب إليه بهذا الكتاب... وأمره أن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق في نصف الناس، فإذا فتح اللَّه على المسلمين بالشام. فارجع إلى عملك بالعراق، وبعث خالد بالأخماس - إلا ما نفل منها - مع عمير بن سعد الأنصاري، وبمسيره إلى الشام، ودعا خالد الأدلة فارتحل من الحيرة سائرًا إلى دومة) (٣).

٧٩ - لا نعرف إلا طريقًا لا تحمله الجيوش:

(ثم طعن في البر إلى قراقر ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم. فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين. فكلهم قال: لا نعرف إلا طريقًا

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١١٤، ١١٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٤٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/٣٤٢).

لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذ الراكب، فإياك بالمسلمين. فعزم عليهم، ولم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيُّب شديد).

٨٠ - أنت رجل قد جمع اللَّه لك الخير. فشأنك:

(فقام فيهم فقال: لا يختلفن هديكم، ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحِسبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللَّه له، فقالوا له: أنت رجل قد جمع اللَّه لك الخير. فشأنك فطابقوه ونَوَوْا واحتسبوا، واشتهوا مثل الذي اشتهى خالد) [١].

٨١ - أجرأ مغامرة في التاريخ:

كان من الممكن أن نتحدث اليوم عن القائد الذي غَرَّتْهُ نفسه، فغامر بجيشه، وأهلكه في الصحراء رغم نصح أهل الخبرة له أن لا يفعل ذلك... لكن نجاح خطته رفعته لمصاف أعظم قادة التاريخ العسكري في الأرض. لقد كانت أوامر القائد خالد إلى جنده أن عليهم خلال أربعة أيام أن يكون شربهم جرعة واحدة في اليوم تبل الشفة، أما سقاية الخيل فقد اعتمدت على تعطيش الإبل المسنة، ثم سوقها للشرب بعد العطش الشديد، وتكرار شربها ثانية وثالثة، ثم قطع مشافرها حتى لا تجتر، وتستهلك الماء. وفي كل يوم تذبح أعداد من هذه الإبل المسنة لكل عدة من الخيل عشر من الإبل، يخلط فيها لبن الإبل بالماء، وتشرب الخيل منها وذلك خلال أيام على أمل الوصول للماء بعدها.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ... ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

أما هذا الجيش الرائد في هذا الجيل الرائد، فلم نسمع عن مخالفة وحيدة في هذا الجيش المكون من سبعة آلاف والذي عاش كل جندي فيه كل يوم على جرعة ماءٍ كل يوم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٤٢).

٨٢ - للَّه علينا رافع إذا اهتدى:

(فلما خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة وهو أرمد:

ويحك يا رافع! ما عندك؟ قال: أدركت الري إن شاء اللَّه. فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها، قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون هلكتم إذن واللَّه وهلكت، لا أبا لكم، انظروا. فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقي منها بقية. فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع بن عميرة، ثم قال: احفروا في أصلها. فحفروا فاستخرجوا عينًا، فشربوا حتى روي الناس، فاتصلت بعد ذلك بخالد المنازل. فقال رافع: واللَّه، ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة وردته مع أبي وأنا غلام) (١).

٨٣ - المسير خلف الخطوط الرئيسة للروم:

(... ثم عجل بتحركه حتى بلغ الثنية المشرفة على غوطة دمشق، وهناك رفع راية رسول اللَّه ﷺ المسماة بالعُقاب. ومنذ ذلك اليوم سمي التل بثنية العقاب. ثم واصل تقدمه مسرعًا حتى أتى مرج راهط الذي يسكنه الغساسنة النصارى، فداهمهم على حين غرة وهو في يوم عيد فصح. فأنزل بهم الهزيمة، ثم اخترق غوطة دمشق من الشمال إلى الجنوب حتى وصل قناة بصرى) (٢).

٨٤ - إن الرأي الاجتماع؛ ولن يؤتى مثلكم من قلة:

(... وخرج هرقل حتى نزل بحمص، فأعد لهم الجنود، وعبأ لهم العساكر، وأراد اشتغال بعضهم ببعض لكثرة جنده، وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه فخرج نحوهم في تسعين ألفًا وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه، وبعث الدارقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا نحو أبي عبيدة فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا، سوى عكرمة في ستة آلاف، ففزعوا جميعًا بالكتب وبالرسل إلى عمرو: أن ما الرأي؟ فكاتبهم وراسلهم: إن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لن يغلب

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٤٦).

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٠٨).

من قلة، وإذا تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا، وأُعِدّ لكل طائفة منا. فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به. وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عَمْرًا. فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو.

٨٥ - إنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة إذا أوتوا من قبل الذنوب، فاحترسوا من الذنوب:

(فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرٍو: أن اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان اللَّه. واللَّه ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عن العشرة آلاف إذ أتوا من تلقاء الذنوب. فاحترسوا من الذنوب. واجتمعوا باليرموك متساندين. وليُصلِّ كل رجل منكم بأصحابه)[1].

٨٦ - الانسحاب من أجل التجمع:

(وكانت خطة فيالق الإسلام التراجع والتجمع في مكان واحد للامتزاج في جيش واحد، وخطة هرقل أولًا بأن يبدأ بسحق فيلق أبي عبيدة المرابط في حمص، ثم يثني بيزيد بن أبي سفيان المرابط جيشه حول دمشق، ثم يكمل عملية التصفية في الوسط والشمال بشرحبيل بن حسنة الذي يتمركز جيشه في الجولان حول بصرى قريبًا من دمشق. لقد كان المسلمون أسرع بالانسحاب والتراجع حسب الخطة المرسومة، ففوتوا بنجاحهم في الانسحاب على هرقل تحقيق هدفه الرئيسي).

٨٧ - المسلمون يعيدون الجزية لأهل الذمة عند الانسحاب:

(وقد ذكر البلاذري في كتابه « فتوح البلدان »: أن القائد أبا عبيدة بن الجراح لما قرر الانسحاب من حمص (وكان قد سيطر عليها، وأخذ من أهلها الجزية) استدعى وجهاء وأعيان حمص النصارى، وأبلغهم أن جيشه - لظروف قاهرة - مضطر للانسحاب من حمص، وهذا يعني أنه أصبح غير مسؤول عن الدفاع عنهم وحمايتهم، وحيث إنه أصبح بحكم تركه المنطقة غير قادر على الدفاع عنهم وحمايتهم، فإنه يعيد إليهم ما أخذ منهم من أموال (الجزية)... في حين أن المتبع في ظروف الحرب التي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٤).

سمع عنها النصارى عبر العصور، يلجأ المضطر للانسحاب من مدينة ما إلى نهب هذه المدينة، وسلب أهلها كلَّ ما يقدر على سلبه ونهبه، تلك شرعة الحرب الغالب اتباعها بين المحاربين قبل ظهور الإسلام الذي وضع ضمن قوانينه أرقى قواعد المعاملة الإنسانية في السلم والحرب على السواء. وللمرة الأولى منذ فجر التاريخ أُخذت من الإسلام، ووضعت في قواميس الحرب كلمة (الحرب العادلة))[1].

٨٨ - تحطيم جيش الرومان في أجنادين:

(وكانت خطة الملك هرقل (قبل وصول خالد من العراق) لتصفية التجمع الإسلامي في اليرموك تقضي بتعزيز الجيش الأول في فلسطين، ثم صدرت إليه الأوامر (وقد بلغ مائة ألف مقاتل) أن يتتبع الفيلق الرابع الذي يقوده عمرو بن العاص، ويقضي عليه بسرعة، وبعد ذلك يتجه بجيشه نحو مؤتة، خلف خطوط المسلمين في اليرموك، وكلفه بالسيطرة على جميع الطرق والممرات المؤدية من جزيرة العرب إلى الشام، كي يقطع على الجيش المحتشد في اليرموك خطة الرجعة، ويمنع وصول أي إمدادات إليه من الجزيرة)... ومن أجل ذلك لم يتحرك عمرو للمواجهة الشاملة مع الجيش الروماني إلا بعد أن وصل مدد المسلمين بفيالقهم الثلاثة، وكانت هذه المواجهة الشاملة خطة للإيقاع بجيش العدو، رسمها عمرو وخالد معًا بعد وصول خالد مع القوات الإسلامية كافة، وحسب الخطة المرسومة، وحسب تعليمات خالد اشتبك عمرو بن العاص مع جيش سرجيوس، والملقب عند بعض المؤرخين بالتذارق، اشتبك مع جيشه متظاهرًا بأنه وحيد في الميدان، ففرح التذارق، وظن أنه حصل على بغيته، وهو انفراده بفيلق عمرو والبالغ سبعة آلاف فقط... وبينما القتال ناشب بين فيلق عمرو وبعض وحدات سرجيوس، ظهر خالد فجأة بقواته الرئيسية، ودارت معركة من أعنف المعارك في الشام، انتهت بتدمير الجيش الروماني الأول تدميرًا كاملًا، حيث لم ينج منه إلا الشريد، وقد قتل في المعركة عدد كبير من قادة الرومان، وحكام المقاطعات بفلسطين على رأسهم القائد العام لجيش الروم في المعركة، قتله خالد بيده)[2].

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٨٠).

(٢) فن الحرب في الإسلام لبسام العسلي (ص ١٠٨).

٨٩ - توحيد قيادة المسلمين؛ منعطف تاريخي:

(فلما أحس المسلمون خروجهم، وأرادوا الخروج متساندين، سار فيهم خالد ابن الوليد. فحمد اللّه وأثنى عليه وقال:

إن هذا يوم من أيام اللّه، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهودكم، وأريدوا اللّه بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة، على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم عملكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته. قالوا: هات، فما الرأي؟

قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم. إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم. فاللّه، اللّه فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له.

إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند اللّه ولا عند خليفة رسول اللّه، هلموا فإن هؤلاء تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها.

فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم. ودعوني إليكم اليوم). فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه.

هذا القرار الذي انتهت الجيوش الإسلامية إليه من خلال خطبة لخالد، عجزت أن تنتهي إليه خلال مائة عام. ولا تزال الدول العربية متساندة، وهذا لا يحل ولا ينبغي، وهذا أشد على المسلمين مما قد غشيهم من العدوان، وأنفع للعدو من أمداده. ولولا عمق الإيمان لدى هذا الجيل الرائد، لم تكن اليرموك التي أنهت الإمبراطورية البيزنطية في الشام.

هذا القرار وهذا المنعطف التاريخي الذي انصاع المسلمون فيه وصاروا جيشًا

واحدًا يواجه العدو هو الذي عجز عنه العرب ألف عام، وبقوا مرهونين لقيادة الروم أو الفرس.

لقد انتهت الفرقة خلال يوم واحد حين اجتمعوا على خليفة واحد، وأصبحت القيادة السياسية وحدة متكاملة. وانتهت الفرقة خلال ساعة واحدة حين اجتمعت القيادة العسكرية على قائد عام واحد، ينصاع الجميع لإمرته. وكان عدد المسلمين قرابة أربعين ألفًا. وعدد المشركين حوالي مائتين وأربعين.

٩٠ - الجيش الإسلامي الموحد:

(وخرج خالد في تعبئة لم تر العرب مثلها قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين، لقد كان القائد العام (المشير) خالد بن الوليد ﷺ، وكان الجيش على فرق أربع، على كل فرقة قائد برتبة (فريق) وهم رئاسة الأركان العامة (أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة). وكل فرقة تحتها كراديس حوالي عشرة على رأس كل واحد منها ضابط برتبة (لواء) وكانت كل فرقة موكل إليها حماية جهة، الميمنة والميسرة والقلب والساقة.

٩١ - إسلام قائد الروم واستشهاده:

(ولقد كان جرجة بن توذرا هو قائد مقدمة الروم، وهو الشخص الثاني في الجيش الروماني بعد القائد العام).

(وخرج جرجة حتى كان بين الصفين. ونادى: ليخرج إلي خالد. فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقفه بين الصفين، حتى اختلفت أعناق دوابهما، وقد أمن أحدهما صاحبه فقال جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله. هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله ﷻ بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا، فنفرنا عنه، ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه، فقال: « **أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين** »، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد

المسلمين علىالمشركين، قال: صدقتني. ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد، أخبرني إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند اللَّه. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: الجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب ثم نقاتله قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم، ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض اللَّه، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه. قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ، وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل منكم بهذا الأمر بحقيقة ونية، كان أفضل منا. قال جرجة: باللَّه لقد صدقتني ولم تخادعني، ولم تَأَلَّفْنِي؟؟ قال: باللَّه لقد صدقتك، وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة. وإن اللَّه لَوليّ ما سألت عنه. فقال: صدقتني) وقلب الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاطه، فشنَّ عليه قربة من ماء، ثم صلى ركعتين... فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب بهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. ثم أصيب جرجة، ولم يصلّ صلاةً سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما)[1].

٩٢ - خالد بن الوليد وجرجة بن توذرا وابن أبي جهل وأخو أبي جهل قادة الحملة على الروم وحماة الأدبار:

(ثم صلَّى ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها منه حملة. فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا الحامية، وعليهم عكرمة والحارث بن هشام).

٩٣ - الصحابة قادة المعركة:

فلم يُوَلَّ قائدٌ على كردوسٍ أو في مهمة كبرى إلا صحابيٌّ.

(... وذكر ابن إسحاق بسنده أن أمراء الأرباع يومئذ كانوا أربعة: أبو عبيدة،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٩).

وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وخرج الأوس على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد وهو المشير في الحرب الذي يصدر كل الناس عن رأيه) [١].

٩٤ - الجولة الأولى: اقتحام الروم على المسلمين:

(وخرج ماهان فأمر صاحب الميسرة وهو الدبريجان وكان عدو اللَّه متنسكًا فيهم، فحمل على الميمنة (التي يقودها عمرو بن العاص) وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان. فثبتوا حتى صدوا أعداء اللَّه، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فزال المسلمون عن الميمنة إلى القلب، وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر. وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم. وانكشفت زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا حتى نهنهوا من أمامهم من الروم، وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس... وثبت كل قوم تحت راياتهم، حتى صارت الروم تدور كأنها الرحى، فلم تر يوم اليرموك إلا مخًّا ساقطًا، ومعصمًا نادرًا، وكفًّا طائرة من ذلك الموطن) [٢].

٩٥ - كتيبة الموت:

(قال: فتراجع الناس عن مواقفهم، وقال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلت رسول اللَّه ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم؟ من يبايعني على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتل منهم خلق، منهم: ضرار ابن الأزور... وقد ذكر الواقدي وغيره أنهم لما صرعوا من الجراح استقوا ماءً فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر. فقال: ادفعها إليه. فلما دفعت إليه نظر له الآخر. فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا، ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين) [٣].

وهذا هو مجتمع الإيثار الذي لم يشهد التاريخ مثيلًا له. فقد كان جيلًا رائدًا لم يصل شأوه أحد.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٩).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧/٤/١٠).
(٣) المصدر نفسه (٧/٤/١١).

٩٦ - عبقرية التخطيط العالمية العسكرية في مواجهة الرومان:

(كان أقوى ما في الجيش الروماني سلاح الفرسان وهو ثمانون ألفًا، وهذا السلاح أيضًا ناله الفتور... وكان عمرو بن العاص عندما أعاد تنظيم الميمنة التي تمزقت طوابيرها، رجع فأقفل الثغرة التي تركها الرومان مفتوحة نحو دمشق لتكون خطًّا للتموين ومنفذًا للانسحاب إلى دمشق إذا ساءت الحالة بالنسبة لهم. وهنا وعندما لاحظ خالد أن فرسان الروم يبحثون عن مخرج يهربون منه بعد أن يئسوا من النصر، أصدر أمره السريع إلى قائد الميمنة عمرو بن العاص - بفتح الثغرة بين الميمنة والميسرة - ليذهبوا حيث شاؤوا. وسارع عمرو إلى فتح الثغرة، فتدفق عبرها حوالي ثمانين ألف فارس من الروم تاركين الميدان. وتاركين القوات الرومانية الضاربة المشاة دونما حماية، وزادت حالة الروم سوءًا أكثر فأكثر أن ثمانين ألفًا من مشاتهم كانوا مقترنين في السلاسل مما سهل على جند الإسلام إبادتهم عن بكرة أبيهم... لقد سيطرت القوات الإسلامية بعد فرار فرسان الروم على ميدان المعركة، وصاروا يضعون السيف حيث شاؤوا، وصاروا - المقرنون في السلاسل من الروم - يهوي بعضهم ببعض في الواقوصة، حتى أبيد الجميع عن بكرة أبيهم. فكانت هزيمة منكرة لم يشهد الرومان مثلها في تاريخهم، ولم تنج إلا فئة قليلة من المشاة تمكنوا من الهرب، ويقدر الأستاذ بسام العسلي في كتابه « فن الحرب » قتلى الرومان بمائة وعشرين ألفًا وقتلى المسلمين بثلاثة آلاف. وقد اعترفت المصادر الأجنبية بالانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الروم في اليرموك، كما اعترفت بإبادة الجيش البيزنطي ومحوه من الوجود)[1].

٩٧ - وللنساء دورهن، وللمرأة دورها:

(إن النساء قاتلن يوم اليرموك في جولة. فخرجت جويرية بنت أبي سفيان في جولة، وكانت مع زوجها، وأصيبت بعد قتال شديد، وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان، فأخرج السهم من عينه أبو حثمة).

٩٨ - هرقل يتلقى نَبَأَ الهزيمة:

(لما نزلت جيوش المسلمين اليرموك، بعث إليهم المسلمون: إنا نريد كلام أميركم

---

(١) حروب الإسلام في الشام، مقتطفات (ص ٢٠٢ - ٢٢٠).

وملاقاته، فدعونا نأته ونكلمه، فأبلغوه فأذن لهم، فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان كالرسول. والحارث بن هشام وضرار بن الأزور، وأبو جندل بن سهيل، ومع أخي الملك يومئذ ثلاثون رواقًا في عسكره، وثلاثون سرادقًا كلها من ديباج، فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها، وقالوا: لا نستحل الحرير فابرز لنا. فبرز إلى فرش ممهدة وبلغ ذلك هرقل. فقال: هذا أول الذل، أما الشام فلا شام، وويل للروم من المولود المشؤوم).

... وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون مدينة حمص، فارتحل، فجعل حمص بينه وبينهم... وبمجرد علم الملك هرقل بتدمير المسلمين لجيشه في اليرموك، اتخذ القرار الحاسم بمغادرة الشام إلى القسطنطينية. وغادرها فعلًا مودعًا الشام بتلك الكلمة التاريخية: وداعًا يا سورية وداعًا لا لقاء بعده.

٩٩ - القائد العام يعلن نبأ عزله في أعراس النصر، مقالة مؤرخي العالم في ذلك:

(يقول ديورانت: وبينما كان خالد يقود جيشه إلى النصر في هذه المعركة، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر ويأمره عمر الخليفة الجديد فيها أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة، وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين، حتى انتهت المعركة... ثم يقول: ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة ملؤها الشهامة وما هو أجمل من الشهامة. فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط، وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد في شؤون الحرب، ويعارض قسوته بعد النصر) (١).

أما (ولز) في كتابه « تاريخ الإنسانية » فيقول: (والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك من ألمع ما خلد تاريخ العالم. فقد أصبحت بلاد العرب على الفجأة بستانًا من رجال ممتازين، يبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء، فحيثما حل خالد قائدًا لجيش انتصر، ولما أن خلعته غيرة الخليفة ظلمًا منه (وهذا غير صحيح) لم يحدث أي ضجة، بل خدم الله في سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيرًا عليهم... وكانوا في كل مكان يخيرون الناس أشياء ثلاثة. فإما أن تدفع

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت (ج ١٢).

الجزية، وإما أن تسلم للَّه بالحق وتنضم إلينا، وإما أن تُقاتل) [١].

١٠٠ - حياة ويوميات خليفة:

(لما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال يعنى الجزاء، فالمال لأمين الأمة، وقال عمر: أنا أكفيك القضاء فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان).

(جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول اللَّه ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فواللَّه لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا. ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: « **لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين** »، فاستشرف له أصحاب رسول اللَّه ﷺ. فقال: « **قم يا أبا عبيدة بن الجراح** ». فلما قام قال رسول اللَّه ﷺ: « **هذا أمين هذه الأمة** ») [٢].

والطريف في الأمر وفي عافية هذه الأمة.

(جعل أبو بكر عمر قاضيًا في خلافته، فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد)، وهذا من معالم هذه الخلافة الراشدة التي لا مثيل لها في التاريخ.

جمعه بين التجارة والخلافة:

(قال أبو جعفر: وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرًا، وكان منزله بالسنح ثم تحول إلى المدينة. فحدثني الحارث... وأخبرنا محمد بن عبد اللَّه عن الزهري عن عروة عن عائشة... فدخل حديث بعضهم ببعض قالوا: قالت عائشة:

(كان منزل أبي بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة... من بني الحارث ابن الخزرج:

* **قصره:** (وكان قد حُجِّر عليه حجرة من سَعَف [٣] فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله في المدينة...).

* **سياراته:** (فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر. يغدو على رجليه إلى المدينة وربما ركب على فرس له).

* **أثوابه ولباسه:** (وعليه إزار ورداء ممشق).

---

(١) تاريخ الإنسانية، ولز (٣/٦٤٥).

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، ح (٣٧٤٥).

(٣) السعف: جذوع النخل.

* **قصره في المدينة:** (فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح).

* **عطلته الرسمية:** (فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. قال: فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لقدر الجمعة، فيجمِّع بالناس).

* **عمله خارج دوامه الرسمي:** (وكان رجلًا تاجرًا، فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع).

- **العمل الثاني:** (وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كفُيها فرُعيت له).

- **العمل الثالث:** (وكان يحلب للحي أغنامهم. فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا. فسمعها أبو بكر فقال: بلى؛ لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم).

- **العمل الرابع:** (فربما قال للجارية من الحي: يا جارية، أتحبين أن أرعى لك أو أصرِّح [1]؟ فربما قالت: ارع. وربما قالت: صرح. فأي ذلك قالته فعل فمكث كذلك في السنح ستة أشهر) [2].

المطالبة بالراتب والامتناع من الأعمال الإضافية:

(ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره فقال:

لا واللَّه، ما تصلح أمور الناس التجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيالي مما يصلحهم. فترك التجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يومًا بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم).

رفضه للراتب عند وفاته:

(فلما حضرت الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من

---

(١) أصرح: أحلب.

(٢) سند الرواية: محمد بن عبد اللَّه: لا بأس به. الزهري: ثقة، عروة: ثقة، مع أسانيد أخرى، تاريخ الطبري (٣٥٤/٢).

هذا المال شيئًا، وإنَّ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم؛ فدُفع ذلك إلى عمر).

إحصاء ممتلكاته وثرواته التي حصلها من الخلافة واسترجاعها:

(فَدُفِعَ ذلك إلى عمر، ولقوحًا [١] وعبدًا صيقلًا [٢]، وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم).

الخليفة النموذج في التاريخ:

(فقال عمر: لقد أتعب من بعده) [٣].

(وروى ابن سعد وابن المنذر بإسناد صحيح عن مسروق عن عائشة قالت:

لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ماذا في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة بعدي. قالت: فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقي بستانًا له. فبعثنا بهما إلى عمر فقال: رحمة الله على أبي بكر، لقد أتعب من بعده) [٤].

فاروق الأمة وأمين الأمة يحددان راتبه:

(روى ابن سعد بإسناد مرسل رجاله ثقات قال:

لما استخلف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق على رأسه أثواب يتجر بها، فلقيه عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح. فقالا: كيف تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين؟

قال: فمن أين أطعم عيالي؟

قالوا: نفرض لك.

ففرضوا له كل يوم شطر شاة).

الشورى عنده:

(أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم وإن علمه من

---

(١) لقوحك ناقة غزيرة اللبن.

(٢) صيقلًا: كان يصقل السيوف.

(٣) تاريخ الطبري (٣٥٢/٢).

(٤) فتح الباري شرح البخاري (٣٥٦/٤).

سنَّة رسول اللَّه ﷺ قضى به. وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنَّة. فإن أعياه ذلك دعا **رؤوس** المسلمين **وعلماءهم** واستشارهم).

١٠١ - الخليفة الجديد: ترشيح وانتخاب:

(وعقد أبو بكر في مرضه التي توفي فيها لعمر بن الخطاب عقد الخلافة من بعده... فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: لما نزل بأبي بكر ﷺ الوفاة دعا عبد الرحمن بن عوف. فقال: أخبرني عن عمر؟ قال: يا خليفة رسول اللَّه، هو واللَّهِ أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيرًا مما هو عليه. ويا أبا محمد، قد رَمَقْتُه، فرأيتُني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة فيه، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا. قال: نعم.

ثم دعا عثمان بن عفان. فقال: يا أبا عبد اللَّه، أخبرني عن عمر. قال: أنت أخبر به. فقال أبو بكر: عليَّ ذلك يا أبا عبد اللَّه. قال: اللَّهمَّ علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله. قال أبو بكر ﷺ: رحمك اللَّه يا أبا عبد اللَّه، لا تذكر مما ذكرت لك شيئًا. قال: أفعل. فقال له أبو بكر: لو تركتُه ما عدوتك، ولا أدري لعلي تاركه، والخيرة له أن لا يلي من أموركم شيئًا، ولوددت أني كنت خِلوًا من أموركم، وأني كنت فيمن مضى من سلفكم؛ يا أبا عبد اللَّه، لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر، ولا مما دعوتك له شيئًا).

(... وعن أبي السفر قال: أشرف أبو بكر على الناس من كنيفه، وأسماء بنت عميس ممسكته موشومة اليدين وهو يقول: أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني واللَّه ما ألوت من جهد الرأي، ولا ولّيت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا).

(وعن أسماء بنت عميس قالت: دخل طلحة بن عبيد اللَّه على أبي بكر. فقال: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيّتِك. فقال أبو بكر (وكان مضطجعًا): أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة:

أباللَّه تفرقني... أو باللَّه تخوفني إذا لقيت اللَّه فساءلني قلت له:

استخلفت على أهلك خير أهلك) [1].

وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر.

وأنفس شهادة عندنا في هذا الصدد، شهادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(فقد أخرج البخاري عن محمد بن الحنفية، قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان. قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين) [2].

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) فتح الباري (٧/٢٤).

المَرَاجِع

١ - السنن الكبرى، البيهقي.

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، المعروف بابن الأثير.

٣ - الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني.

٤ - أطلس أبي بكر الصديق، د. سامي بن عبد اللّه المغلوث.

٥ - أطلس الفتوحات الإسلامية، أحمد عادل كمال، دار السلام، القاهرة.

٦ - الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي القرشي الأصفهاني.

٧ - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

٨ - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي.

٩ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان ابن قَايْماز الذهبي.

١٠ - تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ (تاريخ الطبري)، محمد بن جرير الطبري.

١١ - التربية الجماعية للمؤلف.

١٢ - تفسير الطبري، المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الآملي الطبري.

١٣ - جمهرة أنساب العرب، أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي.

١٤ - جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري.

١٥ - حروب الإسلام في الشام، محمد أحمد باشميل.

١٦ - الدعوة في حياة الصديق، دكتور يسري محمد هاني.

١٧ - الرحيق المختوم، المباركفوري.

١٨ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد صلى اللّه عليه وسلم، محمد بن يوسف الصالحي الشامي.

١٩ - سنن ابن ماجه، أبو عبد اللّه محمد بن يزيد(ابن ماجه) القزويني.

٢٠ - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني.

٢١ - سنن الترمذي ،أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي.

٢٢ - السيرة النبوية، ابن إسحاق.

٢٣ - السيرة النبوية الصحيحة، إبراهيم العلي.

٢٤ - السيرة النبوية، ابن هشام.

٢٥ - شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي.

٢٦ - صحيح البخارى، أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخاري وأسماه « الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول اللّه وسننه وأيامه ».

٢٧ - صحيح السيرة النبوية أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني.

٢٨ - صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري.

٢٩ - صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي.

٣٠ - الطبقات الكبرى لابن سعد.

٣١ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني الشافعي.

٣٢ - فتوح البلدان، أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر البلاذري.

٣٣ - فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل الشيباني.

٣٤ - فن الحرب في الإسلام، بسام العسلي.

٣٥ - قادة فتح الجزيرة، محمود شيت خطاب.

٣٦ - قصة الحضارة، ول ديورانت.

٣٧ - الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير.

٣٨ - المستدرك على الصحيحين، أبو عبد اللّٰه الحاكم محمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن حمدويه بن نُعيم ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري.

٣٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد اللّٰه أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني.

٤٠ - المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني.

٤١ - معاوية بن أبي سفيان، للمؤلف.

٤٢ - معجم البلدان، أبو عبد اللّٰه شهاب الدين ياقوت بن عبد اللّٰه الحموي الرومي البغدادي.

٤٣ - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.

٤٤ - المغازي، أبو عبد اللّٰه محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني الواقدي.

* * *
* *
*

فِهْرِسُ ٱلمجَلَّدِ ٱلأَوَّلُ

الفصل الخامس عشر
معركة اليرموك ٣٧٥

الفصل السادس عشر
الصديق وختام المسيرة ٤١١

* * *
* *
*

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلْمُؤَلِّفِ

* د. منير محمد الغضبان.

* الميلاد: ولد سنة (١٩٤٢م) في التل، دمشق، سوريا.

المؤهلات العلمية:

١ - إجازة في الشريعة، جامعة دمشق (١٩٦٧م).

٢ - دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق (١٩٦٨م).

٣ - ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة (١٩٧٢م).

٤ - دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان (١٩٩٧م).

٥ - حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية عام (٢٠٠٠م).

من المؤهلات الوظيفية:

١ - داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة) (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).

٢ - باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).

٣ - باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

السجل الفكري والعلمي:

١ - مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.

٢ - مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنات في الرياض (أصول التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).

٣ - تأليف الكتب الإسلامية والفكرية في المجالات التالية:

أ - السيرة النبوية.　　ب - التاريخ الإسلامي.

جـ - المرأة.　　د - الفكر الإسلامي والمُعادِي.

هـ - التربية الإسلامية.

المؤلفات المطبوعة:

(أ) في السيرة النبوية:

١ - المنهج الحركي للسيرة النبوية.

٢ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (أحد عشر مجلدًا).

- التربية الجهادية (٣ مجلدات).　　- التربية القيادية (٤ مجلدات).
- التربية الجماعية (٢ مجلد).　　- التربية السياسية (٢ مجلد).

٣ - المنهج الإعلامي للسيرة النبوية (الشعر في عهد النبوة).

٤ - فقه السيرة النبوية (وهو مقرر مادة السيرة النبوية في جامعة أم القرى والعديد من الجامعات العربية والإسلامية).

٥ - التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية، تقريب وتهذيب.

٦ - التربية السياسية للطفل المسلم.

٧ - فقه التمكين في السيرة النبوية.

٨ - أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية.

٩ - الأخوات المؤمنات (وقد قررته الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية كتابًا مساعدًا لمدة سبع سنوات لطالبات المرحلة الثانوية).

١٠ - كتاب الأربعين في سيرة سيد المرسلين.

١١ - محمد ﷺ (بالاشتراك مع آخرين).

(ب) في التاريخ الإسلامي:

١٢ - معاوية بن أبي سفيان.

١٣ - أبو ذرٍّ الغفاري.

١٤ - المسيرة الإسلامية للتاريخ.

١٥ - عمرو بن العاص (الأمير المجاهد).

١٦ - المغيرة بن شعبة (السياسي المجاهد).

١٧ - هند بنت عتبة.

١٨ - شباب في العهد النبوي.

١٩ - شباب في العهد الراشدي.

٢٠ - جولات نقدية في كتاب الخلافات السياسية بين الصحابة.

(جـ) فكر إسلامي ومُعَادٍ:

٢١ - الحركات القومية في ميزان الإسلام.

٢٢ - سورية في قرن.

٢٣ - سيد قطب ضد العنف.

٢٤ - إليكَ أيها الفتى المسلم.

٢٥ - إليكِ أيتها الفتاة المسلمة.

٢٦ - كشف المستور: أفكاري التي أحيا من أجلها.

٢٧ - التحالف السياسي في الإسلام.

٢٨ - نحن والغرب على ضوء السنن الربانية (العراق وأمريكا نموذجًا).

(د) في التربية الإسلامية:

٢٩ - من معين التربية الإسلامية.

٣٠ - طرق تدريس المواد الدينية (للصف الثاني بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).

٣١ - طرق تدريس المواد الدينية واللغة العربية (للصف الثالث بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).

٣٢ - الحقوق المائة للمرأة المسلمة.

٣٣ - الحوار: شريعةً وواقعًا وتاريخًا.

تابعوا معنا باقي مجلدات:

المسيرة الإسلامية

جيل الخلافة الراشدة

* المجلد الأول : أبو بكر الصديق رضي الله عنه

• المجلد الثاني : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

اليرموك والقادسية : المعركتان اللتان غيرتا وجه التاريخ

• المجلد الثالث : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الفتوحات الإسلامية الموسعة

• المجلد الرابع : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الانسياح الإسلامي في الأرض

• المجلد الخامس : عثمان بن عفان رضي الله عنه

• المجلد السادس : علي بن أبي طالب رضي الله عنه

رقم الإيداع

٢٠١٤ / ١٧٢٣

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 717 - 208 - 0